

89
Z
v.

1917

1917

1. 12.

~~1. 12.~~

8

11

11

852
Z39
V.1

مجموع رسائل
الزيات

احمد حسن الزيات

892.7409
Z391 WA
V. 1

وعى المرسل

فصول في الأدب والفكر والسياسة والاجتماع

المجلد الأول - الطبعة الأولى

الثنى ٢٥

58656

مطبعة الرسالة

١٣٥٨ - ١٩٤٠

17/11/11

17/11/11



Handwritten signature in blue ink, possibly reading 'M. J. C.' or similar.

Handwritten text in blue ink, possibly a date or reference number, appearing to be '17/11/11'.

Handwritten text in blue ink, possibly a name or title, appearing to be 'M. J. C.'.



الى رومك اللطيفة العذبة باولدى ربهاء أقدم هذا الكتاب .
فلولاك ما أنشأت الرسالة ، ولولا الرسالة ما أنشأت هذه الفصول .
والدك الحزين إلى يوم يلقاك
أحمد بن الزيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قارئ العزيز

اخترت لك هذه الفصول مما كتبت للرسالة في ست سنين . وكان من عادتي أن أكتب الفصل منها في أصيل السبت من كل أسبوع . ثم لا أكتبه طوعاً لتأثير قراءة أو تحرير فكرة أو تخمير رأى ؛ إنما كان أثراً لوحى ساعته أو حديث يومه أو صدى أسبوعه . فالزمن جزء منه متم لمعناه : يبين ملابسته للحادث ، ويعين مناسبته في التاريخ . لذلك أعقت كل فصل بذكر اليوم الذي كتب فيه ليتضح موضوعه بفعله وحاله وظرفه

رجعتُ النظر في هذه الفصول ساعة هياتها للطبع فلم أجد فيها ما أنكره ؛ لأنها ، وإن كتبت عفواً لخاطر ومجارة المناسبة ، تتسم بالصدق . والصدق في الفن جوهر بلاغته وسر دوامه . وهو في البيان وضع اللفظ في موضعه ، ووصف الشيء بصفته ، ومطابقة الكلام لمقامه . وأكذب ما يكون البيان إذا ترادف لفظ ولفظ ، وتشابه معنى ومعنى . وتناقض رأى ورأى ، وتعارض وجه ووجه . ولعلك لا تجد فيما تقرأ من هذه المقالات لفظاً يجافيه المعنى ، ولا معنى يجانبه الحق وأسلوب الكتاب الإيجاز . والإيجاز ملاك الأناة والفطنة . فإذا قرأته قراءة العجلان ، لا تظفر منه إلا بقبسة العجلان . والله أدعو أن يجعل انتفاعك بقراءته ، كفاء ما بذلت من الجهد والإخلاص في كتابته

محمد الزباني

القاهرة في أول يناير سنة ١٩٤٠

فهرس

صفحة

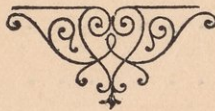
١	في الجمال	✓
١٤	في الربيع	✓
١٧	في العيد	✓
٢٠	في المرأة	✓
٢٣	ساعة مع الأستاذ لطفي السيد	
٣١	ذكرى المولد (١)	
٣٥	بين النيل والأكربول	
٣٩	على الشاطئ	✓
٤٤	لماذا ترجمت آلام فتر؟	
٤٧	الملك الشهيد	
٥١	فرعونيون وعرب	✓
٥٥	القرية أمس واليوم	✓
٥٩	حديقة	
٦٣	نهضة الشباب	✓
٦٧	حباج ودوس	
٧٠	فلسطين	✓
٧٤	رمضان	
٧٨	لطيفة النادي	
٨١	في الأقصر	✓
٩٥	زمنم	✓
٩٩	شهرنا الخالد	
١٠٢	عيد الأضحى	✓
١٠٦	كاظم باشا الحسيني	✓
١٠٨	في الحال الحاضرة	✓

١١٢		العام الهجرى (١)
١١٥		يوم الجمعة
١١٨		قطع العقدة أسهل من حلها
١٢١		الامتيازات والأدب
١٢٤		تأمل ساعة
١٢٧		الامتيازات والدين (ممد)
١٣١		ذكرى المولد (٢)
١٣٤		فى الموقف الأدبى الحاضر
١٣٨		أحمد زكي باشا
١٤٢		بين السياسة والأدب
١٤٦		على الشاطئ الغريق
١٥٠		يا هادى الطريق جرت
١٥٣		داء الوظيفة
١٥٧		عهد وأى عهد
١٦٠		دار تبلى
١٦٣		إلى القرية يا بك
١٦٦		الراديو والشاعر
١٦٩		أسبوع حافل
١٧٣		الحج
١٧٧		الثقافة المذبذبة
١٨١		الملك على
١٨٥		الأزهر بين الماضى والحاضر
١٨٩		مصر وأخواتها
١٩٣		إلى أين يساق الأتراك
١٩٦		الفردية علتنا الأصيلية
١٩٩		على ذكر كتاب
٢٠٢		العام الهجرى (٢)

٢٠٥	جميعية نهضة القرى	✓
٢٠٩	أعياد الحياة والحرية	+
٢١٣	بنك مصر	
٢١٩	إلى بعض الكبراء	
٢٢٢	ذكرى المولد (٣)	
٢٢٦	صيف الأديب	
٢٢٩	مثل من الشباب الصالح	
٢٣٢	كلكم حواريون فمن يهوذا ؟	
٢٣٦	الشيخ محمد عبده	✗
٢٤٣	محمد حافظ إبراهيم	✗
٢٥٠	مصر والشرق الاسلامى	
٢٥٣	سعد باشا زغلول	✗
٢٦٠	أحمد شوقي	✗
٢٦٤	١٧ رمضان	
٢٦٧	أبو الطيب المتنبي	###
٢٧٣	من أحاديث النيروز	✗
٢٧٧	ملك وشاعر	###
٢٨١	تاريخ يثور	###
٢٨٤	شباب العراق فى مصر	
٢٨٨	ولدى	
٢٩٢	محمد الوالد	
٢٩٦	الملك العالم فؤاد الأول	○
٢٩٩	صاحب الجلالة فاروق الأول (١)	○
٣٠٢	النقد المزيف	
٣٠٦	أروغ أيام سعد	
٣٠٩	إلى صاحب السعادة المحافظ	
٣١٣	الحلقة	

٣١٧	بعد المعاهدة
٣٢١	استقلال اللغة
٢٢٤	بين سلطان و سلطان #
٣٢٧	ذكرى ميلاد
٣٣١	الدفاع المقدس X
٣٣٤	لو كنا نقرأ
٣٣٨	جميل صديقي الزهاوي X
٣٤٨	العام الهجرى (٣)
٣٥١	منطق الواقع
٣٥٥	حول الديمقراطية
٣٥٩	الطربوش والقبعة
٣٦٣	أدب السندوتش X
٣٦٧	مصطفى لطفى المنفلوطى X
٣٧٣	صاحب الجلالة فاروق الأول (٢)
٣٧٦	أسبوع التاج
٣٧٩	أي زمان هذا ؟
٣٨٢	الحريف فى الريف
٣٨٦	محمد فريد X
٣٩٠	الصيام بين عهدين
٣٩٤	ثورة على الأخلاق ###
٣٩٨	رجل سعيد
٤٠٢	الزواج المسمى السعيد
٤٠٦	من مشاهد المهرجان
٤١٠	من أحاديث العيد
٤١٣	فى حفلة أدبية
٤١٧	سارة للأستاذ العقاد
٤٢١	العام الهجرى (٤)

٤٢٤		كلمة في أوانها	
٤٢٧		شم النسيم	
٤٣١		معالي مصطفى عبد الرازق بك	✓
٤٣٤		مصطفى صادق الرافعي	✓
٤٤٠		ليالى الحصاد	###
٤٤٣		بين العرب والفرس	
٤٤٦		من الذكريات الجميلة	##
٤٥٠		يا لله فلسطين !	###
٤٥٣		أسبوع محوم	
٤٥٦		شيطان	##
٤٥٩		الغازي أتابورك	
٤٦٣		ليت للأوقاف عينا !	✓
٤٦٧		بل ليت للأوقاف قلباً !	✓
٤٧٠		يا إنسان ! أين الاحسان ؟	##
٤٧٣		تنظيم الاحسان	
٤٧٧		فتون وجنون	✓



في الجمال

— ١ —

ما هو الجميل ؟ الجميل في إجماع الناس هو ما ينشئ في ذهن فكرة سامية عن الشيء في الطبيعة أو عن الموضوع في الفن فيبعث في نفسك عاطفة الإعجاب به . ولكن ما هي على التحديد الصفات التي تبعث اللذة وتثير الإعجاب في بدائع الفن أو في روائع الطبيعة ؟ ذلك ما نحاول شرحه في شيء من الإفاضة الطبيعة والفن إنما يحدثان أثرهما في النفس إما بالفكرة وإما بالعاطفة وإما بالشعور الصادر عن آلات الحس ؛ ومن ذلك تنوع الجمال فكان عقلياً وأدبياً ومادياً ما في ذلك شك . ففي أي الجهات إذن تتعرف النفس والعاطفة والحواس وجوه الجمال ؟ إن الخصائص المميزة للجمال هي القوة ، والوفرة ، والذكاء . والمراد بالقوة شدة العمل وحدته ، وبالوفرة كثرة الوسائل وخصوبتها ، وبالذكاء الطريقة الرشيدة المفيدة لتطبيق هذه الوسائل . ولا جدال في أن الحواس ليست كلها أهلاً لنقل هذه الخصائص الجمالية الثلاث ، وإنما ينفرد منها السمع والبصر بنقل أحاسيسها نقلاً قوياً يثير الدهش والإعجاب واللذة . أما الانفعال الذي يأتيك عن طريق الشم والذوق واللمس ، فلا ينشأ عنه فكرة ولا عاطفة ؛ لأن الطعوم والروائح ، والملوسة والخشونة ، والصلابة واللدونة ، والحرارة والبرودة ، أحاسيس بسيطة عقيمة ، قد توقظ في النفس ذكرى خافية أو عاطفة غافية ،

(١) الوفرة : مصدر وفر الشيء إذا كثر واتسع وتم وكل

ولكنها لا تنتج واحدة منهما . وإذا كان البصر آلة الجمال الحسى أو المادى ،
والسمع آلة الجمال العقلى والخلقى ، فإن فى هاتين الحاستين الدليل على خصائص
الجمال الثلاث . ذلك لأن أجمل ما يؤثر فى العين والأذن هو ما بلغ من القوة
والوفرة والذكاء أسمى غاية . وجمال الأشياء إنما يتفاضل فيهما بمقدار ما يشتمل
عليه من هذه العناصر ؛ وكلما غاب عنصر منها أو قل ، ضعف فينا الشعور بالجمال
على نسبته . ما الذى يجعل لعملى النفس وهما الفكر والإرادة هذه الصفة التى تملك
اللب فى العبقريّة والفضيلة ؟ لا شئ غير القوة والوفرة والذكاء ، سواء أ كان
ما تُعجب به براعة الصنع أم مهارة الصانع . إن الطيّبة فى ذاتها فضيلة ؛ ولكنها
لا تكون جميلة إلا إذا اقترنت بالقوة . فسقراط فى الحكماء ، وعمر فى الخلفاء ،
مثلان سائران فى جمال الخلق ؛ ولكنك إذا جردت أخلاقهما مما ينبئ عن القوة
وخواصها من الصدق والصبر والشجاعة والسمو ، ذهب الجمال وبقيت الطيبة .
إذا صنعت المعروف فى صديقك وعدوك كان الفعل كريماً فى الحالين ؛ ولكنه
فى الصديق عادى لأنه بسيط سهل ، وفى العدو ممتاز لأنه عظيم شاق ؛ وفى هذه
القوة التى تقتضيها تلك المشقة كان جماله . إن وفاء السموءل بدروع امرئ القيس
فضيلة ؛ ولكن اقترانه بالقوة على توضيحته بآبائه جعله آية فى جمال الوفاء . وإن تنفيذ
بروتوس^(١) عقوبة الموت فى أحد المجرمين عادة مألوفة ؛ ولكن تنفيذه إياها
فى بنيه الذين ائتمروا برومة مثل نادر لجمال البطولة . وموقف هكطور^(٢)
مع أندروماك ، وموقف أسماء بنت أبى بكر مع ابن الزبير ، لا يقلان جمالاً
عن ذينك الموقفين . وسر الجمال فى كل ذلك إنما هو تلك القوة الخارقة فى تغليب
فكرة الواجب على عاطفة البنوة

(١) بروتوس امبراطور رومانى حكم من سنة ٢٧٦ إلى سنة ٢٨٢ (٢) موقف هكطور
مع زوجته أندروماك وهى تخزله عن الحرب ليعيش لولده ، من المواقف البليغة المؤثرة فى الذاكرة

كذلك الحال فى أعمال الذهن . فحل معضلة فى الهندسة ، وكشف عظيم فى الطبيعة ، واختراع عجيب فى الميكانيكا ، ونظام محكم الوضع فى التشريع ، وقطعة قوية التفكير والتصوير فى الأدب ، كلها أعمال جميلة لأنها تستلزم نصيباً موفوراً من الذكاء ، وقوة عظيمة فى التفكير . وشعور المرء بالجمال فيها موقوف على إدراك القوة التى تقتضيه . فالعالمى أمام الأحرف الهجائية ، والتلميذ أمام منطق أرسطو ، لا يجدان فيهما من الجمال ما يجده الفيلسوف ، لأنه يدرك ما اقتضياه وتضمناه من الذكاء والقوة

أما فى البلاغة والشعر فأبين خصائص الجمال الذكاء والوفرة . فتزاحم العواطف ، وتكاثر الصور ، وتوافر الأفكار ، ثم اتساع الخواطر بالذهن النير الذى يحييها ويقويها ويستولدها ، وغزارة اللغة وخصوبتها وقدرتها على أن تعبر عن العلاقات الجديدة للحياة ، أو على أن تفيض من الحرارة والقوة على الحركات المختلفة للنفس ، كل أولئك يملأ شعاب القلب بالإعجاب ؛ وذلك الإعجاب الذى نحسه هو عاطفة الجمال

وشأن الجمال فى المادة لا يختلف عن شأنه فى الفكر والعاطفة . فإنك إذا رحت تبحث فى الطبيعة عن الصفة العامة للجمال لم تجدها غير القوة أو الوفرة أو الذكاء . وفى الحيوان تجد هذه الصفات الثلاث مجتمعة ومتفرقة : فى جمال الأسد القوة ، وفى جمال الطاووس الوفرة ، وفى جمال الإنسان الذكاء . ولا أقصد ذكاء الإنسان فى نفسه ، إنما أقصد ذكاء الطبيعة^(١) فى تهيئته وتنقيفه . وذكاء

(١) نريد بالطبيعة ما يقابل الفن . والفن صنع الانسان ، كما أن الطبيعة صنع الله

الطبيعة معناه مطابقة طرائقها لصورها ، وملاءمة وسائلها لغاياتها . فغايتها من الرجل غير غايتها من المرأة ، ولذلك اختلفت الوسائل في الزوجين ، وتباين مقياس الجمال في الجنسين . أرادت الطبيعة من الرجل أن يعمل ويقاقل ويحمي زوجته ويعول أسرته ، فزودته بما يحقق هذا المراد ويمضي تلك الإرادة : تركيب وثيق محكم تتم ملامحه على السرعة والمهارة والقوة والشجاعة ، وجسم متجاوب الأعضاء متناظر الشكول متوازن الأوضاع يصلح لكل عمل ويقدر على كل حركة ويستقيم على أى صورة ، وسمات من الشهامة والجرأة والحنان والحساسية تفيض من العيون وتنتشر على الوجوه وتحتلج على الشفاه ، وجملة من الصفات الخلقية والجسمية تؤلف في الإنسان مزايا الجمال المذكور ؛ فإذا قلت رجل جميل كان معنى ذلك أن الطبيعة وهى تكوّنه عرفت ما تفعل ، وفعلت ما تريد .

— ٢ —

لعل جمال المرأة أروع مثل للجمال الطبيعي لو تدبرته . وسر الإعجاب فيه هو سر الإعجاب في جمال الرجل : أعنى الذكاء . والذكاء كما قلت إبداع الوسائل الملائمة للغاية ، ثم تطبيق هذه الوسائل على غايتها في نظام دقيق محكم . فأنت لا تستطيع أن تفقه جمال المرأة إلا إذا وقفت على حكمة الله فيها وغرض الطبيعة منها ؛ وأدركت ما بين طبيعة خلقها وعلة وجودها من المواءمة التى تسترق الأفتدة وتدق على أفهام البشر .

فالعلة الغائية لخلق المرأة هى أن تكون زوجة وأما ؛ وسبيلها أن تروق الرجل وتدمت خلقه وترقق طبعه ليسكن إليها ويشبل^(١) عليها بالمعونة والنجدة . وسكون الزوج إلى زوجه تدبير إلهي يقوم عليه بناء المجتمع وبقاء النوع ، لأن المرأة وهى

(١) أشبل عليه : عطف

زوج تحمل أو أم ترضع ، لا تملك لنفسها ولأولادها غذاء ولا حماية ؛ فما دام الولد في حاجة إلى أمه ، فالأم في حاجة إلى أبيه . ولكن غريزة الاستقرار والاستمرار في الرجل ضعيفة ، فلا بد لهذا الوحشى الشريد من صلة أخرى غير صلة الدم تجبسه على زوجه وتعطفه على بنيه . والحب وحده هو الذى يمكن الطبيعة من هذه البُغية . فبفعل الجاذبية سكن النافر ، وبسحر الجمال ثبت العزوف ^(١) وللحب خصيستان قويتان : الرغبة والحشمة . ومن ذلك كان جمال المرأة داعى الرغبة خافض الجناح حي الطبع . والرجل مزهو على المرأة يُدل بحيازته لها ويتعزز بقيامه عليها . فهو يريد « ريحانة لا قهرمانه » ، وحببية لا جليبية ^(٢) . لها سلطان ولكنه رفيق ، وفيها إباء ولكنه رقيق . ومن ثم كان جمالها مزيجاً من الوداعة والعزة ، وخليطاً من الضعف والدلال ، وطباقاً من الهيبة والنبيل

وجمال المرأة يحتفظ بدوامه وسحره ما دامت له روح من العاطفة تشع في نظراتها ، وتنسم في بساتنها ، وتشيع في قسماها ، وتشر أضواءها السحرية على أعصاب الرجل — وهو بطبعه ولوع — فيتمتع بنعمة اختياره ولذة إثاره ، ويجد في الضعف الذى يستسلم ويستكين ، الحب الذى يطول ويحكم

إن شبهة الخداع والتضع تودى بكل شئ . لذلك كان في مخايل الطبيعة التى تحسن وهى تجهل ، وفي سمات الظرف الغرير الذى يتراءى وهو يختفى ، وفي أسرار الهوى المكتوم الذى تفضحه البسمة الحنون من شفة مطبقة ، وتعلنه الومضة الخاطفة من نظرة حيية ؛ وفي دلائل الملامح المعبرة في الوجوه التى تقول

(١) العزوف : المنصرف عن الشئ الزاهد فيه (٢) القهرمانه : الخادم ، والجليبية :

وهي تنصت، وتريد وهي ترفض ، كان في كل أولئك بلاغة الجمال . فإذا أصيب
الحب بالفتور ابْتُلى الجمال بالخرَس

وسلطان المرأة القوى على قلب الرجل إنما يأتيها من ذلك الذكاء المستسرّ
ترعاه معه وفيه على غير علمه . فكان من مزايا جمالها أيضاً أن تلوح هذه البصيرة
الدقيقة على أسرة وجهها ، وتشرق على الأخص في تلك النظرة الوديعَة التي تتغلغل
في طوايا القلب فتنسَخ ظلال الفتور وتبدد ظلام السكّابة وتشعل خمود الحب
ومن خصائص جمال المرأة الاحتفاظ بالقلب الذي تصبّاه وسباه . ووسيلته
أن يطرد السّأم عنه ويجدد الشوق فيه ، فيعير العادة المملة ألوان الجِدّة ، ويقبس
الحياة الرتيبة حرارة التنوع . وذلك هو السرّ العجيب الذي وضعه الله في الجمال
النسوى ، فيتكرر ولا يُمل ، ويستعلن ولا يُفهم ، ويتجدد ولا يتناهى ، ويتنوع
ولا يختلف ، ويتولد ولا يبيد !

إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري
في البحر بما ينفع الناس ؛ وإن في جميع النهر ، وتكوين الجبل ، وتصريف
الريح ، وإثارة البحر ، لجمالاً رائعاً يجري في كل شعور ، ويستولى على كل
قلب ؛ لأنه يعلن القوة الخارقة ؛ والقوة أروع خصائص الجمال وأشدها أخذاً
بمدارك الحس . كذلك تجد في صغار الأشياء مفاتن للجمال الطبيعي تهز النفس
وتصبي المشاعر . فورقة الزهرة ، وجناح الفراشة ، يبعثان في قلبك من الإعجاب
ما يبعثه الطود المتوّج بالثلج ، والمحيط الملفّف بالعاصفة ؛ ولكن خصيصة الجمال
في الزهرة والفراشة هي وفرة الألوان، ونصاعة الأصباغ، وتعدد الصور . وخصيصة
الوفرة أضعف من خصيصة القوة لتأثرها بالذوق وخمودها بالإلف والعادة

ولعل خصيصة الذكاء أخفى الخصائص الجمالية جميعاً ، لأن مرجعها إلى التأمل والفهم ؛ وهذان لا يتيسران في كل وقت ولا لكل أحد . فالبركان والإعصار يروعان القلب بالقوة المجردة ؛ ولكن الجمال إذا قام على خصيصة الذكاء وحده وهى الترتيب والمواءمة والانتظام ، خبا أثره فى الناس إلا إذا كان محسوساً شديداً الغرابة . أليس الواقع أن براعة القدرة وسر الإبداع هما سواء فى العظاية ^(١) والأسد ، وفى القصبة والدوحة ؟ ولكنك تعجب بالأسد والدوحة ولا تكاد تأبه للعظاية والقصبة ، لأن سلطان القوة غالب وسحر العظمة عجيب .

فاجتماع الخصائص الثلاث إذن ضرورى لحصول الجمال الصحيح فى مشاهد الطبيعة وروائع الوجود

— ٣ —

إذا عرفت الجوهر الذى يتحقق به الجمال الطبيعى سهل عليك أن تعرف الجوهر الذى يقوم عليه الجمال الصناعى لأنه إما وحيه وإنما نموذج . فالجمال الصناعى يتعلق بالفكرة التى يوحىها إليك الفن عن الفنان ثم عن الفن نفسه إذا كان ابتكارياً ، وبالفكرة التى يوحىها إليك الفن عن الفن نفسه وعن الفنان ثم عن الطبيعة إذا كان تقليدياً . ولننظر بادئ الأمر فىم تنشأ منه عاطفة الجمال فى الفن الابتكارى كالريازة ^(٢) مثلاً . فى أى بنية من البنايا تجد الوحدة والتنوع والترتيب والتناظر ^(٣) والتناسب والتوافق تؤلف كلاً منتظماً ما فى ذلك شك . ولكنك لا تجد فى ذلك الكل جمالاً إذا لم يكن من العظمة

(١) العظاية دويبة ملساء تشبه سام أرنض (السحلية) . والقصبة كل نبات يكون ساقه أنابيب وكعونا كقصب السكر ، والدوحة الشجرة العظيمة المتسعة من أى نوع . (٢) فن العمارة (٣) السيمترية

أو الوفرة أو الذكاء على درجة تثير في نفسك الإعجاب والدهش . وهل تجد في العارة البسيطة مهما اتسق بناؤها واتفقت أجزاؤها ما تجد في معابد الفراعين من الجمال والجلال والروعة ؟ خذ بنظرك قصراً من قصور القاهرة الحديثة شيد على قدر عادي من العناصر الجمالية الثلاثة ، ثم أطل الوقوف أمامه ما شئت ، تجد الفن فيه نازلاً على حكم القواعد الموضوعية ولكنه عبي صامت لا يحدثك لا عن نفسه ولا عن صانعه . ثم قف تلك الوقفة أمام معبد الكرنك أو هيكل الأقصر أو هرم الجيزة ، تجد نفسك المسبوهة المشدوهة موزعة بين سمو الفن في ذاته وعظمة الفنان في حقيقته . لا جرم أن هذه الأبنية الضخمة الفخمة أقل تناسقاً وتوافقاً من تلك ؛ ولكن القوة التي أقامت هذه الأعمدة ورفعت تلك الصخور ونصبت هذه التماثيل وصنعت تلك المحاريب ؛ والوفرة التي تراها في الشكول المختلفة والصور الناطقة والرسوم الدقيقة والكتابة الرمزية والأصباغ الحية والمادة العجيبة ؛ والذكاء الذي يروعك في ابتكار الوسائل الميكانيكية لنقل هذه الأجرام الهائلة من مناحيتها في الجبل إلى مثابها في الجو لتصارع الفناء الذي لا يفتر وتضارع الدهر الذي لا يبيد ؛ هي التي حققت فيها ذلك الجمال ، وألقت عليها هذه الروعة ، وربطت في ذهنك بين فكرتك عن الصنيع وفكرتك عن الصانع . ولو كانت نسبة الذكاء فيها على مقدار نسبة القوة ، لبلغت ما لم تبلغه نواطح السحاب الأمريكية من الغاية التي ينقطع دونها الدرك !

على أن الجمال الطبيعي قد يقوم في بعض مظاهره على القوة والوفرة دون الذكاء كما ترى في العواصف والبراكين ، ولكن الذكاء إذا أعوز في الفن

الصناعى ذهبت عاطفة الجمال فيه بدداً بين التنافر والغربة ، إذ الطبيعة مجهولة الأسرار محجوبة المقاصد ؛ وقد استراحت عقولنا منذ النشأة إلى أن تلمس لجهاتها العلل ، وتفترض لسفاهتها الحكمة . وليس كذلك الفنان ، فإنه مسئول أمام العقل عن العلة التى أجهد من أجلها قوته ، والغاية التى بدد فى سبيلها ثروته . وحسبه من الذكاء ما ينفى عنه العبث . فإذا تيسرت له عظمة القوة فى ظاهر من النظام كفاه ذلك فى إنشاء الإعجاب واتقاء النقد ، لأن القوة والوفرة هما المصدران الأولان لنشأة الجمال فى الفن

على أن فكرة القوة تختلف اختلافاً شديداً عن فكرة الجهد ؛ فكلما قلت الدلائل على هذه ، كثرت الدلائل على تلك . فالخفة والظرافة والأناقة والسراح من صفات الجمال ، لأنها تظهر من القوة أكثر مما تظهر من الجهد ؛ ولكن إنشاء مقامة من الحروف المعجمة أو الحروف المهملة كما صنع الحريرى ، أو كتابة سورة من القرآن على حبة من الرز كما صنع الخطاط السورى ، عمل لا يحدث فى النفس شعور الجمال لأنه يدل على الجهد أكثر مما يدل على القوة ، ويدعو إلى الرثاء أكثر مما يدعو إلى الدهش . وفى التفصيل المحكم من كلام الله ، وفى السهل الممتنع من كلام الناس ، كل الفروق بين القوة والجهد

كذلك لا يستعجم الفرق بين الوفرة الصناع وبين الزخرف الأخرق . فإن سر الإبداع فى الوفرة أنها تضع اللون فى مظهره ، والحسن فى جوهره ، والمعنى فى لفظه ، والشئ فى مكانه . أما الزخرف الأخرق فسرف لا ينبئ عن غنى ، ورهق لا يسفر عن قدرة ، ولجب لا يبلغك من ورائه نغم ! هو كل ما يملك الصانع من ثروة نثرها أمام عينيك فى غير لباقة ولا تحفظ ، ليخفى بالرياء حقيقة

العجز ، ويدفع بالزور تهمة العوز . وفي فن الحريرى والقاضى الفاضل ومن لف لفهما المثال على ذلك

إن ما قلته فى الريزة ينطبق على الخطابة والموسيقى وسائر الفنون الابتكارية التى تفصح عن قوى كبيرة ووسائل وفيرة . فالخطيب الذى يبلبل الآراء بقوة كلامه ، ويسترق الأهواء بسحر بيانه ، ويملك على الشعب نوازع القلوب فيرسله على رأيه ويصرفه على إرادته ، قد أوتي من القوة فى الفن والعبقرية ما يحمل النفوس على الإعجاب بقدرته والانتقاد لأمره . كذلك الموسيقى الذى يصبى المشاعر بسحر أنغامه ، والشاعر الذى يسبى العقول بقوة أسلوبه وسمو إلهامه ، كلاهما يعلن الجمال فى قوة الفن التى يفرضها ، وفى وفرة الوسائل التى يعرضها ، وفى ذكاء الروح الذى يفيض على عمله النظام والانسجام والمناسبة . والقوة والوفرة هما كذلك روح هذا الجمال وسره . فإذا كان الانفعال الذى ينشئه الصوت أو القصيدة لطيفاً يحدث اللذة ولكنه ضعيف لا يحدث الطرب ، مدحت قريحة الفنان وأطريت عذوبة الفن ؛ ولكن الإطراء شئ آخر غير هتاف الإعجاب الذى يبعثه سمو العبقرية وقوة الإلهام فى روائع الموسيقى وبدائع الشاعر .

— ٤ —

ذلك إجمال القول فى الفن الصناعى المرتجل . أما الفن الصناعى المنقول فالسر فيه أن يبعث فى ذهنك فكرتين : فكرة عن الطبيعة المقلدة ، وفكرة عن الفنان المقلد . قيثايل فدياس^(١) وصور رفائيل^(٢) تجمع بين الجمالين : جمال المثال فى أصله ،

(١) فدياس أشهر المثالين الاغريق فى العهد القديم . ولد بأثينا حوالى عام ٥٠٠ وتوفى عام ٤٣١ ق . م (٢) رفائيل سانزيو أشهر مصورى الرومان القدماء وأقوى عبقرية نبغت فى عصر الاحياء . ولد بأرينو سنة ١٤٨٣ وتوفى سنة ١٥٢٠

وجمال الفن في تقليده . كذلك في وصف مغرب الشمس لابن الرومي نجد الإعجاب الناشئ عن القوة والوفرة والذكاء موزعاً بين الصورة الناطقة التي أبدعتها الطبيعة ، وبين المحاكاة الصادقة التي أخرجتها القرينة .

إن روعة الجمال الطبيعي آتية من ناحية الحرية في الطبيعة . وحرية الطبيعة هي قانونها العام ، لا تقوم عظمتها إلا به ، ولا تتجلى نغمتها إلا فيه . فالغبيعة اللّفاء أجل مظهراً في النفس من الحديقة المنمنمة ، وشلالات النيل أجمل منظراً في العين من النوافير المنظمة ؛ لأن الجمال المطلق يملأ خيالك بالتأمل الحالم ، وذهنك بالتفكير الرفيع ، وشعورك بالطرب الباسط . ومظنة العبودية في الحى أو في الجماد تضيف إليه معنى من الحقارة والقبح يحطه ويشوّهه . ولكن الجمال الصناعى لا بد أن يتقيد بالقواعد ويتحدد بالأصول . فإذا لم يكن الفنان من البراعة بحيث يخفى تلك القيود ويحجب هذه الحدود ويظهر السمة الدالة على الطبع المرسل والإلهام الحر ، همدت في فنه الحياة ، وخبأ في جماله السحر ، وضاعت في عمله الفكرة .

ليس الجمال في الفن المعنوى أو الحسى أن تحاكي الطبيعة محاكاة الصدى ، وتمثلها تمثيل المرأة ، وتنقلها نقل الآلة . تلك هي التبعية التي تنفى الذكاء ، والعبودية التي تسلب القوة . إنما عظمة الفن أن يفوق الطبيعة . وإنما براعة الفنان أن يزيد في ترتيب صورها بالذكاء ، وفي تنويع تفاصيلها بالوفرة ، وفي توجيه مقاصدها بالعظمة ، وفي بيان تعبيرها بالحياة ، وفي سلطان تأثيرها بالقوة ، وفي حتمية وقائعها بالسحر الموهم والوشى الخادع .

أنظر إلى تعاجيب الطبيعة وتهاويل الفلك من العواصف والصواعق

والبراكين ، تجدها في ذاتها جليلة رائعة ، ولكنك تجدها في فن الشعراء والمصورين والمثاليين أجل وأروع . لقد وضعوا فيها شهوات النفوس ، وسلطوا عليها تصادم الأهواء ، وصوروها للأذهان في عالم من الآلهة الكَمَلَة في قواها المختلفة ، تتنافس في العجائب ، وتتصارع بالأهوال ، وتتفانى على اللذة . وسحر الفن الإغريق في صمته وفي نطقه قائم على تجميل الظواهر المروّعة في الطبيعة ، بالنوازع المتضاربة في النفس .

ومن المعلوم في بدائه العقل أن يكون ما يقلده الفنان في الطبيعة حقيقاً بالتقليد حتى يمكن الجمع بين جمال الشيء في أصله ، وبين جماله في نقله . فالمصور الذي يرسم وضعاً من أوضاع الرأس ، أو معنى من معاني الوجه ، أو لوناً من ألوان الحياة ، يكون أسمى في الفن من المصور الذي يتحامل على براعته حتى يصور أرنباً تكاد من دقة التقليد أن تلاحظ وثبته وتعد وبره . والشاعر الذي يصف عاطفة من عواطف القلب ، أو ظاهرة من ظواهر الكون ، يكون أبلغ في فنه من الشاعر الذي يجهد قريحته في وصف حادثة من هتّوات الحوادث لا تقوم في ذاتها على فائدة ولا لذة .

قد يكون الشيء المنقول في حقيقته قبيحاً ؛ ولكن صدق التعبير عنه ودقة التصوير فيه والتماس المنفعة منه تجعل تقليده جميلاً ؛ كالوجه الشميم ^(١) يرسمه المصور المبدع بريشته ، والخلق الذميم يصوره الشاعر المفلق بقلمه . والملمهة المسرحية موضوعها رذائل الناس ونقائص المجتمع ، ولكنها ارتفعت إلى أوج الفن الجميل بتحليلها العميق وتصويرها الدقيق وغايتها النبيلة . كذلك الحوادث المؤلمة

والمناظر المحزنة والمواقف المؤثرة ليس فيها من الجمال شيء ؛ ولكن استبطان الفنان لدخيلة البأس ، وتصويره الفاجعة ماثلة مثول الواقع ، وإعانتة الحقيقة على التأثير بالجل النفاذة والصور الأخاذة والظلال الرهيبة ، يجعل تقليدها من أجمل الأشياء ، ويضع المأساة من الفن موضع الواسطة من العقد .

فأنت ترى أن التقليد لا يثير الإعجاب في نفسك ولا يُشيع اللذة في شعورك إلا باعتماده على الفن . والفن لا يتحقق جماله إلا بالعظمة في عمله ، والسعة في وسائله ، والحكمة في غايته . فإذا قلدت أصوات الطبيعة من غير تأليف ولا تنسيق ولا معنى ، وأقمت شلالاً من الماء والحجر تضارع به شلال أسوان ، وسردت بالكلام الموزون حادثة عادية من حوادث اليوم ، أخطأك الفن وانزوى عنك الجمال ؛ لأنك صغرت الطبيعة وحقرت الواقع وتعلقت بالتافه واستعنت بالمادة من غير قوة ولا ثروة ولا علة . ولو أنك رحت تستقرى مفاتيح الجمال في الطبيعة أو في الفن ، أو في الأثر الذي ينشأ من ائتلاف الطبيعة والفن ، لما وجدت لها في غير ما يعلن القوة والوفرة والذكاء مجتمعة أو متفرقة .

ولعلك واجد ما يدعم هذه الفكرة عن الجمال في قول (شيشرون) : « إن الطبيعة أبدعت الأشياء على صورة تجعل ما يكون منها جَمَّ المنفعة يكون كذلك جليل المكانة موفور الجمال . إن جلاله هذا المعبد نتيجة لازمة لمنفعته . فلو أنك تخيلت (الكابتول)^(١) قائماً في السماء على هام السحب ، لما وجدت له جلالاً في نفسك ما لم يكن قيامه هناك علة لسقوط المطر »

وهل المنفعة التي أرادها شيشرون في صنع الطبيعة وفي نتاج الفن إلا الذكاء الذي أردناه في الجمال وقصدنا به حكمة الغرض وانتظام الخطة ؟

(١) الكابتول : معبد وقلة أقما على هضبة من هضاب روما السبع

فِي الرَّبْعِ

منذ أيام تيمظت الطبيعة من رقادها الطويل ، وأخذت تنضح جفنها الوسنان
بأنداء الربيع ، وتبحث عن حُلُمها وحُلُمها في خزائن الأرض ؛ وتأهب كل حي
ليحتفل بشبابها العائد وجمالها المبعوث . فالحياة الهامدة تنتعش في العصور الذابلة ،
والطيور النازحة تعود إلى الأعشاش المقفرة ، والأفنان^(١) السليبية تتفطر بالأوراق
الغضة ، وبارضُ النبات^(٢) يحوِّك على أديم الثرى أفواف^(٣) الوشي ، والنسيم الفاتر
يروض أجنحته ليحمل إلى الناس رسالة الزهور ، وسر الحياة يستعلن في الأحياء
فتنتشي وتمرح ، وطيوف الهوى تمس القلوب فتهفو وتختلج ، والعالم كله يسبح
في فيض سماوى من الجمال والنشوة والغبطة ! اللهم إلا الإنسان !

فقد حاول بادعائه وكبريائه أن يكون علماً بذاته ، فكان نشوزاً في نعم
الكون ونفوراً في نظام العالم . فلو أنه اقتصد في تصنعه وائتلف كما كان بالطبيعة
لا تتحد الآن مع الربيع فشعر بتدفق الحياة في جسمه ، وإشراق الصفاء في نفسه ،
وانبثاق الحب في قلبه ؛ وأحس أنه هو في وقت واحد زهرة تقوح ، وخضرة
تروق ، وطائر يشدو ، وطلاقة تفيض على ما حولها البشر والبهجة !

لا يكاد يقبل على أوربا الربيع حتى تختلط أناشيد الشعراء وأغاريد البلابل
في تمجيده وإعلانه ، لأنه يفد إليهم فيرد عليهم النور والدفء والزهر والجمال والحركة

(١) الأفنان : العصور . وتفتطرت : انشقت عن الورق (٢) البارض : أول ما يخرج
الأرض من نبت (٣) الأفواف جمع فوف ، وهو نوع من برود الين كانت تشبه به الزهور
في اختلاف ألوانه

أمانحن فلا نكاد نفطن لحلوله ولا لرحيله . لأن العام كله على ضفاف الوادى .
يوم من أيام الربيع : فجره الندى يناير ، وضحاها الزاهر أبريل ، وظهره الساطع
يوليو ، وأصيله الرخى أكتوبر !

فليس للربيع المصرى على سائر الفصول فضل إلا بذلك السر الإلهي الذى
تشقق عنه الأرض فيسرى فى العود ، ويشيع فى الجو ، ويدب فى الأجسام ،
وينشأ عنه هذا البعث الصغير !

ففى الربيع يشتد الشعور بالجمال وبالحاجة إلى التجميل ، فترى الشباب
بجنسيه يستعير ألوان الرياض وعبير الخائل ومرح الطيور ، ويحتشد فى دور
الملاهى وصدور الشوارع ، فيخلع على الوجود وضاءة الحسن ، وعلى الحياة
رونق السعادة !

وأجل شىء فى ربيع القاهرة أصائله وأماسيه !
ففى هذين الوقتين تزدهر شوارع القاهرة الحديثة بزهرات شتى الألوان .
من بنات الإنسان ، فتملأ الجو عطراً والعيون سحراً والقلوب فتنة !

وهناك على أفاريز الطرق ومشارف المقاهى ، تقف أبصار الكهول
والشيوخ حائرة مبهورة تلسع بالنظر الرغبة هذا الحسن المصون ! وبين النظرة
والنظرة عبرة جافة تصعد أسى على شباب ذاهب لا يرجع ، وجمال رائع لا يُنال !

.....

وفى الربيع تنتدح حمية العروبة فى العرب فتسمع اليوم فى فلسطين والشام
أبناء الشعب الخالد ، ووراث المجد التالد ، يصرخون صراخ الأسد فى راقد
العدل أن يستيقظ ، وفى غائب الحق أن يثوب !

وترى في العراق حطام السياسة البالية تكسحه الريح كسحها للهشيم ،
ثم تقوم على هذا الطلل المنسوف حكومة فيها حيوية الربيع ، ولكن ليس
فيها شبابه !

والشباب في العراق كالشباب في مصر منذ سنين : يحاول القائمون على أمره
أن يربوه تربية الدجاج : ينتفق دائراً بين الحب والماء ، ويبحث في الأرض
ليذهل عن السماء ، ويأبى الشباب إلا أن يكون طيراً يحتقر القفص ويفتحم
الجو ويسمو إلى النجاة ! والغد على كل حال يومه !

[أول ابريل سنة ١٩٣٣]



فى العىء

فى ذات مساء اشتء فى الصراع بىن بواكر الربىع وأواخر الشتاء ، ارتفع
من بىن ضجىج القاهرة ولعط النهار الراحل طلقاى ضعىفة من مءفع عىق ...
وئالقت فى شرفاى المآذن الشم مصابىح الكهرباء بغة ... فعلم الناس بمقتضى
الئقالىء ، أن غءاً يوم العىء ... !!

راح قوم يقضون لىلهم بىن وحشة القبور ورهبة الموت فى غىراء كار ولا عىبار
ولا خشىة ! وبأ آخرون ىتعهدون كباش الأضاحى بالعلف ، وىشحنون لصباحها
المءى والسواطىر ... !!

وأصبحت القاهرة ءامىة البىوت ءامىة المطابخ شءىءة الجلبة ؛ وىبوت
الله الئى نزل فىها العىء من السماء ، ئنئظر المؤمنىن للصلاة والءعاء ، فلم ىغشها
إلا فئاء من العمال والبواىىن والءءم !!

أما السّراة والأوساط ، فقد ءرجوا فى هءءام الأمس واهئام الیوم ، ىستقبلون
العىء فى القهواى والءاناى ، بىن لعبة النّرد الصاخبة ، وأءاءىء الءواوىن
المعاءة ! فإذا ئلاقى فى الطرىق صءىقان ، أو ئراءى فى القهوة قرىبان ، ئبءالا
بفتور ءحىة العىء شم مضى كل منهما لشأنه !!

ذلك هو العىء أو ما ىقاربہ فى مصر وفى سائر البلاد العربىة ! فلولا مروح
طافر ىقوم بالأطفال فى هذا الیوم لعطلة المدارس وجدة الملائس وسحر النقوء

وفتنة اللعَب لمرَّ كسائر الأيام حائل اللون تافه الطعم بادی الکآبة !
فليت شعري ماذا حاق بنا من الأحداث والغیر حتى غاضت ينابيع المسرة
في القلوب ، وماتت أحاسيس البهجة في النفوس ، وتحللت أواصر المودة بين
الناس ، وآل أمر العیدین — وهما كل ما بقي في أيدينا من مظاهر الوحدة
الدينية والعزة القومية — إلى هذه الصورة الطامسة والحال البائسة ؟ !
لا نستطيع أن تههم حسرة الحزن على الماضي وذلة الضعف في الحاضر ،
فإن أعياد اليهود وإن فقدت بذلك مظهرها الاجتماعي ، لم تفقد روعة الدين
في الكنيس ومنتعة الأنس في البيت وجمال الذكرى في الخاطر وأعياد إخواننا
في الوطن والجنس والمجد والأسى من نصارى الشرق لا ينقصها الرواء
والإخاء واللذة

كذلك لا نستطيع أن تههم المادية والمدنية ، فإنهما — وإن جنتا على
بعض الأخلاق الكريمة كالإخاء والإخلاص والمروءة والرحمة — لم تجنيا على
نزعات السرور في النفوس ، ولم تقضيا على غرائز اللهو في الطباع ، بل ازداد
الناس بهما في ذلك شراهة وحدة

والأعياد الأجنبية التي تشهدها مصر في ذكرى الميلاد ورأس السنة غاية
في نعيم الروح والجسم ، وآية في سلامة الذوق والطبع ، وفرصة ترى فيها القاهرة
— وهي متفرجة — كيف تفيض الكنائس بالجلال ، وتزخر الفنادق بالجمال ،
وتشرق المنازل بالأنس ، وتمسى الشوارع وبيوت التجارة ودور اللهو مسرحاً
للحسن ومعرضاً للفن ومهبطاً للسرور ؛ وتصبح أعياد القلة القليلة مظهراً للفرح
العام ، ومصدراً للابتهاج المشترك !

وهى من وراء ذلك كله من أقوى العوامل فى توثيق العلاقة بين الله والإنسان بالصدقات ، وبين الأصدقاء والأقارب بالهدايا ، وبين الكبار والصغار باللعب ، وبين الإنسان والإنسان بالمودعة .

إذن ما هى الأسباب الصحيحة التى مسخت حياتنا هذا المسخ ، وشوهت أعيادنا هذا التشويه ، فجعلت أظهر المظاهر فيها خروفاً يذبح ولا يضجى ، ومدافع تساعد المآذن ولا تجاب ، وأياماً كنفها المريض كل ما فيها همود ونوم وأكل ؟ !

الحق أن لذلك أسباباً مختلفة ، ولكنها عند الروية والتأمل ترجع إلى سبب رئيسى واحد : هو غيبة المرأة عن المجتمع الإسلامى . . . ذلك السبب هو علة ما نكبدته من جفاء فى الطبع وجفاف فى العيش وجهومة فى البيت وسامة فى العمل وفوضى فى الاجتماع

كرهنا الدور لاحتجاب المرأة ، وهجرنا الأندية لغياب المرأة ، وسئمنا الملاهى لبعد المرأة ، وأصبحنا كالسمك فى الماء أو الهباء فى الهواء ، نحيا حياة الهيام والتشرد ، فلا نظمئن إلى مجلس ولا نستأنس لحديث !

فإذا لم تصبح المرأة فى البهو عطر المجلس ، وعلى الطعام زهر المائدة ، وفى الندى روح الحديث ، وفى الحفل مجمع الأفئدة ، فهيات أن يكون لنا عيد صحيح ومجتمع مهذب وحياة طيبة وأسرة سعيدة !

في المرأة

كتبنا كلمة عن العيد جاء فيها أن غياب المرأة عن المجتمع الإنساني جر عليه فيما جر الجفاء والجفاف والسامة والقوضى . فوقع هذا القول من الجنسین البارز والمستتر موقع التسليم والرضا . ولكن قليلاً من صالحی الإخوان لا يزالون يرون إقصاء المرأة عن الحياة العامة أمراً من أوامر الدين وقاعدة من قواعد الخلق ، فكتبوا إلينا وإلى بعض الصحف يفندون هذا الرأي بحجج انتزعوها من أحاديث الظنون وهو اجس الخوف ومواضعات العرف .

أما صلاة الحجاب بالدين فقد فرغ من توهينها العلماء من أمد طويل . وشديد على العقل أن يسلم بأن البدويات والقرويات ومعظم الحضريات — ومجموعهن يربى على تسعين في كل مائة من جميع المسلمات — قد تعدين بسفورهن حدود الله منذ ظهر الإسلام ، ولم يأخذ على أيديهن إمام ولا حاكم حتى اليوم !

وأما الاعتقاد بأن احتجاب المرأة هو الضمان الوحيد لحضانتها وعفتها فذلك

إفلاس للتربية وسوء ظن بالدين وإلقاء بالنفس إلى الرذيلة ! !

فلو أن الفتاة وهي صغيرة فتحت عينها على القدوة الحسنة ، وأذنها لصوت الواجب ، وقلبها لنور الله ، لوجدت من روحها القوى وضميرها النقي وزراً من العتنة وعصمة من الغواية

فالتربية الصحيحة إذن هي الضمان الذي لا يضر معه سفور ، ولا ينفع بدونه حجاب ؛ وهي وحدها السبيل المأمونة إلى الغاية التي قصدناها من تلك الكلمة . ولا زلنا نعتقد اعتقاداً لا ظل عليه للريب أن غاية الكمال الاجتماعي أن يكون

الرجل في كفة والمرأة في كفة من ميزان المجتمع . وتلك هي السنة التي فطرنا عليها الله ، والنظام الذي فرضته علينا الطبيعة ، والواجب الذي يتطلبه العدل . أما المجتمع الأعرج الأشل البليد الخشن فغير جدير بالسباق ولا باللاحق في هذا العصر الطموح الطائر . ومجتمعنا بغير المرأة هو ذلك المجتمع : فهو أعرج لأنه يمشي على رجل واحدة ، أشل لأنه يعمل بيد واحدة ، بليد لحرمانه حدة العواطف ، خشن لفقدانه لطافة الأنوثة

لاحظ مجلساً من مجالسنا احتشدت فيه الرجال شباباً وشيباً ، فماذا تجد ؟ تجد الحركات العنيفة ، والأصوات الناشزة ، والمناقشات الفجة ، والأحاديث الجريئة ، والكلمات المذيدة^(١) والذوق العامي ، والإحساس البطيء ؟ !

لاحظ هذا المجلس نفسه وقد حضرته امرأة — امرأة واحدة ليس غير — تجد الحركات تترن ، والأصوات تترق ، والمناقشات تنتج ، والأحاديث تحتشم ، والكلمات تنتقي ، والذوق يسمو ، والإحساس يدق . ذلك لأن الرجل حريص بطبعه على أن يجمُل سمته^(٢) في عين المرأة ، ويحسن صوته في أذن المرأة ، ويسوغ رأيه في عقل المرأة . والأخلاق المكتسبة تبتدى بالتطبع وتنتهي إلى الطبع .

جهل الأولون وظيفة المرأة فلم يعرفوها إلا متاعاً وزينة . لذلك اشتد تنافسهم فيها وتنازعهم عليها واستئثارهم بها حتى ضربوا دونها الحجب ، وأحصوا عليها الأنفاس ، ولبثوا حولها العيون ، فجعلوها بذلك قُنْيَةً لا شريكة ، ومملوكة لا مملِكة . وكان من جريرة ذلك عليها أن وهن جسمها لقلة العمل ، وساء خلقها لفقد الحرية ، وضعف تفكيرها لترك التدبير ، وغفل ضميرها لعدم المسؤولية ؛ فلم تفكر إلا في حلها وحليها ، ومدافعة الضرائر والجوارى عن نصيبها من زوجها ...

لقد كان للأسلاف ولا شك عذر في إقصاء المرأة عن مكانها من المجتمع .

(١) المذيدة : المحجلة (٢) السميت : هيئة أهل الخير

وخير أعدائهم أنهم كانوا ينظرون إلى المرأة نظرهم إلى الكنز الثمين ، وكان من عاداتهم في الكنوز أن يدفنها في الأرض أو يحفظوها في الخزائن . ذلك إلى أن عمرائهم لم يكن من السعة والتعقد بحيث يطلب نشاط الجنسين جميعاً ، فحمل الرجال وحدهم أعباءهم وقالوا :

كتب للموت والقتال علينا وعلى الغايات جر الذبول

أما نحن فبأى عذر نعتذر وعلى أى حجة نعتمد ؟ إن الأمم الراقية التي نعاصرها ونصارعها لم تزل تنظر إلى المرأة نظر الأسلاف إليها ، ولكنها عرفت كيف تحتفظ بالكنوز وتستفيد منها ، فهي تعرضها اليوم في المتاحف أداة علم ومتعة ، وفي المصارف رأس مال وقوة . وعمراننا قد زخر واستبحر حتى اعتدى فيه العمل على الراحة ، والتنافس على العدل ، والقوة على الحق ؛ وتسليح الغربي في جهاد الحياة بقوى الطبيعة في السماء والأرض ، ونحن ما زال نصفنا اللطيف قاعداً عن الإنتاج عاطلاً من العمل .

أنا لا أريد أن ندفع بفتاتنا في أتون الحياة المستعر فتحمل الفأس وترفع المطرقة وتقعّد للبيع وتجلس للحكم ، إنما أريد أن تعطي حريتها الطبيعية في حدود عملها الطبيعي ، وأن تعلم كيف تساهم في شركة الزوجية : فتربي الولد وتدبر البيت وتدير الأسرة وتعديل ميزانية الرجل ، وتشعر أنها تعمل متضامنة مع بنات جنسها وبنى قومها لتكوين أمة متماسكة الأجزاء وثيقة البناء لا ينال من وحدتها شهوة من هوى ولا نزوة من جهل .

ذلك ما قصدنا إليه في تلك الكلمة الموجزة بسطناه اليوم بعض البسط لعل فيه جلاء لما اختلج في بعض النفوس من هذا الموضوع .

ساعة مع الأستاذ لطفى السيد

كانت نسائم الأصيل في مصر الجديدة قد أخذت تنفخ جوها المحرور بالطراوة المنعشة حين غمزنا الجرس مستأذنين على الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد ؛ وكان جوسقه الأنيق غريقاً في سكون فلسفى حالم ، وحديقته البهيجة ترف على جوانبه الأربعة بالجمال والعطر ، فتذهب عن صمته الانقباض ، وعن سكونه الوحشة . وكان كل شيء يقع عليه طرفك في الحديقة والدار يعلن عما وراءه من مزاج حكيم وذوق فنان ونفس شاعرة .

كان الأستاذ على عادته يستريح مع أرسطو في كتابه (الطبيعة) ؛ وهو السفر الثالث الذى يخرج للناس من آثار المعلم الأول . وفي رأيه أنه أجل كتب أرسطو وأدناها على سمو عبقريته وسر نبوغه . لقينا في البهو لقاء ذوى البيوتات الكريمة والأبهاء القديمة ، فسلم فى أريحية ، وحيا فى هشاشة . ثم خيرنا بين مجلس الدار ومجلس الحديقة ، فاخترنا هذا . وجلس ثلاثتنا على كراسى قصيرة القواعد وثيرة المقاعد حول منضدة مستديرة فوقها مظلة صيفية على طراز ما يستعمله المصطفون على شواطئ البحار وفى فنادق الجبال . وجلس الأستاذ الحكيم قبالتنا على كرسي له ظلة كالعلبة المستطيلة تقى الجالس فيها وهج الشمس . أما كلبه الضخم الجميل فقد ذهب يتهادى فى الماشى المزهرة ، ومن حين إلى حين كان يعود ليداعب السامرين على قدر ما يفهم من الدعابة ...

أخذ الأستاذ يطارحنا الحديث على نحو ما كان يتحدث إلى تلاميذه

صديقه أرسطو زعيم المشائين في مماشيه المظلة ، بصوته النقي العذب ، وجرسه العربي الواضح ، وأدائه المتشد الموزون ، ولهجته (الشرقاوية) التي ينثرها عمداً في خلال الحديث فتكسبه ظرفاً ورقة . ولطفي بك مسامر حلو النعمة ، فكاه اللسان ، متفنن الحديث ، متخير اللفظ . فلورحت تكتب ما يقول لكان قريب الشبه مما تكتب . وبراعة الحديث صفة امتازت بها طبقة التي تأثر بها وأثر فيها من أمثال محمد عبده ، وسعد زغلول ، والهللأوى . فأنت في حضرتهم لا تستهوى الكلام لأن لذتك في أن تسمع ، ولا تثير الجدال لأن همك في أن تستفيد . ومجلس لطفي بك يصدق الصورة التي رسمتها له في ذهنك قبل أن تلقاه من شهرته المستفيضة وأعماله المنشورة : فبديته حاضرة وفكره نفاذ وبيانه أخذ وإطلاعه شامل ومنطقه مستقيم . وهو يتوخى في حديثه الإفادة واللذة ، فسامعه لا ينفك راضى العقل ريان العاطفة . . .

وقصارى ما تقوله فيه أنه خلاصة الجيل الماضي بأسره ، وتطبيق صحيح لمدرسة الأفغانى وعصره . وأوضح مظهر لهذا التطبيق كان في نزعة السياسية وطريقته الكتابية . ففي (الجريدة) نهج للناس سياسة مصرية خالصة لا تتصل بالدعوة العثمانية ولا بالجامعة الإسلامية ، وفي (الجريدة) ابتكر للكتاب أسلوباً لفظه قدر لعناه ، ووصفه طبق على موصوفه ، وسيله قصد إلى غايته . فكان مذهباً جديداً جرى عليه الصحفيون إلى اليوم . وأصدق الأمثلة عليه أسلوب الأستاذ صاحب (البلاغ)

ولطفي بك بارع في سلسلة الحديث سريع إلى اقتناص المناسبة ؛ فلا تخشى على الحديث في مجلسه أن يبوخ ، ولا على الصموت في محضره أن يُخرج .

قال حينما استقر بنا الجلوس يعيد التحية ويفتح السمر :

أنا أقرأ ما تكتبونه في (الرسالة) بشوق ولذة . . . ويسرني أن الكتابة في مصر قد بلغت من الكمال الفني حد الإعجاب . فأصبحت للألفاظ دلالتها الدقيقة ، وللأوصاف بيانها المقصود . أما الكتابة في (أيامنا) فكانت بالتقريب ؛ فمعاني الكاتب تقريبية ، وألفاظها الدالة عليها تقريبية ، والأثر الذي تتركه في نفس القارئ — إن كان — مبهم أو تقريبي . فقال له أحدنا :

— ولكن سواد القراء يقرأون اليوم بالتقريب .

— طبعي ! فالكاتب أيام كان يكتب بالتقريب كان القارئ لا يقرأ ، وإذا قرأ لا يفهم . فلما ارتقى الكاتب إلى التدقيق ارتقى القارئ إلى التقريب . ولقد تصرف كتاب العصر في فنون الكتابة فعالجوا بها شتى الأغراض في براعة وحذق . ولذلك لا أوافق الدكتور طه على جعله النثر لسان العقل والشعر لسان العاطفة ، فإن من النثر ما يكون شعراً .

ثم تشاجن الحديث وتشقق بعضه من بعض ، فتناول المويلحيين والخضري وشوقي وأبا النصر والأفغاني والطويل ، حتى أدى إلى علاقته بالشيخ محمد عبده فقال :
— تخرجت في مدرسة الحقوق وأنا في الثانية والعشرين من عمري فرغبت الأسرة في زواجي ، وأوغز أبي إلى أمي أن تكلمني في ذلك فأبيت . ولم يشأ والدي أن يفاوضني بنفسه في ذلك الأمر ، فلجأ إلى الشيخ عبده ، وكانت المعرفة قد اتصلت بينهما بسببي ؛ فدعاني الشيخ إلى داره . . .

— لقد كان حسناً من الإمام أن يجمع قلوب الشباب حوله ويتدخل بالنصح في أمورهم الخاصة .

— لم يكن الأمر في التعميم والإطلاق على ما فهمت . فقد كان الشيخ في علاقته بالناس على انتباض وتحفظ . والشباب أنفسهم هم الذين سعوا إليه والتفوا حواليه ، لأنه كان بطبعه رجل ثورة ، ولأن اتصاله بصالون نازلى هانم ومصطفى فهمي وكرومر أو هن أسبابه بالقصر وأيس ما بينه وبين الخديو ، ولأنه كان يدعو إلى الإصلاح والتجديد ، ولأنه كان ينتدب في كل عام لامتحان طلاب الحقوق المنتهين . وقد اتصلت به معرفتى بسبب ذلك الامتحان نفسه ...

— ششت !!

فكف الكلب المطيع عن النباح وكان ينبح شيئاً أو شخصاً خارج السور

Viens ici. —

فجاء الكلب الوديع حتى دنا من سيده

Couches toi. —

فاتنبت الكلب مكاناً قريباً ونام

ثم عاد الأستاذ إلى حديثه يقول : اقترحوا علينا في امتحان الإنشاء أن نكتب في هذا الموضوع :

كيف كان للحكومة حق عقاب المجرم ؟ وجعلوا زمن الإجابة أربع ساعات على ما أظن . فكتبت المذاهب الأربعة التي قررها العلماء في هذه المسألة ثم عقيت عليها فقندتها ونفيت أن يكون للحكومة على أى شكل من أشكالها (حق) عقاب المجرم ، لأنها قائمة على القوة لا على الحق . وأسرفت في التدليل على ذلك حتى ملأت الكراسة . ثم خرجت فذكرت لرفاقى ما أجبته به فاضطربوا واكتأبوا

وقرروا جميعاً أنى لا محالة راسب . ثم اشد من جانبهم اللوم والتفريع حتى ذهب من نفسى كل أمل فى النجاح . فلما كان يوم الامتحان الشفهى وقف الشيخ فقرظ موضوعى وكان قد وضع الدرجة النهائية ، ولكنه نصح لى أن أقتصد الآن فى هذه الآراء إشفاقاً على . وكم للشباب من شطط فى الآراء !

زرت الشيخ بعد ذلك في جهة شارع الشيخ عبد الله نائباً عن فريق
من الطلبة ألتمس منه أن يقرأ لنا درساً في التفسير بمسجد الفتح على مقربة
من مدرسة الحقوق . فأجاب الملتمس ، وانضم إلينا طلبة من دار العلوم فكنا
بين الثلاثين والأربعين . وهناك قويت الصلة بيني وبين الشيخ حتى بلغت
حد الألفه

وفي سنة ١٨٩٧ سافرت في الشتاء إلى جنيف لغرض سياسي ، فاتهرزت هذه الفرصة وانتسبت إلى جامعتها في دروس في الأدب والفلسفة أقامتها في الصيف خاصة للحاصلين على درجة علمية . واتفق أن جاء الشيخ وسعد بك زغول وقاسم بك أمين مصطفىين . وكان المرحوم قاسم بك يشتغل في كتاب تحرير المرأة وكان يقرأ لنا غالباً بعد الظهر في كتاب L'intelligence للفيلسوف الفرنسي (تين) . ومن العجيب أننا كلما التوى علينا فهم عبارة كان الشيخ وهو أقلنا علماً باللغة الفرنسية يحاول لنا غامضها

سافر سعد باشا وقاسم بك وبقى الشيخ عبده فانتسب معي إلى دروس
الأدب وأقبل عليها بجد ومثابرة ، وأذكر أن أستاذ الأدب كان قد قرر علينا
فيما قرر رواية (روى بلاس) لفكتور هوجو نقرأه وندرسه ثم نناقشه وننقده
في الدرس أمامه . فلما جاء يوم المناقشة أدلى كل طالب برأيه ، والأستاذ يعقب

على الآراء فيخطئ ويصوب ويصحح حتى نخرج آخر الأمر بطائفة صالحة من الآراء الصائبة . وخرج الشيخ شديد الإعجاب بما رأى وسمع وقال : هكذا يكون التعليم ! نحن في بلدنا لا نعلم . واعتزم أن يدخل هذه الطريقة في الأزهر .

كان مراحنا ومعدانا قبل الدرس وبعده إلى حلوانية تجاه الكلية تدعى (إكسلين) ، ويأبى الشيخ رحمه الله إلا أن يدعوها (إخصلين) على الرغم من وسامتها الظاهرة . وكان زيه وعمامته قيد الأبصار وموضع التساؤل ومستجر الحديث في كل مكان نحله . وهنا ذكر الأستاذ بعض الطرف التي تدل على ظرف الشيخ ولطف روحه ورقة شمائله ثم قال : ... وكان من عادتنا أن المتقدم منا ينتظر المتأخر عند هذه الحلوانية حتى نذهب إلى الدرس معاً . ففي ذات يوم جئت قبله فانتظرتة ثم انتظرتة حتى مضى الوقت الذي كان يصل فيه عادة إذا تأخر . وكانت الجامعة قد استقدمت أحد العلماء الطبيعيين ليحاضر في استحضار الأرواح ، والدخول عام والزحام لا بد شديد . فلما أزف موعد المحاضرة ولم يبق إلا دقائق قلت للفتاة : إذا جاء الشيخ فأخبريه أنى انتظرتة إلى قبيل المحاضرة . ثم مضيت فدخلت مدرج المحاضرات من بابه الأعلى وأخذت مجلسي بين الحضور . ولشد ما كانت دهشتي حين وثبت إلى عيني عمامة الشيخ جالساً في الصفوف الأمامية بين سيدتين جميلتين ، يميل على هذه مرة وعلى تلك أخرى ! فداخلى من أمر الإمام ما لم أكن أعهد . ثم خيل إلى أن الزمن يبطئ والدرس يثقل ، لأن رغبتى كانت تلح في الوقوف على جليلة الخبر . فلما انتهت المحاضرة أسرع في النزول إليه وفي عيني دهشة وعلى وجهي تعجب وبين شفتى كلام ! وتبين الشيخ ذلك في هيئتي من بعيد ، فصاح قبل أن أحده :

— تعال يا لطفى أقدمك إلى البرنيس !

وقدمنى إلى الأميرتين نازلى وخديجة ! وكان ذلك أول معرفتى بالأميرتين

المصريتين فدعنا إلى الشاى فى الفندق الفخم الذى تنزلانه

وفى سنة ١٨٩٨ رغب الشيخ أن يقضى معى أياماً بالبلد . فما علم بمقدمه رجال

الإدارة والقضاء بالمنصورة حتى توافدوا إلى لقائه ، وفيهم المرحوم حشمت باشا .

وحفل المجلس بالناس على اختلافهم ودار الحديث . فقال الشيخ فيما قال إن السيد

جمال الدين كان يقول : إذا أردت أن تحكم على أخلاق أمة فاجلس فى قهوة

من قهوات الفقراء ، فما انطبع فى نفسك من الانفعالات فاحكم به على هذه

الأمة من غير تحرج . فأخذت أنقض هذا الحكم وأفنده ، والشيخ يدافع عنه

ويؤيده . فاستحييت أن ألب فى معارضة الشيخ فى المجلس فأمسكت .

وفى العصر ركبنا جوادين وخرجنا نرتاض فى المزارع والحقول فعدت

إلى ذلك الموضوع . فقال الشيخ : لا أدرى لماذا لا تصدق هذا ؟ أليست قهوة

الفقراء تجمع الفقير الذى سيبقى فقيراً ، والفقير الذى سيصير غنياً ، والغنى الذى

صار فقيراً ؟

وفى سنة ١٩٠٥ أذكر أن الشيخ كان قادماً من الوجه القبلى وأظنه كان

فى السودان ، فنزل عندي بالمنيا وكنت يومئذ نائباً بها . وحضر للسلام عليه رجال

القضاء الأهلى والشرعى ووجوه البلد . فلما احتشد المجلس بالجمع قال أحد العلماء

من رجال المحكمة الشرعية : إن كثيراً من النصارى يدخلون فى الإسلام فتضاعف

بذلك شغلنا . فقال له الإمام : فيم تشتغل أيها الشيخ ؟ فقال : نعلمهم أركان

الدين ! فقال له : يكفي أن تقول له : صل وصم وزك وحج . فقال : ولا بد أن نعلمه

الوضوء . فقال : قل له اغسل وجهك ويديك إلى مرفقيك ، وامسح رأسك
واغسل رجليك . فقال : ذلك لا يكفي ، ولا بد أن نعلمه حدود الوجه من أين
يبتدىء ، وإلى أين ينتهى ! فقال الشيخ بصوته الجهير فى شىء من الحدة : سبحان
الله ياسى الشيخ ! قل له يغسل وجهه ! كل إنسان يعرف حدود وجهه من غير
حاجة إلى مساح !

وهنا استأذنا الأستاذ الجليل فى الانصراف على نية العودة إليه من حين
إلى حين فنستزید من طرائف هذه الأحاديث . . .



ذِكْرِي الْمَوْلِدُ

فى مثل هذا الأسبوع من مثل هذا الشهر لسنة ثلاث وخمسين قبل الهجرة أعلن الله كلمته من جديد ، فى استهلال هذا العربى الوليد ! !

وكانت قافلة الحياة يومئذ جائرة^(١) السبيل حائرة الدليل خائرة العزيمة ، والعالم الإنسانى يكابد فى هيكله المنحلّ عوامل البلى من وثنية توبق^(٢) الروح ، وجاهلية توثق العقل ، ومادية ترهق الجسد ؛ وكانت الولاية على الدنيا فى ذلك الحين لأعقاب من الروم شفهم^(٣) الفسوق والترف ، وأخلاف من الفرس هدهم الغلول^(٤) والطمع ، والناس عدا هؤلاء وأولئك أوزاع وهمج ... اللهم إلا شعباً نبيل الفطرة اعتصم بالصحرَاء من هذا الفساد الشامل ، فما عبث بضميره سلطان ، ولا عدا على خلقه طاغية ... نشأته الطبيعة على سجاياها المرسلّة ، وراضته على نظمها المحتومة ، وصفاه « الانتخاب الطبيعى » بالغزو المتلاحق والدفاع المتصل ، فأودى بضعيفه ، وأبقى على قويه ، حتى لم يدم على أديم الجزيرة إلا سيف صارم وفرس جواد ودارع بطل ! ثم ننخل من هذه الصفوة الباقية فى القرن السادس أمة وسطا تحمل فى قوة الحيوية وكمال الرجولة وصفاء الحس المثل الأعلى للإنسان الأعلى (سوبرمان) .

تلك هى الأمة العربية التى اختارها الله لقيادة شعوبه الخائرة ، واختار منها محمداً لتبليغ رسالته الأخيرة ...

(١) الجائر : المائل عن القصد (٢) توبق : تهلك (٣) شفه : هزله وأوهنه

(٤) الغلول : الحيانة

بين إيوان كسرى وبلاط القيصر اهتز مهد العربى اليتيم فى أرض مكة !
فتصدع لهرته الإيوان ، وتطامن لهيبته القصر ! وكأنما هتف بالعاقلين العظمين
من جانب الغيب هاتف : « اليوم ينتهى تاريخ وابتدى تاريخ ! ليس بعد
اليوم ملك ولا كاهن ولا سيد ! إنما العبادة لله ، والقيادة للرسول ، والسيادة
للدين ، والحكومة للعرب ، والدنيا للجميع ! »

وبين عرش القيصر وعرش كسرى انتصب منبر النبى الكريم فى سماء
« المدينة » . فتضاءل لجلاله عرش ، وتقوض لدعائه عرش ! ثم انبثق نوره
القدسى فى مجاهل البدو ومعالم الحضرة ، كما يتسهم الأمل فى قطوب اليأس ، وتومض
المنارة فى ظلام المحيط !

هنالك ظهرت الوحداية على الوثنية ، والغيرية على الأنانية ، والإنسانية
على العصبية ، والإسلام على الجاهلية . ثم عرف الإنسان قدر الإنسان ، وأدركت
النفوس جمال الإحسان ، ووجدت قافلة الحياة طريقها القاصد !^(١)

كان العالم يقاسى حين ولد محمد بن عبد الله تفكك الخلق ، وتحلل الرجولة ،
وضياع المثل الأعلى ، فكان أكمل ما فى حياة (الأمين) هذه الصفات النوادر :
خلق عظيم شهد به الله ، ورجولة كاملة خضع لها الناس ، ودين يجمع إلى سعادة
الدنيا وسعادة الآخرة ؛ ورسالات الرسل إنما تعالج بظهورها الفساد الذى استشرى
فى العالم ، والداء الذى استفحل فى الناس . فإذا كانت معجزة الرسول فى القرآن
فإن مجده فى الخلق وفوزه بالرجولة . والشعوب المختلفة التى صهرتها شخصية

(١) الطريق القاصد المستوى خلاف الجائر

العرب ، وطبعتها ثقافة العرب ، لم تصل إلى الإخاء والوحدة إلا على منهاجه وهديه !

ظهر رسول الله والعرب أشتات من غير جامع ، وهمل من غير رابط ، وأحياء من غير غرض . فاضت في نفوسهم الحياة وزخرت في صدورهم القوة ، فصرفوا هذا النشاط العجيب إلى نزاع لا ينقطع وصراع لا يفتر . فحمل إليهم وحده رسالة الله لا يسنده سلطان ، ولا يؤيده جيش ، ولا يمهده مال ، فنفروا منها نفور الوحش المروع ! ثم رأوا فيها سيادةً لأسرة ، وخضوعاً لقانون ، وخروجاً على عرف ، فقابلوها بالعناد ، وعارضوها بالحجاج ، ودافعوها بالسكيد . آذوا الرسول في أهله وفي صحبه وفي نفسه ، فما وهن غزوه ولا لانت قناته . وإنما قابل الأذى بالصبر ، والسفه بالحلم ، والفظاظة بالركة ، وهذا هو الخلق . ثم قارع الجدال بالتحدى ، والمكابرة بالسيف ، وهذه هي الرجولة . وبذلك الخلق وهذه الرجولة انتصر محمد وحده على العرب ! وبذلك الخلق وهذه الرجولة انتصر العرب بعده على العالم !

فلينظر اليوم شعب محمد وأتباع محمد ماذا في نفوسهم من دينه ، وفي أخلاقهم من خلقه ، وفي أيديهم من تراثه ؟ فإن وجدوا أن دينهم أصبح رسماً محيلاً في نفوس الخاصة ، وأثراً مشوهاً ضئيلاً في نفوس العامة ؛ وأن أخلاقهم فقدوها يوم فقدوا الحرية ، وأضاعوها يوم أضاعوا الملك ؛ وأن تراثهم أصبح نهباً مقسماً بين شذاذ الشعوب وذوئان الأمم ، فليفتقوا من القوم ، وليخففوا عن القدر اللوم ، فإن الله لا يظلم الناس مثقال ذرة ! ومن عاند طبيعة الحياة فقتل في نفسه الطموح ، وفي فكره

التجدد ، وفي عمله الابتكار ، ورضى أن يكون في الدنيا كالآثر في المتحف .
يدل على ملك باد وشعب انقرض ، كان يسيرا عليه أن يدع دينه للبشرين ووطنه
للمستعمرين ، ثم يقعد مقعد الخولاف يتحسر على المجد المفقود ، ويتعلل بالأمانى
الكواذب !!

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسرار الأوهام وطغيان
الحكام وسلطان القوة وتحكم الجهالة . فما أجدر النفوس الذاكرة الحرة على
اختلاف منازعها أن تخشع إجلالاً لذكرى رسول التوحيد والوحدة ، ونبي
الحرية والديمقراطية ، وداعية السلام والوئام والمحبة !! وما أخلق الزعماء الذين
يحاولون اليوم توحيد العرب من جديد ، أن يتخذوا منهاجه سبيلاً إلى هذا العمل
المجيد . . . !

[أول ديسمبر سنة ١٩٣٣]



بين النيل والأكربول

رحلت إلى بعض بلاد الغرب وإلى بعض أمم الشرق فلم أجد شعباً كهذا
الشعب هان وجوده على نفسه ، وانطمس تاريخه في ذهنه ، فأعطى الضيم عن
يد وهو صابر !

أسرف في اللين حتى رُمي بالجبن ، وأمعن في التسامح حتى وُصف بالبلادة ،
وأفرط في التواضع حتى نسي الأنفة ، وبالع في إكرام الغريب حتى أصبح
هو الغريب !!

فليت شعري يا ابن العرب أو يا سليل الفراعين من أين داهمتك هذه
الذلة؟! نسب يزعم النجوم، وحسب يطول الدهر، وماض كالشمس نفذ إلى كل
أرض وسطع في كل أفق؛ ووادٍ كرفرف الخلد زخر بالغنى وفاض بالنعيم !
فكيف لا يرفع رأسك هذا النسب ، ولا ينصب صدرك هذا الماضي ؟!

مالك تمشي في أرضك خافت الصوت ، خافض الجناح ، ضارع الجنب ،
كأن النيل يجري لغيرك ، وكأنما الآثار تتحدث إلى سواك ؟!

لقد أصبحت في بلدك المنكود تحيا حياة الجسم كما يحيا الأجير والخدام ؛
أما حياة الروح التي ينبض فيها القلب بعزة القومية و صلف الوطنية ، فقد أمتاها
فيك الوباء الوافد من كل مكان !

إن إخوانك في سورية لا يحبون الغريب إلا صيفاً ؛ وإن إخوانك في العراق
لا يكرمون الأجنبي إلا صيفاً ؛ أما الدود الذي يمتص الدم ويُقذّي العيون ويُغثي

النفوس فلا يجد مغذاه ومرواه إلا على النيل ! وليت الذى قاسمنا أنعم الوادى
الجيب يذكرك فضيلة الإحسان ، ويشكر عطف الإنسان على الإنسان ! إنما يتمتع
بخيرنا تمتع الغازى الفاتح ؛ فى يمينه سيفه ، وفى يسراه قانونه ؛ فإذا عاملناه احتقرنا ،
وإذا عاتبناه اتهرنا ، وإذا ضج المغبون أو صاح المسروق أو صرخ الجائع ، ضربه
(الخواجة) ضربته ، ثم استعدى عليه دولته !

فى أى بلد من بلاد العالم اليوم يأتى محام أجنبى ليدافع عن مجرم من جنسه
أجرم على هذا البلد ، فيجد له قضاء فى قلب قضاء هذا البلد ، وقانوناً بجانب قانون
هذا البلد ، وقوة فوق قوة هذا البلد ، ثم يقوم بين يدي قضاة من جنسه فيقول
فى بلاغة ديمستين وحاسة من ، لا أدرى :

« أظهروا أيها السادة أنكم قضاة تنشقون هواء الأ كروبول^(١) ، وأنكم
لا تخوضون فى ماء النيل العكر » .

معك الحق كله يا متر بابا كوس ! لقد تركت أثينا فى اليونان ثم عبرت البحر
فوجدت أثينا فى مصر ! فالفنادق للروم ، والمطاعم للروم ، والمقاهى للروم ، والمواخير
للروم ، ودور السينما للروم ، وقاضيك من الروم ، وجانيك من الروم ، وبقالك
من الروم ، وحلاقك من الروم ، وخادمك من الروم ! وإذا طلبت الماء ، أو أردت
الكهرباء ، أو ركبت الترام ، أو دخلت البنك ، أو قصدت المتجر ، وجدت
كل ذلك فى أيدي أقوام سخنتهم غير مصرية ، ولغتهم غير عربية ! فإذا سألت
(مخالى) عن المصريين قال لك : إنهم أجراء عند (خريمى) فى المزرعة ، أو سكارى
عند (ينى) فى البار !

(١) الأ كروبول قلعة أثينا القديمة ، وقد بنيت على صخرة علوها ١٥٠ قدماً وعلى ذروتها
قامت الهياكل والمعابد .

معك الحق كله يا مترابا كوس أن تهين شعباً يسمع إهانته في كل يوم
وفي كل مكان فيغضى ثم يمضى ! وأى إهانة آلم وأشنع من (الامتيازات) وهي
طعن في إنسانيته وقدح في كفايته وتجريح لعدله ! ولكن الحق يبرأ منك
حين تقول وأنت وريث أرسطو ومِدرُهُ أثينا إنك لم تقصد بهذه الجملة إهانة مصر ،
وإنما هي : « عبارة من عبارات البلاغة التي يستعملها المتكلم عادة » فلسنا من
البلاهة بحيث يخذعنا عن جد الجريمة هزل الاعتذار !

رحم الله أستاذنا الشيخ المهدي ! لقد كان يرى الرجل المتمدن يرمى الرجل
المتمدن بالكلمة العوراء^(١) يندى لها جبينه ويغلي منها دمه ، فما هو إلا أن يقول
الشاتم المتمدن للمشتوم المتمدن : (سحبها) حتى يحرق عرق الجبين ، وكيف
غليان الدم ! فيقول الأستاذ بلهجته العربية :

« عجيب ! كلمة قيلت كيف تُسحب ! ولطمة أصابت كيف تُسترد ؟! »

لا نريد من شبابنا أن يدفعوا البغى بالبغى ، وإنما نريد منهم أن يفهموا
الواغليين أن كدّر النيل ليس من أهله ، وأن الطريق الذي يسقى عليه الغبار
والأقذار هو الطريق الذي فتحه لهم الاقتصاد المستعمر ، فإذا ملكناه ونظفناه
عادت إلى نيلنا نقاوته ، وإلى شعبنا كرامته .

ليس على الأجنبي من حرج أن يزاحمك في بلدك ، فإنما جهاد الدنيا
زحمة ليس فيها رحمة ؛ وهو حين ينافسك ينافسك في حدود الطبيعة . ولكن
الحرج كله عليك إذا ظلت تشتري وهو يبيع ، وتغرم وهو يغرم !
نضر الله وجوه الشباب العاملين ! لقد أخذوا يَجْلُون عن وجه مصر الجميل

(١) الكلمة العوراء ما تنفيها الأذن

غبرة القرون وذلة الأحداث وإهانة الدخيل ! نزلوا ميدان الاقتصاد جنوداً متطوعين وعمالاً متواضعين ، فعرفوا أين تكون المعركة الفاصلة بين الاستعباد والحرية ، وبين الاستعمار والحق ؛ وشقوا الطريق القاصد إلى إنقاذ مصر من احتلال دولي شديد الخطر قبيح الأثر لاتكائه على العدل واعتماده على القانون .

إن (عيد الوطن الاقتصادي) و (مشروع القرى) و (تعاون الشباب) و (تعاون الطلبة) و (جماعة تمصير مصر) وشركات الدخان والألبان والإعلان والجزارة والمقاهى ... فتح مبين في جهاد مصر الفتاة ؛ وإن تحلَّ الشباب المثقفين من ربة التقاليد وإسار العرف فلا يرون غضاضة في أن يقيموا المشارب والقهوات في مولد النبي ومولد الحسين يكونون فيها الطهاة والنباعة والفُدُل والمديرين ، هو تحلل الحاضر الطموح الناهض ، من قيود الماضي القنوع العاجز . وليس على أولئك الشيوخ الذين مكثوا بجمودهم وقعودهم للأجنبي فطغى بيده وبغى بلسانه ، إلا أن يظفروا معهم هذه الصفحة الخزية من تاريخ مصر ، ويتركوا الشباب يحدد ما بلى ، ويدعم ما وهى ، ويسدُّ ما خلَّ .

إن شطط المبشرين قد انقلب إلى تبشير بالإسلام ودعاية إلى المؤسسات الخيرية ، فهل تنقلب سفاهة (الممتازين) إلى إعزاز القومية المصرية وتحقيق الأمانى الوطنية ؟

[١٥ أغسطس سنة ١٩٣٣]



على الشاطئ

الشاطئ شاطئ استأنلى ! واليوم يوم الأحد ! والطرق الجميلة الصاعدة إلى هذا الخليج البهيج تصب فيه أنماطاً من الناس ، في أنماط من اللباس ، وكلهم في سن أهل الجنة ! وكنت في هذا التيار الحار المتدفق كأنى السمكة الغريبة تفقد الاختيار وتخشى كل شيء !

هبطت مع الهابطين إلى هذا الشاطئ على سلم من سلالمه ؛ ثم أرسلت فيه عيني فإذا هو مستدير على صدر الماء ، استدارة الهلال البازغ على صدر السماء ؛ وإذا النجوم الزواهر من الإنس تختلج في قلب هذا الهلال اختلاج العواطف الرقيقة ، تتماس في رفق ، ثم تنفرج في سهولة !

أخذت أخطو ويبدأ بين العذارى المتجردات على استحياء وارتيابك ! فلما لم أجد فيهن حتى من تتقى النظر باليد ، كما فعلت « متجردة النابغة » حين سقط نصيفها ولم ترد إسقاطه ، أرسلت نفسي على طبيعتها في هذا الحمى المباح ، وذكرت الأستاذ الثعالبي وهو يقول لي بالأمس في لهجة جازعة : « إذهب بربك إلى (استأنلى) ثم صف ما تراه » .

هاتان عيناي يا صديقي مفتوحتين ، وهاتان أذناي مرهفتين ، فماذا أرى وماذا أسمع ؟ ؟

جواسق « أكشاك » أنيقة الصنع والوضع ، تدرجت طبقاتها الثلاث على خضن

الشاطئ ومظلات شتى الألوان قد ركزت هنا وهناك في منحدر الساحل ، وجمع حاشد عارٍ كسوق الرقيق في ألف ليلة وليلة قد بعثر أمام الأكشاك وتحت المظلات فوق الرمال وبين المياه ... وصراع لذيذ عنيف بين أفواج البر وأمواج البحر ، تتخلله صيحات وضحكات كرنين الفضة المصفاة ، وأحاديث كهمس الأوتار تطير من بين الشفاه البواسم ، كما تطير أنفاس الصبي الحالم ، ولكنها لا تصعد إلى حيث يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح ! وبيئة أجنبية ناسها غير ناسنا ، وإحساسها غير إحساسنا ، ولغتها لغة فرنسا لا لغة مصر ، وسمرتها سمرة الشمس ، لا سمرة الجنس ... !

فعلام إذن هذا الجزع الباكي ، والقوم إنما يجرون على أعراقهم ، ويعملون على مقتضى أخلاقهم ، وبين فتياتنا وفتياتهم من العرف الإسلامي حجاب ، ومن الحياء الطبيعي وازع ؟

كنت ألقى على نفسي هذا السؤال حين جرجر البحر إحدى موجاته الضخام إلى أعلى الساحل ، فجريت إلى فوق ألقى هذا المد المفاجئ ، فإذا بي واقف إزاء ظلة جميلة منعزلة قد انبطحت تحتها فتاة ناهد لم تقع العين منذ الصباح على أكمل منها صورة ! وكان ذعر السائرين من هجمة البحر قد لفتها لتنظر ؛ فلما وقع بصرها على نهضة نهضة الظبي الفزع تحي بالعربية أستاذها القديم !
— أوه ! فلانة ؟

— نعم ! ويسرنى أن أراك بعد خمس سنين

— هل أنت وحدك هنا ؟

— كلا . بل معي أخى ... وقد أتعبه صراع الأمواج الثائرة فذهب

إلى (الكاين) .

— وكيف حال البك ؟

— الحمد لله حاله خير حال ! وما أكثر سؤاله عنك وأشد شوقه إليك ! لقد

كان جالساً بالكازينو ثم انصرف إلى البيت منذ قليل .

قالت ذلك تلميذتي الأرستقراطية المسامة وهي تنصب كرسيّاً طويلاً من القماش دعنتي إلى الجلوس عليه . ثم جلست هي على كرسي آخر وكانت كأما حواء لا يستر جسمها العارى إلا « ورقتان » خصفتها عليه من أمام ومن خلف . فسرعان ما ذكرت ذلك المكتب الفخم الذي كانت تجلس قبالي عليه لتستعد لامتحان البكالوريا وهي ملففة بثوبها الأزرق الأنيق المسبل ، وعيناها الساجيتان لا تفارقان الصفحة حياء وخفرا ، وتغرها الحيّ الدقيق لا يرسل سهل الكلام إلا في تلعم وبطاء !

لم تدعني الأنسة في ذكرى إلا ريثما ردت التحية على فتاة في مثل حالها وجمالها كانت تسير في رقعة شاب شديد السمرة ، غطى كتفيه شعر كثيف كصوف الخروف .

— هذه ابنة فلان وهذا الذي معها أخوها . وهذه ابنة فلان وهذا ابن عمها .

وهذه المضطجعة في الشمس بنت فلان ومحادثها صديق من أصدقاء أخيها . . .

— لولا علمك يا آنسة لحسبت هؤلاء جميعاً أجنب !

— وما الذي يحملك على هذا الحسبان ؟

— هيف القد واكتناز اللحم واتساع الحرية .

— ذلك من أثر الرقص والرياضة . ستكتب ولا شك عن استائلي شيئاً

في الرسالة !

— وهل قرأت ما كتب عنه ؟

— قرأته ولم أسغه ، لأنه شديد المبالغة سطحى النظر . وأى بأس فى أن تمتع

المصرية جسمها كله بأشعة الشمس وماء البحر كالغريبة ؟

— لا بأس . وأظنها تدرك ذلك كله فى شاطئ خاص وفى لباس مناسب

— إن شمس الشواطئ كما تعلم إنما تُقصد لخصائص أشعتها . وكلما تعرض

أكثر الجسم لها كان أكثر انتفاعاً بها . والأمرفى الشواطئ كالأمرفى المراقص

والمرايض ، يهيمن على الحياة فيها روح رياضية عالية تغنى كل إنسان بشأنه

عن شأن غيره . فالراقص لا يفكر إلا فى الرقص ، والمترتاض لا يفكر إلا فى الحركة ،

والمستحم كذلك لا يفكر إلا فى الأمواج والأشعة .

— إبدئى بالمثال قبل القاعدة يا آنسة . أين تجدين الروح الرياضية فى هذه

المرأة التى علت صدر هذا الرجل لتتعلم فوقه السباحة ؟ وأين تجدين الروح الرياضية

فى هذين الجسمين الراقدين على الرمل يتلامسان بشهوة ، ويتناجيان بنشوة ، وقد

انمحي من حولهما البحر والشاطئ والناس ؟

أرى يا آنسة أن المرأة تسيء إلى نفسها بهذا التبذل ، حتى من الجهة

النسوية الخالصة ، فانها متى فقدت سحر المحجوب وجاذبية المجهول أصبحت

كسائر الإناث من سائر الحيوان .

عفواً يا آنسة إذا اتخذت فى خطابك لهجة الأستاذية ، فإنها لا تزال أقوى

الصلوات التى أمتُّ بها إليك .

ألا تلاحظين أننا فى الجدد نتطور ببطء مؤس ، وفى الهزل نتطور بسرعة

جائحة ؟ لقد كنا بالأمس نتجادل فى السفور ، وهأنحن أولاء اليوم نتجادل

فى العُرى !

أستودعك الله يا آنسى ، وأسلم على أهلك وأخيك .

ثم أخذت طريقى على الشاطئ الشهوان وفى نفسى كلام حبسته ! على أن
من الظلم الموروث أن الرجل يشارك المرأة فى الذنب ثم يفردها بالعقوبة ! فالأب
يقود ابنته عارية إلى الشاطئ ، والزوج يجلس مع زوجته عارية على المقصف ،
والأخ يتعمى مع أخته فى الكشك وفى البحر ، ثم يندلع لسان النقد على المرأة
وحدها فيتهمها بخلق الفضيلة ويرميها بذبح الخلق !

يا قوم ! لقد فتشتم فى الشواطئ كثيراً عن حياء المرأة ، ففتشوا فيها ولو قليلاً
عن نخوة الرجل !

[١١ جمادى الأولى سنة ١٩٥٢] ٧



لماذا ترجمت لفرتر

[إلى الصديق الذى سألنى هذا السؤال وهو طليق الحرية فى بغداد ، فأجبت عنه وهو سجين الاستبداد فى كركوك ...]



تسألنى لماذا ترجمت لفرتر ... والجواب عن هذا السؤال حديث ، والحديث غداً سيكون قصة ، وليس يعينيك اليوم منها إلا ما نجم عنها :
قال (جوت) يوماً لصديقه (أكيتمان) : « كل امرئ يأتى عليه حين من دهره يظن فيه أن (فرتر) إنما كتبت له خاصة » .

وأنا فى سنة ١٩١٩ كنت أجتاز هذا الحين : شباب طرير حصره الحياء والانقباض والدرس ونمط التربية وطبيعة المجتمع فى حس مشبوب يتوقد شعوراً بالجمال ؛ وقلب رغب يتحرق ظمأ إلى الحب ، ونوازع طامحة ما تنفك تجيش ، وعواطف سيالة ما تكاد تماسك ... ! فالطبيعة فى خيالى شعر ، وحركات الدهر نغم ، وقواعد الحياة فلسفة ... ! وكان فهمى لكل شئ وحكمى على كل شخص يصدران عن منطق أفسد أقيسته الخيال ، وزور نتائجه المثل الأعلى ؛ ثم غمر هذه الحال التى وصفت هوى دخيل هادئ ولكنه مُلِحٌّ ، فسبحت منه فى فيض سماوى من النشوة واللذة ، وأحسست أن وجودى الخالى قد امتلأ ، وقلبي الصادى قد ارتوى ، وحسى الفائز قد سكن ؛ وتخيلت أن حياتى الحائرة قد أخذت تسير فى طريق لاجب تنتثر على مدارجه نواضر الورود ، وترف على جوانبه نوافح الريحان ، وتزهو على جوانبه ألوان عبقر ، وترقص على حفافيه عرائس الحور !

ورحت أسلك هذا الطريق السحري محمولاً على جناح الهوى كأنتى (فوست)
على جناحى (ميفستوفاليس) حتى ذكرنى الزمان الغافل فأقام فيه عقبة اصطدم
عندها الخيال بالواقع والحبيب بالخاطب والعاطفة بالمنفعة ! على أننى بقيت على رغم
الصدمة حياً ، ولا بد للحي أن يسير !

تطلعت وراء العقبة أنظر الطريق فإذا الأرض قفر والورد عوسجٌ والريحان
حمضٌ والعرائس وحوش . . .

فشعرت حينئذ بالحاجة إلى الرفيق المؤنس . . . ! ولكن أين أنشد ما أبغى
وحولى من الفراغ نطق نحيف ، وأمامى على أسنة الصخور أشلاء وجثث ؟
هذه أشباح صرعى الهوى تتراءى لعينى ، وهذه أرواح قتلاه تتهافت على ، وهذه
سجلات مصارعهم بين يدي . فلم لا أحدو بأناشيدهم رواحى ، وأقطع بمناجلتهم
مراحلى ، وأتمس فى مواجههم لهوى عزاء وسلوة ؟

قرأت : هيلويز الجديدة ، ورينيه ، وأتالا ، وأودلف ، ودومينيك ،
وماريون دلورم ، ومانون ليسكو ، وذات الكميلييا ، وجرازيلا ، ورفائيل ،
وجان دكريف . . . وتوثقت بأشخاصها صلاتى ، وتصعدت فى زفرائهم زفرائى ،
وتمثلت فى نهايتهم الحزنة نهايتى ، ولكنهم كانوا جميعاً غيرى ! نتفق فى الموضوع
ونفترق فى الوضع ، كالنساء النوادب فى مناحة ، تندب كل واحدة منهن ققيدها
وموضوع الأسى للجميع واحد : هو الموت !

فلما قرأت « آلام فرتر » سمعت نواحاً غير ذلك النواح ، ورأيت روحاً غير
هايتيك الأرواح ، وأحسست حالاً غير تلك الحال !

كنت أقرأ ولا أرى فى الحادثة سوى ، وأشعر ولا أشعر إلا بهوى ، وأندب
ولا أندب إلا بلوى . فهل كنت أقرأ فى خيالى أم أنظر فى قلبى ، أم هو الصدق

فى نقل الشعور ، والحذق فى تصوير العاطفة ، يظهر ان قلوب الناس جميعاً على لون واحد . . . ؟ !

كنا يومئذ فى مايو والطبيعة تعلن عن حبها بالألوان والألحان والعطر ، ونفسى تحاول أن تعلن عن هواها بالدموع والشعر ؛ فألامى تجيش فى عيني ، وعواطفى تنزى على لساني ، وبلايلى تتوثب فى خاطرى ، وكلها تطلب السبيل إلى العلانية ؛ والشكوى فى الحب كالطفح فى الحمى كلاهما عرض ملازم . فلما قرأت « فرتر » تنفس جواى المكظوم ، لأننى لو كنت صببت مهبتي على قرطاس لما كانت غير « فرتر » . وهل فرتر إلا قصة الشباب فى كل جيل ؟ رجل شديد الحس قوى العاطفة يتقسم الخيال « والإيدىال » نواحى نفسه ؛ ورجل آخر بارد الطبع عملى الفكر يعرف دائماً كيف يجر النار إلى قرصه ؛ وامرأة بينهما يجذبها إلى الأول طبعها الغزلى وقلبها الشاعر ، ويربطها بالثانى عقلها المادى ووعداها المأخوذ . . . هذا هو موضوع آلام فرتر ، وهو عينه موضوع آلامى . . . فلم لا أنقله إذن إلى لغتى لينطق عن لساني ، كما ترجم صادقاً عن ضميرى ؟ ؟

فנית فى « جوت » وقادنى إلهامه وروحه ، وأهبتُ بلغة القرآن والوحى أن تتسع لهذه النفحات القدسية فأسعفتنى ببيانها الذى يتجدد على الدهر ويزهو على طول القرون . ثم أصبح فرتر بعد ذلك لنفسى صلاة حب ونشيد عزاء ورقية هم !! كما كنا « جوت » يناديها من وراء الغيب حين يقول فى تقدمته لفرتر : « وأنت أيتها النفس . . . إذا أشجأك ما أشجاء من غصة الهم وحرقة الجوى ، فاستمدى الصبر والعزاء من آلامه ، وتلمسى البرء والشفاء فى أسقامه ، واتخذى هذا الكتاب صاحباً وصديقاً إذا أبى عليك دهرك أو خطوك أن تجدى من الأصدقاء من هو أقرب إليك وأحنى عليك ؟ »

الملك الشهيد



في ليل يوم الجمعة الماضي
سكت في (برن) قلب الملك
فيصل ! وما كان في حساب
أحد من دنياه أن هذا القلب
الذي يجيش بالحياة ، وينبض
بالأطاع ، ويستخف بالأمر
الجسام ، يسكت في وحدة
الغريب ووحشة الليل الرهيب
هذه السكينة الفاجئة !

فلما نعاه البرق إلى الآفاق فزع الناس إلى الشك يدافعون به هول الخطب ،
ورجم بعضهم بالظنون يعللون بها بغتة الحادث ، وتعذر على العقل أن يفهم الموت
مقروناً إلى فيصل (صقر قریش) ، وقد كان إلى أمس يقطع بعزمه الجبار أجواء
الشرق والغرب حاملاً في يمينه العراق ، وفي يسراه سورية ، وفي قلبه « دولة العرب » !
ثم انجلى الشك وانجابت الظنون فإذا العراق ، وإذا سورية ، وإذا العرب ، أمام
الفاجعة التي روعت النفوس وضربت الأنفاس وقوضت حصون الأمل . . . !
لم يجزع العرب حين نعى إليهم فيصل على نفس كسائر النفوس تغوص
في لجج العدم ، وإنما جزعوا هذا الجزع الهالع على آمال أمة وجهود نهضة

ومستقبل فكرة ؛ لأن ملك العراق كان مناط هذه الآمال ومبعث هذه الجهود
وعدة هذا المستقبل !

ومن العجيب أن يكون مصدر هذا الجزع كثرة الزعماء الأكفاء لا قلة !
فإن هذه الكثرة كانت دائماً وبالأعلى وحدة العرب إذا لم يقم على رأسها زعيم
يعتمد في قيادتها على سلطان الدين وشرف النسب ، وقد اجتمع للملك فيصل
مع هاتين القوتين عقل كيس وخلق نبيل ونفس طموحة وجاذبية قوية . فلا جرم
أنه كان رجل الساعة لهذه الأمة الناهضة يجمع كلتها حول رأيه ، ويوحد وجهتها
وراء خطاه . . . !

عرفت جلالة ملك العراق أثناء مقامي ببغداد معرفة وثوق وخبرة . وكانت
حال البلاد في ذلك الحين محنة ابتليت بها كفاية الملك النابغ : فالانتداب كان
قبل الملكية يعمل في العلن ويحمل التبعة ، فأصبح بعدها يعمل في السر ولا تبعة
عليه ؛ والحكومة كانت يومئذ بادية البلى ممزقة الجوانب لا تستطيع بخروجها أن
تستر العرش . فالملك بحكم الوضع كان يستر الإنجليز ، ولكن الوزارة بحكم الضعف
كانت تكشفه ؛ فكانت أوزار أولئك وأخطاء هؤلاء تحمل في رأى المعارضة
والشعب على الملك ؛ وكانت البطانة بعثها تنفض ظالمة على جد البلاط ووقاره
شيئاً من العبث ؛ والشعب العراقي على اختلاف منازعه وعقائده وأجناسه ناقد
متمرد طموح لا يصبر على نقص ، ولا يغفل عن خطأ . فقدّر في نفسك كيف
كان مصير الملك لو كان غير فيصل . . . !

اضطلع الملك فيصل وحده بأعباء الملك والحكم والزعامة في هذه الحال

المضطربة ، فكفكف بحكمته من شرّة الانتداب ، وخفف بحنكته من عسف الوزارة ، ولطف بحلمه من غضب الشعب ، وصرف شؤون الدولة على قدر ما يسلم الرأي الحصيف من خبث الاستشارة وضعف الوزارة . ثم سهّل حجاب له لأمر العشائر ورؤساء الطوائف وزعماء الأحزاب ، فاستل ما في صدورهم بالقول اللين والعتاب الهين والشخصية الجذابة ، حتى كان الرجل منهم يدخل قصره وهو عليه ، فلا يخرج منه إلا وهو له ! ثم نظر خارج العراق فرأى على حدوده دولاً يتنزى في صدورهما حقد الماضي وطمع الحاضر ؛ فزار تركيا وفرنسا وإيران فأحال عداءها إلى صداقة ، وجفأها إلى مودة ! ثم اجتمع بملك الحجاز ، وأوفد إلى أمام الين ، فأحكم أواخى المودة بينهما وبينه . ثم هداه تفكيره العمل المرن إلى أن يعالج الانتداب بالمصانعة والمودعة حتى انتهى به إلى نوع من الاستقلال يحفظ الكرامة ويعين على النهوض . . .

دخل الملك فيصل العراق دخول الإمام الحسين : لا مال أمامه ولا جند خلفه ! ولكن الحسين جرى على سياسة على فهلك ، وجرى فيصل على سياسة معاوية فملك ! ثم اعتمد في تأثيل ملكه وإنهاض شعبه على الإخلاص العامل والجد النزيه ، وتحامل في ذلك على دمه وعصبه وروحه حتى ذهب فيصل شهيد الواجب ، كما ذهب الحسين شهيد الحق !

كان الملك فيصل الأول ملكاً من طراز خاص . ولعله كان أقرب إلى خلفاء الصدر الأول منه إلى ملوك اليوم : كان ناصع الظرف ، جهم التواضع ، رحب الأناة ، ظاهر الوداعة ، زاهداً في أبهة الملك ، عازفاً عن مظاهر السلطان ؛ فلا يُخدج^(١) بتحية ، ولا يمشى في حرس ، ولا يتشدد في حجاب .

(١) أخذج التحية : أداها ناقصة كما يفعل المستكبرون

وكان من أجمل مظاهر ديمقراطيته الأصيلة أن تراه غالباً في شارع الرشيد
أو في طريق الصالحية يقود سيارته بيده ، ويشق طريقه بنفسه ، دون ربيطة من
خلفه ولا طليعة بين يديه ، فيسبقه أى سابق ، ويزاحمه أى سائق !
وقد تبكر ذات صباح إلى مدرستك أو ديوانك فتراه في ذرور الشمس
قد طلع عليك بوجهه العربي المسنون ، وقده السمهرى المشوق ، ورشاقته الرياضية
البارعة ، فيسلم عليك ويتحدث إليك ثم يتعهد المكان ويتعرف العمل ويودعك
بابتسامته الرقيقة وملحوظته الدقيقة !

دعا مرة مؤتمر المعلمين العراقيين إلى الشاى في حديقة قصره ، فكان يجلس
إلى كل منضدة من المناضد الكثيرة جلسة يفاكه أهلها بحلو الحديث ، ويناقشهم
في وجوه الإصلاح ؛ ثم خطبهم في شؤون التعليم خطبة جامعة تمنى في سياقها
أن يكون معلماً مع المعلمين يؤدى إلى الأمة هذا الواجب المقدس . وفي صباح أحد
الأيام غدا على المدرسة المأمونية الابتدائية فقضى رَدْحاً من الزمن فيها ، ثم سجل
اسمه في ثبت مدرسيها !

كان الملك فيصل في العراق ملك دولة ورئيس حكومة وزعيم أمة ؛ وهو
في الأقطار العربية مؤسس نهضة ومثل فكرة ورسول وحدة وداعية سلام
ومعقد أمل ! فإذا هفت النفوس جزعاً لفقده ، واستولى على العرب الوجوم والحيرة
من بعده ، فإن في منطق الحوادث وطبيعة الأمور ما يسوغ هذا الجزع ويعلل
هذه الحيرة .

ألم الله الأمة العربية على جلالة ملكها فيصل أجمل الصبر ، وجعل لها
في جلالة ملكها غازى خير العوض . . . !

فرعونيون وعرب

عفا الله عن كتابنا الصحفيين ! ما أقدرهم على أن يثيروا عاصفة من غير ريح ، ويبعثوا حرباً من غير جند !

حلا لبعضهم ذات يوم أن يكون بيزنطياً يجادل في الدجاجة والبيضة أيهما أصل الأخرى ! فقال على هذا القياس : أفرعونيون نحن أم عرب ؟ أنقيم ثقافتنا على الفرعونية أم نقيمها على العربية ؟

نعم قالوا ذلك القول وجادلوا فيه جدال من أعطى أزمة النفوس وأعنة الأهواء يقول لها كوني فرعونية فتكون ، أو كوني عربية فتكون ! ثم اشتهر بالرأي الفرعوني اثنان أو ثلاثة من رجال الجدل وساسة الكلام ، فبسطوه في المقالات ، وأيدوه بالمنظرات ، ورددوه في المحادثات ، حتى خال بنو الأعمام في العراق والشام أن الأمر جد ، وأن الفكرة عقيدة ، وأن ثلاثة من الكتاب أمة ، وأن مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مسلات ، والمساجد معابد ، والكنائس هياكل ، والعلماء كهنة !

مهلاً بنى قومنا لا تعتدوا بشهوة الجدل على الحق ! ورويداً بنى عمنا لا تسيئوا بقسوة الظن إلى القرابة ! إن الأصول والأنساب عرضة للزمن والطبيعة : تواشج بينها القرون وتقلع فيها الأجواء حتى يصبح تحليلها وتمييزها وراء العلم وفوق الطاقة . فإذا قلنا فلان عربي أو فرنسي أو تركي فإنما نعني بهذه النسبة انطباعه بالخصائص الثقافية والاجتماعية لهذا الشعب ، كاللغة والأدب والأخلاق والهوى والدين . فمهيار

عربي وأصله فارسي ، وروسو فرنسي وأصله سويسري ، والأمير فلان تركي وأصله مصري ، لأن كلا من هؤلاء الثلاثة أصبح جزءاً من شعبه ، ينطق بلسانه ويفكر بعقله ويشعر بقلبه

فبأى شيء من هذا يتماهى إخواننا الجدلون وهم لو كشفوا في أنفسهم عن مصادر الفكر ومنابع الشعور ومواقع الإلهام لرأوا الروح العربية تشرق في قلوبهم ديناً ، وتسرى في دماهم أدباً ، وتجري على ألسنتهم لغة ، وتفيض في عواطفهم كرامة ... ؟

لا نريد أن نحاجهم بما قرره المحدثون والعلماء من أن المصرية الجاهلية تنزع بعرق إلى العربية الجاهلية ، فإن هذا الحجاج ينقطع فيه النفس ولا ينقطع به الجدل ... وكفى بالواقع المشهود دليلاً وحجة . هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرناً وثلاثاً من التاريخ العربي نسخت ما قبلها كما تنسخ الشمس الضاحية سواحب الظلال ... وذلك هو ماضى مصر الحى الذى يصيح فى الدم ، ويثور فى الأعصاب ، ويدفع بالحاضر إلى مستقبل ثابت الأس شامخ الذرى عزيز الدعائم . أزهِقوا إن استطعتم هذه الروح ، وامحوا ولو بالفرض هذا الماضى ، ثم انظروا ماذا يبقى فى يد الزمان من مصر . هل يبقى غير أشلاء^(١) من بقايا السوط ، وأنضاء^(٢) من ضحايا الجور ، وأشباح طائفة ترتل « كتاب الأموات » ، وجباه ضارعة تسجد للصخور وتعنو للعجاوات ، وقبور ذهبية الأحشاء ابتلعت الدور حتى زحمت بانتفاخها الأرض ، وفنون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة ؟ وهل ذلك إلا الماضى الأبعد الذى تريدون أن يكون قاعدة لمصر الحديثة تصور بألوانه وتشدو بألحانه وتحيا أخيراً بروحه ؟ ولكن أين تحسون بالله هذه

(١) الأشلاء جمع شلو وهو العضو بعد البلى والتفرق (٢) الأنضاء جمع نضو وهو المهزول

الروح ؟ إن أرواح الشعوب لا تنتقل إلى الأعقاب إلا في نتاج العقول والقرايح .
فهل كشفتم بجانب الهياكل الموحشة والقبور الصم مكتبة واحدة تحدثكم عن
فلسفة كفلسفة اليونان ، وتشريع كتشريع الرومان ، وشعر كشعر العرب ؟
أم الحق أن مصر القديمة دفن فنيت روحه مع الآلهة ، وصحائف موت ذهب
سرهما مع الكهنة ، والخامد لا يبعث حياة ، والجامد لا يلد حركة ؟

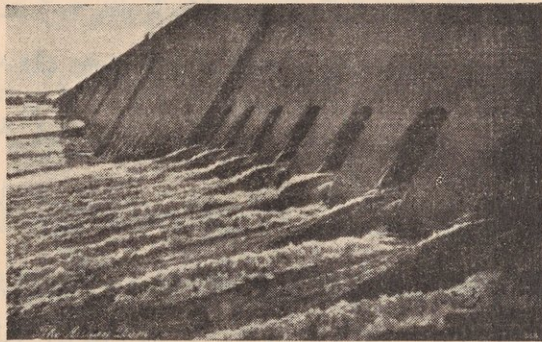
لا تستطيع مصر الإسلامية إلا أن تكون فصلاً من كتاب المجد العربي ،
لأنها لا تجد مدداً لحيويتها ولا سنداً لقوتها ولا أساساً لثقافتها إلا في رسالة
العرب . أمّا أن يكون لأدبها طابعه ولفنها لونه فذلك قانون الطبيعة
ولا شأن لِمينا ولا لِيَعْرُب فيه ؛ لأن الآداب والفنون ملاكها الخيال ، والخيال
غذاؤه الحس ، والحس موضوعه البيئة ، والبيئة عمل من أعمال الطبيعة يختلف
باختلافها في كل قطر . فإذا لم يوفق الفنان بين عمله وعمل الطبيعة ، ويؤلف
بين روحه وروح البيئة ، فاته اللون الحلى وهو شرط جوهرى لصدق الأسلوب
وسلامة الصورة . وقديماً كان لون الأدب في الحجاز غيره في نجد ، وفي العراق
غيره في الشام ، وفي مصر غيره في الأندلس ، دون أن يسبق هذا التباين دعوة
ولا أن يلحق به أثر !

انشروا ما ضمنت القبور من رفات الفراعين ، واستقطروا من الصخور
الصلاب أخبار المالكين ، وغالبوا البلى على ما بقى في يديه من أكفان الماضى
الريم ، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار وعظمة النيل وجمال الوادى
وحال الشعب ، ولكن اذكروا دائماً أن الروح التى تنفخونها فى مومياء فرعون
هى روح عمرو ، وأن اللسان الذى تنشرون به مجد مصر هو لسان مُضَر ،

وأن القيثار الذى توقعون عليه ألحان النيل هو قيثار امرئ القيس ، وأن آثار العرب المعنوية التى لا تزال تعمر الصدور وتملأ السطور وتغذى العالم ، هى أدعى إلى الفخر وأبقى على الدهر وأجدى على الناس من صفائح الذهب وجنادل الحجارة إنما تتفاضل الأمم بما قدمت للخلقة من خير ، وتتفاوت الأعمال بما أجدت على الإنسان من نفع . أليس (الخزان) خيراً من الكرنك ، والأزهر أفضل من الأهرام ، ودار الكتب أنفس من دار الآثار !

وبعد فإن ثقافتنا الحديثة إنما تقوم فى روحها على الإسلام والمسيحية ، وفى أدبها على الآداب العربية والغربية ، وفى علمها على القرائح الأوربية الخالصة . أما ثقافة (البردى) فليس يربطها بمصر العربية رباط ، لا بالمسلمين ولا بالأقباط

[أول أكتوبر سنة ١٩٣٣]



الفريز (أمس واليوم)

كان أكتوبر في الزمن السعيد يقبل على القرية إقبال الربيع : يفتق لوز القطن في الحقول ، ويشقق ورد الصبي في الحدود ، ويفتح نوار المنى في القلوب ؛ ثم يمر بيده الذهبية على نصب الفلاح فيزول ، وعلى هم المدين فينفرج ، وعلى غمرة المكروب فتتجلى ؛ ويرسل الخصب مدراراً على المنازل الجديبة فيرتاش المقل وينعم البائس ويتزوج الأغرب !

كنت في أكتوبر ، شهر الغنى والزواج ، ترى مزارع القطن رقافة الوجوه بسامة الصور ، تنساب بين خطوطها البيض أسراب الغيد يجنين الثمرة الغالية ، وهن يغنين الأغاني الجميلة ، ويحملن الأحلام اللذيذة ، ويتخيلن هذا القطن الذي يجمعهن الآن بأناملهن ، ويضعنه في أحضانهن ، وقد أصبح الثوب الزاهى الذى اشتبهينه ، والقرط الذهبى الذى ابتغينه ، والزوج الحبيب الذى طالما تمنينه ! فإذا جئت القرية وجدت زخارة بالحياة ، موارة بالحركة ، تمرح بحماسة الشباب ، وتموج بأطياف الحب ، وتهزج بأناشيد الأعراس ، وتتلقى جزاءها الأوفى على جهادها الصابر طول العام فى فلاحه الأرض وخدمة المالك وإعانة الحكومة

فالطرق الآتية إليها من الغيط تسيل بالعذارى الأوانس يصفقن بالأكف الخضوبة ، ويحدون بالأصوات الندية ؛ (والخواجات) يخرجون متعاقبين من بيت إلى بيت يساومون على (المحصول) بالأثمان المغربية ؛ والشباب المرحون

يسمرون إلى موهن الليل على الباب والأرغول في بيوت الأفراح القريبة ؛ وأشعة
الخريف الفاترة تبعث في قلوب هؤلاء الخليلين طلاقة العيش وجمال الوجود ،
فلا يشغلون بالهم بالزروع التي تذبل ، والأوراق التي تسقط ، والطبيعة التي تموت !

ذلك حديث القرية المصرية بالأمس ، فهل أذاك حديثها اليوم ؟ لم يعد
وا أسفاه للقطن تلك القوى السحرية التي كانت ترد البؤس نعيما وتجعل النار
جنة ! ولم تعد الطرق السالكة إليه شادية بالغناء ، ولا الأنامل التي تجنيه مخضوبة
بالحناء ، ولا الدور التي تحويه ألاقه بالذهب ! فقد القطن ولو احقه من سائر الغلات
معنى الرخاء فأصبح علاجها عناء خالصاً لا روح فيه ، وسعيّاً باطلاً لا رجوع منه !
وكان الفلاح قد أقام بيته وأدار حياته على هذا الحاصل ، فكان يأكل حبوب
الأرض ، ثم يرصده وحده لقضاء الدين وأداء الضريبة ووفاء القسط وسداد العوز
ونفقة السنة . فلما بنحست قيمته الظروف القاسية تزعرع البيت واضطربت
الحياة وانتشرت الحال واستحكمت الأزمة ، فألح الدائن في الطلب ، وأعنف
الجابي في التحصيل ، وأسرف البنك في الحجز ، حتى انتقص لهم من قوته ،
واقطع لهم من ثوبه ، ونزل لهم عن جهده ، ولم يغن كل ذلك شيئاً عن بيع ملكه
تبدلت القرية غير القرية ، فلا ليلي تطعم في زينة ، ولا أخوها يطمح إلى
زواج ، ولا أبوها يفكر في حج ! وأصبحت الطريق الزاهبة إلى المدينة تجي
بالمرابي والجابي والمخضر ، بعد أن كانت تجي بالشاعر والزامر والمغنى ؛ وغاضت
بشاشة العيش في وجوه الشباب فعادت القرية جدية كالقفز ، كئيبه كالقبر ،
لا يعقد فيها اجتماع لأنس ، ولا يقام بها احتفال لعرس ! وما أبعد هاتين الكلمتين

اليوم عن قوم ندر عندهم الكبريت (الأصفر) حتى اتخذوا الزناد ، وغلا عليهم
التبغ حتى اشترك ثلاثة في سكاره !

لا تزال القرية كما كانت في القرون الخوالى أكوأخا متلاصقة غرقى
في المناقع والدمن^(١) ، لا تبصر الشمس ولا تنشق الهواء ولا تعرف النظافة .
تكومت في قاعها أرواث البهائم وزرق الدجاج ، وتراكم على سطحها حطب الوقود
وعلف الماشية ، وتقاسم الإنسان والحيوان المضاجع في هذه الحظائر المشتركة ! ثم
راض الفلاح نفسه مرغماً على الطعام الوخيم والشراب الكدر والملبس الرث
والقناعة المزرية حتى مات في حسه إدراك الجمال ، وتفه في ذوقه طعم الوجود !

ذلك والعواصم المصرية تعيش في القرن العشرين تأخذ بمدنيتها ، وتقبس
من نوره ، وتنعم برفاهه ، كأن الصلة بين القرية والمدينة هي الصلة التي كانت
بين العبد والسيد ، يملك ولكن ملكه لمولاه ، وينتج ولكن انتاجه لسواه !
تغلغت المدنية في الأمم الأوربية حتى انتظمت^(٢) قمم الجبال وبطون الأودية
وأطراف السهوب ، وسوت بين بنيتها في مُتّع العيش وحقوق الإنسان ؛ ثم تشوفت
إلى الآفاق الغائمة في الشرق تريد أن تهديها طريق الحضارة ، ونحن لا نزال
قاصرين عن إنقاذ قرانا من الجهل والمرض والفاقة ، وهي مصادر القوة وموارد
الإنتاج، تعول الموظفين بالضرائب، وتعزى الجيش بالجنود، وتمد الحواضر بالأرزاق،
وتعين الأحزاب بالمال ، وتقيم (الحفلات) بالتبرع

(١) المناقع جمع منقع وهو المستنقع ، والدمن جمع دمنة وهي المذبلة .

(٢) انتظمت : شملت .

إن الفلاح المسكين الساذج يسمع بالوزارات تسقط وتقوم ، وبالأحزاب
تختصم وتحتكم ، وبالمجالس تنتثر وتنتظم ، وبالداوين تفتح وتغلق ، وبالأموال
تُجَبَى وتنفق ، فيسائل نفسه سؤال الجاهل : إلى من هذه الأعمال والأموال
إذا لم يكن لى من ثمارها نصيب ؟

لقد اشترينا بأقوات الريف أبهة العاصمة ، وبنينا بأنقاض القرية قصور
المدينة ، وغسلنا بعرق الفلاح أقدام المترفين ، فكنا كمن حفر الجداول وخطط
الحقول ونثر البذور وشيد الأهرام^(١) ثم طمر في سبيل ذلك فوهة الينبوع !

[١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٣]

(١) الأهرام جمع هري وهو مخزن الحنطة .



حديقة

كان ألد ما أذوقه من جمال بغداد وقفة في حديقة (النادي العسكري) كل صباح ! فكنت تراني أحرص عليها حرص العابد المتحنث على أداء صلاته ، أو العاشق المتوجّد على لقاء فتاته . كنت أغشى كل يوم هذا المجتلى الساحر في رونق الضحى أو في مُتوَع النهار ، فأجد الشمس قد لأأت ذوائب النخل وغوارب النهر وأخذت ترشق بأشعتها الظلال النديّة من خلال الشجر ؛ وبنات الهديل^(١) يبحثن كعادتهن في عساليج^(٢) التين وأغصان التوت بأرجلهن ومناقيرهن وهن يرجعن على التعاقب ألحان الخريف ؛ والحديقة مطولة النبات منضورة الزهر تتنفس بالفاغية^(٣) تنفسَ الطفل الحالم ؛ والسكون مرهوبَ الجلال أنيس الوحشة يعمق ثم يعمق حتى تكاد تسمع النبات وهو ينبت ؛ والنادي خلواً من أهله فلا تجد إلا بستانياً يعمل في صمت ، وغلاماً يكنس في هدوء ، وطفلين جميلين يجيئان أحياناً فيجلسان في الشرفة أو يمشيان في الحديقة ، فلولا نشوز خادمهما الكهل ، ومنظر هندامه الزرّيّ الشكل ، لحسبتهما زهرتين من زهورها ، أو عصفورين بين طيورها ! فأسير في الروضة متّداً الخطيّ مرسل النفس مرهف الحس ، تارة بين مماشيتها ، وتارة فوق حواشيتها ، فأقف عند كل شجرة ، وأُحَيّي كل زهرة ، وأسأل النبتة الوليدة بالأمس ما حظها اليوم من سر الحياة ونعمة الوجود ! ثم أصعد درّجة إلى الشّرفة ، وأنعم ساعة بتلك الوقفة ، فأتنسم هواء

(١) بنات الهديل : كناية عن الحمام . (٢) العساليج جمع عسلوج وهو مالان واخضر من قضبان الشجر أول ما ينبت . (٣) الفاغية كل زهر له رائحة طيبة .

النهر ملء رثى ، وأخذ جملة المنظر بمجامع عيني ! وأى منظر يسحر القلب ويملك الطرف كهذا المنظر الفائق ؟! الحديقة من ورأى تضوع بالنسيم الأريج ، وتروق بالزواء البهيج ، وتروع بالسكون الملهم ! ودجلة الخالد من أمأى تتجاوب أصداء الأم خافتة فى لجأه ، وتهادى خفاف القوارب راقصة بين أمواجه ، وأنا بين الشجر والماء ، كالطائر بين الأرض والسماء ، يسبح خاطرى فى أجواء الماضى القريب والبعيد صاعداً إلى فكرة ، أو هابطاً على ذكررة ، أو حائماً حول منظر كهذا المنظر تدفق به قلب فى قلب ، وامتزجت فيه نفس بنفس ، وتجمعت الأحلام والأمانى كلها فوق رقعة صغيرة من أرضه ، وتحت سراحة فينانة من روضه !

لا تظن هذه الحديقة فيحاء قد تأنقت فيها يد الطبيعة وتآلق بها فن الإنسان ! إنما هى مُربَّع من الأرض على قدر ما يتسع له فناء كبير فى منزل نخم ، يشقها ممشيان معروشان قد تعارضا على شكل صليب فقسماها إلى أربعة أقسام سواء ، وفى هذه الأقسام وما ألحق بها قام دوح السدر وبسق سرح الكافور ، وانتظمت على جوانب ممشيها أشجار النارج ، وانتشرت على معظم أرضها ألوان قليلة من النور الجميل والورد العطر . فسأؤها كما ترى للشجر وأرضها للزهر وجوها للعطر ، وهى كلها لنوع من الجاذبية يجعلها على بساطتها فتنة الفنان وجنة الفكر !

ليت شعرى ما مصدر هذا السحر الذى يشع فى عيني ويشيع فى نفسى كلما دخلت هذا المكان ؟ أهو ذاك البناء المتأكل الذى يقوم فى جنوبه كأنه المعقل البالى أو الدير المهجور ؟ أم هو ذلك النهر الجميل الذى يجرى فى غربيه كأنه الزمن الدافق أو الكتاب المنشور ؟ أم هو ذلك المزيج العجيب من جلال القدم فى المكان وجمال الطبيعة فى البستان وعظمة الحياة الماثلة فى النهر ؟

ليس للروح العسكرى فى هذا المكان الشعرى مظهر ولا أثر ! فما تعهده
من الخشونة فى الثكنات والعنف فى الحركات والقسوة فى النظرات والكلمات
يحول هنا إلى ذوق فنان ورقة شاعر وهدوء فيلسوف !

كادت هذه الخواطر الجريئة الملحّة تذهلنى عن حديقتى واليوم عيد من
أعياد الطبيعة برزت فيه عاريةً من الحُلل غانيةً عن الحلى ! والخريف فى العراق
هو الربيع احترقت غلاله الوردية فى لظى تموز ! فهو على مجرد أرضه من الأنوار
والأزهار ، وتحجّب سمائه أحياناً بالغيم وأحياناً بالغبار ، جميل البسات عليل
النسمات رفاف الأديم . فهانحن أولاء بين أعقاب الخريف وطلائع الشتاء والشمس
لا تزال فى ثغر السماء ابتسامة حلوة ! تضاحك النهر الحبيب فتزيده طلاقة ،
وتداعب الزهر الكئيب فتكسبه أناقة ، وتطالع الجو المرقور فتقبسه حرارة ،
وتصارع برد الموت فى أوراق النارج وأطراف التوت فتطيل بقاءها فترة أخرى
من الزمن ! وهذه اليامات السواجع ما زلن يأوين إلى أعلى الشجر ، يمرحن
فى الضوء وينعمن بالدفء ويهتفن بالأهازيج كأنهن فى أمانة من حلول يناير
وهو منهن على ليال قلائل ! وهذا دجلة السعيد يتنفس موجه بالنعيم ، ويطفح
غرينه بالذهب ، ويقذف تياره بالغناء والزبد ، بعد ما بخره القيظ فنشّ حتى
انكشف ضميره ، وانقطع خريره ، وكاد يزحف الشبّوط^(١) والزورق فيه على القاع !
فالبواخر تصعد صافرات فى سرعة ، والأطواف^(٢) تنحدر صامتات فى بطاء ،

(١) نوع من السمك .

(٢) الأطواف كالأرماث أعواد من الحشب توضع فوق قرب منفوخة يحمل عليها فى الماء .

والقفف^(١) تعبر موقرات في هواده ، وقوارب الصيادين وزوارق الملاحين تتعارض
وتتحاذى في عباب النهر كأنها الخواطر الحائرة في الفكر العميق ، والطيور الصائدة
تحوم على وجوه الماء بأجنحتها الشهب حومان الآمال على ستر الغيب الصفيق ،
والبجعة^(٢) الملكية تطعن في صدور الموج بمنقارها الطويل العريض وهي تسبح
آمنة في حى البيت العتيق ، وأنفاس دجلة اللاهث من عبء القرون تتصاعد
إلى حاملة أنين الأمواج وخفق الجاديف وغغام الكرخ فتختلط بتجاوب اليمام
على الشجر، وتناوُح الرياح بين الغصون، وحشرة الأوراق الداوية على الأرض،
فتتألف من هذه الأصوات الخافتة موسيقى روحية شجية تبعث رواقد الأحلام
وتثير كوامن الآلام وتقطع بين النفس وبين وجودها الحاضر!

إيه يا دجلة يا سجل الأمم وراوية العصور! لشدّ ما فנית في خيريك ضحكات،
وامتزجت بنميرك دموع ، وخفيت في ضميرك أسرار ! لقد رأيتك بالأمس ضارعاً
قد لصق خدك بالأرض حتى همّ بخوضك الخائض ، وهمدت حياتك حتى أوشك
أن يسكن عرقها النابض ؛ ثم رأيتك اليوم وقد غاثك الغيث فخاشت ينابيعك
الثروة بالنماء والثراء والقوة ، ثم أقبلت كدأبك منذ آلاف السنين مُدَوّى الدارات
صخب اللج تعرضها ملجأ على بنيك فيعرضون عنك إعراض البطر ، ويؤثرون
على فيضك الميمون وذق المطر ، ثم يهينون كبرياءك يا أبا الحضارات فيجعلون
مبلغ همك حمل الأرمات ونقل القفف ! فهل يعجبون إذا فار غضبك فجرفت
السدود وجاوزت الحدود وأصبتهم بالغرق . . . ؟

(١) القففة : نوع مستدير الشكل من السفن العراقية الأثرية يرجع تاريخه إلى الكلدان .

(٢) هذه البجعة كانت تعيش في قصر الملك فيصل رحمه الله ، وقد كان واقعا على النهر شمالى

هذه الحديقة .

نهضة الشباب

نهضة الشباب اليوم إحدى الظواهر المميزة لهذا الجيل . وهي أجل ما تكون في الأمم المظلومة أو المهددة بالظلم . كأنما أخفق في سياستها (رأى) الشيوخ فصعد إلى قيادتها (عزم) الشباب ! والواقع أن هذه النخوة القدسية التي تعصف برووس الفتيان في إيطاليا وألمانيا وسورية ومصر ، إنما هي القارعة التي تُصمِّمُ ، والظاهرة التي تخيف ؛ لأن الشباب إذا كان لهم الصف الأول في الحرب ، فإن لهم الصف الأخير في السلم ؛ فإذا ألجأهم تقلب الصروف إلى تقدم الصفوف ، دل ذلك على سياسة عاجزة أو سلمٍ مريب أو خطر محقق . وعجز السياسة اتهام لحنكة السن ، ورياء السلم إيذان بصراحة الحرب ، وتقارُس الأهواء إعلان بنزول الغاشية .

فالفاشية والنازية وعصبة العمل القومي وعيد الوطن الاقتصادي وغيرها من حركات الشباب وثباتٌ دفاعية بعثتها الإنسانية المهددة بالتفكك والفوضى والهوان والاستعباد والجشع . ولئن كان لكل دولة من هذه الدول علة أو أكثر من هذه العلل ، فإن مصر البائسة تكابد هذه النكبات جميعاً ! فأخلاقها تفككها الحزبية الأثرية ، وآراؤها تشتتها المطامع الخسيسة ، وكرامتها تهينها الامتيازات الباغية ، وقوميتها توهنها الأجنبية الموغلة ، وحريتها تقيدها القوة المحتلة ، وأرزاقها تسلبها (الضيافة) الثقيلة ، وأبنائها (الكرماء) القانعون .

الخانعون قد ألقوا مضاجع الهون ، فلا تؤذيهم الغضاضة ، ولا تؤلمهم الخصاصه ،
ولا يبعون حَوْلًا عن هذه الحال !

ولكن الشباب — وإن أعدّم هذا الحاضر الذليل — قد أعادتهم خصائص
الفتوة وغرائز الفطرة على أن يدركوا ما نحن فيه من ضراعة الجانب ووضاعة
الشأن وضيق المضطرب ؛ فهبوا يُعزّزْون النفوس الذليلة ، ويمنعون الحوزة المباحة ،
ويستردون الثروة المضاعة ، ويمهدون لهذا البلد العانى طريق الاستقلال الخالص
السعيد ... !

وَمَنْ أَحَقُّ بِحِجَاةِ الْوَطَنِ وَإِعْزَازِهِ مِنَ الشَّبَابِ ؟!

إنهم يعيشون للغد وآبائهم يعيشون لليوم . فهم يحرصون على المستقبل
ويجعلون الحاضر رأس مال ، وأولئك يحرصون على الحاضر ويعدون المستقبل
تركة ! وشتان بين من يعمل لنفسه عن حاجة ، وبين من يعمل لغيره عن عاطفة !

لقد كان شبابنا وما زالوا أغرودة الأمل الباسم في فم واديننا الجميل ، وسرّ
النشاط الدافق في روح نهضتنا المرجوة . حملوا وما زالوا يحملون لواء الغضبة المقدسة
في وجه الدخيل العادى ، وغسلوا وما زالوا يغسلون أدران الماضى بالعرق الطهور
والدم الغالى ؛ ثم رأوا أن مصر المنكودة إنما يقف في طريق حياتها الطبيعية
احتلالان لا احتلال واحد : احتلال سياسى يحتل الثكنات ويخادع الحكومة
ويغفل الحرية ، ويهين الحق ويؤذى الكرامة ؛ واحتلال اقتصادى يحتل
المدائن ويغزو القرى ويأكل الأرض ويشرب النيل ويحتكر التجارة
ويجلب الخمر ويهرّب الخدرات ويتكسب بالمنكرات ويفتك بالجيوب ،

ويبلغ في الأعراض ويعبث بالدين ، ويحلُّ على الجملة في سبيل المغنم ما حرّمته الشرائع والضمان والعرف ؛ ثم يتبجح بعد ذلك كله بأنه القيم على المدنية والحرية والعدالة ، يبذرها في طريقه ، وينشرها في مجلسه ، ويمثلها في نفسه ! فإذا قلت في رقة المغازل لهذا الضيف المدلل : إن ما عمله يناقض ما تقوله ، تجهمت (امتيازات) الدول ، وترغمت (تحفظات) الإنجليز !

رأى شبابنا أن جهاد هذين الاحتلالين أمر لا يتحقق خلاصنا بدونه ، وأن قصر الجهود على أحد الميدانين يمكن الحليفين من حشد كل القوى في ذلك الميدان ، فأرهفوا النشاط وأرصدوا الأهبة ولاقوا الواعل في كل طريق !

ليس بسبيلنا اليوم أن نعرض فيالق الشباب في مختلف الميادين ، فقد أشرنا إلى ذلك في كلمة سابقة ، إنما نريد أن نسجل في ثبّت المجاهدين فيلقاً جديداً جاء يؤكد مرة أخرى أن هذه الأمة الكريمة قد قطعت عزمها على أن تعيش في أرضها حرة وفي ملكها سيادة : ذلك الفيلق هو جماعة عيد الوطن الاقتصادي ، وهم فريق من الطلاب العاملين المخلصين البررة ، حملوا نفوسهم الرقيقة فوق تكاليف الدرس أعباء الدعاية للتجارة المصرية والمنتجات الوطنية ، فهم يُعرضون عن مطالب الصبّي ، ويصدفون عن مباهج العيش ، ويعتلون جهودهم وميولهم في مكاتب العمل من نادى اتحاد الجامعة : يعلنون بالوسائل المختلفة عن المشروع الذى يُعدونه ، ويدعون إخوانهم إلى التطوع في الجيش الذى يحشدونه ، ويتصلون بالتجار ليقنعوهم بالاشتراك فى الدليل الذى يصدرونه ، ويجمعون الأهبّ للمهرجان الفخم الذى يهيئونه ، ويزورون المصانع والمتاجر ليحققوا الوجه الذى يقصدونه ، ويعانون فى سبيل ذلك رهقاً شديداً فى النفس والمال والكرامة .

أجل ، أقول والكرامة ! لأن كثيراً من تجارنا لا يزالون يتعاطون التجارة على منهج دارس ونظام لبك ؛ فهم يهتمون الناصح ، ويستغشون المشير ، وينكرون التطور ، ويجهلون الإعلان ، ويعتمدون في جلب الحرفاء ورواج السلع على التماس والأدعية !

سيكون عيد الوطن الاقتصادي يوم دعاية وإعلان وعرض ، وسيتقدم للمارين الأدلة التي تصك الأسماع وتطرف العيون على أن مصر الناهضة تسير في طريق مأمونة إلى غاية مضمونة !

فمساهمة الشباب فيه بالتطوع ، وانضواء التجار إليه بالاشتراك ، وعطف الجمهور عليه بالتأييد ، ضمان للنصر المبين في إحدى المعارك الفاصلة .
إن القبعات في الطرقات أكثر وأخطر منها في الثكنات ، واليوم الذي لا ترى فيه على الرؤوس غير الطربوش ، ولا تقرأ على جباه الحوانيت إلا العربية ، ولا تسمع في مختلف المعامل إلا اللهجة المصرية ، هو اليوم الذي تقول فيه وأنت صادق : لقد صفا النيل وملك الأصيل واستقلت مصر !

[١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٣]



مَجَسَّاجُ وَدُرُوسْ

حلّقاً في السماء الغائمة البعيدة والأمل الطلق يبسم لهما خلال السحاب ،
والمستقبل الوضاء يشرق عليهما بين الضباب ، والاستقبال المنتظر ينثر الأحلام
على جناحي الطائرة ! فالنسر الحديدي يزفُّ في الهواء النديّ زفيف الكوكب ،
والطيار الشاب وصاحبه يسبقانه بالخيال العجيب إلى أرض الوطن ، فيريان البشر
الفخور يفيض على جنبات الوادي ، والمجدّ الأثيل ينبعث لهفان من غيابات
الماضي ، والشعب النبيل يتقاطر مزهواً إلى المطار الحاشد ، والأعلام أخضر تحفّق
بالتحيات خفوق القلوب بالإكبار والحب ، والطوائر العشر يهبطن على الثرى
الحبيب هبوط المخيلة والعُجب ، واللقاء الحماسي الهاتف يغمر السرب الأول
بالترحاب والإعجاب والشكر ، وأكاليل القُبل والغار تتوج الجباه المُجَلِّيّة في ميدان
البطولة والنصر . . . !

كل أولئك كان يتمثله فؤاد ويتخيله شُهدى حين غفا الحظ تلك الغفوة
المشؤمة فإذا بالقدر الراصد يثب من بين أطباق الضباب فيصرع الأمل الناهض ؛
ثم يرد النسر الطائر حطام حريق ، والمستقبل الزاهر ساعة هول وضيق ، والاستقبال
الباهر مناحة أمة ، وأكاليل الغار أكاليل نعش !

اللهم لا راداً لقضائك ولا معقب لحكمك ! جعلت الشهادة روح الجهاد ،
والتضحية طريق المجد ، والفداء عبادة المثل الأعلى ! ومصر ذات التاريخ الأزلي

(*) طائران مصريان احترقا على أرض فرنسا وهما عائدان في السرب المصري الأول من إنجلترا
إلى أرض الوطن

والتراث الخالد قد كتبت هذا التاريخ بدماء شهدائها ، وأثلت هذا التراث
بجهاد أبنائها ، وعرفت السماء قبل أن يعرف غيرها الأرض ، فلا يشتد جزعها لهذا
الحكم ، ولا يرفض صبرها لهذا البلاء . وما حجاج ودوس إلا شهيدان كتبت
لها السعادة أن يكونا في أول سجل من نوع جديد .

إن شهداءنا الأبرار الذين قضوا في سبيل الوطن والحرية والعلم والطيران
هم القوة الملهمة للشباب العاملين ، والحجة المفحمة على النشء الحاملين ، والدلالة
البينة على أن مصر لا تزال تعرف كيف تموت لتحيى وكيف تشقى لتسعد !
وإن الذين شهدوا أبناءنا يوم جنازة الشهيد يتسعون بالحماسة ويتفجرون
بالوطنية ويهتفون بالتضحية ، ليموقنوا أن هذه النفوس الحرة التي تظاهرت
على كبتها وإذلالها شتى العوامل تأبى أن تتكشف للخطوب إلا عن جوهر
خالص وفطرة نقية .

إن الوادئ يوم ضم إلى أحشائه بقايا ولديه الصريعين قد قوى في صدره
نبض الحياة ودب في جسمه ديب الفتوة ، لأن الوطن تميته الدموع وتحييه
الدماء ؛ فكما كثرت القرايين على مذبحه وفاضت النفوس على ثراه ازداد قداسة
واتقد حماسة واشتد قوة . وتقريب الفداء المختار نكبة لأسرة ، ولكنه حياة
لأمة ومجد لوطن !

التضحية بالنفس أو بالمال هي الوطنية الصادقة والزعامة الحق ، لأنها أثر
الإيمان الصحيح ودليل الجهاد الخالص . ومتى بلغت النفوس حد الإيثار أعيت
على الظلم ونبتت على المذلة ، فلا تجد حاكماً يجور ولا عالماً يداغى ولا سائساً يخاتل
ولا قائداً يهن ولا غنياً يشح ولا وطنياً يشقى .

فهل لسادتنا وكبرائنا أن يكفّفوا شرّة الحرص في نفوسهم بالتضحية ؟
ومعاذ الله أن أقصد التضحية بالدم فليست من طبع الكهولة ؛ إنما أقصد التضحية
بالتهاك على الرأسة ، والتهافت على المنصب ، والتكالب على المال ، ليصح الخلق
المريض ويأتلف الأمر الشتيت ويعود الجائر إلى سواء السبيل .

برّد الله بالرضوان ثراكم يا شهيدى الواجب ! لقد هزتما للمعالى هماً توشك
أن تهمد ، وذكرتما بالجد نفوساً تكاد أن تنسى ، وأضفتم اسم مصر إلى أسماء
الأمم التي روت بدمائها أصول الخير المشترك ! ولئن كان مصرعكم عثرة أليمة
في أول الطريق الجديد ، فإنه حرى أن يسدد خطانا فيه ، ويظهر قوانا عليه ،
بحسن الاقتداء بالبطولة وصدق الاعتبار بالخطأ . وما مات من رجالك من أحيائك ؛
ولا ذهب من مالك ما علمك .

طأطئوا الرءوس يا قوم إجلالاً لمصرع البطولة !

إن شهيدينا قتلا في السماء ، وغُسلَا بالنار لا بالماء ، ودُرجا في علم لا في كفن ،
وحُملا على مدفع لا على نعش ، وكتبنا في سجل الخلد لا في دفتر (الصحة) .
فهل هذه الموتة العظمى تفتّ في الأعضاء وتقل من غرب العزيمة ؟

إن الأمة التي لم تكّد تأخذ بأسباب الطيران حتى يبادر إلى خوض أهواله
فتاة من فتياتها ، ويسبق إلى الشهادة في سبيله فتیان من فتياتها ، لا يستطيع
أن يكسر من ذرعها حادث ، ولا يتكأدها في طريقها إليه عقبة .

سلام الله على أشبالنا في الجهاد ، وعلى أبطالنا في الاستشهاد ، وعلى شهدائنا
في قدس الخلود !

فلسطين

بين حديد الانتداب الذي يأكل الأجسام ، وذهب الصهيونية الذي يأكل الأرض ، يعيش العربي في فلسطين محكوم عليه بالقتل أو النفي ، إذا سلم له بدنه لا يسلم له وطنه . وما هذه الصرخة التي صرخها فصكت المسامع الصم وبلغت الضمائر الغُلف ، إلا العارض المُنذر في الحى بالضرر يلوعه ، أو الخطر يَرُوعه ، أو الظلم يحيق به !

وإن الصرخة للحياة تُسلب ، أو للديار تغصب ، لهى الصرخة التي يدوى فيها صوت الحق ، ويمتزع بها أنين العدل ، ويضطرب فيها احتجاج الإنسانية على قوم اتخذوا المدنيّة حِبالَة لاستعمار الأوطان ، ووسيلة لاستعباد الأمم .

كانت البربرية في العهود الخوالى تغزو سافرة الوجه ، وتتهب ظاهرة اليد ، وتقول صريحة العبارة ، وتعمل واضحة الغاية ؛ فجاءت مدنية اليوم فوضعت اليد الحمراء في القفاز الأبيض ، وسترت الوجه الكاشم بالنقاب الخادع ، ووقفت بين الناب والفريسة بمعاهدات الصداقة ومؤتمرات السلم ، وصاغت معاني القوة والغصب في ألفاظ القانون ومصطلحات العلم ، وأشفقت على شعور الإنسانية فسمت الاسترقاق تمدينًا والاغتصاب انتدابًا والحماية وصاية ، وعمّقت أغوار القلوب السياسية فلا تعرف لماذا حرّمت بيع إنسان لإنسان ، وحلت بيع شعب لشعب !

هذه أمة من أسبق الأمم قدماً في المدنية ، وأغرق الشعوب نسباً في الحرية ،
تسير على دستور رفيع الدعائم أثيل المنبر ، ولم يمنعها عرفها الموروث ولا شرعها
القائم أن تبيع فلسطين العربية جهراً لنفايات اليهود وليس العرب من ممالكها
ولا فلسطين من أملاكها ! ثم تسخر لضمان هذا البيع الباطل قوة الحكومة
وسلطان الدستور ، وتمثل تحت العلم البريطاني وعلى موطن المسيح أروع مآسى
العدالة !

سلطوا على البلاد الجوع وأرسلوا من ورائه الذهب ! فكأنهم قالوا للعربي
البائس : إما الوطن ولا حياة ، وإما الحياة ولا وطن ! فأما الذين قهرهم الفقر وغرهم
المال فقد باعوا أنفسهم وأهلهم بيع الغبن للدخيل ؛ وأما بقايا السيوف وأحفاد
الفاحين فأثروا أن يُدفعوا أغرة في ثراها العزيز ، على أن يتركوها أذلة لليهود
والإنجليز ؛ فدافعوا الأزمة بالصبر والانتداب بالعزم والصهيونية بالمقاطعة ،
وأروا هذه القوى الثلاث التي حالف بينها الباطل أن العربي الذي غزا العالم
ولا يمسك رmqه إلا قبضة من سويق وشفافة من ماء ، لا يُخذل من قلة ولا يفشل
من جوع !

لك الله يا فلسطين ! لشد ما تُكابدين من عسف القوى وكيد الغنى وقسوة
الظالم . . . !

إن دموعك منذ الفاجعة لم ترقأ ، وجروحك منذ الواقعة لم تندمل ، وصوتك
الجلزع المكروب لا يزال يجلجل في أعماق الشرق وآفاق العروبة مستغيثاً من
الخطب الذي ناء بألمانيا وأنتقض ظهر الدول ! ولكن بنيك الباسلين يا فلسطين
يتنافسون في مجد الموت وشرف التضحية ! فهل تخشين أن يعيث في أديمك

المقدس عائث وأنت ترين شبابك الميامين يخوضون غمرة الهول وراء زعيمهم الشيخ ، وصدره الواهن مشوب بعزم آباءه ، وشعره الأبيض مخضوب بدم أبنائه ؟

الوطن العربي اليوم في البلاء سواء ، لأنه فقد الروح الفتية التي كانت تعمره ؛ والحيوية القوية التي كانت تعمره ، وأصبح هيكلاً متهدم الجرف لا يملك بعضه بعضاً

على أن فرغته الإجماعية لمظلمة فلسطين تبعث الأمل في عودة تلك الروح ورجعة هذه الحيوية . ولعلها فرعة المغيث المسعف لا فرعة النادب الأسف ؛ فإن مصاب فلسطين لا ينفع فيه البكاء ولا يدفع منه الحزن

إن فاجعة وادى الحوارث صورة صغيرة لمصير فلسطين إذا استنام أهلها للوعود وبيعت أرضها لليهود ، وقبض العرب أيديهم عن معونة إخوانهم على دفع الخطب . وإن دول الأرض جمعاء لتعجز عن إيفاء وعد بلفور ما دامت الأرض في يد العرب ، فإذا ما استنزلوا عنها بإغلاء الثمن وإغواء الذهب شتتهم القانون وحده تحت كل كوكب . فإن اليهودي إنما جاء فلسطين ليشتري وطناً يستعمره لا حقلاً يستثمره ، فكل شبر من الأرض يخرج من يد العربي يدخل إلى الأبد في الوطن اليهودي ، ويومئذ لا يرده إلى أهله احتجاج ولا تظاهر ، وما الاحتجاج والتظاهر إلا إعلان للحق لا دفاع عنه . والدفاع المنتج عن فلسطين أقواه وسيلتان :

١ — أن يأخذ الزعماء والعلماء موثقاً من الشعب ألا يبيع المضطر أرضه

لغير العربي مهما خدعته المطامع ودلاه الطامع بغرور

٢ — أن يقوموا بدعاية منظمة قوية في الأقطار العربية وعلى الأخص

في مصر إلى تأليف الشركات العقارية لاستعمار فلسطين

والعرب الذين فُطروا على نُصرة الأخ ونجدة الصريح ومعونة الضعيف ،

لا يعرضون عن يد فلسطين التي تمتد وصوتها الذي يهيب :

فإن كنتُ ما كولاً فكن خيراً آكل وإلا فأدركني ولما أُمزق

[١١ ديسمبر سنة ١٩٣٣]



رمضان...

نعم رمضان ! ولا بد من رمضان بعد أحد عشر شهراً قضاها المرء في جهاد العيش مستكلب النفس مستأيد الهوى متنمر الشهوة ، ليوفظ رواقه الخير في قلبه ، ويرهف أحاسيس البر في شعوره ، ويُرجع روحه إلى منبعها الأزلي الأقدس فتبرأ من أوزار الحياة ، وتطهر من أضرار المادة ، وتتزود من قوى الجمال والحق ما يُمسكها العام كله على فتنة الدنيا ومحنة الناس

فرمضان رياضة للنفس بالتجرد ، وثقافة للروح بالتأمل ، وتوثيق لما وهى بين القلب والدين ، وتقريب لما بعد بين الرافه والمسكين ، وتأليف لما نفر من الشمل الجميع ، وتندية لما ييس من الرحم القريبة ، وتفحة من تفحات السماء تقعم دنيا للمسلمين بعبير الخلد وأنفاس الملائكة !

ورمضان كله عيد وطنى شامل ، تفيض بالسرور أنهاره ، وتغرق في النور لياليه ، وتفتر بالأنس مجالسه . فالرجال يحيون أماسيه في محافل القرآن أو منازل اللهو النزيهية ، والنساء يوزعن الوداد والأنس على الأبهاء الكثيرة ، والأطفال الهازجون يزينون الطرقات بفوانيسهم الملونة الصغيرة ، والبيوت الباقية على العهد تتقرب إلى الله بالذكر والصدقات ، والمساجد المقفرة طول العام تعج بالوعظ والصلوات ، والمآذن الحالية بالمصاييح الشادية بالتساويح ترسل في أعماق الأبد نور الله وكلمته ! وكل شيء في رمضان جذلان مغتبط ، ما عدا الرومي في الحان ، والشيطان في كل مكان !

ورمضان مظهر قومي رائع يعيد إلى القاهرة عز القرون المواضي ، فيصبغ
لونها الأوربي الحائل بصبغة الشرق الجميلة ، ويرفع صوتها الخافت بشعائر الصوم
الجليلة ، ويبرز شخصيتها الضائعة في زحمة الأجانب بالمظاهر الرسمية للحكومة ،
والتقاليد العرفية للشعب . وما أروع القاهرة في سكتها عند الافطار وجلبتها
عند السحور وهزتها ساعة انطلاق المدفع !

ورمضان بعد ذلك كله رباط اجتماعي وثيق : يؤكد أسباب المودة بين أعضاء
الأسرة بالتواصل والتعاطف ، وبين أفراد الأمة بالتزاور والتآلف ، وبين أهل
الملة بذلك الشعور السامي الذي يغمرهم في جميع بقاع الأرض بأنهم يسيرون إلى
غاية الوجود قافلة واحدة ممتزجة الروح ، متحدة العقيدة ، متفقة الفكرة ،
متشابهة النظام ، متآلفة المعيشة

ولكن رمضاننا الأول وأسفاه لم يخف على طبع المدنية الحديثة ! فرمته
بقلة الإنتاج وكثرة الإهلاك وشل الحركة وقتل الصحة ، ونفته إلى أحياء العمال
وقرى الفلاحين ، واتخذت لنفسها من بقايا رمضان آخر رقيق الدين خفيف
الظل باريسى الشمائل ، يبيح النظرة المريية والكلمة العارية والأكلة الدسمة
والسيجار الغليظ ، ولا يسألهم من ظرفه إلا أن يجعلوا العشاء عند الغروب وبعد
طلقة المدفع ! وإذا كان في بيوت المحافظين قارئ يقرأ القرآن ، وإذا كان في بيوت
فليكن في بيوت المتجدين (راديو) يرجع أصوات الغناء ، وحالك يردد أهازيج
الرقص !

وهكذا تجدد الليالي ونحن نلعب ! كأنما كتب علينا أن نأخذ الحياة من
جانبا الفضولى العاثر فتأثر بها ولا نؤثر فيها ! وكأنما همنا أن نعيش صعاليك

على تقاليد الأمم دون أن تميزنا خصيصة من قومية ، ولا شعيرة من عقيدة !
وكأنما الشعائر التلمودية القاسية عاقت اليهود عن المغامرة والنبوغ والتقدم !
أما رمضان القرية فلا يزال يحل من أهلها محل النور من العين والمهجة من
القلب ! تجسمت في خواطرم صورته حتى جعلوه رجلاً له حياته وعمره وأجله ...
يذكرونه على شهرين من مقدمه فيحسبون حساباه ، ويهيئون أسبابه ! حتى
إذا دب إليهم من غيوب الآباد ديب الهرم سُلِسِلَت الشياطين ، وأرسلت الأملاك ،
وهبطت الأرواح ، ودرّت أخلاف الخير ، واغدودقت أصول النعم ! هنالك يملك
القرية شعور تقى هادئ خاشع ، فلا تعود تسمع لغواً في حديث ، ولا عنفاً
في جدل ، ولا بغياً في خصومة . فإذا أذهل أحدهم الغضب فرفع صوته ندم عجلاً
واستغفر ثم قال : اللهم إني صائم ! ذلك لأن رمضان يُرجع الفلاح نقياً كقطرة
الزُّن ، طاهراً كفطرة الوليد ، فلا يقتل ولا يسرق ولا يشهد الزور ولا يقول الهُجر
ولا يأتي المنكر . وما أجمل أن ترى فاتك الأمس ناسك اليوم ! يمشى من البيت
إلى المسجد في ثوبه النظيف ويُد الخطو غضيض الطرف لا تترك المسبحة يده ،
ولا يفتُر عن التسبيح لسانه ؛ فإذا قابل القروية الجميلة وعلى رأسها الجرة اتحد جمالها
في نظره بجمال الخير في نفسه ؛ فأمعن في التسبيح واستغرق في الله ، لأن إبليس
في رمضان سجين وباب الغواية مغلق !

يقضون صدر النهار في تصريف أمور العيش ثم يجلسون على المصاطب
في أشعة الأصيل القاترة يستمعون القصص أو الوعظ ؛ حتى إذا تضيّفت الشمس (١)
جلسوا في الطريق أمام بيوتهم فمدوا الموائد على الأرض ودعوا إليها عابري
السيبيل وطالبي الصدقة ؛ ثم لا يلبث الأخاء المحض أن يجعل الموائد المتعددة مائدة
واحدة يصيب منها من يشاء ما يشاء !

(١) تضيّفت الشمس : مالت للغروب

أما لي لهم فاستماع للقرآن واستقبال للإخوان ومسامرة مشتركة ساذجة تجمع
أفناناً شتى من شهى الحديث . وكلما انقضى نهار من رمضان تغصن سِرار من
وجوه القوم . حتى إذا لم يبق إلا رُبعه الأخير تمثلوه محتضراً يكابد غصص الموت
فندبوه في البيوت والمساجد ، ورثوه على السطوح والمآذن ، وبكوه يوم (الجمعة
اليتمية) أحرَّ بكاء !

فإذا كان المغرب الأخير ولم يبق من رمضان إلا بقية روح ، خامرهم الخوف
من انطلاق الشياطين السجينة فجلس الصبيان على أبواب الحجرات يكررون البسملة
ويضربون حديدًا بحديد ، ليحفظوا البيت من دخول شيطان مرید !
ذلك رمضان كما تدركه الفطر السليمة والقلوب المؤمنة . وهو وحده الباقي
لفلاحنا من غفلات العيش ولحظات السعادة ! ولكن وأسفاه ! لقد أفسدت
الأزمة رمضان القرية ، كما أفسدت المدينة رمضان المدينة !

[٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٣]



لطفية الناري

منذ أسابيع استشهد في ميدان الطيران حجاج ودوس ! فتقاطرت في هذا المكان عبرات الأسى سوداء من هذا القلم ، وتصاعدت زفرات الأسف حارة من هذه الصحيفة ، وقلنا إن الأمة التي لم تكذب تأخذ بأسباب الطيران حتى يسبق إلى الشهادة في سبيله فتیان من فتیانها ، ويبادر إلى خوض أهواله فتاة من فتياتها ، لا يستطيع أن يكسر من ذرعها حادث ، ولا يتكأدها في طريقها إليه عقبة .

كما نقول ذلك والقدر الذي فتح لهذين الفتيتين في السماء باب الخلود ، كان يشق لهذه الفتاة في الأرض طريق الجدد ! فما كاد يعثر بنا الحظ في الجو المضرب الغريب ، حتى نهض عجلان في جونا الضحيان العجيب ؛ وكان يوم نهوضه الأغر يحلق في سماء مصر الجديدة ثمانية وعشرون نَسْرًا من نسور أوربا القشاعم ! يستعدون للسباق في سماننا المشرقة الطليقة ، ويستنئون للرهان استنان الجياد العتيقة ، ويظنون أن مصر التي فكرت في الطيران آخر الأمم لا يمكن أن تكون إلا مطاراً لكل طائر ، ومائدة لكل زائر . أما أن تكون قرنًا يغالب ، وموتوراً يطالب ، فذلك ما لم يقع في وهم ولم يدُر في خلد ! ولكن مجدنا الذي تحدى القرون وغبر في وجه الفلك لا يزال جيش الغضب على غدره الجو بشهيديه في فرنسا ! فهو يُدَمِّث لنسوره مثنى الضيافة ، ويعقد غيب ضميره على الثأر ، ولا يثار إلا بطريقة تليق بماضيه وتزكو بأصله ! نفث في روع حمامة من حمام الوادي أن تسابق هذه

النسور في حلبة الهواء إلى الأمد ! فصفت الحمامة المصرية في الجو جناحها الهش وریشها الناعم ؛ ثم نظرت نظرة التحدى إلى النسور المحومة ، فتوقدت صدور الكواسر غضباً من هذه الجرأة ، وشق على ملوك الهواء وجبابة السماء أن يشعروا بهذه الحمامة وقالوا ممتعضين : ريشة توائب الريح ، وهامة تعاجز الثور ، ونملة تناجز القدر ! وقال « ضيوفنا » الأغزة أصحاب النشرة البذيئة^(١) ، والفخر المتعصب يثنى أعناقهم ، والزهو الساخر يلوى أشداقهم : « يا لغرور أبناء العرب ! متى دخلت « الحمير » مضامير السباق ؟ ومتى سامت وحوش « البهائم » سوابح الطير ! ألم تكفهم فضيحة « الجنديين القذرين » : حجاج ودوس ؟ وكانت عيون مصر حينئذ تشخص إلى السماء مغرورة بالأمل ، ومحركات الطوائر الدولية تهزم في الجو الصافي هزيم الرعود ، والأجنحة المعدنية تضرب في الهواء الساكن إلى الاسكندرية ، و (لطفية النادى) تتقدم بطايرتها الصغيرة السرب المتعاقب المثار إلى قصبات السبق ! ثم غابت الأصوات في مطاوى الفضاء واستولى على المطار اللجب سكون وصمت . حتى إذا أزف موعد الرجوع سرحت العيون في الجو ، وسبحت النفوس في الخيال ، وتجاذبت أم أوربا حبل الأمل في الظفر ! هل هي فرنسا ؟ هل هي إنجلترا ؟ هل هي ألمانيا ؟ ولم يقل أحد لا منا ولا منهم : هل هي مصر ؟ ولكن القدر على الغيب منا ومنهم قالها ! وكان الجواب الحاسم عند لطفية النادى !

من كان يخطر بباله منا — ولا أقول منهم — أن الآنسة لطفية بنت الخدر العربى ، وذات الخفر المصرى ، تبارى أساطين الطيران ذوى الماضى البعيد والمران الطويل والخبرة الواسعة ، وهى لم تقض فى علاج هذا الفن غير ستة شهور ؟ فكيف

(١) هى نشرة نشرها سفهاء الأجانب على الدواوين والصحف قذفوا المصريين فيها بالكلمات التى بين الأقواس !

يقع في الظن أن تسبق سابقهم وتهبط الأرض قبله بدقيقة كاملة ؟
هنالك طفر المصريون من الفرح وماد الأجانب من الدهول ، وأقبل
المحكمون على الطائرة المجلية^(١) يعصرون يدها من الإعجاب والدهش ، ويقولون
والعرق البارد يتألق فوق الجباه الزهر كما يتألق رشح الرطوبة فوق الرخام الأبيض :
يا آنسة قبلنا سبتك موضوعاً ورفضناه شكلاً ! لأن هناك على ساحل البحر
(خيمة) أخرى لم تدور حولها . والخطأ خطأ المنظمين لأنهم لم يضعوها في مكانها !
ثم منحوا المصلى الفرنسى جائزة المال ، ومنحو السابقة المصرية جائزة الشرف
وهل تبتغى مصر غير هذا ؟

ليقل لنا أصحاب (النشرة البذيئة) ما رأيهم في هذا الشعب ؟ ألا يرون أنهم
جحدوا فضله كما غمطوا حقه ؟ ألا يجدر برئاءب المدنية والعلم أن يفهموا أن عجز
القيادة وتردد السياسة وطغيان الدخيل إنما تخمد الشعور إلى حين ، وتضعف
الأخلاق إلى حد ؟ وأن الأمم الحرة بطبيعتها لا تلبث أن تنفى الزغل عن حقيقتها
فتظهر مجلوة الصفحة نقية الأديم ؟ أفلا ينظرون إلى المصرى في الميادين الحرة كيف
سبقت قدمه وعلت يده ؟ ألسنا في الرياضة والسباحة والغناء والأدب والطب
أبطلاً عالميين أو شبه عالميين ؟

إن أسوأ الآراء الأوروبية في مصر ربما كان عن المرأة ، فانتصار البطلة
(لطفية) في هذا الميدان الخطير يصحح الخطأ في العقول المنصفة ، ويُقر الحق
في النفوس الكريمة .

إفتحوا لنا يا قوم طريق الحياة ، وافسحوا لنشئنا مجال العمل ، وخلوا بين نفوسنا
وبين الحرية ، ثم انظروا بعد ذلك ماذا يفعل الفتى كما رأيتم بعيونكم ماذا فعلت الفتاة !

[٨ يناير سنة ١٩٣٤]

(١) المجلى : السابق من خيل السباق والمصلى الذى يليه

في الأقصر

— ١ —

كان لا بد للأغب أن يستجِمَّ وللصائم أن يعيّد ولمجادل في مجد الفراعين
أن يزور الأقصر^(١)

وكان (قطار الآثار)^(٢) قد جرَّ الجيوب الهزيلة على أن تبارى الجيوب
الأمريكية في (وادى الملوك !) . وقطار الآثار كقطار البحر فكرة سديدة
تنفذها إدارة رشيدة ...

ولكنَّ حرفَ (لكن) لا يزال وأسفاه أكثر أخوات (إن) استعمالاً
وأشدها بحياتنا اتصالاً ! فأنا مضطر أن أقول : ولكن هذا القطار لا يصلح
إلا لأقوياء البنية أشداء العصب ممن يستريحون على الوقوف وينامون
على الرفوف^(٣) ويغمضون على ضيق المكان وكِظَّة الديوان وخرج الأسيرة .
أما أخو الجسد المهدود والعصب المجهود فلا مناص أن يقضى ليله كما قضيت :
مقسم النفس بين القلق والأرق ، لا يجد نفسه ولا يملك قلبه !

سار بنا القطار المثقل في منتصف الساعة التاسعة من مساء يوم الإثنين أول

(١) إشارة إلى مقال (فرعونيون وعرب) (٢) هو قطار خاص تسييره في الشتاء
إدارة السكة الحديد بين القاهرة والأقصر بأجرة مخفضة لتسهيل للناس رؤية الآثار كما تسيير
في الصيف كذلك قطار البحر إلى الاسكندرية (٣) المراد بالرفوف أسرة ضيقة مشدودة
إلى حائط العرببة بعضها فوق بعض .

أمس العيد ، وكان المفروض على راكبه أن يبيت قائماً في الممشى أو نائماً على (الرف) ، أما الجلوس لو أراد فلا سبيل إليه إذ لا محل له ! وكان من الميسور تلطيف هذا المقدور بشيء من لهُو الحديث لو جمعنا الحظ العنيد برفقة من أهل الأنس ، ولكنني كنت أنا وصديقي بين أربعة لا يصل أحدهم بالآخر سبب من جنسية أو لغة ، فحملونا مكرهين إلى الفراش النابى والوساد القلق ... ولا أريد أن أثقل عليك وعلى إدارة القطار بذكر ما أعقب ذلك من أزمة الصدر وضمة القبر وإزعاج الصحب وإغاثة الإسعاف وقضاء الليل الطويل قابلاً أمام الباب لا يندفع في عيني نَعاس ولا ينفس عن صدرى فرج ، فإن علاج ذلك كله إعداد عربة للجلوس يتنفس فيها الساهد المكروب باللهو والسمر

القطار الجاهد يخوض في أحشاء الليل المظلم ، والهواء البارد يسفى غبار الطريق الخائق ، والركب المترجح يغط في النوم غطيظ الخلى ، والكرى الجائر قد غلبنى على أخوى فأوى بهما إلى المضجع ! وأنا وحدى في هذا القفص الطائر أرعى نجوم الكهرباء في سمانه المحصورة الرفيعة ، وأقول في آخر ليلة من ليالى رمضان المحتضر : متى يا إله الناس يصبح هذا الليل ؟ !

وأخيراً أخذ نور المصابيح الزاهر يشحب قليلاً قليلاً ، وسترُ الظلام الصفيق يرق عن جوانب القطار شيئاً فشيئاً ، وأنفاسُ الفجر الندية تخلص إلى من خلال النوافذ ؛ وكنا حينئذ نمر على الجسر الحديدي « بنجع حمادى » ، ففتحت الشباك القريب وأرسلت طرفى الكليل في شمال الوادى ، فرأيت رءوس الشجر الرفيفة^(١) وذوائب النخل الرفيعة طافية في سيل من الضوء المشوب بالمهم.

(١) الرفيف من الشجر ما يقطر بالندى

وتبينت القرى الجاثمة على الضفاف الخضر تستيقظ مطولة الجنبات مع الطبيعة ،
والصبح الوليد يهتك عن مهده الوردى كلمة^(١) السحر الداكنة ، وأبصرت من وراء
(قنا) خطأ من ذائب المرجان قد ارتسم على قمم الجبال اللوئية ، ثم أخذ ينتشر رويداً
على الظلال المتخلفة من بقايا الليل حتى غمر الوادى فاستبان في سهوله الخصيبة
حقول القمح والفول والعس يكلمها الطل ويهفو فوقها رقيق الضباب

أشرق الشمس علينا كما كانت تشرق منذ آلاف السنين على سبتى
ورميسيس ، فهى وحدها الخلق الذى شهد ضخامة الماضى ويشهد الآن ضالة
الحاضر ! فليت شعرى ماذا تقول ذكاء^(٢) فى هؤلاء الأقزام الذين يحجون اليوم
(طيبة) مختالين على مركب ليس لهم فى صنعه قسط من حديد ولا خشب ؟
ماذا تقول ذكاء وقد رأت ملوكنا العالقي وهم فى طفولة البشرية ينقلون قطع
الجبال من أدنى الشمال إلى أقصى الشلال على عجلات وآلات من خلق عقولهم
وصنع أيديهم ، ثم ترانا معشر الأعقاب نلوك الفخر أمام الغربيين بعظمة الأقدمين ،
وتتبجح أمام الأقدمين بعبقرية الغربيين ، فنحن كخلفة الدوحة العتيقة تنبت
رخوة على جوانب الجذر الثابت ، ثم يقعد بها الوهن عن مطاولة الجذع ، فلا هى
فى رسوخ الأصل وقوته ، ولا هى فى سموق الفرع وإشرافه !

لا يكاد الصعيد يختلف اليوم عما عهدته الفراعين منذ أربعة آلاف سنة !
فالشمس المعبودة هى الشمس ، والنيل المقدس هو النيل ، والقمح الذى خزنه

(٢) الشمس .

(١) الكلمة ما يعرف عند العامة (بالناموسية) .

يوسف (ع) هو القمح ، وجوارح الطير التي تحوم فوق ساحلى النهر هى بأنواعها وأشكالها وألوانها التى كانت تخلق فى أجواء « طيبة » ، لأن الحيوان والنبات قلما ينالهما التغير ؛ أما الذى نال منه الحدثان وغير من حاله الزمان فهو هذا الإنسان المسكين ! فإنسان النيل لم يعد ذلك الذى قارع الدهر وصارع البلى وحاول الخلود وقدس القوة وأخضع العراق والشام وفلسطين والسودان والحبشة ؛ وإنما أصبح من فعل القرون وإلحاح الجور شيئاً من المتاع تابعاً للأرض ، يُملك ولا يملك ، وينتج ولا يهلك !

على أن القبس الإلهى العربى الذى بعث الضوء فى شبابه السكادى ، والحرارة فى جسمه المنحل ، لا يزال قديراً على إحيائه جديراً برفعه

وإذا كان البحر يتعاوره الجزر والمد ، والشمس يتعاقبها الغروب والشروق ، والطبيعة يتناوبها الخريف والربيع ، فإن مصر الناهضة تشارف بثروتها المد ، وتطالع بقاتها الشروق ، وتستقبل بشبابها الربيع !

فَحَتَّ الشمس واستطاع النظر القصير أن يجمع الوادى فى نظرة ! وهيهات لابن (الدلتا) الفسيحة أن يفهم معنى الوادى إلا فى أعلى الصعيد ! فهناك تتقارب السلسلتان بما وراءهما من موات وجذب ، وينساب بينهما النهر العظيم بما يحمل من حياة وخصب ، ويشعر المصرى الذى يرى هذا المنظر أول مرة فيجد واديه كله فى عينه وفى قلبه بنوع من الغبطة لم يحسه من قبل ، ويستغرق فى نشوة من الذكريات والأمانى لا يخرجها منها إلا وقوف القطار على محطة الأقصر . . .

وقف القطار ضحى على محطة الأقصر . وأخذ الحجيج المدنى يخطو على

إفريزها ذابل الأجفان خائر الأبدان من تكسير السهاد أو تفتير الوسن . وكان قوم يستقبلون زوار الآثار ، وقوم يستقبلون أعضاء المؤتمر الطبى ، فتدقق الركب المتجمع لدى الباب فى وجهتين مختلفتين . وذهب بنا أولياء القطار إلى موائد الإفطار فأصاب منها من أراد على قدر شهوته ، ثم قسمونا إلى قسمين : قسم يزور (طيبة الأحياء) فى الشرق ، وقسم يزور (طيبة الأموات) فى الغرب . وهل بقى لعمرى فى طيبة اليوم أحياء أو أموات ؟! لقد ذهب الموت منذ بعيد بأحيائها إلى القبر ، وذهبت الحياة منذ قريب بأمواتها إلى المتحف ! فلم يبق منها على عدوتى الوادى غير أنقاض طفت على وجه القرون ، وأبعض بينها وبين الفناء صراع لا يفتر !

الأقصر مدينة رقيقة الحال تقوم على أطلال طيبة كما تقوم أعشاش الطيور على شُمِّ الصخور ! تسير فى شوارعها القروية وبين منازلها المتناثرة فلا يستبى طرفك منظر فاتن ، ولا يزدهى لبك مظهر غريب ، فإذا استثنيت (ونتر بالاس) وما تألق من الفن فى فنائه وأبهائه ، ومرفاً النهر وما تفرق من الحسن فى ظله ومائه ، وشارع السلطان حسين وما تنسّق على حفافيه من نخله وكهربائه ، والجو الفاتر وما شاع من القوة فى شمسهِ والحياة فى هوائهِ ، وجدتَ بلداً كأحقر بلاد الناس يعيش حاضره على ماضيه وتذهب عينه على آثاره ! ولكن ولّّ ظهرك حضارة الأحداث ، وتعال نِسر وراء العلم (ضاوى)^(١) فى طريق الكرنك . وبين الأقصر والكرنك مدى من الزمان والمكان يتسع فيه الخيال ويسبح فى أعماقه الخاطر . ومن الذى يستطيع أن يجول فى مسارح الجبارين دون أن يتمثل هذا الفصل الذى افتتح به الأزل رواية العالم ؟

(١) رجل من عوام الأقصر كان دليلاً فى هذه الزيارة

فهنا منذ بضعة آلاف سنة نبتت في ظلال هذه الجبال إنسانية باكرة ترسل النظر الثقيل البطيء في هدوء واستقامة وبعد ، ويصور لها عقلها الطفل ألوان التعاجيب والتهاول من قوى الطبيعة الخفية ، فتنتج الجبال قبوراً ، وتبتنى الصخور قصوراً ، وتقيم لآلهتها الغلاظ من صم الجلاميد تماثيل ومحاريب يتضاءل أمامها الفن الحديث .

وهنا منذ أربعة آلاف سنة كان الفكر الإنساني يقطع مرحلته الأولى بينما كان الرقاد الأزلئ يغشى سائر الأرض ، ويطيح مثاقلاً عن جفون يونان وأشور .

وهنا سجل الزمن الواعي على مُلْسِ الغرائب أولى صحائف الفكر ، فألهمت اليهود والإغريق في الدين والفن والجمال في شتى ضروبه وصوره . وهنا كانت لبنى الإنسان بداية حسنة لولا أن طغيان الفرد المتحكم وسلطان الدين المتعسف قد جعل لهذه البداية نهاية من الجور والإرهاق محزنة !

فها نحن أولاء بين صفيين من الكباش المسيخة الجاثية أمام معبد أمون . ومعبد أمون يتلو عليك وحده إن شئت نبأ القوم ! فهو أكداس هائلة من ضخام الصخر تنافس في ثقلها وركمها الجبابرة في خمسة عشر قرناً منذ سبتى الأول ! منها أبواب وحجر ، ومنها محاريب وتماثيل ، ومنها مسلات وعمد ؛ ومن ذلك كله ما هو قائم يتحدى بطوله السماء ، وما هو نائم يفدح بثقله الأرض .

أنظر إلى هذه الغابة الكشيفة الخيفة من الأعمدة ! أتنظن الشمس منذ أوقدها الله أشرفت على مثلها في الضخامة والبساطة ؟ ألا يذكر هذا العمود الذي تتفتح فوق هامته زهرة اللوتس العجيبة على علو خمسة وعشرين متراً بصرح تيتان الخرافى وإخوته^(١) ؟

(١) تزعم الأساطير أن تيتان وإخوته هم الطبقة الأولى من نسل الآلهة . نسلوا من أبوين هما السماء والأرض ، ثم تمردوا على الآلهة فجعلوا الجبال طبقات بعضها فوق بعض ليعرجوا عليها إلى السماء فصعقهم زحل

من الذى قطع هذه الأطواد ، ووضع هذه الأوتاد ، وشاد هذه الأروقة ، ونحت من الصوان هذه الآلهة البكم ، وخلد الملوك على هذه الحجارة الصم ؟ هو شعب النيل الذليل البأس ! بناها وبني سواها على قفار الخبز وألحوب السوط ونزع الروح . ولا تستطيع أن تصدق وأنت ترى هذه المعجزات أن مصر كانت فى مدى ثلاثين قرناً تعمل غير ذلك !

استعبدت فكرة الخلود عقول الفراعنة فاستعبدوا فى سبيلها جسوم الشعب ، وملكهم حب الآخرة فسخرُوا له حب الدنيا ، وفتنهم متاع السماء فأرصدوا له متاع الأرض ، وأغرقوا فى إغراز النفس وإيثار الحياة وتقديس العظمة فأنكروا حرمة العامة ، وجحدوا قدرة الموت ، وجعلوا معنى الضعة ، وخلقوا لأجيال الأبد من يطمح كالملوك ويطمع كالكهنة ويخضع كالسوقة !

لقد كنا نتجمع حول دليلنا الهاذى فى أروقة هذا المعبد المحطم ، نطن فى أجوافه طنين البعوض باللحون المختلفة : نذكر أوائلنا الذين ارتجلوا للناس لفظ المجد ، واقتحموا على الدهر باب الخلد فترَّهى ونصلف ؛ ونذكر أسلافنا الذين قامت على أشلائهم هياكل أمون ، وفاضت بدمائهم بحيرة أوزيريس ^(١) فنأسى ونأسف ؛ ونذكر أمام ذلك الماضى الخالد حاجز الكرنيش ^(٢) وحائط المحكمة المختلطة فنمضى ونضحك !

كان (ترجماننا) الأُمى (ضاوى) يشرح للأساتذة الجامعيين والثانويين

(١) هذه البحيرة لاتزال فى المعبد فوارة العين إلى اليوم
(٢) الكرنيش شارع البحر فى الاسكندرية ، وبناء المحكمة المختلطة فى القاهرة ؛ أنفق عليهما مئات الألوف من الدنانير ؛ ثم اعترىهما الانحلال والتصدع بعد قليل .

حديث تحتّمس الثالث مع أخته العاشقة ، ووجوه التماثيل الواجحة غرقى فى صمتها الناطق ، تتراكم على قسماتها أنظار الخليقة ، وتجم على شفاها أسرار القرون ، وروس الأعمدة القائمة ناتئة فى أشعة الشمس كالنزولة الهائلة ، ترسم بظلالها الوريقة تعاقب الساعات منذ آلاف السنين ! وكانت عيناي الحاملتان قد وقفتا على تماثل من تماثيل رمسيس الأكبر يخطو إلى الأمام خطى المصمم الواثق ويأخذى يديه مفتاح الحياة يجتاز به موت الساعة إلى خلود الأبد .

والخلود حلم الفراعنة الدائم وهواهم الملح ، أخطره بباهم قبل الناس ما مُتّعوا به من فيض الحيوية وخفض العيش ونفوذ السلطان واكتمال اللذة . فلوأنهم عاشوا على جذب من الإقليم وحرب مع الطبيعة وهوان على الدهر ، لاستشرفت نفوسهم للبلى ، واستهلكت عقولهم للعدم .

خلد الله الروح وحاول الفراعين تخليد الجسد ! وما يدريك لعلم كانوا يظفرون بهذا الخلود لو خلى الناس بينهم وبين الزمن . لقد قهروا الفساد والدهر ، وقهرهم اللص والفتاح ! فمنذ خمسة وعشرون قرناً ما برحت يد الإنسان تعبت بهذي الجسم والجروم ! جرب القدر عليها حقد قمبيز ، وعبت الاسكندر والقيصر ، وورع تيودوسيوس وعمرو ، وزهو المأمون ونابليون ، وعلم مسبيرو وكارتر ، فقطع بعض الرقاب وقوض بعض الأنصاب ونش بعض القبور ؛ ولكن بسمه رمسيس لا تزال كما أراها تناجز الفناء وتعجز القدر ! وأى سبيل بعد ذلك إلى بلاها ومسلاؤها فى العواصم الأوربية ومخلفاتها فى المتاحف الأثرية باقية ما بقيت الأرض ؟ !

صعد بنا الدليل باب المعبد فى سلم جانبي حديث يقوم عن شماله . ولوقلت

لك البرج بدل الباب تقربت إليك وصفه ! فهو سطح عريض من ضخام الجلاميد تكدس بعضها فوق بعض كما ترى في الهرم . أشرف من شرقه على ما بقى من صخور السقف فوق الأساطين ، وتراءى من النصب خلال الأواوين ، وطعن في السماء من أسنة المسال ؛ ومن غربه على طريق بين صفتين متوازيين من المكباش الرابضة في حجم البقر يسايره النظر والفكر إلى مرفأ كان ولا شك ينتهى عنده قبل أن يأخذ النهر من الساحل الغربى ألف متر .

في هذا الطريق كانت تخرج الجنائز الملكية من المعبد إلى نهر الحياة فتعبره إلى مراقدها الصخرية الأبدية في جوف الجبل . وفي هذا الطريق كان يسير موكب أمون السنوى إلى النهر ، أمامه زمر المهرجين والمشعوذين يدورون على الأرجل ويمشون على الأيدي ، بين أخلاط من باعة الفاكهة وشوأة الأوز والبط . ثم يلي هؤلاء جوقات الموسيقى تصدح بالأهازيج ، وطبقات الكهنوت تعج بالأناشيد ، وحاملو الأصنام والبنود يسرون بها ويثدأ في خشوع ورهبة ، حتى إذا بلغوا المرفأ تقدموا بأمون فجعلوه في فلكه الذهبى ، وبالألهة الأخر فوضعوا كل إله وكل إلهة في زورق خاص . ثم يسير الفلك بالإله الأكبر متنزهاً على النهر تتهادى من ورائه زوارق الآلهة على الماء ، وتهلل من حوله جموع الناس على الشاطيء !

من العسير على النفس الشاعرة أن تعيش في حاضرها بين هذه الأخيلة والصور ! فحينما أرسلت طرفك أو نقلت خطاك وجدت حجراً يكلمك أو أثراً يلمحك ! هذا التمثال الذى تراه أمامك ، أتدرى كم مرة طالعت الشمس ، وكم نظرة نظرته الناس ، وكم وقفة وقفها عليه أقوام من قبلك بعضها للتقديس وبعضها للتدنيس وبعضها للعبرة ؟ !

إنك لتغرق من هذا الماضى الحاضر فى فيض من التأمل العميق الهادئ
يقطعك عن الدليل ويفردك من الجمع ، فلا تجد — متى عدت لحظة إلى نفسك —
الدليل الذى كان يخطب ، ولا الحشد الذى كان يسمع ، ولا العربة التى كانت
تنتظر . . . !

خرجت فيمن تخلف فى المعبد من الأصدقاء الشعراء ، وأخذنا نسير الهوينى
فى الطريق المرمل حتى أدركتنا فى بعضه عربة أقلتنا إلى الفندق .
وفى الأصيل المونق من هذا النهار المشرق خرجنا نشهد وداع الشمس الغاربة
لأطلال معبد الأقصر .

ومعبد الأقصر كذلك أجمّة من العمدان الباسقة المتشاجنة نتأت على سيف^(١)
النهر فى طول ثلثمائة متر بمشيئة آل أمينوفيس ورمسيس الأكبر !
وأول ما يملك عليك عقلك وقلبك فيه منظر يجمع تاريخ الوادى ويختصر
أطوار العقيدة : ذلك منظر المسلة فى المعبد ، والبرج فى الكنيسة ، والمأذنة
فى المسجد !

تجاورت هذه الثلاثة فى هذا المكان منذ قرون تجاور الخصوم اللدّ ، لا يسفر
بينها سلام ولا تقطع حروبها هدنه !

ومن الغريب المعجز أن تصمد هذه الأوثان لهجمات المسيحية والإسلام ،
صمودها العجيب لعاديات الليالى والأيام . . . !

— ٤ —

لا تجد فى معبد الأقصر ما تجد فى معبد الكرنك من ذلك الاستغراق

(١) سيف النهر : ساحله .

الذهنى الذى يمحو الوجود من ناظرك ، ويعفو الحاضر فى خاطرك ، ويُحييك مع أمينوفيس ورمسيس فى دهر واحد ! فإن هذا المعبد يقع فى جبهة المدينة ونزهة الناس فلا تنفك وأنت فيه بين نظرة خادعة من مفاتن النهر ، وزفرة صادعة من بواخر كوك ، ولفظة صاحبة من لغط المارة . ولن تستطيع وعيناك تضطربان بين الهيكل والكنيسة والمسجد وقصر السلطان وونتر بالاس أن تحصر ذهنك فى موضع ، وتقتصر فكرك على موضوع . فكل صورة من هذه الصور الموائل يمثل فكرة ويسجل نهضة ويؤرخ حقبة ؛ أما معبد الكرنك فظل بنجوة من تيار الزمن الجارف ينعم بسكونه الشعرى فى اعتزاله ، ويتمتع فى جوه الفرعوني باستقلاله

فتننا سحر الأصيل عن شعر المعبد ، فذهبنا فى طريق السلطان حسين نشهد أروع مجالى الجمال فى الطبيعة . ومن حدثك أن بلداً من بلاد الله غير مصر يتمتع فى يناير بدفء يستجيش العرق والبحر ، وضوء يغمر القلب والنظر ، وصحو يدوم النهار والليل ، فهو ولا ريب لم ير الأقصر ! وأى منظر تألقت به قدرة الله وتأنقت فيه يد الطبيعة كمنظر الغروب فى طيبة ؟ فالشمس المصرية تغرب فى جلال وراء الجبل وأشعتها الفاترة قد تجمعت حولها من سهول الوادى ، فلم يبق منها إلا غمر تلمع فى أجنحة الطير وسعف النخل ورءوس الهضاب ، وإلا شفقتها الوهاج قد شب فى أطراف السلسلة اللوبية حريقاً بارد اللهب إيذاناً بالمغيب ؛ والمستون من سراة أوربا وأمريكا يطالعون فى شرفات الفندق أجمل ما خطته يد البارئ المصور فى صفحة الوجود ؛ وأنا وأصدقاؤى الثلاثة نسير الهوينى على الشاطئ الضاحك ، يشيع فى دماننا مجد هذا الماضى ، وفى أعصابنا عظمة هذا الوادى ،

وفى أخلاقنا صراحة هذا الجو ، وفى مشاعرنا جمال هذه الطبيعة . فذكاد من فرط الزهو نقول لمن نلقى من السائحين الغربيين : نحن تليّة هذا المجد وصناعة هذه الشمس وصورة هذا الجمال ، فهلا ترونا أخلص الناس جوهرأ وأصدقهم مظهرأ وأزكاهم أرومة ؟

وكان حديثنا فى هذه الساعة الجليلة نعمة منسجمة فى هذا اللحن السماوى الذى تنشده الكائنات كل يوم عند الغروب . وما ظنك بجديت نقى الحواشى يشققه أستاذ فى كلية الآداب ، وأستاذ فى كلية العلوم ، وأستاذ فى كلية الحقوق ، وكاتب صغير من كتاب الرسالة ؟

كان صباح يوم العيد موعد (المقابلة الملكية)^(١) فعبرنا النهر فى رهط من أعضاء المؤتمر الطبى ، ووقفنا بالضفة الأخرى نتحسس الآثار الهوالك ، فلم نجد أمامنا غير الحقول الزمردية تكسو السهل ، والجبال الوردية تسد الأفق ؛ وكانت هذه الضفة الخلاء فى دهرها الغابر حياً من أحياء طيبة يسكنه محنطو الجثث وصناع المومياء ، فما كان يومئذ يموت إنسان أو ينفق حيوان إلا أتوا به هذا الحى فيمضى فيه أهله (عملية) الخلود !

انطلقت بنا السيارات بين الزروع الخضراء تالاً يسفى بعضها الغبار فى وجوه بعض ، فمررنا بالقرنة وقد خرج أهلها فى زيتتهم يعيّدون فوق المقبرة ! وأكبر الظن أنهم بقايا ذلك الحى البائد ، فهم يسكنون الجحور كبنيات آوى ، وينبشون القبور كصوص الموتى ، وينحتون التماثيل كصانعى الآلهة ، ويخدعون بالتمايم كدهاة الكهنة !

(١) المراد بها زيارة قبر الملك المصرى الشاب توت عنخ آمون .

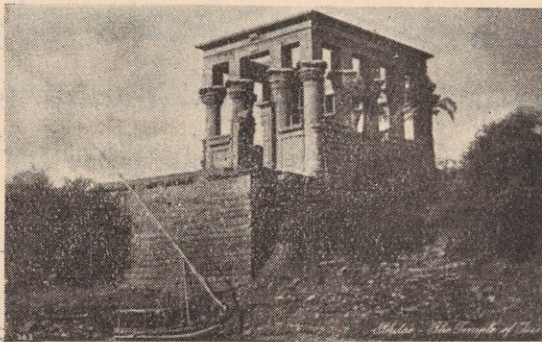
وقفت بنا الحقول نجاة ؛ ثم أسلمتنا إلى قعر من الأرض بعضه مرمل وبعضه
مُتْرَب ، فسرنا فيه بين أعلام من الحجارة المنضودة ، حتى دفعنا إلى شعب في الجبل
تكثر على جانبيه الغيران الموحشة والفجوات العميقة ، فتحسبها بادئ ذي بدء
من أثر الوحوش الخافرة ، ولكنك تدرك بعد هنيهة أنها من أثر الإنسان الذي
نكبت به هذه الأرض منذ أربعة آلاف سنة فلم يرفع معوله عنها إلى اليوم !
شقها فدفن بها الملوك ؛ ثم شقها فسلم فيها الملوك ؛ ثم هو يشقها اليوم دأباً ليخرج
منها الملوك !

أخذت طرأة النسيم تتخلف عنا رويداً رويداً حتى انقطعت ؛ وهب
يناوحنا من فجاج الوادي الملوكي جو ثقيل كجو مايو ، وأصبحت سلسلة الجبال
فوقنا بعد أن كانت أمامنا ؛ ثم انعطف الطريق الصاعد بغتة فإذا السيارة أمام
باب من الخشب ، وبواب من الناس ، وقائل يقول : هنا جبل الخلود وحرَم الملوك
ومشوى توت عنخ آمون !

الجبل من أعلاه إلى أسفله قطعة واحدة من الحجر الجيري الصلد لا تجد فيه
صدعاً ولا فرجة ! نقرت يد الإنسان القديم في أصله فتحة مربعة دخل منها الدليل
ودخلناها على أثره ، فإذا سُلَّم حاد يهبط بك قليلاً أو كثيراً إلى بئر عميقة تضلل
الصوص : ثم يعود فيهبط إلى قاعة فسيحة تجمع أشتات المتاع ، ثم يعود فيهبط
إلى حجرة تضم جثمان الملك ! وستوف الحجر محلاة بصور من جماعات الكواكب ،
وجدرانُ الأنفاق مغطاة بسور من كتاب الموتى : فالبرزخ الفاصل بين الحياة
الغائية والحياة الباقية مصور كله في وضوح ودقة ! فهنا الميزان ، وهناك الصراط ،
وهناك المطهر ، وفيما بين ذلك عقبات هائلة وحيات قاتلة لا يفلت منها إلا من
حمل جواز الأمان وعرف كلمة السر !

وقفنا حيال فرعون وهو راقد فى أكفانه الذهبية رقدة الضراعة والهون !
يشمت به الفناء ، ويسخر منه البقاء ، ويصيح فى أذنيه القدر :
لقد علوت فى الأرض ، وغلوت فى الجبروت ، وسخرت الزمان لتخليدك ،
والإنسان لتمجيدك ، ثم كانت عاقبتك يا فرعون هذه العاقبة المضحكة ! فصاحب
إذنك خادم حقير ، وكبير أمثائك (ترجمان) أجير ، وشعبك العابت يحضر
(التشريفة الكبرى) يوم العيد فى غير حلة رسمية ولا هيئة جدية ، وجلالتك
الإلهية كلها لم تقو إلا على الدود ، ولم تحظ إلا ببسمة ساخرة من ثغر الخلود !

[١٩ فبراير سنة ١٩٣٤]



زمزم

كان المصري إذا ذكر بالأمس زمزم ذكر البيت الذي تتهافت على ضوئه
أمانيه وأحلامه ، والنبع الذي تسكن على برده لواعجه وآلامه . أما اليوم فبذكره
فيجد في نفسه بجانب شعوره الديني اللطيف شعوراً آخر له كذلك لطفه وقداسته :
ذلك هو شعوره الوطني بالمستقبل المشرق والكرامة العزيزة والحياة المستقلة !
لأن زمزم لم يعد في ذهنه مقصور الدلالة على البئر المقدسة ، وإنما أصبح يدل
أيضاً على الحجر الأساسى لمجده البحرى ، والمظهر الحقيقى لوجوده الدولى ،
والسفينة الأولى من أسطوله المدنى الأول !

والأسطول المصرى كلمة نسيتهامصر منذ أودت بأسطولها الدول الغوادر
فى أمواه (نافارين) ، فشواطئ رمسيس وكيوبطرة ، وموانى المعز وصلاح الدين ،
ظلت بعد إبراهيم حى مباحاً للسفائن الأجنبية ترسى عليها بالذل والقهر ،
أو بالغلاء والفقر ، أو بالسّم والرذيلة ! ثم لا تجد بين حنايا المرفأ الرءوم باخرة
مصرية واحدة تشعرها ذل الغربة وتذكرها واجب الدخالة ، فكانت مياهنا
كما كانت أرضونا مرتعاً غريض الكلاء تخور فيه السوائم الغريبة خوار الكفر
والبداء ، لا خوار الشكر والثناء ، ونحن أصحاب البلد لا نجد فى هذا الطغيان سيادة
المالك ولا غرة الوطنى ولا سلطان الدولة !

فلما تكشفت جهودنا القومية المنتجة عن بنك مصر ، صمد هذا الناشئ

الجبار بحزم الكهول وعزم الشباب إلى الميادين المالية الأجنبية فاقتحم حصونها المنيعه ، وسرى في هيكل هذا البلد العليل الواهن سريان البرء يحرك كل عضو من أعضائه بشركة من شركاته . فضاول في (حى المال) بنوك الدول ، وطاول في (المأظلة) مطار الإنجليز ، ونازل في (المحلة) مناسج (لنكشير) ، وزاحم في كل سوق نتائج كل شعب ! ومشت أعراض السلامة من الصدر إلى (الثغر) ، فقامت شركة مصر للملاحة تعيد سلطاننا على البحر وتعلن استقلالنا إلى الخارج ، فأنشأت (زمزم) وأخواتها الثلاث على أحكم ما يقوم الإنشاء ، وأضخم ما يمكن الابتداء ، وأنغم ما يكون التأثيل

وكان الأسبوع الماضى (مظاهرة كبرى) للاستقلال الأكبر !
نزل طلعت حرب وصحبه العاملون يغزون الماء ، بعد ما غزوا الأرض والسماء ،
خففت الأعلام الخضراء على سوارى زمزم ، وتهللت الجباه الغراء على سواحل مصر ، وشعرت الموانى الثلاثة المحتلة أن فى أحضانها اليوم وليداً من أهلها صريح النسب ، تضطرم فى أحناؤه رجاء الشعب ، وتسفر على وجهه مخايل الأمل ،
وتبسم فى طريقه مضاحك الفوز ! واختلفت الظنون الفواجر على خواطر السفن الغريبة قتساءلت : ألا يكون هذا المشروع الجديد كآلف مشروع قديم لمعت كلع الشرار ثم خبت سراعاً إلى الأبد ؟ ألا تكون زمزم هذه التى تحتال على الماء فى صلف وكبرياء نواة من النوى العجف لا يرسخ لها أصل ولا يسمق لها فرع ؟ أيستطيع الأسطول المدنى المزعوم أن يجوب مسارب البحار وليس من ورائه أسطول حربى يرصد طريقه ويمنع جانبه ؟

وكانت هذه الأسئلة المتشائمة تَرَفُضُ صاغرة خجلى عن جوانب الباشا وهو على ظهر زمزم فى عبوسه الرهيب وسكونه المهيب ونظرته النافذة، يحيل المتسائل المتشكك إلى الماضى الحبيب والواقع المقنع، فيرى بعينه الفلك الدائر الذى يديره الباشا برأيه ويسيزه بيده، شمس بنك مصر، وتوابعها شركاته الميمونة وهنا لك الجواب الذى يُبكم الحاسد ويفحم الشامت ويقوم حُجة بتراء^(١) على رشد النهضة الاقتصادية فى مصر

إن شركات بنك مصر هى وحدها الجانب الجددى فى حياتنا الهازلة . لأنها تقوم على الحاجة الداعية ، والكفاية الفنية ، والإرادة القوية ، والإدارة الحازمة ، والعاية النزيهة ، والإيمان الصادق . والخير العام . وهذه الأساس الثوابت أكثر مما يلزم لقيام العمل ، فكيف يقع فى البال أن يتحرك بها الفشل أو ينال منها الكيد أو تطير فى جنباتها الشُّبُهَة ؟

إن أرجل الجنود الإنجليزية جعلت ثكناتنا أجنبية ، ولكن رءوس الأموال الأوربية جعلت مصرنا غير مصرية . وإن أساطيل بنك مصر الآلية والهوائية والبحرية هى التى سترد مصر إلى أهلها من غير حرب ولا عنف ولا خصومة .

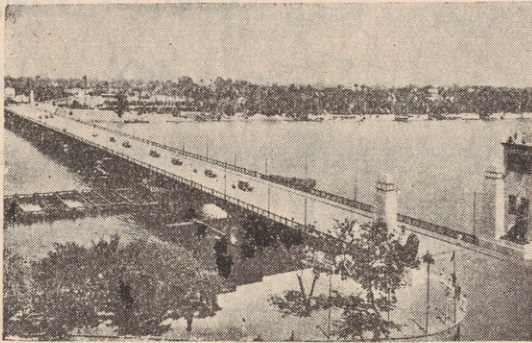
لقد كانت الوحدة الأولى من أسطول الشعب هى زمزم ؛ وكانت الوجهة الأولى لزمزم هى جُدة ؛ وكان أمس الأول موعد إبحارها من السويس بالحجيج الأول ! فليت شعرى أى نوع من الشعور يشيع فى نفس المصرى المسافر على زمزم حين يرى قطعة من أرض مصر تسير به على الماء حتى شاطئ

(١) حجة بتراء : ماضية نافذة

جدة ، يعلن المؤذن فوق منارتها كلمة الله ، وينشر العلم فوق ساريتها مجد الوطن ،
ويجد المصري على ظهرها قومه ولغته ودينه وكرامته وراحته وأنسه !

ذلك شعور لا يتصوره ولا يصوره إلا شاعر كتبت له السعادة أن يتذوقه !
فلعل في الحجيح من يسعفه الإلهام فينفح قومه وأدبه بهذه النفحة السماوية ،
تمجيداً لأول نهضة مصرية زكت في الأرض ، وأول باخرة مصرية جرت
في البحر ، وأول حجة (مصرية) صعدت إلى السماء !

[٥ مارس سنة ١٩٣٤]



شهرنا الخالد...

شهرنا الخالد في تقويم الدهر هو مارس ! فيه كما يقولون أغيت الحماية وأعلن الاستقلال وصدر الدستور !

وفيه كما نقول استيقظ أبو الهول ، وشبّت ثورة النهضة ، وتنافس في الجهاد النساء والرجال ، وتعانق على الوداد الصليب والهلال ، وتسابق إلى الخلود الشيوخ والأطفال ، وسالت أنفس الشباب ضحايا على مذبح الحرية !

وفيه كما نقول الطبيعة تتجدد الحياة ، وتهتز الأرض ، ويورق الشجر السليب ، ويمرع الوادي الجديد ، وينشد الربيع الباكر أناشيد الجمال والحب والأمل !

ولكن خمسة عشر عاماً طوّلاً أتت على مارسنا الأول فجعلت ما قالوه كلمات ميتة ، وما نقوله ذكريات خافتة ، وما نقوله الطبيعة حديثاً مُعاداً !

فالحكومة تدفع الحكومة ، والذكرى تتبع الذكرى ، والربيع يعقب الربيع ، ونحن لا نزال في الموقف الأول ، يتدفق علينا الزمن ، وتُغبّر^(١) في وجوهنا الشعوب ، كأنما خرجنا عن مدارج القافلة ، أو رمى بنا التيار في حواشي الوجود !

من الذي نضح القبس بالماء ، وشغل المسامع عن نداء الشهداء ، وحول وجه النهضة إلى الوراء ، واعترض مجرى الحياة المصرية طول هذه الحقبة ؟ ستقول خدعة السياسة وشهوة الحكم وفتنة المال ونكسة المرض ؛ ولكنك لو عبرت عن

(١) غبر في وجهه : سبقه وهو من باب الكناية

ذلك كله بانحلال الخلق لكان أجمع لأسباب الأمر وأبلغ في إجمال الحقيقة .
فإن التكالب على سلطان الحياة وزهرة الدنيا يصدر في الغالب عن حمية ورجولة ؛
ولكن ما نحن فيه اليوم من تحكيم الهوى وتغليب الأثرة وهوان الغرض وفساد
الضمير ونجور الخصومة لا يوائم فطرة الله ولا يلائم طبيعة التقدم .

على أن السفينة التي يصارعها الموج فتضطرب ، ويعصف بها النوء فتجور ،
سيظل لها (مارس) مناراً في مرفأ السلام يرسل الهدى للجائر ويلقى السكينة
في المضطرب .

سند كر دائماً مارس من عام ١٩١٩ حين عصفت في الرؤوس نحوه العزة ،
ونزت في القلوب ثورة الحفيظة ، وأعلنت مصر مرة أخرى بعد (عرابي) أن
لها مثلاً تتبعه ، وماضياً تعيده ، ومستقبلاً تعدّه ، وأمرأً في أرضها تدبره ، وحكماً
في سياستها تصدره . ويومئذ كان للربيع معنى الربيع ! هبت رياح آذار فألوت
بخطام الشتاء والخريف ؛ وسرت في البلاد نسائم الروح الخالق والسر البديع ؛
وجرت على الثرى المقدس دماء الضحايا الأول فتفطرّ بالنبات البهيج ؛ وبدأت
على الوجود المصرى مظاهر الشباب من الرونق والصفاء والجدة والقوة ؛ وتمردت
على الطغيان المسلح نفوس شيعها^(١) الإيمان بالحق ؛ وحطمت أسلاك البرق ودمرت
طرق الحديد لتقطع ما بينها وبين جنود الذل ؛ وأجبرت الغاصب الغاضب على أن
يحترم رأيها في الشيخوخة الأسيرة ، وعزمها في الشبيبة الثائرة ؛ واتسع نطاق الأفق
للقلوب التي حصروها بالكبت ؛ وانكشف رقيق^(٢) السماء للأبصار التي عقدوها
بالأرض ؛ وفتح التاريخ للشعب المجيد كتاب العهد الجديد ؛ وكادت تتوالى

(١) شيعها : شجعها وقواها (٢) الرقيق : هو هيئة السماء الدنيا بنجومها وكواكبها

صفحاته لولا أننا من الحلفاء^(١) وكالحلفاء : ربحنا الحرب وخسرنا الصلح !
يعود مارس فيعود العقل العازب ، وينتبه الضمير الغافل ، ويستطيع كل
امرى أن ينظر إلى الوراء فيرى ماذا ترك ، وإلى الأمام فيرى ماذا قدّم ؛
ثم يجيب أطياف الشهداء وهى تطوف ساهمة الوجوه أمام الأزهر ، وحول ابن
طولون ، وخلال المقبرة الموحشة ، تسائل كل عابر : ماذا صنع الأحياء بعهود الموتى ؟
وكيف حال المعيّدين على لحوم الضحايا !

* * *

يعود مارس فيودع في أوائله الشتاء ، ويستقبل في أواخره الربيع ، ونحن
وإن تلكاً بنا الحظ البليد خمسة عشر عاماً لا بد موفون على ربيع النهضة ! وإن
في هبة الشباب من غفوته المريبة ، ومعالجته الأمور من جهاتها المنتجة ، واضطرام
الشعور القومى في ذكرى مارس ، وإطباق رأى العام على وخامة الحال ، لبشيراً
بتوافى النفوس على الخير ، وتواطئها على الجد ، وتعاونها على الإصلاح .
ليس في منطق الأشياء ولا من سنة الوجود أن يجتمع لمصر ما لم يجتمع
لغيرها من أسباب الطموح ووسائل الصعود ، ثم تظل في ساقية الركب الأسمى تمشى
ظلاء إلى أمدّها المرسوم وغايتها المرجوة ، إنما هى عوائق تقيّمها الذئاب ليُفردوا
بها الحُمل الغافل عن القطيع ! وإن في هذه الذكريات العزيزة الطيبة حافزاً للهمم
الوانية ، وموقظاً للضمائر الغافية ، ومُهيّباً بشوارد الأُنفس إلى سواء السبيل .

[١٩ مارس سنة ١٩٣٤]

(١) الحلفاء : هى الدول التى تحالفت فى الحرب الكبرى على ألمانيا وحلفائها ، وهى فرنسا
وبلجيكا وانجلترا وأمريكا .

عيد الأضحى

... وفي مارس أيضاً يقبل عيد الأضحى أو يوم الله ، بعد ما أقبل عيد الضحايا أو يوم الوطن ! والإيمان بالله وبالوطن أسمى شواعر النفس ؛ والتضحية لله وللوطن أصدق شعائر الإيمان ؛ والاحتفال بيوم الله ويوم الوطن أقدس مظاهر الإنسان ؛ وعيد الأضحى أجل أعياد المسلمين خطراً ، وأبلغها في حياتهم أثراً ، وأبلغها في نفوسهم دلالة . تجمعت فيه مبادئ الإسلام وغاياته كما تتجمع صور الوجود في العين ، ومحاسن الربيع في الزهرة . فهو موجة من النور الهادي الهادي في خضم الزمان المضطرب ، وفترة من السلام الإلهي بين خطوب الجهاد المضطرب ، ونفحة من النعيم السماوي تندي لها القلوب اليابسة بالوداد المحض والبر الخالص ، وسبب من الروح المؤاخى يصل بين الغنى والفقير بالإحسان ، وبين القوى والضعيف بالرحمة ، وبين القريب والبعيد بالمودة ، وبين الله والإنسان بالصلاة ، وبين المسلم والمسلم بالحج !

الأعياد الدينية واحات في صحراء الحياة ، يستريح إلى نبعها الحرّان واللاغب ، ويطمئن إلى ظلها الهيمان والشارد ، ويجد الكاسف المعمود في نسيمها النديّ ببرد السرور ونشوة العافية ، ويذهل السائر المجهود برهة من العمر عن مخاطر الطريق ومكايد الرفاق ومساوى القافلة ، ويذكر أن له عواطف صالحة طغت عليها المنافع ، وقرابة واشجة قطعت بينها المطامع ، وصلات شابكة أوهنتها الجفوة ،

وتبعات واجبة أعجزه عن حملها كلال الضمير ، وغاية إلى الخير المطلق أضله عن
سبيلها غرور الحياة

عيد الأضحى هو عيد الأسرة والأمة والملة : يفيض المسرة والبهجة على البيت ،
ويجدد المودة والألفة في الوطن ، ويسفر بالتعارف بين وجوه الإخوة في عرفات
فإذا رده اليوم فساد العيش في المدينة إلى ما نعرف من خروف يذبح
ولا يُضحى ، ومساجد تؤذّن بالمدافع والمآذن ولا تجاب ، وبيوت تُفتح للتهاني
ولا تزار ، وأيلم كنفاهة المريض كلها خمود ونوم وأكل ، فإن له في القرية
صورة لا تزال منذ الطفولة في ذهني فتانة الجمال أخاذة السحر شديدة الروعة

لا يكاد يفرغ القرويون من صلاة المغرب ليلة العيد حتى ترى طريق
المقبرة يسيل بالفوانيس الشاحبة الخافتة ؛ ثم تنتشر آخر الأمر على وجوه القبور
انتشار الحباب^(١) ، وتنتقل القرية الحية إلى القرية الميتة فتقضى موهناً من
الليل في الاستعبار والاستذكار والقراءة ؛ ثم يعودون وقد كفاهم (الفقهاء)
مئونة ما حملوا من الكعك والفاكهة ، فيقطعون المزيغ الثاني من الليل في طسوت
الحمام أو في دار المزين ! والغسل بالماء الساخن لا يعرفه الفلاحون إلا ليلة العيد
وليلة الزواج ويوم الموت . ثم يُعدون زينة العيد فيكوّرون العائم ويصبغون
الأحذية . ومن لا يحسن لوث العمامة ، أو لا يملك علبة (الورنيش) ، ذهب
بطر بوشه أو بجذائه إلى قريبه أو جاره . والقرية كلها أسرة واحدة يكمل بعضها
نقص بعض . فإذا فرغوا من ذلك ناموا على هدهدة الأحلام ومناغة المنى ؛

(١) الحباب : ذباب يطير بالليل له شعاع في ذنبه كالسراج

وتركوا النساء أمام المواقد ينضجن الخبز ويطهين اللحم ويصنعن الحلوى حتى الصباح !

تشرق شمس العيد على القرية في غير وجهها المألوف ؛ فلا النور كان باهراً كهذا النور ، ولا الشعاع كان ساحراً كهذا الشعاع ! وتستقبلها القرية في غير زيتها المعروف ؛ فلا الوجوه كانت ضاحكة كهذه الوجوه ، ولا الجلايب كانت ناصعة كهذه الجلايب ، ولا العائم كانت زهراً كهذه العائم ، ولا الدروب كانت مطرزة بألوان الربيع كما هي اليوم !

لا يتخلف عن صلاة العيد من أهل القرية غير النساء ! أما الرجال فهم صفوف وراء الإمام يؤدون الصلاة ؛ وأما الأطفال فهم وقوف على الأبواب يشهدون الخطبة ! ثم تقضى الصلاة فيقبلون الخطيب جميعاً ويقبل بعضهم بعضاً . ثم يذهبون رتلاً جميل النسق إلى المقبرة ويرجعون من طريق أخرى إلى الحارات المكنوسة المفروشة ، فيجلسون أمام المنازل إلى الطعام الشهي الفاخر يتبادلون الألوان ويتهادون الصحف ويتركون على موائدهم محلاً رحيباً للفقير !

تُرفع (الصواني) وتوضع القهوة ، ثم يقوم العمدة في أهل حارته فيزورون الحارة الأولى ، فيهنئون ويجلسون ريثما تدار القرفة وتوزع السجائر ، ثم يقومون جميعاً إلى الثانية فالثالثة فالرابعة وهلم جرا إلى آخر البلد ، وكلما مروا بحارة أخذوا أهلها إلى الأخرى ، حتى تجتمع القرية كلها آخر المطاف لدى العمدة فيقضون في مجلسه أكثر اليوم

ذلك أمر الكهول والشيوخ . أما الشباب والأيفاع فيطوفون زمراً بالبيوت يهنئون الصبايا وأيديهن لا تزال في الطعام ، فيطبعن بالقبلات الخلية على الحدود

البرنزية خاتماً رقيقاً من (الصلصة) ، ويرسم بالأنامل الخضبة على الثياب البيض
طغراء جميلة من الدسم ؛ ثم ينصرف بعد ذلك الشباب إلى لعب الكرة في ساحة
البيدر ، والأطفال إلى الأراجيح على أشجار الترفة !

تلك صورة العيد في القرية رسمتها بغير ألوانها الزاهية ، وجلوتها في غير
إطارها المذهب ، فبالله ربك ! أهي على علاقتها أخلق بالإنسان وأقرب إلى الدين
وأشبه بالخلق ، أم هذه الصورة التي تراها اليوم في شوارع المدينة وجوامع المدينة
وقصور المدينة ؟

نسأل الله مخلصين أن يعيد هذا العيد على الأمة المصرية والدول العربية
والممالك الإسلامية ونحن وهم على خير من هذه الحال !

[٢٦ مارس سنة ١٩٣٤]



كاظم باشا الحسيني

حنانيك يا رب ! أنى الساعة التى يضطرب فيها البحر ويحار المركب ويبعد
المرقا ، يموت الربان ويختفى القطب ؟ وفى الساعة التى يستجرُّ فيه النضال بين حق
العرب وباطل اليهود ، وبين إيمان فلسطين وطغيان الإنجليز ، يسقط القائد ويهبط
العالم ؟ وفى كل يوم تتجاوب أصداء الأسى فى أقطار العروبة على بطولة تُودي ،
أو زعامة تخلو ، أو نبوغ ينطفئ ، أو ألفة تفترق ، أو وحدة تَشْتُ ؟

لا بأس بالآلم يجمع شتى القلوب على الإحساس المتحد ، وبالخطب يرُوض
رخو المغامر على المقاومة الشديدة ، وبالموت يبعث ضارع النفوس إلى الحياة
العزيزة ؛ أما المدامع التى تجذب المشاعر ، والشدائد التى توهن العزائم ، والمنايا
التي تقبر الأمانى ، فأرزاء من الشر المحض والعذاب الخالص كابدتها الأمة العربية
وأسفاه فى مصارع سعد وفيصل وكاظم !

روّع العرب فى عيد التضحية والتلبية مصاب فلسطين فى حياة نهضتها
وسر وحدتها وروح ثورتها المغفور له موسى كاظم باشا الحسيني ، فضجت المآذن
بالنعي ، وفاضت الصحف بالرثاء ، واضطربت الألسن بالأسف ، ونال الناس
من الجزع الطبيعى ما ينالهم حين يرون الركن يميل أو النظام^(١) ينقطع

(١) النظام هو الخيط الذى يجمع حبات العقد

أو الدليل يغيب ؛ وتساءلوا عن مصير فلسطين المعذبة بعد شيخها الذي أخلصت
جوهره السنون ، وأحكمت رأيه السن ، وشيَّعت قلبه العقيدة ، وأعلت صوته
النزاهة ، وقدرت شخصه التضحية ، فجهل الحزبية ، وأنكر الطائفية ، وسل أحقاد
الصدور ، وأذهب تنافس الأسر ، وعبأ الأمة المغرورة في دار أمنها ثم قادها زهاء
خمس عشرة عاماً في المفاوضات بلندن ، وفي المظاهرات والمؤتمرات بفلسطين ،
لا يقطعه يأس ولا يردعه وعيد ولا يخذله طمع ولا يقعد به عبء السنين التسعين
عن قيادة الشباب إلى صراع حامٍ دامٍ بين حق أعزل وباطل مسلح !

لو كانت قضية فلسطين قضية رياسة وسيادة وعَلَب لكان في كل مكان
سبيل إلى الخلاف ودليل إلى الفرقة ، ولكنها قضية الحياة والموت ؛ وللحياة
طريق تهدي إليها الفطرة ، وقافلة تدل عليها الطبيعة . فالأمر من هذه الناحية
مختلف بين فلسطين وبين العراق ومصر

ولاريب أن المستقبل الذي يتمثل لشباب فلسطين في أبشع صوره سيذهلهم
عن نكرة العصبية ، ويلهمهم عن شهوة الخصومة ، فلا يرون إلا عدواً واحداً
هو الواغل المقتحم ، ولا يستمعون إلا قولاً واحداً هو قول زعيمهم الخالد
وهو يجود بنفسه :

« ... قضية العرب في فلسطين أمانة في ذمتكم فجاهدوا في سبيلها ، فإن فعلتم
أرحتموني في قبري »

عزى الله الأمة العربية أجمل العزاء عن فقيدها الغالي ، وأحيا في خواطر
أبنائها النبلاء مثله العالی ، وجعل رضوانه عليه ثواب ما بذل في سبيلها من ماله
وجهدده ونفسه

في الحال الحاضرة

« في الحال الحاضرة » عنوان عزيز على وعلى أخوى طه حسين ومحمود زقاني ! نذكره في مقام الأُنس وساعة التناذر ، فيفجرُ الضحكُ من صدورنا المكبوتة ، ويرجع بنا مقتحماً تيار الزمن الدافق إلى العهود النفاحة النضيرة من شبابنا الأول . يرجع بنا إلى بقعة من بقاع الأزهر العتيق خَفَتَ فيها الدوىُّ الهادر قليلاً ، وتهادنت بها أرواح العلماء ، فلا تستجر في لفظة ، ولا تختصم في (قولة) ، ولا تزدهم على اعتراض ؛ وإنما تسكن إلى هؤلاء الأيفاع الثلاثة ومن أخذ إخذهم سكون الطير المروعة إلى سلام الأيكة المنعزلة ، لأنهم كانوا قليلاً ما يرغبون في إثارة القلاق وإهاجة الفناقل^(١) على هذه الأرواح الآمنة البرّة . إنما كان وكدهم أن يجتزئوا من علوم الفقه بقسمة القدر ، ثم ينصبوا لعلوم اللسان فيدرسوا الأدب ويقرضوا الشعر ويحاولوا الكتابة ، ويتعرفوا إلى العلم الحديث في دور الكتب ، ويطلوا على العصر الحديث من نوافذ الصحف ، ويقفوا على البرزخ الممدود بين دنيا الأزهر ودنيا الناس ، ينزعون إلى الحياة الحاضرة المتجددة نزوع أسماك البحيرة الأسنة إلى البحر الزاخر المزبد .

كان أستاذنا سيد بن علي المرصفي يطبعنا في النظم على غرار (الحماسة) ، وفي النثر على غرار (الكامل) ، ويزين لنا أن ننظم معلقة كطرفة ، أو ننشئ خبراً كأبي عبيدة ، ولكننا كنا نجلس على ذلك البرزخ بعيداً عن هتاف الأشباح ، نراقب سير

(١) كلمة نحتها أستاذنا المرصفي من قول الأزهريين عند توجيه الاعتراض : « فان قيل »

المدنية ، ونرامق حياة (الأفندية) ، ونحاول العبور فيسألنى رفيقائى :

— فيم ننظم ؟

— فى مدح الخديو

— وفيم نكتب ؟

— فى الحالة الحاضرة ؟

ونكرر كل يوم هذين السؤالين وهذين الجوابين ، حتى استطعنا أن نجد كلاماً فى مدح الخديو فقلناه ونشرناه

أما هذه « الحال الحاضرة » فكانت معاياة لم نجد لأمرها مُطْلَعاً ولم نقف فى وصفها على حيلة ! لأن مدلولها يومئذ كان غامضاً فى أذهاننا غموض الجبر ! فالقرويون يعيشون على نمط الفراعين ، والأزهريون يعيشون فى عهد الأيوبيين ، والقاهريون يعيشون على حال المالك ، وهذا الذى نسميه الحالة الحاضرة ما كان يذكر إلا فى مكاتب الصحف ، ولا يعرف إلا فى بعض دواوين الحكومة !

عبرنا البرزخ ، وتعاقبت الأعوام على ذلك العهد تعاقب الموج ، فبعضها هادى وبعضها مضطرب . فأما محمود فظل على حدود الماضى ، وأما طه فظفر إلى آماذ المستقبل ، وأما أنا فبقيت فى الحاضر بين الصديقين ، وسأحاول أن أقضى عنهما هذا الدين ، فأكتب اليوم فى هذا الموضوع الذى وسمنا بالعجز عنه طَوَّال ربع قرن !

حالنا الحاضرة محنة من محن الانتقال ، وخدعة من خدع الاستقلال ، وفتنة من فتن الباطل ! فهى راكدة ركود العفن ، واقفة وقوف الحيرة ، لا تستطيع

أن تجد لها في لغة التطور اسماً ولا صفة ! فلا هي سبيل نهضة ، ولا هي دليل يقظة ، ولا هي مظهر امتعاض ! وكأنما تقطعت وشائج الاجتماع بين الطبقات والجماعات والأسر ، فتناكر الناس وتدابر الأهل ودار كل امرئ على نفسه ! فالفلاح كما كان منذ آجيل ، لا يكاد ينزع يده من الأرض ، ولا يرفع طرفه إلى السماء ، ولا يتبين وجهة الدنيا ، ولا يتصور غاية الحكم ، ثم يحول عليه الحول فلا يجد نقوداً في جيبه ، ولا سروراً في قلبه !

والعامل على أسوأ مما كان : يقاسى العطلة ويعانى الفاقة ويشكو الأمية ويستغله الأجنبي بما دون القوت ، ثم لا يجد في بلده العين التي تكلؤه ، ولا اليد التي تحميه ، ولا النور الذي يهديه ، ولا الروح الذي يسيره !

والشاب في لبس من أمره ! يتعلم ولا يعرف لأى عمل ، ويتقدم ولا يدرك لأى غاية . ويقولون له كن عزيزاً في بلدك ، سيداً في دارك ، متصرفاً في أمرك ، ثم يخضعونه للامتيازات فتكسر من نخوته في المجتمع ، وتغض من كرامته في القضاء ، وتهجم على ثروته في التجارة ، ويفور شبابه الحين بعد الحين فيكفه الهوان الغالب والقيادة المترددة

والأدب يعتمد في سلطانه على الدعوى والوقية ، وينقل في أحكامه عن النكران والحقْد ، ويتفرق شيعاً وطوائف ، لا ليعدد مذاهب القول ويمجد طرائق البيان ، ولكن ليخلق الخصومة بين الكهول والشباب ، ويؤثر العداوة بين الشعراء والكتاب !

والسياسة تتراشق بالتهم ، وتتقاذف بالعيوب ، وتحتكم إلى الخصم ، وتحول مجرى الجهاد ، وتزهق روح النهضة ، وتشوه آمال الأمة بالمطامع السود والأهواء الأثيمة

والحكومة تنبعث من أدراج مكاتبها العليا روائح كريهة تسور في الأنوف
وتأخذ بالأنفاس وتقسد الجو على هذه الأمة المسكينة !

هذه هي العناوين الصغيرة لهذا العنوان الكبير ، والعناصر الأولية لهذا
الموضوع الخطير ، أجمالناها في رأسه قبل أن ينزل بنا التفصيل إلى ذيله ! على نحو
ما يصنع المعلمون من الكتاب أو المنشئون من الطلاب جمعاً لشتيت الرأي
وتصويراً لهيكل الفكرة

فليت شعري يا هداة الأمة ماذا كنا نقول لو قدر لنا أن نكتب هذا
الموضوع حين اقترحنه منذ خمس وعشرين سنة ؟!

[٩ أبريل سنة ١٩٣٤]



العالم هل جرى

منذ أسبوع قلب الدهر المسجل صفحة ثلاث وخمسين وثلثمائة وألف من تاريخنا المجيد المشرق . قلبها هذه المرة وهو حافل حاشد يرصد فلك الإسلام ، ويرقب حركة العرب ، ويجمع الأهبة لتسجيل ما يتوقع من أحداث الأمة المبعوثة والبطولة الموروثة والعروبة الناهضة !

وكان منذ تفجرت في وجوهنا الأهوال ، وأغربت في عيوننا الآمال ، وأخذ إلى الجحام سلطاننا الجاهد ، يقلب الصفحة بعد الصفحة فلا يجد ما يسجل غير أنات العاني ونشجات الباكي وخلجات الجناح المهيض . حتى أوشكت حياتنا الخالقة أن تكون لحقاً من البؤس والهون لكتاب آبائنا الجليل المحكم ! ولكن الأمة العربية التي تمتد جذورها في أعماق الأزل لا بد من ربيعها وإن طال الخريف !

فالحياة المتجمعة في الأصل الثابت أخذت تشيع في الجذع وتنتشر في الفروع والظلال الحاسرة في العهد الجديب جعلت تمتد إلى القفر وتنسبط في الربوع ، وأشبال الفاتحين الذين غيروا وجه الأرض وحرروا موازين العدل ، قد هبوا ينفضون عن المعدن الكريم غبار الزمن ويمسحون عن الجوهر الحر عبث العوادي ، ويعودون إلى مكانهم من رأس القيادة وصدر العالم !

ففي مصر تضطرب الحياة الجديدة في البراعم النابتة ، وتضطرم نوازي الكمال في النفوس الهامدة ، ويفيض نبأ الإحساس في صدور الناس فيكفكه وأسفاه طغيان الغاصب ، وتكدره واحسرتاه بقايا العهد الذليل !

وفي فلسطين تدافع العروبة جراد أوربا الماحق ، وتصارع الاستعمار المسلح
الخطال ، وتطلب عز الحياة بعز المات وشرف التضحية

وفي سورية يقظة عاملة فطنة تداور خصمها بالصبر ، وتواثب جشعه بالحزم ،
وتقابل نفعه بالحذر ، وتصارح هوجه بالنخوة ، وتتجهز للمستقبل باسم القريب بجهازه
وفي العراق « أمة تنشئ الحياة » وتبنى الملك وتلحق الزمن وتصل ما انقطع
بين ماض ضخم وحاضر نزوع ، وتنفض بالحيوية العربية المتجددة نبضان القلب
الفتى الطموح

وفي الجزيرة موطن الأسرار ومهبط الوحي ومشرق الدين ومنبت العبقرية
تخطر العروبة في مطارف العزيزين سرير الإمام وعرش الملك ! وإذا نزت بين
الأخوين نوازي الخلاف فذلك حفاظ ينتهى إلى السلم ، وحمة تعود إلى السلامة .
وإن في إصاхتهما إلى دعوة الداعين إلى الصلح في أقطار العرب لدليلاً على اتجاه
الميل إلى الوحدة ، وإصغاء القلوب إلى الجماعة

وفي الجزائر وتونس ومراكش قلوب تذوب من حرارة الظلم ، ورءوس
تدور من خدر السياسة ، وشهداء في سبيل الوطن والدين يخطون لأبنائهم بدمائهم
وصية المستقبل !

وسائر المسلمين في تركيا وإيران وأفغانستان والهند والصين وأندوسيا وروسيا
ويوغوسلافيا يشعرون بالتطور الجديد ، وينظرون إلى الأفق البعيد ، ويتمنون
أن يعود الإسلام كما بدأ مرفوع الراية مجموع الرأى مسموع الكلمة !
والأمر في الجملة يدل على نور ينبثق من جديد في أمة محمد ، وروح ينبعث
في مملكة الرشيد ، وشعور يأتلف من هذه الروح وذلك النور فيجمع قلوب
الأخوة المتفرقين على هوى واحد !

حسبنا مطلع العام الهجرى موقظاً للشعور وحافزاً للهمم وهادياً إلى شرف الغاية . يستقبله المسلم اذا كرم فتعاوده ذكرى ان تجددان دينه وتثبتان يقينه وتقومان خلقه : ذكرى هجرة الرسول في سبيل الدين ، و ذكرى مقتل الحسين في سبيل الحق ! فأما هجرة الرسول فقصيدة من قصائد البطولة القدسية لا يفتر عن إنشادها الدهر ! استمدت وحيها من روح الله ، ونسجها من خلق الرسول ، وسيرها من صدق العرب ؛ واستقرت في مسامع الأجيال مثلاً مضروباً لقواد الإنسانية ، يلهمهم الصبر على مكاره الرأى ، والاستمسك في مزلق الفتنة ، والاستبسال في مواقف الحنة ، والاستشهاد في سبيل المبدأ ، والاعتقاد الصادق بفوز الفكرة ببلغ الرسول ما أنزل إليه من ربه وقد تألبت عليه جهالة العصبية ، وحقارة الشرك ، وسفاهة الحسد ، وعداوة المنافسة ، وحرمان الفقر ، وخذلان القلة ، فما استكان ولا وهن . ثم نبت قفار مكة على الغراس الإلهى فهاجر به تحت عين الله إلى طيبة وهناك بالصبر والصدق والإيمان والرجولة أثمر غرس الدعوة ، وتم نور الله ، وأصبحت القلة ملة ، وصارت كل قرية من القرى الثلاث قارة^(١)

وأما مقتل الحسين فلا يزال صكاً دامياً في سجل التاريخ يثبت أن العربى الحر لا تلهيه عن نداء الواجب زهرة الحياة ، ولا ترده عن طلب الحق كسرة الموت فإذا انتفع العرب والمسلمون بهاتين الذكريين ، وجعلوها كما هما في رأس العام رمزين على الجهاد الواصب في سبيل العقيدة ، والاستشهاد المروّع في سبيل الحق ، عاد أمرهم يجرى مع الشمس ويسرى مع الروح ويتغلب أخيراً مع الحق !

[٩ محرم سنة ١٣٥٣ — ٢٣ إبريل سنة ١٩٣٤]

(١) القرى الثلاث هى مكة والطائف والمدينة ومنها ابتدأت الدعوة ، والفارات الثلاث هى : آسيا وأفريقيا وأوروبا ، وإليها انتهى الاسلام !

يوم الجمعة

كان أمس الأحد ، ومن قبله كان السبت ، ومن قبلهما كان يوم الجمعة ! ثلاثة أيام تتعاقب في مدار الأسبوع تعاقب الجياد في مضمار السبق ! يحمل كل منها في رأسه علم دولته ، وعلى صدره عنوان ملته ؛ ويشرق على قومه في المسجد أو في الكنيس أو في الكنيسة إشراق الحب في الفؤاد الغرير أو الإيمان في النفس الرضية ، فيؤلف ما نفر من القلوب بالمودعة ، ويعود بما شرد من النفوس إلى الجماعة ، ثم يكون في البيت مصدر أنس وبهجة ، وفي المدينة مظهر استقلال وعزة . ولقد كان فيما سلف من مؤاتاة الدهر شأن يومنا في الأيام كشأن قومنا في الأقوام : صدارة يكتنفها جلال ملك ، وإمارة يسندها سلطان دين ، وعيد يأتلق جماله في كل مكان وفي كل نفس ، وفترة تحدد للناس مواقيت العيش ومراحل الزمن . وكان له في أدب الدين قواعد مقررة : كالاغتسال والطيب واتخاذ الزينة وشهود الجماعة ومودة القربي وصلة المساكين وترفيه البدن بالراحة ، وتطهير النفس بالعبادة ، وإعلان مجد الله بإعزاز دينه ، وسلطان الشعب بإعلاء أمره ؛ ولم يكن السبت والأحد يومئذ إلا شعاعاً لضوءه واتساعاً لمداه !

ثم غيرنا فغير الله ، فإذا بالتابع يأخذ المهلة^(١) على المتبوع ، وإذا يوم الجمعة يصبح طرفاً في ذيل الأسبوع ، فلا تخشع له أسواق العالم كيوم السبت ، ولا تسكن له حركة الدنيا كيوم الأحد ، ولا يبقى له من الرعاية عند أهله إلا إغلاق دور الحكومة في وجهه !

(١) أخذ عليه المهلة : سبقه .

استعرض هذه الأيام الثلاثة بالاعتبار والموازنة تجد كلا منها صادق الدلالة على حال أهله ! فيومنا يمجىء كما ترى خافض الجناح خافت الصوت حائل اللون مخضود الشوكة مغموط الحق ، لا يدخل فى حساب الناس ، ولا يقدم ولا يؤخر فى حياة المجتمع !

فمظهره الدينى تضائل حتى صار صلاة عادية لا يقيمها إلا القرويون الطارئون على المدينة ، والحضريون الفارغون من العمل !

ومظهره المدنى انحصر كما قلنا فى عطلة الحكومة ! ومن المؤونة المعجزة أن تطلب العطلة وما يتبعها عند غير الحكومة ، فإن جمهور الشعب إما تاجر يتبع فى نظامه البنوك الأوربية ، وإما عامل يخضع فى عمله لرؤوس الأموال الأجنبية ، فلم يبق إلا الموظفون الرسميون وهم وحدهم الذين يستطيعون بما تهيأ لهم من اليسر والفراغ إجلال هذا المظهر وإعلان هذه الشعيرة . فتعال ننظر كيف ينقضى هذا العيد فى بيت الموظف !

فى البيت الذى ألهمنى هذا المقال أسرة مسلمة عميدها موظف كبير ، وأسرة يهودية كاسبها تاجر صغير ، وأسرة مسيحية عائلها مستخدم متوسط

ففى يوم السبت ينبعث فى المسكن اليهودى تاريخ إسرائيل بأساطيره وتقاليده وعقائده ؛ فالتوراة تُتلى ، والصلوات تُقضى ، والذكريات تستيقظ ، والجارى الروحية تتحدر من الأجداد إلى الأحفاد فتوثق الروابط وتجدد القوى وتهون العظام ؛ ثم تخرج الأسرة بأسرها فى زينتها وبشرها فتتناول عشاءها فى مطعم سامر ، وتقضى أمسياتها فى ملهى ساهر

وفى يوم الأحد يحول المسكن المسيحى إلى عرس أنيق مُترف : فالأسرة تعود من القداس فى ألوان الزهر وأفواف الوشئ ، والغرف تضحك من طلاقة

النفوس واتساق الأثاث ، والمائدة المزهرة تحفل بأفانين الشراب السائغ والطعام
الهنئ ، والبيانُ الفخم تحت الأنامل الطفلة يقطر بالنغم العذب واللحن البهيج ،
والفنغراف يدور بأناشيد الرقص فيمسي البهو بالزائرين والزائرات أشبه بأعشاش
الربيع كلها مناغاة وهديل وهزج !

وفي يوم الجمعة يصبح المسكن عابساً كالكهف ، ساكتاً كالمقبرة !
فالبك قضى ليله سهران فهو نائم نومة الضحى ! فلا تسمع حساً ولا حركة
إلا صوتاً شديداً الخفوت يستعين بالإشارة على أن يهمس الحين بعد الحين :
— هس س س ! خفض من صوتك ! خفف من مشيك ! لا تلعب بهذا !
لا تعبث بذاك ! أبوك نائم !

والبك يأخذ حمامه الأسبوعي الحار فيشغل الحمام ساعتين ! فتمضى الظهيرة
والفتاة لا تستحم والعجوز لا تتوضأ !

والبك مدعو إلى العشاء عند بعض الأصدقاء ، فالمطبخ بارد هادئ ، وطعام
اليوم بقية طعام الأمس !

والبك يتهيأ للخروج ، فالأسرة كلها في خدمته : هذه تنظف البذلة ، وتلك
تمسح الطربوش ، وهذا يذهب برباط الرقبة إلى الكواء ، وذلك يستعجل الخادم
بالحذاء . وأخيراً يخرج البك ، فيتنفس البيت الصُّعداء ، ويستروح المكروب
نسيم الرخاء !

وهكذا يمر عيد الأسبوع على هؤلاء القوم وهم يقولون :
يا لله ما أثقل روح هذا اليوم !

قطع العقلة أسهل من جملها

كان المورث^(١) غفر الله له مهلوس العصب أرعن اليد ألسن اللسان أخرق السياسة ، فابتلاه الله بالحرب حتى قلّ ، وبالدّين حتى ذلّ ، وبالرشوة حتى فشل . ثم عصفت به ريح المنون فخطمت جذعه وأذرت هشيمه ، وتبدد في مهب العوادى ترائه المشتهمى ، واستقرت على أعناق أبنائه وأوليائه أثقاله وأغلاله وديونه فأما الترك انحلّص البواسل فبتروا من خلفهم ذلك الذيل الطويل ، ثم انطلقوا خفافاً إلى المجد وراء كمال . وأما العرب الأتجاج الميامين فألقوا من فوقهم ذلك الحمل الثقيل ، ثم مضوا سراعاً إلى الملّك وراء فيصل . وأما نحن — وقربنا إلى المرحوم وما ترك قرابة كلاله^(٢) — فقد نالنا من عهوده الجزية ، ومن قيوده الامتيازات . ورأينا في نصوص القوانين ما يثبتّ القلوب المنخوبة^(٣) على الحق ، وفي سوابق الدول ما يشجع النفوس الهيوبة على الإقدام ، وفي سواح الفرص ما يذكّر الرقاب المغולה بالعتق ؛ ولكن الشعب الذى قسا عليه القدر فحما من ذهنه الفروق بين التواضع والضعفة ، وبين الوداعة والذل ، وبين المجاملة والملق ، وبين الكرامة والتساهل ، وبين الضيافة والاحتلال ، لا يستطيع أن يفهم من القانون إلا نص الواجب ، ولا من (السابقة) إلا معنى الجرأة ، ولا من الفرصة إلا خلاف الحزم .

(١) تركية القديمة أو (الرجل المريض) . (٢) الكلالة : القرابة البعيدة .

(٣) فلان منخوب القلب : جبان

حررت الأمم رقاب العبيد ، واحترم السادة إرادة الخدم ، ومنحت الدول
طعام الشعوب كرامة الوطن ، وبرئ الأسود والأبيض من معرة التفريق ووصمة
التمييز ، اللهم إلا نحن في مصر ، وإلا الزنوج في أمريكا !

وما الفرق بالله بين الزنجى والمصرى إذا كان كلاهما قد حُرِمَ الإخاء فى المجتمع
والمساواة فى القانون والحرية فى الوطن ؟ وهل الامتيازات الإلحكم قائم بانحطاطنا
عن الأمم التى ميزناها فى الجنسية والعقلية والمدنية والتربية ؟ فلأوربى إذا اعتقد
أنك دونه فى القدر والحق والخلق فتمزى^(١) عليك وانتفى منك ، كان واضح العذر
ما دمت تعترف بهذا النظام الذى يجعل قضاءه أعلى من قضائك ، ولغته أفضل
من لغتك ، وشأنه أرفع من شأنك

إنه يعرف أن لك على الأقل أن تلغى المحاكم المختلطة من ذات نفسك ،
فلا ترى بعدها من يظلم قضائك على منصة العدل ، ويحتقر لغتك تحت راية
الدولة ، ويهين رجالك فى دست الحكومة ؛ ولكنه يراك تهمل حقك حتى
يموت ، وتغفل واجبك حتى يفوت ، وتنفق من كرامتك على الجمالة واللطف
حتى تنفد ، فجعل نزولك عن مقامه تقليداً لا ينهض فى وجهه أدب ، وعرفاً لا يقوم
بسبيله قانون .

إن الامتيازات الأجنبية شر ما مُنيت به هذه الأمة من علل الفساد وأسباب
الوهن ، فإن وجودها يوهم الأوربى أنه فاضل بالحق ، ويشعر المصرى أنه مفضول
بالطبيعة ، فيمعن هذا فى هضم نفسه وبذل مقادته ، بمقدار ما يمعن ذلك فى تصغير
خده وتجاوز حده ؛ ويجرى الأمر بين الرجلين مجرى الطبع والعادة ، فلا يندم الأول
على إساءة ، ولا يالم الثانى من غضاضة !

(١) يتمزى : يرى لنفسه المزية .

وما تجره على الأمة هذه الآفة من قتل الرجولة في النفوس وكسر النخوة في الرؤوس ، لا يدفعه إلهاب العواطف بعظمة الآباء وحماسة الشعراء وطموح المدرسة ؛ فما ظنك إذا خلا التاريخ من روح الوطنية ، والشعر من أدب القومية ، والمدرسة من رفع الخلق ؟

إن أخبث الأدواء ما خامر الجسم فسلبه القدرة على الفكر فيه بله الخلاص منه . ولقد جنت الامتيازات على أخلاقنا جنابة العبودية على أخلاق العبيد ! فنحن نجبن أمام الإهانة ، ونكذب أمام الخوف ، ونخنع أمام القوة ، ويقعد بنا اتهام الكفاية عن المنافسة ، حتى خلت ميادين العمل للأجانب فتحكموا تحكيم الأرباب ، وتصرفوا تصرف السادة ، وعاشوا بالشر على خير هذا البلد ، وأنضبوا شواءهم في حريق أهله !

كل أولئك ونحن نضرع للسفيه أن يحلم ، وللخصم أن يحكم ، وللقوى أن يستكين ؛ ثم نحاول أن نتحاكم إلى المعاهدات ، ونتفاهم بالمفاوضات ، كأننا انقلبت حملة الغرب على الشرق دعوة إلى سبيل المدنية وتقدم الإنسانية على هدى السلام والعدل !

كلا يا سادة ! إن علاج المسموم بالزُرق مزاح مع الداء لا تؤمن علقته ؛ وإن قتل الحية أهون من ترويضها ؛ وإن قطع العقدة أسهل من حلها ؛ وإن المتنبي ما كان يجهل الناس حين قال :

إنما أنفُس الأُنَيْسِ سباع يتفارسنَ جهرةً واغتيالاً
من أطاق التماسَ شيءٍ غلاباً واقساراً لم يَلْتَمِسْهُ سِوَالاً

الأمياريات والأدب

الأدب عبير الروح وشعاع النفس ونضج العواطف يتأثر حتماً بما ينال أولئك من تطور الحياة وتغير الناس وتقلب الزمن . فهو يطيب أو ينجث ، ويضطرم أو ينجبو، ويمر أو يحلو، تبعاً لما يعرض للروح والنفس والعاطفة من أحوال الضعف أو القوة، والفساد أو الصلاح ، والانحطاط أو السمو

فالأدب العربي كان صادقاً حين فاض بالبطولة وزخر بالحماسة وجاش بالعزة في عهوده الأولى أيام كان يمدد العرب من قوتهم بالروح ومن سلطانهم بالنبل ومن حريتهم بالكرامة

والأدب العربي كان صادقاً حين لج في الضراعة، وضج بالشكوى، وأن من الألم، وتحدث عن فسوق الخلق المنحل ، وإيمان القلب المستدل، وضلال النفس المريضة في مذاهب القحّة، في عهوده الأخيرة أيام وهنت غزائم الملوك، ووهت دعائم الملك ، وتخلت يد العرب عن زمام الدنيا ، فوقعت الفوضى وحدث الخلل ولجأ الناس بعضهم إلى الله وراء شيوخ الطرق ، وبعضهم إلى الشيطان وراء قطاع الطريق . والأدب العربي صادق اليوم في الإبانة عن هذا للشك الخامر في قدرتنا على التفكير الأصيل، واضطلاعنا بالأمر الجليل، واستقلالنا بتبعات الرأي وتكاليف الحياة ؛ فإن اعتقادنا الإيحائي المزمّن يتفوق الأوربي وامتيازه سلب من نفوسنا الثقة ومن قلوبنا الإيمان ومن عقولنا الأصالة ومن شعورنا السمو ، وتركنا كالعبد

المملوك لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه ، ينقل فيما يقول عن لسانه ، ويصدر فيما يعتقد عن قلبه .

فأدينا يجهل اللغة العربية كل الجهل ، ويعلم اللغة الأوربية كل العلم ، لأنه إذا تكلم بها أو كتب فيها شعر بذلك الامتياز الذى يلزم أهلها فى بلاد الشرق . وأدينا يقرأ الأدب الأجنبى ويغفل الأدب العربى ، لأن هذا أدب قوم كانوا يلبسون العمام ويأكلون بالأيدى ويجلسون على الوسائد ويقولون له : نحن أجدادك ! وذلك أدب قوم يلبسون البرانيط ويأكلون بالشوك ويجلسون على الكراسى ويقولون له : نحن أسيادك ! وأدينا يعمى عن مناظر بلده ومحاسن طبيعته ومفاخر قومه ومآثر شرقه ثم يفتح عينيه بكلمات يديه ليستشف من خلال السطور السود قناطر (السين) وشعاف (الألب) وخائل (التيرول) لأن هذه ذكرها جوته ولامرتين وبيرون ، وتلك إنما ذكرها البحترى والرضى وشوقى !

زارنى ذات يوم شاعر من شعراء الشباب وفى يده قصيدة يريد نشرها بالرسالة ، وكان موضوع القصيدة كما يقول : تصوير منظر قروى فى ريف مصر : مشرق الشمس فى القرية أو مغربها لا أذكر . فلما نظرت إلى الصورة — وأنا قروى — أنكرت ما رسم فيها من الخطوط ووضع بها من الألوان وحشد إليها من الطبيعة فقلت له : يغلب على شعورى أنك ترجمت . فقال وهو يعقد من التيه عنقه : ثق أنها من وحي خاطرى وفيض لسانى . فقلت له : إذن ما هذه النواقيس التى ترن فى الأبراج ؟ أفى قرىتم كنيسة ؟ فقال كلا ، وإنما آثرت رنين النافوس على أذان المؤذن ، لأننى أجد للأجراس والأبراج من الروعة والشاعرية ما لا أجده للمأذنة والمسجد . فألطفت للفتى فى الاعتراض والاعتذار مخافة أن يرمينى فى سره بالجمود والتأخر !

كذلك قدم إلى كاتب من ناشئة الكتاب قصة مصرية سمي أشخاصها :
جان وأليور ولورا وهيلين ، لأنه يجد هذه الأسماء في الحوار والحديث أرق وأعذب
من على وإسماعيل وسعاد وفاطمة !

فالأدب المصرى الحديث كالمجتمع المصرى الحديث يقوم على موت الشخصية
وفناء الذات ونسيان التاريخ ونكران الأصل ، فهو يستلهم المطابع الأوربية ،
ويخضع قريحته للقرائح الأوربية ، ويعقد لسانه بالألسن المرهوبة منها فيحكي
ما تقول في لغثة نكراء من أثر العقدة ، وهو لو وضع عن كاهله نير الامتياز ،
وفهم هذه الكلمة الخزية على الجاز ، فأخذ عن طبعه وترجم عن طبيعته ، لفجأ
الغرب بأدب قدسى الإلهام سحرى الأنعام شرق الروح مصرى الطابع ، يحل
أهله من أدب العالم ما أحل أدب الهند إقبلاً وطاغور !

إن الطبيعة المصرية أولى أن تلهم الشاعر تأمل الصحراء ، وأحلام النخيل ،
وابتسام الصحو ، لا أن تلهم ما تلهم الطبيعة الإنجليزية من أمثال (الملاح التائه)
و (الزورق الحالم) و (وراء الغمام) ! فإن الفن لا يخضع خضوع العلم للعقل
المشترك والوطن العام ، وإنما يخضع قبل كل شيء لطبائع الإقليم وخصائص البيئة
ومنازع الشخص . فإذا استنزل شعراؤنا الشباب على خواطرهم هذا الوحي
الغريب فذلك أثر ما نشكوه من هذه العبودية العقلية التي ضربت على الآذان
وغلبت على الأذهان وجعلتنا للأجانب في كل شيء تبعاً

فمتى يعلم المصرى أن له مجداً يجب أن يعود ، ووطناً ينبغي أن يسود ، وصوتاً
يحق أن يسمع ، وأدباً يصح أن يحتذى ، وتاريخاً يليق أن ينشر ، وحقاً على
أرضه تؤيده الطبيعة ويقره القانون ولا ينكره عليه إلا جنبه وذله ؟ !

نأمل ساعة

[كتبت في ٢٦ نوفمبر ١٩٢٩ على أثر قدومي إلى بغداد]

في الشرفة الوسيعة من فندق (كارلتون) جلست أطلع في صفحة دجلة ما خطته يد القرون . وكانت شمس الأصيل تنفض تبرها على أمواج النهر وسطوح الكرخ وحواشي الأفق ، والطبيعة الأنيقة تنعم بالصفاء والبهاء والدفع بعد ما أجهدا رعد الأمس وبرقه ، وأغصها وابل الغمام وودقه ؛ فالسماء مصرية الأديم ، والجو عبهري النسيم ، والأفق الغربي مزدان بقزعات من السحاب الأبيض الرقيق ، والماء قد استحال لجينه نضاراً من طول ما حمل إليه السيل من كنوز الجبل

أخذت أصوب النظر وأصعده في النهر والجسر والشاطئ ، فأرى أنماطاً من الناس ، وأخلاطاً من الأجناس ، وصوراً من الأشياء ، تنكرها العين ويعرفها القلب ، لأنها شرقية ولأنها عربية ولأنها مظلومة ! ...

ذكرتني هذه المناظرُ مناظرَ غابت في سويداء القلب ولغائفه : ذكرني تقابلُ الرصافة والكرخ على دجلة ، تقابلُ القاهرة والجيزة على النيل الأعلى ، والمنصورة وطلخا على النيل الأسفل ؛ وفي هذه الأماكن الحبيبة مدرج طفولتي وشبابي ، وملتقي أحبتي وصحابي ، فهاجت شجونني وسالت شؤوني . فوضعت جبهتي المضطربة على سياج الشرفة البارد وعدت بالذاكرة وشيكاً إلى بغداد ، ثم انطويت على نفسي وأخذت أتفكر وأتذكر وأعمه في غيابة الماضي حتى انقطع ما بيني

وبين الحاضر، وانمحي من حوالى العالم بأسره

وحينئذ انبعث من جانب الكرخ صوت شادٍ يُرَجِّعُ بالنغم العربى الشجى ،
نخيل إليّ أننى أرى دجلة (الأمين) وجسر (ابن الجهم) وكرخ المَجَّانِ
والخلعاء من أهل بغداد المترفة ، ووقع فى سمعى أن هذا الشادى يقول :

سقى الله باب الكرخ من مُتَنَزِّهِ إلى قصر وضاح فيه كة زلزل

مساحب أذيال القيان ومسرح الـ حسان ومثوى كل خرق معذل^(١)

وصوّر لى أننى أسمع غناء الملاحين فى الزلازل وأبصر (الدفين)

و (العقاب)^(٢) يمحران العباب بالأمين وحسانه وقيانه ونداماه .. وتراءت لى

على الشاطىء الشرقى قصور البرامكة الحزينة ، يقابلها على الشاطىء الغربى قصور

الخلفاء والأمراء تعج بالجوارى والغلمان ، وتضج بالشعراء والندمان ، وتموج

بالسادة والقادة والجند ، وتفيض بالنعيم والجلال والعظمة . وتمثلت فى خاطرى

بغداد الأمس كباريس اليوم فى عدد سكانها ونخامة بنيانها واتساع رقعتها وازدهار

مدنيتها ، وانبعثت الحضارة من مجامعها ومنابرها ، وانبثاق الهداية من جوامعها^(٣)

ومناظرها . إلا أن باريس تشع فى أجواء مشرقة تسطع فيها شمس أخرى تضارعها

وتضارعها ، أما بغداد التى عنت لها وجوه القياصرة ، وكان من جندها أبناء

الدهاقين والأكاسرة ، فكانت شمساً واحدة ترسل الضوء والحرارة والحياة

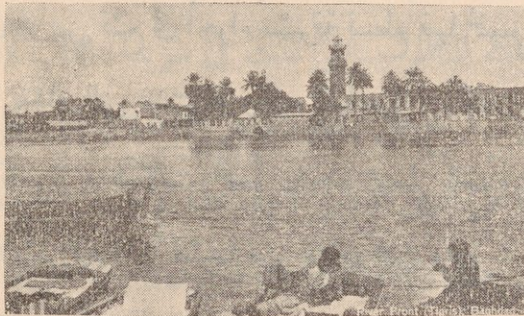
فى القارات الثلاث فتبدد ما غشيها من ظلام وخمود ونوم

(١) الخرق : الفتى الحسن الكريم الخليفة . والمعذل : من يعذل لافراط جوده .

(٢) الدفين والعقاب مركبان من مراكب الأمين (٣) جوامع جمع جامعة

لا أدري متى كنت أصحو من نشوة هذه الذكريات الحلوة المرة لو لم يُعِدني إلى وجودي صوت منكر من أصوات الحضارة الحديثة قد انطلق من جوف مركب بخاري عظيم كان يشق بحيزومه صدر دجلة ، فسرحت طرفي في الأفق فإذا شمس الشرق تجاهد ظلام الغرب ، وإذا القرعات قد ارتد بياضها سواداً ضربت في حواشيه حمرة الشفق فصارت كأجنحة الغربان الدامية ، أو كقطع من الفخم علقت بأطرافها نار حامية . ثم نظرت شمالاً فإذا المكان الذي سجدت فيه رسل (شارلمان) أمام الرشيد يحقق فوقه علم غريب^(١) لا هو أسود ولا أبيض ولا أخضر^(٢) ؛ وإذا قطع من السحاب السود قد انعقدت فوقه ملبدة هنا مبددة هناك ... فقلت في نفسي : ليت شعري أهذه بقايا أعلام الرشيد والمأمون ، أم هذه أثواب الحداد لبستها سماء العراق على السعدون^(٣) ؟ !

(١) ذلك العلم الإنجليزي على دار المعتمد البريطاني في الكرخ (٢) هي ألوان أعلام العرب الثلاثة في القارات الثلاث (٣) كانت العراق يومئذ لا تزال مروعاً بانتحار زعيمها الكبير عبد المحسن السعدون



الامتياز والدين

... حتى على حرم الدين وموئل علومه ومعقل آدابه تعتدى الامتيازات الأجنبية المشؤمة ! فقد حدثني من لا يجهل ولا يكذب أن طالباً من جنوب أفريقية يطلب العلم في أحد المعاهد الدينية دهمه الامتحان وهو في سكرة النعم المصري الخالص من الأذى والمن ، فلم يجد في رأسه غير وساوس الشباب وغمام الهوى ، ففرع إلى الكتاب ينقل منه نص الجواب فأخذته عين المراقب ! ثم كان ما يقتضيه القانون والخلق والنظام في مثل هذه الحال من طرد التلميذ وإلغاء امتحانه

ولكن جنوب أفريقية — وأرجو أن تتذكر — له على شملها امتيازات بالواسطة ، يُدل بها على مصر إدلال الخادم بسطوة سيده ، ويصول بسيفها صولة العبد بسيف مولاه ! حملها أبو الغلام على ظهره عشية الحادث ، وراح يهدج بها في فناء الدار^(١) المشرقة على النيل وعلى أمة النيل ، فاهتزت الدار لشكواه حفاظاً وأنفة ، وأقبلت حجرات الحراس على حجرات الخدم يتساءلن : أين إذن الامتياز إذا تساوى الأجنبي والوطني في قانون عام ؟ وأين إذن الامتياز إذا جرى الحمي والمصري في الأمر على منهاج واحد ؟

وفي الصباح الباكر كان مدير المعهد جالساً إلى مكتبه يذكر الله على إيقاع المسيحة ؛ وذكر الله تطمئن به القلوب وتشجع به الأنفس ، ولكن جرس

التليفون كان اليوم على ما خيل إلى المدير أحد رنيناً وأشد صلصلة ، فزعرع القلب المطمئن وضعضع النفس القوية !

— ألو ! ألو ! مَنْ ؟

إدارة الأزهر العليا ! أعد إلى الامتحان الطالب الذى أخرجته منه أمس — كيف وقد غش فى الإجابة ، وضبطت معه أداة الغش ، وضاع من أيام امتحانه يوم ، وذهب من هذا النهار حصه ، وأعلن إلى الملأ رفضه ؟ — أعد هذا الطالب من غير مناقشة !

وكانت اللهجة حاسمة والإجابة مفحمة ، فخرس التليفون وخشع المدير وتناصر المكتب وخزى القانون وبُهِت الخلق . وعجب المدرسون والطلاب إذ رأوا التلميذ الذى طرد بالأمس يعود إلى مكانه اليوم وهو أضخم مما كان جثة وأنضر طلعة وأطول رقبة !

تخالست العيون نظرات العجب وتبادلت الشفاه بسمات السؤال ؛ ولكن المكاتب الرسمية ظلت واجمة ، والأسباب السحرية الرهيبة بقيت محجوبة ، حتى أذن لها أن تظهر ، فسكنت طبيعة المعهد وركدت ريح الفناء وثقلت حرارة الجو وأخذ الدار ما يأخذ الأرض قبيل هبوب العاصفة !

وهناك اقتحم الدار ذلك الإفريقى الذى رأيناه بالأمس يقرع الباب الأحمر^(١) والامتيازات تجار بالشكوى على ظهره ، ثم أثار من حلقه عاصفة هوجاء ترمى بالسباب والسفه ، فلم تدع كرامة على منصة ولا مهابة على مكتب ولا جلالة فى إدارة حتى تناولتها بالعيب والزراية

من الذى يجرؤ على أن يطرد ابنى يا . . . أين ذهبت أوامركم بالأمس ؟

ما حال قوانينكم اليوم ؟ كيف ترفعون رؤوسكم غداً ؟ ثم ترتد وجه الرجل وترتد
خوفه فأرسل على القوم من فخش البذاء ما نحمد الله على الجهل برسمه حتى نكتبه !

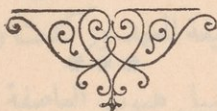
برح الخفاء واستعلن السر فسكن القوم سكون الطير في ثورة الطبيعة !
فلما هدأت زجاجة الأسود الممتاز وانصرف عنهم انصراف الليل المرعد عن الصباح
الوديع ، أفاقت الطير من دوار الزوبعة ، وفزعت إلى الإدارة العليا تستصرخها
للكرامة ، وتستعديها على الرجل ، وتسألها أن تعارض شكاية بشكاية ، وتقول
في حرارة الموتور ومرارة النادم : لقد قال الرجل فأسرف ، وسكتنا فأسرفنا !
وتشاءت المصادفات العجيبة أن يكون بين يدي الإدارة آنئذ دلو من الماء
النير البارد فتلقيه على ثورة الغضب فتقر ! ثم قالت لهم بتلك اللهجة الحاسمة
والإشارة الحازمة :

نعما فعلتم ! الحلم سيد الأخلاق

كان رجال الدين في العهود الغريزة مفرع الفضيلة المروعة ، وملجأ الفضل
المضطهد . ينبغي الحاكم ويحجف السلطان ويطنى المستبد ، حتى إذا بلغوهم
شدوا الشكيمة وردوا الجراح واستقاموا على الطريقة . ثم كانوا في حضرتهم
يستكينون لسلطان الدين وسيطرة الضمير وغمة القناعة وصراحة الخلق وشجاعة
القلب ، وإعلان الحق في وجه الباطل وإن ذهب عليه الدنيا وأريق
في سبيله النفس

وكان من ورع رجال الدين في الأزمان الصالحة سياج على حمى الشريعة ،
يرد عنها خبائث الطمع ونقائص المادة ، فلا تُسخر للظلم ، ولا تُستخدم للحكم ،
ولا تُستغل للهوى . وكانت كلمة العالم هي كلمة الله ، يقولها فتعنو لها الجباه وتجمد
لها الشفاه ويستقيم بها ميزان العدل

فإذا ابتلى المؤمنون بنفاق الحياة ، وفُتن المتقون بزهرة الدنيا ، وذل العلماء
لشهوة الترف ، فرغبوا في وجاهة المظهر وفراهة المركب ، ورفاهة العيش ، سلهم
الله ميراث النبوة ، وحرّمهم جلالة الدين ، فأصبحوا كسائر الناس ، يجري عليهم
ما يجري على غيرهم من ذل الامتيازات وغل الحزازات وعنت السياسة
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما



ذِكْرَى الْمَوْلَدِ

كان الناس في أبريل من عام ٥٧١ هـ، والطبيعة المشفوفة^(١) تنتظر انبثاق الروح المبدع، وانبعاث الربيع الممرع، وانتعاش الحياة الجديدة في الأرض الهامدة؛ والخليقة المثوقة^(٢) ترسل النظر الحائر في الآفاق الغائمة، ترتقب لمعة النور من الشرق، ونفحة القوة من الحق، وكلمة الهدى من الله؛ والجزيرة المجهودة تصهرها الشدائد، وتطهرها الدماء، وتهيبها الأقدار ليهبط فوقها الوحي، ويتجلى لها الخالق، وتتصل عندها السموات بالأرض؛ والهواتف الطائفة تعلن في رؤس الجبال، وسفوح الأودية، ومدارج السبل، وسواييط^(٣) المعابد، وأواوين القصور، بشرى الرسالة الأخيرة، وظهور الرسول المنتظر؛ والشياطين الآلهة تنن في أجواف الأصنام المنكسة أنين الخيبة والهيبة واليأس؛ وأجنحة الأملاك تخفق من وراء البصر^(٤) في جو مكة القائظ المغبر، فتنفض عليه النور والسرور والصفاء والدعة؛ وأرواح الأنبياء من حول الكعبة تضوع بالحمد والدعاء احتفالاً بختام النبوة؛ وقيام الدعوة مرة أخرى في بيت إبراهيم؛ وومضات من روح القدس وأشعة الخلد تنعقد هالات مشرقا على «شعب بني هاشم» وفوق دار آمنة؛ والنبي الوليد الذي خنس لمولده الشيطان، واعتدل بمقدمه الزمان، وخشع لذكركه الكاهن والموبدان^(٥)، وتصدع من خشيته الدست والايوان^(٦)، يفتح عينيه للوجود في بيت العدم^(٧)، ويلقي أرواقه^(٨)

(١) المشفوفة: الهزيلة الواهنة (٢) المثوف: من أصابته الآفة (٣) الساباط: سقيفة بين جدارين تحتها طريق (٤) من وراء البصر: أى لا ترى (٥) الموبدان: فقيه الفرس كقاضى القضاة عندنا (٦) الدست: صدر البيت، والايوان: إيوان كسرى (٧) العدم: الفقر (٨) الأرواق: جماعة الجسم

الكريمة على مهاد اليتيم ، ولا يظفر بمرضع إلا لأنها لم تظفر آخر الأمر بغيره !

تبارك الله ما أبلغ حكمه وأجل شأنه ! شاء لنوره وبرهانه أن يشرقا في هذا المنزل المتواضع ، ولجده وسلطانه أن يظهرأ في هذا اليتيم الوداع ، ولعلمه وقرآنه أن ينزلا على هذا الأُمى الحي ، لتكون آيته أبهر للعيون ، ودعوته أروع في العقول ، وكلمته أنوط بالأفئدة . ولو اتخذ رسله من الملوك العواهل لاثَّمت المعجزة ، والتبس على الناس فعل القدرة

كان محمد بن عبد الله مثل الله الأعلى للإنسان الكامل . صوره خلقاً سويّاً ليرسم الأخلاق بالمثل ، ويعلم الدين بالعمل ، وينظم الحياة بالقدوة . وإلا فكيف اجتمع فيه ما تفرق في جميع الناس من خصال الرجولة وخلال البطولة وخلائق النبيل ، وبيئته لا تملك من بعض ذلك ما تعطيه ؟

رعى على بعض أهله ، وسعى لبعض قومه ، واتجر بمال زوجته ، فكان في جليل الأمر كما كان في ضئيله صادق العزم ، كريم العهد ، وثيق الزمة ، راجح الحلم ، شاهد اللب ، لين العطف ، حلو المعاشرة ، « يحمل الكل » ، ويكسب المعدوم ، ويعين على نوائب الحق »

ثم اصطنعه الله لحقه ، وحمّله الرسالة إلى خلقه ، فكان في غار حراء ، وفي دار الأرقم ، وفي جبل ثور ، وفي دار أبي أيوب ، وفي المسجد الجامع ، ثم في الرفيق الأعلى ، مظهراً صحيحاً لروح الله ، وإعلاناً صريحاً لسر الدين ، ومثالاً عالياً لصدق الجهاد ، واحتمالاً سامياً لمكاره الدعوة ، وأسوة حسنة لجميع الناس !

جهر الرسول بالدعوة بعد أن خافت بها في قريش ثلاث سنين ، فضل الأَقوام وسفّه الأحلام وهاجم الشرك في معقله ، وليس وراء ظهره إلا عمه ! فتألبت

عليه عناصر الشر جمعاء فما أفكته عن عزمه^(١) ، ولا خلجته عن همه . ثم تجلت فيه مواهب الكمال الإنساني فحشد للخصومة قوى النفس وقوى الحس ، فجاهد بالصدق ، وجادل بالصبر ، وجادل بالمنطق ، وصاول بالرأى ، وأثر باللسان ، وقهر باليد ؛ وتلك مزيته الظاهرة على النبيين والرسل . فكل نبي وكل رسول إنما بان شأوه على قومه في بعض المزايا ، إلا الرسول العربي فقد تم فيه ما نقص في غيره من معجزات الرجولة ، فكان رسولاً في الدين ، وعلماً في البلاغة ، ودستوراً في السياسة ، وإماماً في التشريع ، وقائداً في الحرب .

إن حياة الرسول قانون إلهي خالد لصاحب الدين وصاحب الدنيا ، وإن وسائل الجهاد التي جدد بها أسلوب العيش وأقام بها ميزان المجتمع لا تزال عناوين ضخمة في صفحات العلم والسياسة والخلق ، وإن من أساس الإسلام أن نطيع الله في كتابه ، ونطيع الرسول في سننه وآدابه ؛ فليت شعري أكان في حدود الإمكان أن يرتطم العرب والمسلمون في مراغة الخمول ، فيرضون بالهوان ، ويقنعون بالدون ، ويتخلون عن مكانهم من صدر الوجود ، لو أنهم اتخذوا من أحكام ربهم منهاجاً ، ومن كلام رسولهم علاجاً ، ومن حياة السابقين الأولين من رجالهم قوة وقدوة ؟

أليس من خذلان الله لنشئنا الجدد أن يلو كوا جاهدين أسماء فلان وفلان ممن رأى رأياً أو أنشأ قصيدة أو ألف كتاباً ، ثم يتركوا عامدين اسم محمد الذي جمع العرب من شتات ، وأيقظ العالم من سبات ، وأقام للسماء ديناً في الأرض ، وأسس للأرض دنيا في السماء ؟

[٢٥ يونيو سنة ١٩٣٤]

في الموقف الأدبي الحاضر

كان ظهور (الملاح التائه) و(وراء الغمام) ، وصدور (الوادي)^(١) في لونها الجديد سبباً قريباً في حدوث هذه الضجة الأدبية القائمة . لأن الديوانين على رغم ما قيل فيهما نتاج من الطراز الأول يستحق العناية ويستوجب النقد ويستدعي الخلاف ؛ ولأن الشاعرين — وإن كانا بحكم ثقافتهما غريبين عن العالم الأدبي — قد جذبا إليهما الأنظار وعطفا عليهما الأنصار بالطبع الموهوب والذوق الناقد . فلكل منهما في كل قهوة رقيب ورفيق ، وفي كل صحيفة عدو وصديق ، وفي كل ناد مكبر ومنافس ؛ ولأن الوادي قد أخذت منذ حين تفتح لأدب الشباب (محضراً) في كل أسبوع ، وقد تطوع للشهادة له وعليه أساتذة النقد في الجهاد والبلاغ . وكانت الحملة عنيفة على صاحبي الديوانين لحظهما الوافر من الإجابة ومحلهما الرفيع من الفن ، فكابد الشاعر الطبيب مبضع العقاد ، وقاسى الشاعر المهندس معول المازني . وكان الدفاع عنهما أكن الحجة أرعن الدليل لصرفه الجهد في رد المآخذ ؛ ولو غنى بتبيين المحاسن كما غنى بتحسين المساوئ لأخفى ما ظهر تحت مجهر النقد من ضئال العيوب في بهر الجمال وروعة الصنعة . ولكل عمل من أعمال الناس جهة للمدح وجهة للذم لا تتشابهان على ناظر . والنقد صناعة دقيقة لا يحسنها في الغالب إلا شيوخ الأدب ، لأنهم استكملوا عُدتها واكتسبوا ملكتها بإدمان الدرس وطول المران وكثرة التجربة ؛ فردُّ ما خذم إذا برئت

(١) الملاح التائه : ديوان الشاعر المهندس على محمود طه ، ووراء الغمام : ديوان الشاعر الطبيب ابراهيم ناجي ، والوادي جريدة كان يحررها حيناً من الدهر الدكتور طه حسين

من الشطط والاعتساف يكون في الكثير الغالب من وراء القدرة الشابة .
كان أسلوب النقد ولا شك مشوباً بصلف الأستاذية وعمت الخرازة وعبث
التهكم . وحجة النقاد أنهم بالطبيعة أولياء الفن وأمناء هيكله وأحباب إذنه ،
فلا يَجْمَلُ بهم أن يُدْخِلُوا فيه من لا يثبت معدنه على شدة السبك ، ويخلص
جوهره على تقصي النظر ؛ وأن الأدب أعسر من أن يُنَالَ بالدعوى العريضة
والدعاية المريضة والأساليب الملققة .

وكان طبيعياً أن يأنف الشباب من هذه اللهجة ، ويألموا من هذه الشدة ،
ويزعموا أن هناك أثماً بهم وإنكاراً لأدبهم ، فیسوء ظنهم بالنقد ، وتفيض
مجالسهم بالشكوى ، ويقابلوا الأستاذية بالتمرد ، والخرازة بالعناد ، والتهكم بالحق ؛
ويسطوا الأمر على أنه نزاع بين أديين : قديم يشتهي الموت ، وجديد تبتغيه
الحياة . وتنفرج الحال أخيراً بين جيلين مقام الأول من الثاني مقام المدرب المشفق
والمرشد الناصح والدليل الجرب .

إن شيوخ الأدب وشبابه إنما يتخذون أدوات واحدة ، ويعالجون موضوعات
مقاربة ، وينتجون نتائج متشابهة . فتاريخ الأدب يوم يكتب عن هذه الفترة
لا يجد للشباب أسلوباً خاصاً يسجله ، ولا مذهباً جديداً يحلله ، ولا أثراً مستقلاً
يشرحه ويعالجه . إنما هي مطامح الفتوة إلى المثل الذي توحيه الطبيعة وتقتضيه
الفترة ويلهمه الاطلاع ، تحاول همتهم الوثابة أن تدنيهم منه فيقعد بهم عجز الوسيلة
وتنقص العدة .

وليس يسوغ في العقل أن يُعَدَّ التسامح في اللغة والتساهل في الأسلوب

والتجاوز عن القواعد ميزة ، فإن بأس الشباب لم ينكسر أمام عزم الشيوخ إلا في هذه الناحية .

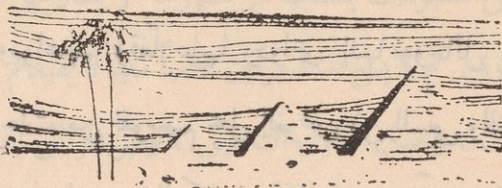
والحق أن المسارعة إلى الإنتاج العام قبل استكمال وسائله الأولى غمزة بينة في أدب الجيل الحديث . فإن الإلمام باللغات الأجنبية ، والوقوف على قواعد الفن الأوربية ، لا يجعلان المرء كاتباً في العربية ما لم يدرس هذه اللغة دراسة قوية تَرَدُّدها طيبة لقلمه لينة على لسانه ؛ والاعتماد في اكتساب الأدب على محاكاة النماذج وتقليد المثل لا يقوم عليه فن ثابت ، ولا ينهض به فنان معدود وما كان المثل ليغنى عن القاعدة وهو لا يضىء إلا ناحية من الطريق . والقريحة نفسها وهي غمزة الأدب والفن في الإنسان ، ليست من الكمال اليوم بحيث تجزى عن القواعد . كذلك الذوق وهو أداة الجمال كما أن العقل أداة الحق ، لا يمكن أن يكون طريقاً مأمونة إلى عمل أدبي صحيح ؛ فإنه موهبة طبيعية تختلف في الناس وفي الأجناس ، وتحتاج إلى المران بالدرس والعادة ؛ وليس لها ما للعقل من سلطان واطمئنان وثبوت . وإنك لتجد عقلاً مطلقاً مستقلاً لا يختلف ولا يتغير ، لأن هناك حقيقة مستقلة تتميز بالوضوح والجلاء ؛ ولكنك لا تجد مهما استقرت واستقصيت ذلك الذوق المطلق المستقل الذي لا يختلف باختلاف الألوان والأزمان والأمكنة . أما القواعد فهي نتيجة التجارب وخلاصة الملاحظات على طول القرون ، وضعتها القرائح للمنطقية المتعاقبة بعد أن فقهت أصول الأشياء ، ودرست علائق هذه الأصول ، واستخلصت نتائج هذه العلائق ، ثم صاغت هذه النتائج قواعد وقالت لك إنها أمثل الطرق لإحسان العمل دون أن تخضع عبقريتك إليها ، ولا أن تسمح لهواك بالخروج عليها ، فإن بين الاستبداد والقوضى نظاماً أحق أن يؤثر ويتبع

و بعد ، فإن الفنان والناقد إنما يتعاونان على فهم الجمال ، كما يتعاون القاضى والمحامى على فهم العدل ؛ فليس من الخير لأحدهما أن يكون مع الآخر على حد منْكِب^(١) . وإن الأدب الشيخ والأدب الشاب ليتعاونان على قيادة النفس ، كما يتعاون البصر والجناحان على قيادة الطائر . فليس من خير أحدهما أن يكون من الآخر على قطيعة

والأدب الرفيع من بعد ذلك كله صلة المرء بربه ، ينفي الأذى عن لسانه ويذهب الغل عن قلبه

[٢ يوليو سنة ١٩٣٤]

(١) يقال : فلان معى على حد منكب : أى كلما رأى التوى ولم يتلقنى بوجهه



أحمد زكي باشا

رحم الله زكي باشا ورضى عنه ! لقد كان عالماً من أعلام هذا العصر ،
ورسولاً من رسل هذه النهضة ! وأعلام هذا العصر ورسول هذه النهضة معلومون
معدودون ، لا تزيد فيهم المجاملة ، ولا تنقص منهم الجفافة . ولكل واحد منهم
ناحية من نواحي الإصلاح أشرقت فيها نفسه ، وانتشر في جوانبها سناه . وهم يمتازون
من النابغين والناهبين بأن لهم عقيدة فطرية قوامها الإيمان والعصبية ، ورسالة
روحية بلاغها الجهاد والتضحية . فمحمد عبده في الناحية الدينية ، ومصطفى كامل
في الناحية الوطنية ، وقاسم أمين في الناحية الاجتماعية ، وسعد زغلول في الناحية
السياسية ، وأحمد زكي في الناحية القومية ، قد بلغوا جميعاً رسالات الفطرة على
نحو ما بلغ المرسلون رسالات الوحي . نزلت على قلوبهم منذ الشباب الأول فجعلت
عقولهم وميولهم ومواهبهم وقفاً عليها ودواعي إليها ووسائل لها ؛ ثم لازمتهم
في أطوار العمر وحلت من نفوسهم محل الغرض من السعي والغاية من الحياة .

فزكي باشا منذ بلغ سن التكليف تمثل لعينه مثله ، واستعلنت في ذهنه
رسالته : رأى العروبة لفظاً تغير مدلوله في الناس ، وجنساً تنكرت معالمه
في الأجناس ، ولساناً فشا فيه الدخيل ، وديناً تقول عليه الباطل ، وأثراً عبث به
الجهل ، وتاريخاً تطرق إليه النسيان ، وحضارة غض منها التعصب ، وحقاً تجهم له
البغي ، وإراثاً تخطفته الغزاة ، ووحدة مزقتها العوادي . فنهض لإصلاح ذلك كله

نهوض المصلح الملهم والمؤمن الواثق . وكان أول ما عانى من وسائل العيش معالجة الترجمة في الديوان ، ثم تعليمها في المدرسة ؛ فصرف جهده في تنقيح التراكيب الديوانية ، وتصحيح الأعلام العربية ، وتصويب الأخطاء التاريخية ، ونقل ما يعلن محامد الإسلام إلى اللغة الفرنسية ؛ ثم لا يسمع بمكرمة تروى لأمة إلا التمس الأولية فيها للعرب . فالصحف الفرنسية تذكر أن وفود المهنيين دخلوا على الرئيس (بوانساريه) يهنئونه برياسة الجمهورية فما شكر أحداً بما شكر به الآخر ؛ فيكتب في تلك الصحف نفسها أن الوزير ابن زيدون قد سبقه إلى ذلك في موقف خرج من مواقف العزاء . وتتبعج أوربا باختراع الطائرة فيثبت لها أن ابن فرناس أسبق من طار في الجو وأول من مات في سبيل الطيران . وتشيد أميركا بعبقريته (كولب) في كشف الدنيا الجديدة ، فيقول لها إن العرب أول من فطن إلى وجودها وسعى لكشفها . ثم اتسع أمامه أفق الجهاد فاستشرفت نفسه إلى إحياء ثقافة العرب ونشر حضارة الإسلام ، فحج الأندلس وزار العواصم الأوربية ، ينقب عن نوادر المخطوطات ونقائس المطبوعات ينسخها أو يصورها أو يشتريها لا يدخر في سبيل ذلك جهداً ولا ثروة . ثم لابس المستشرقين دهرأ ملياً ، يفيدهم ويفيد منهم حتى ثقف مناهج البحث ، وحذق أصول التحقيق ، ومهر طرائق النشر ، وأصبح لهم مرجعاً وفيهم حجة

فلما اعتزل المنصب الحكومي تسايرت قواه وهواه إلى خدمة الأمة العربية ، فوفد على ملوكها ، وسفر بينهم بالصدق والألفة ، حتى أذهب الموجدة ، ومهد لتوحيد الكلمة .

ثم جرّد لاستقراء الدقائق واستجلاء الحقائق نشاط الصبي وعزم الشباب

وصبر الرجولة ؛ فشغل الصحف بالمقالات والمناظرات ، وعمر الأندية بالخطب والمحاضرات ، وأحيا المجالس بالملح والمحاورات . وفي كل يوم يعتكف الساعات الطوال في مكتبته الجامعة يحجر مسألة أو يحضر إجابة أو يحبر مقالة أو يصحح تجربة ؛ حتى إذا فرغ من ذلك كله رجع إلى بيته ، فوجد ناديه قد حفل بزواره وسماره من رجالات العرب والمسلمين الطائرين على مصر ، فينشر عليه الأنس ، ويفيض فيه السكرم ، ويبث خلاله المعرفة ؛ فكانت حضرته كحضرة صاحب ابن عباد ، مصدر العوارف والمعارف ، ومثابة القصاد من كل قطر وطبقة .

ثم أسلم وجهه إلى الله في عهده الأخير ، فجعل همه وعزمه حبساً على إنشاء مسجده وبناء قبره . فكنت تراه لا يفكر إلا في هذا المسجد ، ولا يعمل إلا له ، ولا يتحدث إلا عنه ، ولا ينفق إلا عليه ، ولا يُبرد البُرد ويرسل الرسل إلا في شأنه . فلو لم يُعجله الموت عنه لتركه قطعة خالدة من الفن العربي .

ثقافة زكي باشا ثقافة الأديب ، فهو محيط بكل شيء ، ولكنه غير راسخ في شيء . وذوقه ذوق الفنان ، فهو أنيق في ملبسه ، أنيق في مأكله ، أنيق في مسكنه ، أنيق في أسلوبه ، أنيق في نشر مقاله ، أنيق في طبع كتابه . وخلق العالم ، فهو متطامن النفس ، عذب الروح ، حلو الفكاهة ، سليم الصدر ، يذهب في السذاجة إلى حد العُجب ، ويخرج من تقرير مجهوده في العلم إلى التفاخر به .

وكان تصوره وتصويره عربيين خالصين على رغم تضلعه من الفرنسية ، وإلمامه بالآداب الأوروبية : فتفكيره استطرادي لا يعنى بالوحدة ، ولا يحفل

كثيراً بالتناسق ؛ وأسلوبه أندلسى يتصيد السجع ، ويتلمس ألوان البديع ؛
ومرجع ذلك إلى اعتقاده بعربيته ، واعتداده بشوقيته ، واعتماده في تكوين
نفسه على أدب أمته .

إن رسالة الفقيه الكريم كانت ضرورة من ضرورات الإصلاح في عصر
قضى الله أن يبعث فيه مجد العرب ليحييا من حيٍّ عن بينة ؛ فإن نهوض الأمة
على تاريخ طامس ، وأثر دارس ، ولغة معجمة ، وهيكـل منحل ، يكون أشبه
بنهوض الكسيح لا يقوم إلا ليقع .

وقد لخص الفقيه رسالته أجمل تلخيص في ثلاثة أبيات من الشعر أنشأها
ثم جعلها زخرف داره ، وصورة شعاره ، ومراجع حديثه . وهى :

وقفت على إحياء قومي يراعى وقلبي ، وهل إلا اليراعة والقلب
ولى كل يوم موقف ومقالة أنادى ليوث العرب ويحكمو هبوا
فإما حياة تبعث الشرق ناهضاً وإما فناء وهو ما يرقب الغرب
رحمه الله رحمة واسعة ، وعوض العروبة والعربية والإسلام من فقدته
خير العوض .

[١٦ يوليو سنة ١٩٣٤]

بين السياسة والأدب

ينظر الأدب المصرى اليوم إلى السياسة نظر المغيظ الحق لطيغان جلالها على جلاله ، وعدوان سلطانها على استقلاله ، وعبث أهلها بأقدار أهله عبث الهوى المتحكم بقوانين العدالة !

شهد الأدب فى هذه الأيام جنازة سياسية لمرقص حنا باشا ، وجنازة أدبية لأحمد زكى باشا ؛ وسمع بذكرى سياسية لسينوت حنا بك ، وذكرى أدبية لحافظ إبراهيم بك . فأما الجنازة السياسية والذكرى السياسية فكانتا مظهرين من مظاهر الوطنية الرائعة ، ومظاهرتين من مظاهرات القومية المتحدة ، شملت البلاد وشغلت الصحف وأرهفت الشعور وأرهبت الحكومة ونفّست عن العاطفة العامة المكروبة ؛ وأما الجنازة الأدبية والذكرى الأدبية فكانتا دليلين على هذا التواضع المسكين الذى يصاحب العلم ، وأثرين لهذا البؤس المهين الذى يلازم الأدب ، فشيع الأولى بعض الأصدقاء وبعض الخاصة ، ونسى الثانية كل الأصدقاء وكل الخاصة ؛ ثم تهايمت بين الناس الشكاوى ، وتملقت من الأنصار المعاذير ، وتجاوبت فى الأفطار الشقيقة أصداء الأسف ، ونعى كاتب سوربة الكبير صاحب (فتى العرب) على مصر عقوق الأدباء وجحود العباقرة . وليس الأمر فى نظرنا مما يبعث الشكوى من السياسة ، ويشير السخط على الجمهور ، ويستوجب الملامة على مصر ، فإن السياسة تقوم بواجبها ، ولا تحول بين أحد وبين واجبه .

السياسة عقيدة ، والعقيدة تحييها الشعائر ، وتميها المظاهر ، ويقويها الحشد وينشرها الإعلان ، ويدعيها التذكير ، وتجدها الدعاية .

والسياسة مبدأ ، وهذا المبدأ نفسه يريد أن يكرم في ذكرى الميت كما كان يكرم في وجود الحي ، وما حالات السياسى إلا مناسبات يهتف فيها بفكرته لا بصورته .

والسياسة جهاد ، والجهاد يدعو إلى البطولة بتكريم البطولة ، وإلى التضحية بتعظيم التضحية .

والسياسة حكومة وخصومة ، ومن حق السياسة المكبوتة أن تتلمس الحرية في كل فرصة ، وتتنشق الراحة من كل فُرْجَة .

والسياسة جاه وقوة ، ومن طبيعة النفوس أن تشايح الجاه وتبايع القوة ابتغاء لمنفعة أو اتقاء لمضرة .

والسياسة بعد ذلك كله للشعب ، فرجالها زعماءه ، وضحاياها شهداؤه ، ومواقفها موافقه .

أما الأدب فلا نصيب له من بعض ذلك . ليس عقيدة للعامة ، ولا فكرة للأمة ، ولا ساحة للنفوس المجاهدة ، ولا مطمعة للعيون الرغيبية ؛ إنما هو فن الخاصة ، وبغية الرجل المثقف . فإذا لم يحفل أهله بأهله ، وبنوه بجمهوره بفضله ، ذهب أثر رجاله من الدنيا كما تذهب أنعام موسيقى الجيش بعد المعركة ، ثم لا يبقى الفخر والذكر إلا للجنود والقادة .

الأدباء هم المومنون على هذا العقوق . والصحفيون هم المسؤولون عن هذا

الإهمال . وشهوة المنافسة وعداوة الحرفة هما اللتان تفسران البواعث على هذا والدوافع إلى ذلك . والأديب الذى يَنفَس على أخيه محنة الوجود ، يجد من الأولى أن ينفس عليه نعمة الخلود . والأدب فى الحياة وفى المات شر على صاحبه ، فإنما لا نزال نشهد كل يوم معارك الأهواء بين الأدباء الأحياء تقطع وشائج الصداقة ، وتخفى دلائل النبوغ ، وتزيف حقائق الفضل ، ثم لا تترك منهم للتاريخ إلا أشلاء منكورة من الأدب والفن والخلق . ولا نزال نسمع من يذكر المنفلوطى بالسوء لأنه اصطنع الأدب الباكي ، كأن للكاتب يدأ فى تركيب مزاجه وتكوين بيئته وتأليف ظروفه وتثقيف ملكاته . كذلك لا نزال نسمع من يشدد النكير على شوقي لأنه عاجل فى بعض عمره شعر المديح ، كأنه نشأ فى ظل الدستور وعهد الديمقراطية وعصر الجماعة ، وكأنه كان يمدح عباساً لأن المتنبي كان يمدح سيف الدولة !

نعم كان أمس ذكرى حافظ ، وكان أول أمس ذكرى سينوت ! فهل رأيت بعينك وفاء السياسة وجحود الأدب ؟ إن حافظاً رحمه الله ما يزال يقتضى أصدقاءه الخللص حفلة التأبين وتأليف الكتاب الذى وعدوا الناس به ، فهل من المعقول أن نطلب من شعبه المغلول إحياء الذكرى وإقامة التمثال ؟ ولقد كان من جرائر نحسه الذى ظل بعد موته حياً يعيث ، أن مواهبه السامية فى الشعر والبلاغة قد أخذ ينالها النسيان وتشوهها الغفلة ، فما يذكره الناس حين يذكرونه إلا بحلاوة النادرة وبراعة (النكتة) وحسن الحديث ، حتى خشينا أن يصبح فى الخاصة ما أصبح أبو نواس فى العامة !

فَمَنْ مُبْلَغٌ حَافِظًا الصِّدِّيقَ أَنَّ المَوْدَةَ بَعْدَهُ أَصْبَحَتْ لَا تَبْقَى عَلَى الحَنَنِ ،
وَلَا تَقْوَى عَلَى الأَهْوَاءِ ، وَلَا تُثَبِّتُ لِلظُّرُوفِ ، وَلَا تَتَجَاوَزُ كَذِبَ الحَيَاةِ إِلَى صَدَقِ
المَوْتِ ... !

وَمَنْ مُبْلَغٌ حَافِظًا الأَدِيبَ أَنَّ الأَدَبَ بَعْدَهُ أَصْبَحَ دَاءً كَدَاءِ الضَّرَائِرِ ،
تَهْيِمُنَ عَلَيْهِ المُنَافَسَةُ الكَاذِبَةُ ، وَتَغْضُ مِنْهُ الحَاسِدَةُ اللَّيْمَةُ ، وَتَتَحَكَّمُ فِيهِ
الأَغْرَاضُ الحَقِيرَةُ ؟

وَمَنْ مُبْلَغٌ حَافِظًا الفَنَانَ أَنَّ فَنَّهُ الجَمِيلَ سَيَبْقَى عَلَى لُؤْمِ الإِنْسَانِ وَظَلَمِ الزَّمَانِ
رَأْيًا مَا رَاعَ الجَمَالَ ، سَاطِعًا مَا سَطَعَتِ الشَّمْسُ ، خَالِدًا مَا دَامَ هَذَا الخُلُودُ ؟ !

[٢٣ يوليو سنة ١٩٣٤]



على الشاطئ الغريق

هكذا الطغيان يا نيل يجعل مصدر الحياة مورد هلكة ، ومنبع الخيرات
مغيض بركة ، وأصل العمارة غاية دمار وخسر !
هذه شواطئك الخضراء يا نيل كانت بالأمس تتنفس بالنعيم ، وتتدفق بالخير ،
وتترقق بالجمال ، فأصبحت اليوم تختنق بالأخطار ، وتلتطم بالخواف ، وتهدد
الحقول الغنية الخصبية بالفاقة والجذب . وهذه مدنك البيض وقُراكَ السمر كانت
تنفياً على ضفافك ظلال الخفض ، وترمق من خلال النخل أمواجك المرسلة
المسلسلة ، وهي توقع بين القصب الألف ألحان الثراء والغبطة فتعتز بك وتقدس
لك ، فأصبحت تحشد في وجهك الجنود ، وتقيم بينها وبينك السدود ، وتضرع
إلى الله أن يصرف عنها طغيانك وجورك ! وهؤلاء أبناءك الوادعون كانوا
يتعهدون بالعمل الدائب غرسك الزكي وثمرك الغالي ، فيدفعون الحشرات عن
القطن ، ويدراون الطفيليات عن الذرة ، ويسلسلون في الحقول نضارك الدائب ،
ويستقبلون بالشوق الآمل موسمك الآئب ، فأصبحوا وهم من هؤلاء قأمون
على رجل لا يستقر لهم جنان من الروع ولا يطمئن بهم مجلس من الجزع ،
ثم أمسوا وهم محشودون بقوة السلطان على جانبيك ، من أسوان إلى مصبّيك ،
يدافعونك مدافعة العدو ، ويكافحونك مكافحة الوباء ، ويكابدون في صدّ غارتك
الجهد والجوع و (السخرة) ! ذلك والقرويات ينتظرن بالقلق الجازع الغرق

الخشى ، ويرصدن الأهبة للهجرة المتوقعة ؛ فهنَّ يجمعن المتاع ويشددن الغرائر ،
ويلقین النظر الحزين على القطن المكتهل على أعواده ، والذرة الناشئ على سوقه !
وهكذا الطغيان يا نيل يروّع السكينة فى القلب ، ويفزع العدالة فى الدولة ،
ويجعل سلام الأرض وسلامة الناس لمشیئة فرد !

وقفت منذ أيام على شاطئ من شطآنك المنكوبة أرسل طرفى الساهم فى
تيارك الجارف ، وداراتك المدوّمة ، ولججك الفائرة ، ثم أردّه إلى السواحل الغصانة
والمزارع الغرقى وفكرى بين هنا وهناك يستقبل الذكريات القديمة ، ويستخرج
المشابهات الأليمة ، فذكرت بهذا المنظر الحزن ترّةً بينى وبينك موروثه !
فقد طغيت فى عام ١٨٧٨ على قريتى الصغيرة فاحتملتها هى ومئات من أمثالها كما يحتمل
السيل الدافع أكوام المهشم ! وكان قومى قد سمعوا بانفجارك فى (ميت بدر)
على مقربة من سممود وبيننا وبينها عشرات من الأميال ، ولكن ماءك الطاغى
نحر هذا المفيض حتى انحدر فيه مجراك كله ، فلم يكن بين السماع والرؤية إلا ريثما
حزموا المتاع وشدوا المطايا ، ثم أدركهم فيضانك قبل الرحيل ، فتركوا الأرزاق
وطلبوا النجاة . فحمل الكبار الصغار ، والطوال القصار ، والنساء الأطفال ،
ومضوا يتحسسون الطرق تحت الماء ويتلمسون المصاعد فوق الأرض حتى بلغوا
— وما كادوا يبلغون — ساحل نهر (شبين) وهو على بضعة دقائق من القرية .
وهناك وقف المهاجرون على الشاطئ العالى بين البحرين يودعون بالنظر
العبران قريتهم الهالكة ، والماء يُغيّب الدور ويتلّع الشجر حتى لم يبق ظاهراً

منها إلا شرفات بيت الله وُغرفات^(١) بيت العمدة . ثم تمزقوا في البلاد يطلبون
المأوى عند ذوى القربى أو عند أولى المودة حتى انحسر الماء فعادوا واستأنفوا
عمارة القرية فعادت !

ثم لا يزالون يؤرخون الحوادث بهذه (الغرفة) ، ويهلون في أحداث تلك
الهجرة ، ويستعدون كل عام لطغيان النهر قبل أن يثون أوانه بشهر ! وهكذا
الطغيان يا نيل يفرق الآلاف ، ويشتت الوحدة ، ويوهن بين الأوداء
أسباب المودة !

يطغى الحكم كما طغيت يا نيل فيجرف السدود ، ويتعدى الحدود ،
ويتخطى الحواجز . ثم يدور بالتجسس ، ويفور بالإرهاب ، ويقذف بالتهم ،
ويُسخر قوى الدولة وموارد الأمة ومرافق الناس لسلطان أمره وطامح نفسه ونفاذ
حكمه . وأصل الطاغية كان مثلك يا نيل فياض اليد فقدسه الناس ، جارف التيار
فاتبعه الشعب ؛ ثم ناصرتة شهوة الخاصة ، وساعدته غفلة العامة ، فرد أهواء
النفوس إلى هواه ، وشورى العقول إلى رأيه ، وحدود القوانين إلى إرادته ،
وسطوة الجماعة إلى يده ، ثم تفيض هذه القوى المتجمعة عن طاقة الفرد فيطغى ،
ويزيد السلطان المفرط على غرور الإنسان فيتأله ، ويومئذ لا تسأل عن حدود
الله كيف تُطمس ، ولا عن رسوم العدل كيف تُدرس ، ولا عن حقوق الناس
كيف تُسفه ، ولا عن نظام الأمر كيف يتبدد ، ولا عن جموح الأثرة كيف
ينبغى ويتحكم

(١) الغرفات جمع غرفة وهى الحجرات العليا من البيت

وهكذا الطغيان يا نيل يعطل منابع الخير ، ويبدّل طبائع الفطرة ، ويقتل مواهب العقل ، ويغمر بالظلام آثار العلم ودلائل العقل وشواهد الكفاية

ويطغى الأدب كما طغيت يا نيل فلا يكثرث للقواعد ، ولا يعُوج بالأصول ، ولا يحفل بالمنطق ، ولا يأبه للخلق ؛ ثم يرغى بالبذاء ، ويُزبد بالهراء ، ويطفح باللغو . وكان الأدب الطاغى مثلك يا نيل عذب الشمائل ، سهل الشريعة ، فروى الناس من نبعه ، وبردت أكبادهم على نداءه . ثم انتكس المجتمع واتقلبت الأوضاع ، وفسدت المقاييس ، واستفاضت الدعوى ، وتبجح الغرور ، واستبهم الأمر ، فرأى سلاطة اللسان أجدى عليه من براعة الذهن ، والتواء الفكر أنفع له من سلامة القياس ، ولؤم الوقعة أشد لسلطانه من كرم النفس ، وشهوة الجدل أقرب إلى قلبه من حب الحقيقة . وفي العهود التي تسطو فيها اليد ويستخذي القانون ، يَسْلُط فيها اللسان ويستكين المنطق ! ثم يمكن لمثل هذا الطغيان تكررُهم الأدباء عن مقام المسافهة ، ضناً بأخلاقهم على الغمز ، وبإحساسهم على المضاضة . وفي التاريخ السياسى والأدبى يا نيل أمثال وأشباه ! ولكنها تنحسر كلها عن جوهر الحق ومحض الخير ولباب الجمال ، كما تنحسر أنت عن هذه السواحل والجزر والقرى بحكم الطبيعة ومشيتة الله !

يا هادي الطريق جُرت

ذلك هُتاف الأمة الخيِّرى ، يتجلبل في صدرها المكظوم كلما بهرتها الشدائد ،
وأجهدتها المفاز ، وفدحتها الضحايا ، ووقف بها اللغوب ، ودارت ببصرها في معامى
الفضاء فلا تتبين نَسْماً لطريق ، ولا تتعرف وجهاً لغاية .

يا هادي الطريق جُرت !!

ذلك صراخ القافلة المكروبة تخبط منذ طويل في مجاهل الأرض وخوادم
السُّبل ، وأدلاًؤها الغواة يلتهمون زادها مع الوحش ، ويقتسمون مالها مع المغير ،
ويغتزمون ضلالها مع الحوادث ؛ حتى قطعوها عن ركب الإنسانية ، وتركوها
في مطاوى التيه تنفق جهدها على غير طائل ، وتنشد قصدها من غير أمل .

يا هادي الطريق جُرت !!

ومن يستطيع اليوم أن يُعرِّف هذا الهادي بالنداء أو يخصه بالوصف
أو يأخذه بالتبعية ؟ لقد تعدد الهداة في هذه القافلة ، واختلفت الشياطين بين هؤلاء
الهداة ، فتنازعوا الزعامة ، وتجادبوا الأزمة ؛ فأخرجنا هذا من مذهب إلى مذهب ،
وصرفنا ذاك عن مطلب إلى مطلب ؛ حتى إذا انكشفت عن عيوننا أغطية الغفلة ،
وجدنا أنفسنا بعد الجهد الجاهد ندور حول الموقف الذى كنا فيه ، أو نرجع
إلى الموضع الذى فصلنا عنه !

على هذه القيادة المتضاربة الأفينة رجعنا القهقري زهاء ثمانين سنة : رجعنا
إلى العهد الذى كنا نهدهد الدستور فيه على هوى السلطان المطلق ، وندرب
القانون على مصارعة العرف الغالب ، ونعلم الشعب الأجير معنى الأمة المالكة !

وليتنا عدنا إلى ذلك العهد بأخلاقه ورجولته ! فقد كنا على قلتنا أغرّة ، وعلى فافتنا أعفّة ، وعلى جهالتنا أعلم بالخير وأفهم لمعنى المجتمع . كنا نتواصى بالصبر ، ونتعاون على البر ، ونتهادى صنائع المعروف ، ونحفظ وحدة الأسرة بالحب ، وسلطان الدولة بالطاعة ، وحقوق الله بالورع . فما كان منا من يخون الأمانة ، ويسرق الأمة ، ويتكئ على النقيصة ، ويتحمل على الخبث ، ويتجر بالدين ، ويتخذ عدو وطنه ولياً ، ويعتقد خطة غاصبه شريعة !

ولكننا ... وا أسفاه ! بعد هبة مصطفى ، ونهضة سعد ، وجهاد خمسة عشر عاماً ، تمكن فيها السلطان ، واستبحر العمران ، وازدهر العلم ، وتولد النبوغ ، وتوحد الشعب ، وتكوّن الرأي ، نصاب بهذه النكسة الشديدة فنعود ناقضين ما أبرّم ، خاسرين ما غم !!

اللهم إن النيل لا يزال يفيض ، وإن الوادى لا يزال يُنبِت ، وإن الشمس التى أنضجت أذهان الفراعين لا تزال تشع ، وإن الأيدى التى غرست أولى الحضارات على العدوتين لا تزال تعمل ، فما بالنا اليوم يتقدم الناس ونتاجر ، وتنتحر الشعوب الضعيفة ونحن لا نتحرر ؟ !

دع عنك ما يقال من كلب الاحتلال وفقد الاستقلال وتجنّى الدول ، فإن ذلك كله عرض من أعراض العلة الدخيلة الوييلة ، وهى انحلال الخلق . وانحلال الخلق فى دهرنا الحديث داء جرثومته أننا عُنينا بالتعليم قبل التربية ، وبتعليم الإبن قبل تعليم البنت . فكان لنا من ذلك الوضع المقلوب رجال يَجرون فى عِنان مع علماء الغرب ^(١) . بل ربما طالوهم فى حذق اللغات وتلون المعرفة ؛ ولكن كثيراً منهم يخلون من أخلاق الرجولة خلو البيت من الأم الصالحة ، والمدرسة من الربى القادر . فتخونهم الكفاية عند التطبيق ، وتخذلهم الشجاعة عند العمل ،

(١) جرى معه فى عِنان : ساواه

وفارقهم الضمير عند الواجب ؛ فلا يبقى إلا الغرائز الحيوانية التي تثب على أموال الناس ، وتعتمد على حقوق الشعب ، وتستخدّم السلطان العام في مساعدة الصديق ومكيدة العدو ومناوئة الخصيم ! . . .

وليت غريزة الحياة بقيت فينا على حال الفطرة ! إذن لعلمنا ما تعلم النمل من قوام العمل ، وفهمنا ما تفهم النحل من نظام الجماعة ، وسرنا على نور الله لا نعمة في ظلام ولا نسدر في غواية .

إن بعض الأمم الإسلامية أقل منا عددًا وأرق ثروة وأضيق ثقافة وأحدث مدنية ما في ذلك شك ؛ ولكن غرائزها الأصيلة لم يزيّفها ذل الرق السياسي ، وخلّقتها النبيلة لم يفسدها زور المدنية الوافدة ؛ فتمردت على الضيم ، وتعنتت على الأحداث ، وقلمت الأنظار الناشبة في استقلالها ، وقطعت الأيدي الطامعة في استغلالها ، ومشى أبناؤها الأباة على هدى ماضيهم المشرق لا يستكينون لمشورة حليفة ، ولا يستنيمون لمعونة أجنبي ، ولا يستجيبون لوساوس الأطماع في مرافق الأمة ومناصب الدولة ، حتى انخزلت عنهم التهم ، وغفلت عنهم الفتن ، واستوثق لهم الأمر أو كاد .

ذلك يا قوم ما يهدى له منطق الطبع وصوت التاريخ وعبقريّة الجنس . أما هذا الذي نحن عليه فلا يمكن أن يؤدي إلا إلى الذي نحن فيه . فتداركوا إفلاس المدرسة وفشل السياسة وفوضى الحكم ، بإيقاظ الضمائر الغافلة ، واستخدام الكفايات العاطلة ، واستلهاهم هذا الشعب المجيد الذي عودته عناية الله أن يُعوّق ولا يضل ، ويُعذّب ولا يذل ، ويحارب ولا يستكين .

حذاء الوظيفة

قال وهو يقلب كفيه من الهم ويعبّض على يديه من الغضب :
سقط الوزير سقوط الورقة الجافة قبل أن يمضى القرار بالوظيفة ، فهل
رأيت مثل هذا الحظ المتخلف والقدر العاث ؟ ...

فقلت له : هون عليك يا بنى ولا تسلط على نفسك أساك . إن معك الشباب
القادر ، والأمل الطموح ، والثروة المساعدة ، ودبلوم الزراعة التى تفتح لك كنوز
الأرض وتدر عليك أخلاف السماء ، وفى القرية متسع لأمثالك ممن يحيون
مَوَاتِها ويجددون حياتها ، ويفيضون على أهلها نعمة العلم وخير المدنية ونعيم
الحضارة ؛ فلم لا تستأجر مزرعة فى بعض دوائر الأمراء تجرب فى استغلالها
كفائتك وإرادتك وحظك ؟ إنك إذا فعلت عصمت نفسك من رق الوظيفة ،
وخلقت من فتنة الحكومة ، وعلمك من آلية العمل ، ورزقك من تحديده
بالمرتب ، وقدرك من قياسه بالدرجة .

فأجاب وفى عينيه سهوم العجب من هذا رأى : مالى أدفع بنفسى فى هذه
المغامرة المجهولة ، والوظيفة تضمن حاضرى بالمرتب ، وتؤمن مستقبلى بالمعاش ؟
والقليل المتصل خير من الكثير المنقطع ، والموضع المتطامن التماسك أصلح للقرار
من الرفيع المترجح ...

فقلت له : ذلك كلام لا كتبه الألسن حتى تفه ، وتقبلته الآذان حتى سمج .
ولقد كان له مساعه وبلاغه يوم كانت المدارس معامل لتخريج الكتبة والحسبة .

للحكومة ؛ فأما اليوم وقد امتد أفق التعليم ، واتسع نطاق المنهج ، وانفسح مجال العمل ، وتحققت الحرية للفرد ، وتيسر الارتجال للشباب ، وحان الحين ليسترد المصريون جماعات ووحداناً مرافق بلادهم وموارد أرزاقهم من الأجانب ، فإن الإخلاء إلى المقاعد الحكومية إخلاء إلى العجز ، واطمئنان إلى الهون ، وانخزال عن تحرير الوطن

قال : ولكن فريقاً من الشباب ارتجلوا بعض الأمانى الاقتصادية الجماعية في الزراعة والتجارة والملاهي ، فوردوا عن خسارة وصدروا عن فشل .

فقلت له : إن هؤلاء فاروا عن حرارة وقتية ، وثاروا عن ريح عابرة ، فاعتسفوا الأمر قبل أن يخبروه ، وزاولوه دون أن يفرغوا له ، وأخطأوا تقدير المنافسة الأجنبية فأخطأهم التوفيق . ومالك تقيس أمرك بهذا المقياس المختل وأمامك المقاييس العليا تتوالت إلى عينيك من كل مكان ؟ ألم تر إلى اليوناني أو الطلياني كيف يفد عليك من غير رأس مال ولا شهادة جامعة ولا توصية وزير ولا تعضيد جمهور ، ولا تحميس صحافة ، فيحترف وضائع الحرف ، ويحتمل مكاره الفوز ، ويتفرع معالي الأمور في روية وصبر ، حتى بلغ به نشاطه أن يدير عمارة المدينة ، ويصرف تجارة القرية ، وينتج زراعة العزبة ، فيبيع عليك غلة أرضك ، ويستعبدك بر با مالك ، وأنت جالس جلسة الأجير على مكتبك الحقير تكنس لنعليه الطرق ، وتشق لعينييه الحداثق ، وتكفل لمتاجره الأمن ، وتدبر لمزارعه الماء ، وتتقبل على كل ذلك دغل الصدر وقسوة اللسان وحقبة النظر !

رأى صديق الفتى أن لهجتي لا تلائم همه الغالب ، ومنطقي لا يساير منطقهم

اليأس ، فتولى عنى غير راض ولا مقتنع ، وتركنى أحدث نفسى ، وأقارن بين يومى وأمسى ، فأجدنى بين عملى المقيد الذى انصرفت عنه ، وبين عملى الحر الذى انصرفت إليه ، أشبه بالسجين المقيد يعمل برأى غيره ولحساب غيره ، فلا يتحرك ولا يسكن إلا بأمر ، ولا يسير ولا يقف إلا فى نظام ؛ وهو يأكل حين لا يشتهى ، وينام حين لا يريد ، ويستيقظ حين لا يجب ، وتتعطل ملكاته حتى يصبح كالإنسان الصناعى : قوة محرّكة وآلة ؛ ثم يدركه لطف الله فتتفكك عنه السلاسل ، وتفتح له الأبواب ، فيجد عقله فى النور ، وخلقه فى الطبيعة ، وحرّيته فى الجو ، ووجوده فى المجتمع ! فينبت الريش الناسل ، ويحقق الجناح المهيض ، وتتكشف الآفاق الجديدة !

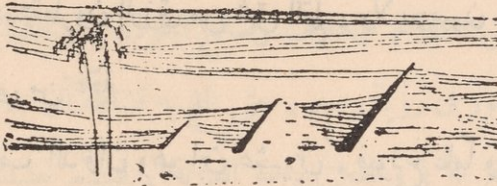
إن أولى الناس بالراءى لآءئك الذين سلبوا جوهره الحياة وحرية العيش ، وعاشوا فى ظلام الوجود مكبين على مكاتبهم ، مغولين عن الحركة ، مكومين عن الشكوى ، يستقطرون الرزق من شق القلم ، ولا يصيبون من أجورهم سداداً من عوز ، ولا غنى من فاقة .

يدخل الموظف الديوان وهو ابن عشرين ، فيودع عاماً ويستقبل عاماً حتى يأخذ بمُخَنَّق الستين ، وكأن لم يحدث فى العالم شىء ! يختلف الليل والنهار ، وتبديل الأحوال والأطوار ، وهو على مكتبه الضيق فى غرفته المظلمة ، يعمل ساعة ويجترأ أخرى ، دون أن يشعر بدوران الفلك ، أو يفتن إلى حركات العالم يدخل الديوان وهو طير الشارب ، أثيث الجمّة ، ريان من الشباب والقوة والأمل ؛ ثم يودعه وهو مخدّد الوجه ، أشيب الشعر ، متداعى الجسم ، فقير من المنى

والذِّكْر والمال ، لا يصلح إلا عموداً في مسجد ، أو منضدة في قهوة . وربما أقصدته
النون لا تقطاعه بغتة عما ألف من عادة شديدة وحياة رتيبة وأعمال واحدة ،
في ساعات لا تختلف ولا تتبدل .

أيها الموظفون ! إن لا بتغاء الرزق موارد غير هذا المورد الناضب ، وخدمة
الأمّة مواقف غير هذا الموقف الكاذب ، فتجافوا بأنفسكم عن هذه المقاعد ،
فإنها مواطن الذل والملق ، ومساكن الفقر والجهل ، ومكان الخمول والموت ؛
واقرأوا على أبوابها ما كتبه « دانتى » على أحد أبواب الجحيم :
« قوضوا حصون آمالكم ، وأضمروا اليأس من مآلكم ، أيها الداخلون ! »

[١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٤]



عهد وأى عهد !

كان كَرِعة الحمى أو كَرْفة الزلزال ، أخذ هذا البلد المسكين زهاء أربع سنين ، فكدر من طبعه ، وغير من وضعه ، وبدد من نظامه !

هل تخيّلت الجنة وقد اتسق في ظلالها الخفض ، واطرد في مياهها النعيم ، وانبلج في أجوائها الأنس ، وانبسط على أرجائها السلام ، يقتحمها شياطين الجحيم عنوة ، فيجعلون ظلها حروراً ، وماءها مُهلأً ، وأنسها وحشة ، وسلامها فتنة ؟ ذلك مثل النيل وواديه قبل هذا العهد الذميم وبعده !

كانت البلاد تسير مع الزمن إلى الأمام ، وتدرج مع الطبيعة في النمو ، وتتوثب مع الحق على العدو ، فنجم فيها ناجم^(١) من الشر اعترض طريقها اعتراض اللص ، ثم أثار في وجوهها الرعب فانكفأت إلى الخلف ، وامتنحن قلوبها بالبطش ففرزت إلى الصبر ، وسلط على مُترفيها المنى فقرروا على الرّيب ؛ وراح الذئب المقتنع^(٢) أو الطاغية الكاذب يعيث في كل ديوان ، ويفتك في كل مكان ، ويختل في كل جماعة ، حتى عطل سلطة الأمة ، وأبطل سطوة القانون ، وقوض ركن الفضيلة ...

تناصرت أبالسة الظلم والظلام على مشاعر هذه الأمة فتركوها من الدسائس والهواجس والأوهام في مثل الدجى الحالك ، تقتل نفوسها ويقولون إنها تجاهد ، وتركب رءوسها ويعلنون أنها تسير ، وتضطرب في شقائها اضطراب الذبيح

(١) رئيس الحكم وطاغية ذلك العهد

(٢) ناظر الخاصة الملكية يومئذ وقد كان يضع أصبعه في كل عمل من أعمال الدولة من

ويوهمون أنها تحيا ؛ ثم رصدوا خزانة الدولة وجنودها وشُرطَها وموظفيها لإقرار الشعب على الضيم ، ورياضته على الاستكانة ، ففسى الجندى أنه حُشد لمداغة العداة ، والشُرطى أنه رُصد لمراقبة الجناة ، والموظف أنه أُعِدَّ لتصريف الأمور ، ووقفوا جهودهم على قطع هذا الشارع فلا يعبره عابر ، وحصر هذا البيت فلا يزوره زائر ، وتعهد هذا المحالف فلا يُخلفه بر ، وتعقب ذاك الخالف فلا يُفلته أذى ! ثم انتشر الوعيد والوعد فى جنبات النفوس يستنزِلانها عن الخلق ، ويفتنانها عن العقيدة ، ويغريانها بالعدالة ، ويحرضانها على الصداقة ، حتى اشتبه الوفاء ، واتهم القضاء ، ومرضت الأهواء ، وانقطعت الأسباب بين المرء وصاحبه ، وانفجرت الحال بين الرجل وواجبه ؛ وكل ذلك لتُثرى جماعة ويتسلط فرد !

لا لله ولا للوطن كانت هذه الحجة ! إنما كانت نزوة رَعْناء من بغى الإنسان على الإنسان ! والناس لا يزالون كما كانوا فى الدهر الأول يسرقون ليأكلوا ، ويقتلون ليعيشوا ، ويستعبدون ليسودوا ، ويستبدون ليحكموا ، لا يحمى الفرد من الفرد قانون ، ولا يعصم الأمة من الأمة معاهدة ! أما الدين والمدنية والعلم والأدب والفن والأنظمة فغطاء ذهبي على الناب ، وطلاء وزوى على الخلب !

على أن ضعف الشعوب خداع ! لأنه قووى متفرقة فى نفوس متفرقة . فإذا ما تجمعت ذات مرة حول القوة الزعيمة للمهمة ، كانت هى الرجفة التى تهز الأرض من حين إلى حين ، وتنقل التاريخ من فصل إلى فصل !
ولكن ابن آدم سهوان : يذهله لُجب السلطان عن صوت العبر ، كما يذهله

غرور الحياة عن يقين الموت ! فلا يفيق من سكرة الدنيا إلا بوكزة الداء ، ولا من
سُورة الحكم إلا بسقطة الوزارة !

سيتخرّج التاريخ من تسجيل هذا العهد وإن كان قد سجل كثيراً من أمثاله !
لأن المظنون أن العالم يتقدم ولا يتأخر ، ويترقى ولا ينحط ؛ فكيف يجد المعاذير لقطعة
من الأرض يعزلها سارقوها عن الوجود الحاضر ، ثم يحاولون أن يضربوا الأسداد
بينها وبين الحرية والديمقراطية ، فلا ترى سيادة هذه ولا تسمع أناشيد تلك !
ولكن التاريخ لا ينسى — وإن نسى الناس — أن للنظام العالمى جاذبية
تجذب المتخلف ، وللعدل الإلهى صيحة تُسمع الأصم ، وللشعب الوديع حيوية
تغطى تعود بالمبطل صاغراً إلى الحق ، وتنبئ بالحق السليب موفوراً إلى أهله !

حنانيك يا رب ! لقد تألمنا حتى أشفق الألم ، وصبرنا حتى جزع الصبر ،
وضحينا حتى أصبحنا كلنا ضحايا ! فعسى أن يشاء عدلك وتريد رحمتك ألا نقاسى
مثل هذا العهد ، وألا نعاني مثل هذه التجربة ، وألا نكابد مثل هذا البلاء !

الآن أصبح الليل ، وانجلت الغمة ، وتهتكت سدول الظلام عن السماء
الواعدة ، والضياء الهادى ، والأفق الممتد ، والطريق القاصد ! فهل تترد الشياطين
إلى مقام سليمان ، وترجع الخفافيش إلى حوالك الغيران^(١) ، ويستقيم القوم على عمود
رأيهم حتى يلحقوا الناس ويدركوا الغاية !

[٢٦ نوفمبر سنة ١٩٣٤]

دَارُ تَبْلَى

دَارُ تَبْلَى ! وكانت إلى الأُمس القريب دار الأُمة ! عليها نزل وحي الوطنية ،
ومنْها انبثت صوت الحرية ، وفيها انبثق فجر النهضة ، وبها وُلِدَ معنى الاستقلال
كانت ملجأً للخلافة في الآستانة ، ومفرّج الخديوية في القاهرة ، ومخافة
الاستعمار في لندن ، ومثابة الإسلام في العالم كله ! ! تجمّعت فيها للأُمة رغائب ،
ونشأت بها للشباب آمال ، وخفقت عليها للجهاد (أُلوية)^(١) ، وسمعت مصر
في أفنيتها للمرة الأولى أصوات بَنِيهَا الخُلص يهتفون باسمها ، ويهزجون بمجدها ،
ويزفرون من الحفيظة لاستعبادها ، ويستنجزون الغاصب المحتلّ وعده المطول
وعهده الفاجر ! ثم كانت (عكاظ) للبلاغة الخطابية ، و (فورم) للمساجلة
السياسية ، و (كعبة) يتجه إليها أبرياء الصدر من مخامرة الوطن ، وأنقياء
الصحيفة من ممالأة العدو .

تلك هي دار اللواء ، ونادى مصطفى كامل !

تمر اليوم بمكانها من شارع (الدواوين) ، فتجد هذا الأثر الضخم والتاريخ
الحافل تُعَفِّيهِ الأحداث والنوازل ! كأنها لم تكن في عهدها الداني قلب مصر
النابض ، وعزم نشئها الناهض ، ومنارة أمرها الهادية ! أتى عليها أُنْبَى البلى
فنكّر أعلامها وأخفت صداها ! كأنها لم تنفض عن الوادي غبار الخمول ، ولم تمسح
عن الأجفان فتور الوسن ! وكأن مصطفى لم يسجل على أركانها أول صيحة
بالجلاء ، وأول رغبة في الدستور ، وأول غصبة للحرية !

(١) الأُلوية : ثلاث جرائد كان يصدرها مصطفى كامل بالعربية والفرنسية والانجليزية

ولكن الزمن الدوار القهار يحطم كل ما برأ الله وصور الناس من شخص
وشىء ، فلا يَظْهَرُ على بأسه إلا الفكرة ، ولا يَخلُذُ على رِغْمِه إلا العقيدة .

ألا فاسلمى على رِغْمِ هذا البلى يا دار ! فإن لك فى كل قلب آيةً مسطورة ،
وفى كل تاريخ صفحة منشورة ، وفى كل جيل نشيداً يعطف القلوب إلى الحق ،
ويَلفتُ العيون إلى النور ، ويَهْدِي النفوس الشاردة إلى الغرض الأسمى والسبيل
القَصْد . . .

ومن الذى يذسى ومضة الروح الإلهى التى تركت ذلك الجسد الضارع يفور
فورة الجبارين ، ويثبت ثبات الرُّسل ، ويقوم فى وحدة النبى وإيمان الشهيد ليجاهد
الإشراك بمصر ، والكفران بالأمة ، ويقارع بالحجج الثائرة الملزمة طغيان انجلترا
وهى يومئذ علة العلل ودولة الدول ؟

أم من الذى ينسى خفقة التضحية القدسية التى جعلت ذلك الشباب العليل
يحرك ساكن شعبه بوجيب قلبه ، ويضئ ظلام يومه بوميض روحه ، ويذكى خمود
عزمه بحجارة دمه ، ثم يزهد فى المال والجاه والحكم زهادة الحكيم ، فيحيا للمبدأ
والفكرة ، ويموت للقدوة والعبرة ؟

على إخلاص مصطفى وإيثار فريد وصدق سعد تسير اليوم هذه القافلة !
حتى إذا كذب الرائد ، ومكر الدليل ، وخامر الحادى ، انبلج فى جوانب الطريق
شعاع من هذه الأرواح البرّة ، فيجلو العمى ، ويكشف الضلال ، ويفضح المكيدة !
وقد ماتوا رضوان الله عليهم مائة الأنبياء ، لا (عمائر) تحجب سماء المدن ،
ولا (دوائر) تشغل أرض القرى ! لقد ملكوا وما تركوا ! إنما ورّثونا حفظ

الكرامة وإن أرهقنا الظلم ، وطلب الحرية وإن أجهدنا الطغيان ، ورعاية الحق وإن خدعنا الباطل !

كانت قافلتنا تسير باسم الله يا دار ! تسير على ضوء من مبادئ الزعماء لا يخبو ولا ينكسر ، فأصبحنا ذات يوم وإذا سيرها يثقل ونظامها يضطرب ! فالتفتنا فإذا عصبة منا تسربلوا بالنار وتدرعوا بالحديد ، ثم ولّوا وجوههم إلى الخلف ، وأخذوا بمؤخر القافلة جذباً وجراً ، حتى لتكاد عواتقهم تهى ، ومفاصلهم تنسرق ؛ وانبت في الركب دعاة الرجعية وسماسرة الطغيان ، يُلبّسون عليه الأمر ، ويوهمونهم أن هؤلاء هم القادة ، وأن هذه هي الوجهة ! وعلى تلك الحال الأليمة لبثنا أربع سنين يتجاذبنا وراء والأمام ، ويتنازعنا النور والظلام ، حتى ضعضع الصبر الأبي وثاقة الطاغية فخر صريعاً ليديه وفمه !^(١)

تقوض صرح الظلام والظلم أول أمس يا دار ! فانتشر ما كان يحجبه من نور ، وسرى ما كان يصدّه من نسيم ، وعدنا إلى نهج الحياة شامتين بمن هووا من أعاليه وثووا تحت أنقاضه !

لقد أبلاه عدل الحوادث كما أبلاك ظلمها ، وستبقى على الأبد آثارك المعنوية وآثاره ! فأما آثارك فتبقى بركة على الناس ، وحجة على البغي ، وتفسيراً لمعنى البطولة ؛ وأما آثاره فستبقى لعنة في فم الدهر ، ودمامة في وجه التاريخ ، ووضاعة في كبر الإنسانية !

ألا فاسلمى على رغم هذا البلى يا دار ! فإن لك في كل ذهن صورة ، وفي كل نفس ذكرى ، وفي كل غمرة من غمرات الجهاد روحاً تمسك القوى ، وتلهم الصبر ، وتعين على مخاوف الطريق !

[٣ ديسمبر سنة ١٩٣٤]

(١) إشارة إلى سقوط ذلك العهد الذي وصفناه في المقال السابق

الى الفريزيابك

أهلاً وسهلاً بعلى بك !... كيف حالك ؟... آنت هنا وأوحشت هناك !... منذ كم سنة لم أرك ؟... نعم أكثر من ست سنين !...

وكان هذا اللقاء المفاجئ في ميدان ابراهيم أمام (النيوبار) ، فمال بنا الشيخ في حماسة الشوق ودهشة المفاجأة إلى مجلس من مجالس هذا المقهى الحاشد ، ثم أخذ يسألني عن أمرى حتى نَقَعَ نفسه ونضح وده . فلما طال بنا نفس الحديث عطفته مترقياً إلى عمره المفقود ، فذا كرتُهُ عهود القرية أيامَ الشملُ جامع والجلبل واصل والدار نادية !^(١) فكانت أرسال^(٢) هذه الذِّكْرَ — وأسفاه ! — ترتد عن شعوره الأصم ارتدادَ الأمواج عن صخور الساحل ! لقد خفتَ الماضي في ذا كرتِه خفوت المحتضر ؛ فرجعه البعيد لا يكاد يبين إلا في نظرة قصيرة من عينه المنتفخة ، أو نفثة طويلة من نرجيلته المكررة .

لشدَّ ما صنعت المدينة بهذا الرجل ! كان مكتنز اللحم فترهل ، ومشوب اللون فانكفاً ، وخفيف الحركة فتقلته الأملاح ، وطليق المشية فقيدته العلل ؛ ثم كان يعقد مجلسه في القرية فيكون المجلس في جلالته ديوان عرش ، وفي مهابته جلسة محكمة ! يلتقي النظرة مثقلة بالدلائل فتأخذها العيون وعداً لا يُحلف ، أو وعيداً لا يشفق ، أو عاطفة لا تكذب ؛ ويرسل الكلمة موقرة بالمعاني فتلقفها الآذان أمراً لا يُرد ، وقانوناً لا يخالف ، ورأياً لا يُنقض ؛ فأصبح في زحمة القاهرة قطعة من الوجود المتطفل ، يتسكع في الطريق ، أو يتقمع^(٣) في القهوة ، أو يمتطى

(١) ندا القوم ندوا : اجتمعوا والاسناد إلى الدار مجاز (٢) أرسال جمع رسل بالتحريك وهو الجماعة (٣) يتقمع : يطرد الذباب من فراغه وبطالته

فى البيت ، ولىس له رأى فى أمور الناس ، ولا أثر فى جهاد العىش ، ولا شأن فى طبقات المجتمع ؛ وكان بلىل اللسان حافل الخاطر إذا تحدث إلى الفلاحىن فى شؤون الفلاحة ، فلما حاول مناقلة المدينىن أحادىث السىاسة والأدب والاجتماع ، قعد به الجهل عن مجاراتهم ، فغلب الوجوم على نفسه ، وختم العى على فمه !

تخاذل حدىث (البك) واسترخى حتى انقلب إلى أنة موجعة وشكوى ألىمة ! قال وهو ىطلب من الغلام جمرة ترسل النار فى النرجىلة الخامدة : منذ حبب إلى أبنائى - وهم فى المدارس كما تعلم - أن أنقل البيت من القرىة إلى الحاضرة ، انقلب وجودى رأساً على عقب ! فأنا أأىا كالغرىب ، وأعمه كالشرىد ، وأمشى كالتائه . نقصت غلة الأرض لاتكأى فى زرعها على الناس ، وزادت كلف العىش لاعتمادى فى الوجاهة على السرف ، وفدحتنى أعباء الدىن فأنا من شواغله فى غصة لا تساغ وكربة لا تنسلى ، وفسدت على سىاسة الأسرة فالبنون لا ىرىدون العمل فى غىر الحكومة ، والبنات لا ىرغبن الزواج فى غىر المدىنة ، والزوجة تأبى إلا أن تكون كزوجة فلان باشا : لها فى كل يوم ملهى ، وفى كل أسبوع ولىمة ، وفى كل شهر (مؤدة) ، وفى كل عام مصىف . فأنا یا صدىقى مذبذب العىش بىن هنا وهناك ؛ لم أستفد مزایا الحضرة من اتساق الأمر واطراد الحىاة ؛ ولم أستعد محامد الرىف من سعادة النفس وبساطة العىش وخلوص الفطرة وصحة الدىن وسلامة الثروة . فهل تطمئن على هذه الحال نفس ، وهل تشرق فى هذا الوجود سعادة ؟

فقلت له وقد تمثل فى خاطرى ما دهى القرىة وأصاب الأمة من أمثال

هذا الرجل :

لو أن سرّاة الريف استقبلوا من أمرهم ما استدبروا لما كانوا على أنفسهم
شراً وعلى قراهم جنّاية .

فإنك لو بقيت في قريتك وقت كما كنت تقوم على تدبير ثروتك ، وعاد
بنوك من الجامعة إلى القرية فاستثمروا علمهم فيها ، ونشروا مدينتهم وثقافتهم بين
ربوعها وأهلها ، ورجع بناتك من المدرسة إليها فبشّن في نسائها النظام والتدبير والدوق
بالإرشاد والقُدوة ، ثم فعل غيرك ما فعلت ، إذن لو فرّ فيها الرزق ، وورف عليها
الأمن ، وانتقل إليها العلم ، وتذوّق أهلها المساكين جمال الحضارة ونعيم الصحة
ولذة المعرفة ، وشعرت أنت في هذه البيئة شعور الغبطة والرضا ، لأنك أعنت فريقاً
من ضعاف الناس على أن ينعموا بحياتهم ويقوموا بواجباتهم على الوجه الأكمل
ولكن أكثر القرويين متى ارتجع ^(١) كثيراً من المال ، أو شدا قليلاً من العلم ،
أغلق (المضيف) وخرّب (الدوّار) ، وخلف القرية للفاقة والجهالة والمرض

فلولا أشعة من نور الأزهر الخالد تنتشر في هذه القرى فتدعو إلى الله وتهدي
إلى الحق ، لظل الريف وساكنوه على الحال التي عثر فيها التاريخ بطلائع الإنسان

أنت ياسيدى لا تزال أسيرة مجيدة لها في سياسة الأمة صحائف مشرقة ،
وفي ثروة البلاد جهود موفقة ، فافزع إلى ماضيك ، واستصرخ غريمة الجنس فيك ،
واستعدّ سلطانك على أهلك وبنيك ، ثم عدّ إلى مسقط رأسك ومهبط نفسك
ومنبت عواطفك ومنشأ هواك ومرتع صباك وموطن مجدك ومدفن جدودك ! عد
إلى القرية يا بك !!

[١٠ ديسمبر سنة ١٩٣٤]

(١) ارتجع : رجع

الرائع والشيء

ألفت منذ سنين أن أزور شهر رمضان في ربوعه الأصيلة ومغانيه الباقية. ومن لم يشهد شهر رمضان في حي الحسين، أو في حي الحسينية، أو في أمثالهما من الأحياء القديمة لم يشهده في قداسته المهيبة وجلالته الباهرة !

كنت في إحدى لياليه الزهر أخرج متى استيقظت المشاعر من فترة الصيام وسكرة الطعام ، فأعبر القرون العشرة التي تفصل بين القاهرة الملك فؤاد وقاهرة الخليفة المعز ، فأجد رمضان العظيم قد نشر بنوده وأعلن وجوده في كل شارع وفي كل منزل ! فهو خير يتدفق في البيوت ، وبشر يتهلل في الوجوه ، وأنس يتطلق في المجالس ، وذكر يتضوع في المساجد ، ونور يتألق في المآذن ، وسممر يتنقل في الأنديّة ، ونفحات من الفردوس ترطب القلوب وتلين الأكباد وترف على ما ذوى من العواطف .

فالخوانيت سامرة وإن لم تبع ، والمصانع ساهرة وإن لم تنتج ، والأهباء عاطرة بحديث الأجنة حتى نصف الليل ، والأفنية عامرة بذكر الله حتى أول السحر . أما كثرة الناس فقد أخذوا مجالسهم من قهوات الحى وباتوا ينضحون « مزاجهم » الظامى بالفناجيل الرويّة ، ويشققون أحاديثهم الطلية بالنكات المصرية ، ثم يستمعون في خشوع العابد وسكون العاشق ولهفة الطفل إلى القصّاص أو الشاعر ، وقد طوّفت به أشباح القرون ، وغمغمت في صوته أصداء الزمن . يتربع في صدر المكان على منصة عالية من الخشب العتيق ، وهو في سَمْتِه

وهندامه ولهجة كلامه وطريقة سلامه نموذج العامى الأديب ، ومثال الحضرى المثقف : حفظ كثيراً من الأشعار فاكتسب ظرف الأدب ، وروى صدرأً من الأمثال فاكتسب وقار الحكمة ، ووعى طائفة من الأخبار فاتسم برقة المندامة . وهو إلى ذلك بارع النادرة ، دقيق الفطنة ، عذب المفاهمة ، حاضر الجواب ، يؤدى إلى هذا الجمهور الغرير الساذج دعوة الواعظ وأمانة المعلم ورسالة الأديب .

ها هو ذا قد فرغ من احتساء القهوة ، وجباية النقوط ، ومبادلة السامع المعتاد جميل التحية ، ومسارقة الزائر الممتاز رغبِ النظر ؛ ثم أخذ يحتفل للقَصص أو الإنشاد ، فاحتبست قهقهة (النكتة) ، وانقطعت كركرة (الجوزة) ، وانتشرت سكينه الجد فى القهوة ، واتجهت عيون الجمع إلى المنصة ؛ ثم رن فى سكون القوم ذلك الصوت العريض المتزن يرسل الكلام والأنغام فى ترجيع مؤثر وتقطيع معبر وتنويع مطرب ؛ فهو يفخم ويرقق ، ويقسو ويلين ، ويأنف ويستكين ، ويشور ويهدأ ، ويسخط ويرضى ، ويتدل ويتذل ، ويتحمس ويتغزل ، كأنه فى تعاقب ذلك كله عليه الأوتار الطيعة تحت الأنامل اللينة البارعة ، فيملاً الآذان بالنغم ، والأذهان بالفكر ، والقلوب بالشوق ، والمشاعر باللذة .

ذهبت ليلة الأمس على عادتي أرود المعاهد وأجوس الديار وأستنشى ما بقى على أطراف الزمن من عبير الفاطميين ، فوجدت القاهرة الشرقية لا تزال تتحدى القاهرة الغربية بمساجدها ومدارسها ومستشفياتها وخاناتها وحماماتها وأسواقها ، وتعلن بشهادة هذه الآثار أن حضارتها العربية الخالصة إنما كانت تقوم على الدين والعلم والمدنية والإنسانية والعمل ، وتزعم بأدلة الاختبار أن هذا المظهر الحسى القوى الرائع الذى يميز حضارة الغرب من حضارة الشرق إنما يرجع إلى أن هذه

تقوم على الروح ، وتلك تقوم على الآلة ؛ وهذه تصدر عن العاطفة والإيثار ، وتلك تصدر عن المنفعة والأثرة ؛ والميزة التي ينبغي أن تكون لحضارة على حضارة إنما هي ضمان السعادة للناس وتحقيق السلام للعالم .

ولكن أين صديقي الشاعر وأين أخوه القصاص ! هذا هو الحى وهذه هى القهوة وهؤلاء هم الناس ، ولكنى وجدت فى مكان الأريكة المنجدة والحلة المفوَّفة والعامة الفردة ، صندوقاً من الخشب دقيق الصنع أنيق الشكل ، قد علق بالحائط فأغنى غناء القصاص وأبلى بلاء الشاعر !!

تركت هذه القهوة ومضيت أتحسس فى زوايا الحى وحنايا السوامر ذلك الصوت الذى كان ينبعث من جوف الماضى السحيق شادياً بالمجد والنبيل والبطولة فلم أجد — وا أسفاه — جَرَساً ولا صدى !!

لقد هزم الرديو الشاعر فى كل قهوة كما هزمت الآلة الإنسان فى كل عمل ! ففى كل مقهى من هذه المقاهى (البلدية) آلة من هذا الاختراع العجيب تغرى الأذواق العامية بالفن ، وتروض الأذان العصية على الموسيقى ، وتنبه العقول الغافلة إلى العلم ، وتحبب النفوس المستهترة فى الأدب ؛ فهى تقرأ القرآن وترسل الألحان وتذيع العلم وتُشيع اللهو وتنشر البهجة ! ولكنى مع ذلك كله عظيم الأسف على موت القصاص ، شديد الأسى على فقد الشاعر !

ذلك لأن مخاطر الشهامة (لأبى زيد) ، ومواقع البطولة (لعنترة) ، ومواقف النبيل (لسيف بن ذى يزن) ، أصلح لتهديب العامة فيما أظن مما يشه المذيع كل يوم من النوادر الوضيعة ، والأناشيد الخليعة ، والألحان الرخوة !

أُسْبُوعُ حَافِلِكْ

أُسْبُوعُ حَافِل ! ابتداءً بعيد الدين وانتهى بعيد الدنيا ! - فأوله (عيد الفطر)
وآخره (عيد الوطن) ، وفيما بينهما كان عيد الميلاد ومؤتمر البلاد ومهرجان القرش !
أُسْبُوعُ حَافِل ! كان فيه للدين سبب ممدود وشمل جامع ، وللحرية يوم
مشهود ومظهر رائع ، وللوطنية لواء معقود ومُجْتَلَى نخم ، وللسياسة شعب محشود
وأمر ضخم ، وللقومية أمل منشود وعمل صالح !

جرى كل أولئك على أروع ما يقع في الذهن ويتمثل في الخاطر ، لشعور
الناس بشمول الأمن ، وبقظة العدل ، وقيام القانون ، وفوز الديمقراطية ،
وانساق الأمر بين الفرد والجماعة ، واتفاق الرأي بين الحكومة والأمة ؛ وكانت
النفوس في عهد الحنة قد تغشاها من الدخائل السود قتام وسُخْب ، فلا تكاد
ترى على حواشي الأفق الضيق المحدود إلا جنود الرهبة ، وقيود الذلة ، وسجون
القهر ؛ ثم تنفس بها الزمن البطيء على هذه الحال الأليمة حتى قنعت بالدون ،
ورضيت بالهون ، وذهلت عما وراء الأفق . فلما تهتكت الحجب عن وجه الحق ،
وتفككت الأغلال عن حرية الشعب ، فسعى غير مقيّد ، وعمل غير مراقب ،
وقال غير متهَم ، عاد الناس فوجدوا شعور الكرامة ، وسورة الاستقلال ، وأنفة
الحى المريد ، وهزة المتصرف المطلق ، فزهاهم النصر ، واستطارهم الفرح ، وتقبلوا
سبعة أيام في الدعة ، يتبسطون على الأنس ، ويتعللون على الدهر ، ويتدللون على

الحكومة ، و يوازنون بين حالهم بالأمس وحالهم اليوم ، فيعجبون كيف زاغت القلوب وفسدت الطباع وسفهت الأحلام ، وغارت هذه المباهج والمرافق والمظاهر كلها في قرارة قلب فارغ !

إن القلوب لأضيق في هذا الأسبوع من أن تسع هذا الفيض الذى يتدفق فيها من كل جانب : ففي (مدينة رمسيس) وجوه البلاد ونواب الشعب وزعماء الأمة يعرضون مناهج السياسة على المشورة ، ويُقَلِّبون أنظمة الإصلاح على الرأى ، ويعلنون الخداع والمخدوع أن مصر الخالدة لا تزال متماسكة على مضض الحن ، سليمة على عنت الجور ، مؤتلفة على عبث الإغراء ، تُعوِّق ولا تضل ، وتُعَذِّب ولا تذلل ، وتحارب ولا تستكين

كانت الآلاف الأربعون فى سرادق المؤتمر الوطنى أشبه بالأسراء فك أغلالم النصر ، أو بالسجناء كسر أقفالهم الثورة ! فهم يتعانقون على السلامة بعد البلاء ، ويتصافقون على الجماعة بعد الفرقة ، ويتنادرون بجلادى العهد الباغى وسُجَّانه وقد أصبحوا اليوم رواد المنى وحراس العدالة ! أليس هذا شرطى الأمس الذى كان ينظر بالنار ويتكلم بالحديد ، ويتجنى على الناس الذنوب ، ويتنى على الأحداث الجرائم ؟ ما باله اليوم وديعاً كالعدل ، نزيهاً كالقانون ، رفيعاً كالدولة ، رفيقاً كالمواطن ؟ تباركت يا الله ! أهكذا تتبدل الأوضاع وتتغير الطباع فى بحر يوم وليلة ؟ !

وفى معرض الجزيرة جماعة (عيد الوطن الاقتصادى) يُفيضون من نشاط

الصبي وطموح الشباب على الناحية الضعيفة الخوفة من نواحي الوطن : تلك هي الناحية الاقتصادية التي اقتحمها المستعمرون تحت لواء السلم والمال فاحتلوا المدن ، واستغلوا القرى ، وامتهنوا القومية ، وامتنحوا الأخلاق ، وحولوا مجارى الثروة المصرية إلى السفن الأجنبية والمصارف الأوربية وخلفوا أهلها يكابدون الدين ويعانون الفقر ويشكون العطلة ويقاسون المذلة . فطن هؤلاء الشباب الأطهار إلى هذا الخطر الويل والداء الدخيل فبرزوا له فى ميدانه المشتبه الواسع ، واستنفروا القاعدين من أصحاب الأموال والجامدين من أرباب التجارة ، ونشروا الدعاية بمختلف الوسائل للإنتاج الوطنى ، وضخوا بجهودهم الكثيرة وتقودهم القليلة وأوقاتهم الباقية من الدرس على رصد الأهبة وتنظيم العمل وتدير المال وضمان الفوز، حتى توجوا هذا الجهد الجاهد بهذا المهرجان الذى أقاموه، وذلك المعرض الذى نظموه، فكان المهرجان عيداً للعيد، والمعرض حجة لآمل، والعمل كله فخرأ لأهليه

وفى حديقة الأزبكية عيد (جمعية القرش) تجاهد فى الإنشاء جهاد عيد الوطن فى الدعاية . وقد نفقت — كتلك — على بلى النفوس جدّة الربيع ونقاء الفطرة وجمال الحداثة ، فانتشر متطوعوها الأبرار فى المدينة يجمعون القروش بالتوسل والتذلل والإلحاف ليفتدوا بها حرية الوطن الأسير

فجماعة الوطن وجمعية القرش ومؤتمر الشعب ائتلاف منسجم من عناصر البلاد ومناهج الجهاد ومناحي الغرض : فالشباب بجانب الكهولة ، والاقتصاد بجانب السياسة ، واللذة بجانب المنفعة ، والحكومة بجانب الأمة ؛ وكل هذه

الصور الرائعة إنما تتألق وتترأى فى إطار روحى شعرى تألف من عيد الفطر
للمسلمين ، وعيد الميلاد للأقباط !

أسبوع حافل ! كان فيه للدين سبب ممدود وشمل جامع ، وللحرية يوم
مشهود ومظهر رائع ، وللوطنية لواء معقود ومُجْتَلَى نخم ، وللسياسة شعب محشود
وأمر ضخم ، وللقومىة أمل منشود وعمل صالح !!

وإن عاماً يكون عنوانه هذا الانقلاب وطالعه هذا اليمين واستهلاله هذا
النشيد ، لآية من الله على انجلاء الغمة واهتداء الغرائز وارعواء الغى
وانكشاف الطريق

[١٤ يناير سنة ١٩٣٥]



الحج

الحج والزكاة هما الركنان الاجتماعيان من أركان الدين ، يقوم عليهما الأمر بين الفرد والفرد ، وبين الفرد والجماعة ، كما يقوم على الثلاثة الآخر الأمر بين المرء وربه ، وبين المرء ونفسه . فالزكاة تقيم نظام المجتمع على التعاطف والرحمة ، والحج يقيمها على التعارف والألفة ؛ فيحقق الأول بنفى العقوق معنى الأخاء ، ويحقق الثاني بمحو الفروق معنى المساواة . والإخاء والمساواة شعار الإسلام وقاعدة السلام ، وملاك الحرية ، ومعنى المدنية الحق ، وروح الديمقراطية الصحيحة .

كان الحج وما زال مَطْهَرُ الدنيا تَرَحُّض فيه النفوس عن جواهرها وأوزار الشهوات وأوضار المادة . وكان الحج وما زال ينبوع السلامة تَبْرُد عليه الأكباد الصادية ، وترفُّه لديه الأعصاب الوانية . وكان الحج وما زال مثابة الأمن تأنس فيه الروح إلى موضع الإلهام ، ويسكن الوجدان إلى منشأ العقيدة ، وينبسط الشعور بذلك الأشراق الإلهي في هذه الأرض السماوية . وكان الحج وما زال موعد المسلمين في أقطار الأرض على (عرفات) : يتصافقون على الوداد ، ويتآلقون على البعاد ، ويقفون سواسية أمام الله حاسري الرؤوس ، خاشعي النفوس ، يرفعون إليه دعوات واحدة ، في كلمات واحدة ، تَصْعَدُ بها الأنفاس المضطربة المؤمنة تَصْعَدُ البخور من مجامر الطيب ، أو العطور من نوافح الروض ! هنالك يقف المسلمون في هذا الحشر الدنيوي حيث وقف صاحب الرسالة ، وحواريو

النبوة ، وخلفاء الدعوة ، وأمراء العرب ، وملوك الإسلام ، وملايين الحجيج من مختلف الألوان والألسن ، فيمزجون الذكري بالذكر ، ويصلون النظر بالفكر ، ويدكرون في هذه البقعة المحدودة ، وفي هذه الساعة الموعودة ، كيف اتصلت هنا السماء بالأرض ، ونزل الدين على الدنيا ، وتجلّى الله للإنسان ، ونبت من هذه الصحراء الجديبة جنات الشرق والغرب ، وثمرات العقل والقلب ، وبينات الهدى والسكينة . . .

الحج مؤتمر الإسلام العام ، يجدد فيه حبله ، ويتعهد به أهله ، ويؤلف بين القلوب في ذات الله ، ويؤاخي بين الشعوب في أصل الحق ، ويستعرض علائق الناس كل عام فيوشجها بالأحسان ، ويوثقها بالتضامن ، وينضح من منابه الأولى على الآمال الداوية فتتضر ، وعلى العزائم الخالية فتذكو ؛ ثم يجمع الشكاوى المختلفة من شفاة المنكوبين بالسياسة المادية ، والمدنية الآلية ، والمطامع الغريبة ، فيؤلف منها دعاء واحداً تجأ به النفوس المظلومة جواراً تردده الصحراء والسماء ! وما أحوج المسلمين اليوم إلى شهود هذا المؤتمر ! لقد حصرهم المستعمرون في أوطانهم المغصوبة ، ثم قطعوا بينهم الأسباب ، وحرّموا عليهم التواصل ، وفصلوهم عن الماضي الملهم والمستقبل الواعد ، بطمس التاريخ ، وقتل اللغة ، وإطفاء الدين ، فلم يبق لهم جُعة إلا في هذا الموسم .

إن في كل بقعة من بقاع الحجاز أثراً للتضحية ورمزاً للبطولة ؛ فالحج إليها إحياء بالعزة ، وحفز إلى السمو ، وحث على التحرر : هنا غار (حراء) مهبط الوحي ،

وهنا (دار الأرقم) رمز التضحية ، وهنا (جبل ثور) منشأ المجد ، وهذا هو البيت الذى احتبى بفنائه أبو بكر وعمر وعلي وعمر ووسعد وخالد ، وهذا الشعب وذاك مجرّ أذيال الغطاريف من بنى هاشم وبنى أمية ، وتلك هى البطحاء التى درج على رمالها قواد العالم وهداة الخليقة !

« ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » . أما شرط الاستطاعة فقد بطل اليوم ، وأصبح الحج فريضة عين لا تحول عن أدامها عقبة ، ولا يسوغ فى تركها معذرة ؛ فأنت تستطيع بالمال اليسير وفى الزمن القصير أن تحج على الباخرة والسيارة والطيارة ، دون أن تعرض حياتك للموت ، وثروتك للنهب ، وصحتك للمرض !

وهذه (شركة مصر للملاحة البحرية) تتعهد لك (بزمن) و (الكوثر) أن تكفلك وتحملك وتعلمك وتغذيك وتؤويك وتحملك فى البحر والبر تحت علم دولتك ، ورعاية مواطنيك ، فلا تكابد وعث الصحراء وعث الأشقياء ، ولا تقاسى بُعد الشقة وطول الغربة .

لقد كان الحج لرهقه الشديد وجهاده الجاهد يكاد يكون مقصوراً على الطبقات الخشنة من الزراع والصناع والعملة ؛ أما الناعمون المترفون من أولى الأمر وذوى الرأى وأصحاب الزعامة ، فما كانوا يقدمون عليه ولا يفكرون فيه ، فظل جداه على المسلمين ضئيلاً لا يتعدى الحدود الخاصة من قضاء المناسك وأداء الزيارة . فماذا يمنع الكبراء والزعماء اليوم أن يتوافوا على ميعاد الله ما دامت هذه الشركة

المصرية الخالصة قد تحملت عنهم أعباء السفر ، وضمنت لهم وسائل العيش ، ووفرت
عليهم أسباب الرفاهية حتى ليكتفى المسافر بحقيبة ثيابه ؟

إن في حج سراة العرب والمسلمين إعلاءً لشأن الملة ، وإغراءً بأداء الفريضة ،
وسعيًا لجمع الكلمة ، وسبيلًا إلى الوحدة المرجوة . وإن مقام إبراهيم الذي انبثق
منه النور ، ونزل فيه الفرقان ، وانتظم عليه الشمل ، لا زال منارةً للأمة ، ومثارةً
للهمة ، ومشرق الأمل بالباسم بالعصر الجديد !

[٢١ يناير سنة ١٩٣٥]



الثقافة والمدنية

كتب إلى صديقي الأستاذ م . ف . ا . يقول :

« أنا معلّم كما تعلم ؛ ولكنى معلّم لا أعتقد فيما يعتقد فيه الكثرة من المعلمين
سواي . وذلك أننى لا أومن كثيراً بأوربا ، ولا بما جاء من أوربا ، إلا أن يكون
ذلك شيئاً نجنيه من نفع مادية أو كشف علمى . أما فيما يتعلق بالآراء والنفس ،
وفما يتصل بالعقل والقلب ، فأنا شرقى ولا أحب إلا الشرق ، ومصرى ولا أحب
إلا مصر . ولقد كان مما يؤلمنى دائماً أن أرى الإبن الناشئ قد عاد من إنجلترا
أو من فرنسا ، فلا يكاد يظهر للأعين إلا فى هيئة نابية يزعم أنها دليل المدنية
التي اكتسبها من الغرب ، فيمتدح فرنسا أو إنجلترا وما فيها من مناهج ومناظر
ومعاهد ، وهو فى الحق إنما يريد أن يقول : إنه أثر من آثار تلك المدنية السامية
التي يمتدحها ، فهو يصل إلى الزهو من طريق غير مباشر ، ولا يقصد إلا إلى الفخر
والإعجاب بالنفس . دع ذلك ، فلو كان هذا وحده هو الأثر لكان الأمر ؛
أما أن يتعدى الأمر ما وراء ذلك فهو البلية والنكبة . ذلك بأن هؤلاء الأبناء
قد وصلوا بتلك النعرة الجوفاء إلى أن يخدعوا بعض الشيوخ ، أو بعض الجوف
من الشيوخ ، بأنهم دعاة العلم والمدنية ، فألقيت إليهم مقاليد الأمور فى بعض
النواحي ؛ وكان من سوء حظ مصر أن بلغ هذا الخداع حده فى مسائل التعليم .
وإليك مثلاً من ذلك : إن برامج التعليم الأدبية - وهى أداة الثقافة والقومية -
لا نرى فيها أثراً للشخصية المصرية : فواضع برامج التاريخ هو بعض الجوف ممن

تعلموا تاريخ أوربا ، فنقلوا من هذا ما ظنوه خيراً وجعلوه منهاجاً لتلاميذ المدارس الثانوية المصرية ، فكانت النتيجة أنك إذا نظرت في برامج القسم الأدبي في التاريخ خيل إليك أنك تنظر في بعض برامج فرنسا أو إنجلترا ، أو خليطاً من هذا وذاك . وأما مصر ، فلا شأن لها في ذلك ... واحسرتاه ! وكذلك الحال في سائر المواد الأدبية ، حتى لقد حسبت وأنا معلم أننا إنما نسعى لإعداد أبنائنا ليكونوا أجنب في عواطفهم وعقليتهم وثقافتهم . .

أليس هذا من العبث يا سيدي الأستاذ ؟ أرجو أن تتناول هذا المعنى بقلمك القوي ، ولك من أبناء البلاد الشاء الجميل « ...

وصديقي الأستاذ بخبرته الطويلة وعقيدته النبيلة أولى بمعالجة هذا الموضوع ، ولكنه اختار له هذا الأسلوب الصحفي لتتناوله الأفلام المختلفة بالبحث والجدل ، فيكون الرأي أجمع ، والحكم أقطع ، والبلاغ أعم .

شكاة الأستاذ شكاة الشرق الإسلامي كله ، فإنه منذ غفا غفوته الثقيلة الطويلة فانقطع عن صدر الزمن ، لم يرد أن يبصر بعينيه ، ويسير على قدميه ، ويعلم أن له تاريخاً ممتازاً ، ووجوداً مستقلاً ، وطابعاً خاصاً ، ووحدة كاملة ، ومدنية أصيلة ؛ وإنما ذهب يتحسس من طريقه على نداء الصائد ، ويتوكل في سيره على عمود الشرك ، ويطمس على شخصه بالفناء في الغرب ، كأن أهله لم يكفهم أن يكونوا عبيداً لأوربا بالجسم عن قوة وقهر ، فرضوا أن يكونوا عبيداً لها بالروح عن رضا وطواعية ، فهم يتكلمون بلغتها ، ويتأدبون بأدبها ، ويتسمون بسمتها ، ويتخلقون بخلقها ، ويطعمون أذواقهم بالكراهة على غرار ذوقها ، ويغالطون

طباعهم في أصل الفطرة ، فيزعمون لعقولهم أن النفس المتمدنة لا يلائمها إلا ما يلائم الأوربي من أدبه ورقصه وغنائه وموسيقاه ، كأن المسافة بين الشرق والغرب لا تحدث فرقاً ولا تغير خلقاً ولا تبدل طبيعة !

إن الاستعباد المادى دهمنا أمس على يد الآباء ، والاستعباد الأدبى يدهمنا اليوم على يد الأبناء . وشتان بين استعباد كان عن اضطرار وجهل ، واستعباد يكون عن اختيار وعلم . والعبودية العقلية أشد خطراً وأسوأ أثراً من العبودية الجسمية ، لأن هذه لا تتعدى الأجسام والحطام والعرض ، ومثلها مثل الجسم يرحى شفاؤه متى عرف دأؤه ؛ أما تلك فحكها حكم العقل إذا ذهب ، والروح إذا زهق . وهيهات أن يرحى لمحبول شفاء ، أو ينتظر لمقتول رجعة

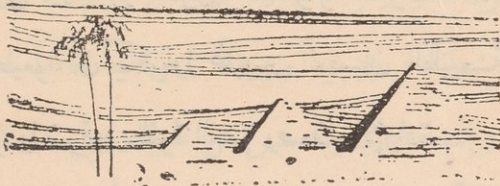
إن أكثر نشئنا الذين وردوا مناهل الثقافة العالية في أوربا إنما ذهبوا إليها وشخصياتهم هلاهل من تمزق الأسرة ، وتفكك البيئة ، وفساد التعليم ، وضعف التربية ، فكُونوا عقولهم على منطق الإعجاب ، وميولهم على هوى التبعية ، ثم عادوا وفي حوافظهم تاريخ غير تاريخ مصر ، وعلى ألسنتهم أدب غير أدب العرب ، وفوق غرائزهم خلق غير خلق الشرق ، فتصرفوا تصرف القلد ، وتعسفوا تعسف الحائر ، فلم يستطيعوا أن يكونوا غربيين لعصيان الطبيعة وإباء الفطرة ، ولم يريدوا أن يعودوا شرقيين لقوة الفتنة وضعف الإرادة .

إن العلم لا وطن له ، لأنه يتعلق باستخدام القوى واستثمار المادة في العالم كله لخير الناس كله ؛ أما الآداب والفنون والأذواق والأخلاق والتقاليد ، فهي قِوَام الأم ، ولا تنزل أمة عنها إلا إذا نزلت عن ذاتها وزلت عن مستواها . نخضوع الثقافة القومية للإنجليزية في مصر وفلسطين ، وللفرنسية في سورية والمغرب ،

والأمريكية في العراق والمهجر ، بلاء على هذه الأمم لا تسلم عليه وحدة ولا يستقل معه وطن .

أما عبث هذه الثقافة المذبذبة بالبرامج فعَلَّتْه أن التعليم عندنا ليست له سياسة مرسومة ولا غاية معينة . قل لواقع البرنامج مهما يكن : أريد أن أصل بالتعليم إلى هذه الغاية ، تجد الغاية نفسها هي التي تعين السبيل وتحدد الوجهة ؛ أما إذا كانت سياستنا في التعليم أن ننشئ المدارس ونهيئ المدرسين ونقيم الامتحانات ، فإن جماع الأمر في المعارف إذن أن تكون حقولاً للتجارب فيها لكل سياسة أثر ، ولكل ثقافة ثمر ، ولكل أمة غير أمتها نصيب .

[٢٨ يناير سنة ١٩٣٥]



الملك علي



تلقيت نعي الملك النبيل علي
ابن الحسين كما أتلقى نعي قريب ؛
فقد كان رضوان الله عليه مثال الفطرة
العربية النقية : يقبل على زائرہ بأنسه ،
ويمكن لجليسه من نفسه ، ويزيل
الفوارق بين محدثه وبين شخصه ، حتى
يصدر عنه الوارد عليه وفي ذهنه صورة
من جلاله لا تحول ، وفي قلبه عاطفة من
حبه لا تزول ، وفي نفسه أثر من ذاته
لا يعفو . لا يُلقى في روعك حين تلقاه

طموح الزعيم ولا جفاء القائد ولا دهاء السياسي ولا سورة الملك ، وإنما تجد
في خلائقه فوحة الجد ، وتقرأ في ملامحه عنوان الطيبة ، وتعرف في حديثه لهجة
السيادة ، وتذكر في نبرات صوته ولحظات عينه ولفتات ذهنه ذلك الروح القوى
الذي انبث في مَوَات الوجود من بني هاشم !

نعي الناعي فيصلاً فقال الناس بطلٌ من أبطال العالم قضي ، ونعي الناعي
علياً فقال العرب سيد من سادات العروبة خلا ؛ لأن فيصلاً حكم في شروق مُلك

عائد ، فكان غزوة لا تسعها قدرة ، وفكرة لا يحصرها أفق ، وطموحاً لا يحده غاية ؛ ولأن علياً حكم في غروب ملك بائد ، فكان أمراً لا يَمْضِيهِ سلاح ، وأملاً لا ينهضه جناح ، وصلاً لا تَوَاتِيهِ فرصة . ثم كان مصير الرجلين مصير خلقين مختلفين : خلق اتسع لُحْدَع السياسة وشُبّه الحكم وأهواء النفوس ، وخلق انحصر بين حدود الشرف الموروث ، وسنن الدين المتبع ، وتقاليد العرب المحتومة

كان الملك على وهو أمير المدينة أو ولي العهد أو خليفة الحسين ، مثل السيد الكريم والأمير السمع والملك المؤمل ؛ ولكن موجة (الإخوان)^(١) كانت قد دفعت بحطام الحسين إلى شواطئ جدة ، فلم يستطع الملك الجديد أن يستمسك به في مهب الرياح الهوج ومضطرب الموج الثائر ، فاتتزع من تاجه المقدس مفاتيح الحرمين ثم وضعهما في يد الفاتح ونجا على (الرقتين)^(٢) في ضباب من اليأس لا يَشْعُ في جنباته أمل

نزل الملك الغريب سواد العراق نزول الكريم على الكريم ، فتلقاه بوده ، وصفق له من ورده ، وبوأه من زعامته المكان الأول بعد فيصل . فكان في السياسة العراقية برهان الله في يقظة الشهوة ، وصوت العدل في طغيان الهوى ، وهذى المشورة في ضلال الرأي ، ورسول الخير في أزمة الحاجة . وكان قصره القائم بالكرادة على الشاطئ الأيمن من دجلة بلاطاً للجلالة الحائرة بين الحجاز والعراق وسورية ، تُقَضَى بين أهبائه الأمور الجسام ، وترف على أفنائه الآمال الباسمة . ولكن حياة بغداد الدافقة بالنعيم الغارقة في اللذة ، لم تستطع أن تُنسى

(١) جنود الملك ابن السعود . (٢) إسم الباخرة التي أقلتته من جدة .

الملك الحزين عرشه الصخرى فى الوادى الجديب ؛ فكان لا يفتأ يحن إلى ملكه
المغصوب حينئذ شعرياً صامتاً يذيب الكلى ويستوقد الجوانح ، إلا أن أثره
لا يبين تحت سمة الملك إلا لمن دخل فى أمره ووقف على سره

كنت كثيراً ما أقضى أصائل الأيام فى حضرته ؛ وكان (مفتى بغداد) لا ينقطع
عن مجلسه فى هذه الساعة . وكان للملك (رحمه الله) عطف على منشؤه فيما أظن
حبه للأدب ، وميله إلى مصر ، وأنسه بالغريب . فهو يحب أن يناقلى الحديث ،
ولكن (المفتى) سأل الله رجل يرى من حقه أن يقول فى كل شئ ، وأن
يجيب عن كل شئ ؛ وهو لا ينطق إلا ببیت من الشعر أو أثر من الحديث أو آية
من القرآن ؛ أما ارتباط ما يقول بما يسمع ، فذلك ما كنا نعجز دائماً عن
فهمه . كان الملك يبدأ الكلام فلا يكاد يمضى فيه حتى يقطعه عليه بحكاية عرضية
أو مسألة فقهية ! فأرفع طرفى إليه لعلى أرى عزة الملك تشع فى عينه أو تثور
فى وجهه ، فلا أجده إلا باسمًا للمتكلم ، مصغياً كالمتعلم ، هادئاً كالشعاع الشاحب
فى شفق الخريف ! على أنه كان يصحح للشيخ ما يَقمشُ من الشعر وينتف
من الأمثال ، ويتخذ ذلك مادة للحديث وموضوعاً للمشاركة ، فيسفر قوله
عن ذوق صاف وبصيرة نافذة . ولا أزال أذكر استشهاده فى بعض الكلام
على قلب الميم باء فى قول بعض العرب : بكة فى مكة ، بالمثل المعروف : (تمخض
الجليل فولد فأراً) ، مرجحاً أن الجبل هو الجمل فى لحن هذه القبيلة .

لذلك كان إذا شاء الحديث صفواً من المقاطعة واللغو أمرنى فثلث بين يديه
فى ساعة بعينها ، فيفضى إلى بطرف من ماضى حياته ، أو يملئ على بعضاً من
مذكراته . وقد لا يكون من المناسب اليوم — وأنا فى موقف الرثاء والعزاء

والأسى — أن أثبت في هذا المقام شيئاً من ذلك
ولكنه كان يلهج دائماً بمصر، ويرصد كواكب آماله في مصر... ويحاول
أن يقنع المصريين الذين خاصموه في سبيل الترك أن ثورة العرب على الخلافة كانت
بالحق وللاحق ، وأن أباه لم يأل الترك نصيحاً ألا يطأطأوا إشراف العرب ،
وألا يغمزوا نخوة العرب ، وأن يعدلوا عن سياسة الجهل ، ويكفوا عن جرائم
القتل ، فاستغشوا الناصح وذهبوا بأنفسهم معنيين في الضلالة
وللفقيد العظيم آراء حصيفة في رجال الثورة وساسة العراق ووحدۃ العرب ،
أرجو أن تتاح لتسجيلها المناسبة إنصافاً لهذا الرجل الذى أخرج من دياره عنوة ،
وكابد تكاليف الملك من غير ثروة ، حتى عاد كالطائر المهيبض أو الملك الهابط ،
يختنق في مجثمه وبصره في الفضاء ، ويلتصق بالأرض وروحه في السماء !

[١٨ فبراير سنة ١٩٣٥]



الأزهر بين الماضي والحاضر

ويل للأزهر من أهله ! كان منيعاً بالدين فابتذلوه بالدنيا ، وغريزاً بالعلم فأذلوه بالمال ، ومستقلاً في حمى الله فأخضعوه لهوى الحكم ! وكان سُنَّة واضحة لهدى الشريعة استقام الناس بها منذ ألف عام على عمود واحد ، فشبهوا وجوهها بالأنظمة الفجّة ، ولبّسوا صورها بالأعلام المستعارة ، ثم وقفوا لدى المفترق المبهم الذي أحدثوه يديرون أعينهم في الفضاء ، ويردونها من الأمام إلى الوراء ، فلا يرون أقدامهم على أثر ، ولا يجدون وجوههم على سبيل !

كان للأزهر على عهدنا القريب جلالة تغشى العيون وقداصة تملأ الصدور ، لأنه العقل الوحيد الذي ثبت لحملات الغير فانتهمت إليه أمانة الرسول ، واستقرت به وديعة السلف ، واستعصمت فيه لغة القرآن ، واستأمنت إليه آداب العرب ، فأرضه حرم لا يُنتهك ، وأهله حمى لا يستباح ، وأمره قدرٌ لا يُرد . وكان لعلمائه مكانة في القلوب ومهابة في النفوس ، لأنهم دعاة الله ووراث النبي وهداة الحجّة ؛ ينطق على ألسنتهم الكتاب وتتمثل في أفعالهم السُنّة ؛ فحجتهم عقيدة وطاعتهم فريضة وإشارتهم نافذة .

وكان لطلابه كلف به لا يُتَهَم وثقة برجاله لا تحد ، وانقطاع إلى جواره لا يبغيون من ورائه غير فقه الدين وتحصيل المعرفة وتجديد حبل الدعوة ، فهم عاكفون على معاناة الدرس قانعون بميسور العيش ، لا ينصرفون عن حلقات

التعلم بالقاهرة إلا إلى حلقات التعليم في الريف .

كانت صلة العلماء بالحكومة صلة دينية تقوم على حسم المشاكل بالقضاء وحل المسائل بالفتوى ؛ وكانت صلتهم بالأمة صلة روحية ، يجلون صداً الفلوب بالذكر ، ويكفكون سفه الجوارح بالموعظة ، ويشفون غل الجوانح بالمؤاخاة ، فكانوا لذلك موضع الإجلال أنى حلوا . كنا نرى العالم إذا نزل مدينة أو قرية كان يوم نزوله تاريخاً لا يُنسى : يأخذ الناس فيها حال من الشعور الصوفى يدفعهم إلى رؤيته ، فيهرعون إليه كما يهرعون اليوم إلى زعيم الأمة أو إلى رئيس الحكومة ، فيتوسمون في أساريه نور الرسالة ، ويتنسمون من أعطافه ريح النبوة ، ويتخففون على يديه من أوزار العيش وتبعات الجهالة . وطلاب الأزهر القديم لا يزالون يذكرون ما كان في نفوسهم لشيخوخهم من الحب والتجلة . كانوا يتحلقون حول كرسى الشيخ من غير نظام ولا ضابط ، فيكون لهم على السبق إلى الأمام عمراك دامر وصخب مُصم ، حتى إذا ما أقبل خشعت الأصوات وسكنت الحركات كأن شيئاً علّق الأنفاس فلا تنسم ، وعقد الشفاه فلا تنبس ! وربما نزا اللجاج على لسان أحدهم أثناء المناقشة فيغضب الشيخ فلا يكون أنكى في عقابه من الإشارة إليه بالخروج من الدرس ، أو الدعاء عليه بالقطيعة من الأزهر ! والقطيعة عن الأزهر كانت أقصى ما يتصوره الأزهرى من شقاء الحياة ! فإذا انقضى الدرس وقال الشيخ : (والله أعلم) تضامّت أطراف الحلقة عليه ، وأتحنى الطلاب بالقبل على يديه وردنيه ، فما يشق طريقه بينهم إلا بعد لآى

تدبر ذلك في نفسك على إجماله وعمومه ، ثم اقرنه إلى ما تسمع اليوم أو تقرأ من خبر الأزهر وحال علمائه وأبنائه ، فهل تجد المعهد هو المعهد والناس هم الناس ؟ إن الأزهر البائد على فوضاه المنظمة كان أجدى على الدين وأعود على الثقافة من هذا الخلق المسيخ الذى وقف بين الماضى والحاضر ، وبين الدين والسياسة ، موقفاً يُندى الجبين الصُّلب ويوجع الفؤاد المصمت !

تقلب بعض زعمائه على فُرْش الديباج . وخبُّوا في أفواف الشاهى ، وتأثقوا في ألوان الطعام ، وتنبلوا بالمظاهر الفخمة ، وسردوا أعداد الدنانير على المسابح العطرة ؛ وكان أسلافهم طيب الله ثراهم كما طيَّب ذِكرهم يتسترون بمرقعات القطن ويتبلغون بقشور البطيخ ويستروحون النسيم على شرفات المآذن !

ثم شايعوا أهواء الناس وصانعوا أهل النفوذ ، وجَرَّوا في تمكين أمورهم وترفيه نفوسهم على الضراعة والملق . من أجل ذلك فقدوا خطرهم في الخاصة وأثرهم في العامة ، وجرَّوا معهم كرامة الدين إلى هذا المنحدر

إن في بقية السلف من أعلام الأزهر مَفْزَعاً من هذه الحال الأليمة . فليعملوا مخلصين لرد هذا المعهد الكريم إلى نظامه ، فإن شديداً على النفس أن يضطرب فيه الأمر ويشرَى به الفساد حتى تطرد طلابه وتعلق أبوابه .

لقد قرأت بالأمس فصلاً عن الإسلام في مجلة شهرية فرنسية يقول كاتبه فيه : « لقد انحسر الإسلام عن بلاده أو كاد ، فلم يبق مدوياً متوثباً إلا في الأزهر »

فماذا عسى أن يقول هذا المأفون إذا ما قيل له غداً إن هذا الدوى قد سكن ،
وهذا التوثب قد قر ؟

لا جرم أن المخلصين من علماء الأزهر وأبنائه أقدر على درء هذه الكارثة
متى أنضجوا الرأي وأجمعوا الكلمة ؛ والحكومة القائمة أربأ بعهدتها عن هذا
الحدث ، وأضنُّ بتاريخها على هذه الصفحة . وليس في مصر ولا في غير مصر
ضمير نزيه يرضيه أن تعبت الشهوات الرُّعن بهذا المعقل الديني الذي عصم
القرآن ولغته وعلومه من طغيان الأحداث والفتن عشرة قرون .

[٢٥ فبراير سنة ١٩٣٥]



مَصْرُ وَأَخَوَاتِهَا

كأنما السؤال عن الناس كسؤال الناس^(١) لا يتفق مع الرخاء ولا يكون مع الغنى ! فإن مصر والعراق يكادان من سعة العيش لا يذكران من وراء الحدود . والوحدة العربية في البلدين على الرأي الأغلب حديث خُرَافة أو حديث مجاملة ! فلولاً الأدب الذى يجمع الفؤاد بالفؤاد ، ويربط البلاد بالبلاد ، ويصل الأحفاد بالأجداد ، لظلت منابت العروبة ومواطن الإسلام أغفلاً لا تُعرف ، وأرحاماً لا توصل

يزور المصرى قطراً من أقطار العرب ، فيكون أول ما يرد على سمعه عتب الحبين على المهجر ، ولوم الأقربين على القطيعة ، وعذل الجيرة على التخاذل ؛ فيُلقي الملوم المُخرج معاذيره فى منطق عَمى ودفاع غير ناهض ؛ ثم يزداد حرجه وتتخاذل حججه كلما رأى قلوبهم تزخر بعواطفه ، وصدورهم تجيش بأمانيه ، وألسنتهم تضطرب بأخباره ، ونهضتهم تسترشد بنهضته ، ووجهتهم تسير مع وجهته ؛ فصحفه تُقرأ ، وكتبه تدرس ، وسياسته تحتذى ، وزعامته تتبع ؛ ثم خصومته هى لهم خصومة ، وحكومته هى عليهم حكومة ، وقومه لقومهم أهل ، وبلده لبلادهم قبلة . حينئذ يقول لنفسه والخجل والعجب يتعاقبان على وجهه : إن وطنى متراعى الحدود فلماذا أحده على الضيق ؟ وقومى ضخام العديد فلماذا أحصرهم على القلة ؟ وجيرانى كرام يُصفون المودة ويصدّقون العطف ويولون المعونة ،

(١) سؤال الناس : استجداؤهم .

فلماذا أجعل بيني وبينهم سداً من الإهمال والغفلة ؟ إن الأمم القوية الناجحة
لترخص الأموال والأنفس في التمكين لأدبها ونفوذها وعروضها في الشرق ،
فكيف نعرض نحن عن ذلك وهو يأتينا عفواً عن طريق القرابة في البلد والنسب ،
والوحدة في اللغة والأدب ، والمشابهة في الحظ والحالة ؟

دع ما ترشد إليه الغريزة من تعاطف الأهل وتناصر الضعاف وتعاون الجيرة
وانظر في الأمر من جهة الفائدة : أليست سورية منفذ العراق إلى البحر المتوسط ،
والسودان طريق مصر إلى النهر الحبي ؟ ومع ذلك فالعراق مصروف الهم عن
سورية ، ومصر قليلة العلم بالسودان ، فلا تعرف عنه إلا أنه جزء من سياستها !
أما أنه قطعة من جسمها وكلمة من اسمها فذلك ما لم تعلمه إلا بالسمع ، ولم تفهمه
إلا في المدرسة !

يزور «الرسالة» الحين بعد الحين أخ من السودان أديب أو طالب ، فلا نسمعه
يقول أول ما يقول إلا هذا المعنى الواحد في صيغته المتعددة : إننا لنعلم عنكم كل شيء ،
وإنكم لتجهلون عنا كل شيء ! فسياستكم لا تعرف السودان إلا في المفاوضات ،
وأدبكم يقف بالوادي عند (الشلالات) ، وصحافتكم لا تدرى أفى الأرض نحن
أم في السموات ! فهل غنى سياسى بتعرف بلادنا ، أم تفرغ أديب لتصوير حياتنا
أم توفر صحفى على درس أحوالنا ؟ ولعمري إذا فرقنا السياسة ولم يجمع شملنا
الأدب ، فعلى أى صورة نلتقى ، وعلى أى حال نتحد ؟

ذلك ما يشكوه السوداني المخلص ، ويأسى على حدوثه المصرى المخلص ،
وبين الأسى والشكوى ناشئة من الأمل المسفر وعزيمة من العمل المثمر تتجلبان

فى العاملين الصادقين من شباب الوادى وكهوله . فالعمل الجليل الذى هُديتْ إليه
ووقَّعتْ فيه (البعثة الاقتصادية المصرية)^(١) من الرحلة إلى السودان والاختلاط
بأهله والاتصال برجاله والاطلاع على أحواله والتحدث إلى حكامه ، فاتحةٌ
فصل جديد من تاريخ النيل الحديث سيسجل فيه رجال الأعمال والأموال
تصافقَ البلدين الشقيقتين على المودة وتواصلهما على المنفعة وتآلفهما على التعاون
فتحت هذه البعثة الميمونة أبواب السودان الحصينة للنشاط الاقتصادي
المصرى ، وهيأت الأسباب إلى اجتماع الأيدى التى يسقيها النيل ويطعمها النيل
على استغلال خصبه فى عمران أرضه ، واستثمار خيره لسكان حوضه
فإذا أضفنا إلى ذلك عناية الأدب والصحافة بتوحيد الهوى والثقافة ، فقد ألقنا
من أغاريد الوادى أعاليه وأسافله نشيداً واحداً تردده الشفاه البيض والسمر ،
وتجاوبه سلاسل الجبال الخالدة

إن الاقتصاد والأدب يُكوْنان الجسم والروح ، فلا بد منهما أولاً لإنشاء
الأمة وإذكاء النهضة وإحكام الصلة . وما غزا الغربيون ممالك الشرق إلا بالتعليم
والتجارة . أما السياسة فلا تأتى إلا آخر الأمر ، فتؤيد الواقع وتثبت الحالة وتنظم
العلاقة وتحمى المنفعة

(١) بعثة تألفت من أعضاء الجمعية الزراعية الملكية وأعضاء الغرفة التجارية المصرية ومن
بعض كبار الزراع والصحفيين ثم سافرت إلى السودان فى شهر فبراير لتوثيق العلاقات الاقتصادية
بينه وبين مصر بدرس مشروع شركة من المصريين والسودانيين لشراء الأرض الزراعية
واستثمارها ، وإنشاء فرع للجمعية الزراعية بالخرطوم ، ودعوة بنك مصر لإنشاء فرع له
فى عاصمة السودان فنجحت فى رحلتها نجاحاً عظيماً .

من أجل ذلك كان احتفال المصريين بوداع (البعثة المصرية) ولقائهم ،
واحتفاء السودانين بفكرتها وأعضائها . هزاتٍ من العواطف الصادقة والحماسة
الدافقة والشعور الواثق المطمئن بإسفار المستقبل عن وجوه الفوز ، فيتصل الحبل
وينتظم الشمل وتقوم الوحدة بين الشعبين الأخوين على أساس صحيح

إن من وراء حدودنا اليابسة يا قوم آداباً لا تقل عن آدابنا يحسن أن تُعرف ،
وشعوباً تتصل بأنسابنا يجب أن تُؤلف ، وأسواقاً تفتقر إلى إنتاجنا ينبغي
أن تُكشف .

أما حصر النظر في حدود البحر فإدمان يُفرِّق البصر^(١) ويجمع الخطر ويهجم
بقوميتنا وأمانينا على الغرق !

[٤ مارس سنة ١٩٣٥]

(١) يبده ويوزعه .



الى أين سياف الأتراك

مَنْ السَّائِرُونَ فِي شَحُوبِ الْأَصِيلِ عَلَى حُدُودِ الْمَغْرِبِ يَسْرِعُونَ الْخَطَى كَأَنَّهُمْ
هَارِبُونَ مِنَ النَّهَارِ ، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى الْخَلْفِ كَأَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنْ سَدُومَ ؟ ^(١)
مَنْ السَّائِرُونَ بَيْنَ النُّورِ وَالظَّلَامِ عَلَى الدَّرَبِ الْخَادِعِ الْمُبْهِمِ ^(٢) ، يَخْفِقُونَ كَأَطْيَافِ
الْمَسَاءِ عَلَى حَوَاشِي الطُّفْلِ ، وَيَطْمَسُونَ الطَّرِيقَ مِنَ الْوَرَاءِ حَتَّى لَا يَرْجِعُوا إِلَى الْأَهْلِ ؟ !
إِنَّمَا أُمَّةٌ مِنْ صَمِيمِ الشَّرْقِ نَشَأَتْ فِي نُورِهِ وَطُبِعَتْ عَلَى شَعُورِهِ وَتَنَفَسَتْ فِي عَطُورِهِ ،
أَلْقَتْ زِمَامَهَا الْأَقْدَارَ الْغَالِبَةَ فِي يَدِ عَصْبَةٍ مِنْ أَبْنَائِهَا ، رُبُّوا فِي غَيْرِ أَحْضَانِهَا ، فَتَشَأَوْا
عَلَى غَيْرِ مَنْشَأِهَا ، وَجَرَوْا عَلَى خِلَافِ مَبْدِئِهَا ، فَقَطَعُوهَا بِالْكَرهِ عَنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ
وَمَبْعَثِ الرُّوحِ وَمَنْبَتِ الْعَاطِفَةِ وَمَنْشَأِ الدِّينِ ، وَخَرَجُوا بِهَا مَتَعَسِّفِينَ إِلَى طَرِيقِ
مُشْتَبِهَةٍ وَغَايَةِ مَرِيْبَةٍ وَدُنْيَا مَجْهُولَةٍ ؛ ثُمَّ قَالُوا لِأَنْفُسِهَا انْسَاخِي عَنْ شَرْقِيَّتِكَ بِأَمْرِ
الْقَانُونِ ، وَلِقُلُوبِهَا اعْتَقِدِي غَيْرَ عَقِيدَتِكَ بِحُكْمِ الْقُوَّةِ ، وَلِأَلْسِنَتِهَا انْطَقِي غَيْرَ لَهْجَتِكَ
بِإِرَادَةِ الْحَاكِمِ ، وَلِحَاضِرِهَا انْقَطِعْ عَنِ الْمَاضِي بِسُطُورَةِ الْجُمْهُورِيَّةِ ، وَلِأَرْضِهَا وَبَيْتِهَا
وَطَبِيعَتِهَا انْفَصِلْنَ عَنْ آسِيَةِ إِذْنِ الْحُكُومَةِ ! كَأَنَّمَا الْأُمَمُ تَصَاغُ بِالْقَوَانِينِ ، وَالطَّبَائِعُ
تَغْيَرُ بِ (الْأَوَامِرِ !!) .

مَهْلًا سَاقَةَ الظُّعْنِ وَهُدَاةَ الْقَافِلَةِ ! سَتَرْحَلُونَ عَنْ وَطَنِ إِلَى غَرْبَةٍ ، وَعَنْ
وَلَاءٍ إِلَى عِدَاوَةٍ ، وَعَنْ إِخْوَةٍ إِلَى سَادَةٍ . مَاذَا نَقْتُمُ مِنَ الشَّرْقِ مَهْدِ الْإِنْسَانِ
وَمَهْبِطِ الْأَدْيَانِ وَمَنْبَعِ الْإِلْهَامِ وَمَسْرَحِ الْأَحْلَامِ وَمَبْدَأِ النُّشْأَةِ ؟ أَلَمْ يَخْلُقِ الْيَابَانَ
الْيَوْمَ كَمَا خَلَقَ الصِّينَ وَالْهِنْدَ وَبَابِلَ وَالْفَرَسَ وَالْعِبْرَانَ وَالْعَرَبَ بِالْأَمْسِ ؟

(١) سدوم : قرية قوم لوط وقصتها معروفة

(٢) الدرب الخادع : الذي بين مرة ويخفي أخرى

إن شمس المدينة أرسلت علينا أول أشعتها في صبح الوجود، ثم مَتَعَ نَحْنَهَا^(١) فغمرتنا بالنور والشعور والقوة ، ثم انحدرت إلى المغيب في بلاد المغرب حتى بلغت خيوطها أطراف الشفق ! إنها ستغرب لا محالة ؛ وإنها ستشرق لا محالة ؛ وإن غروبها لا يكون إلا هناك ، وإن شروقها لا يكون إلا هنا . فلم لا تنتظرون معنا يا بني العم طلوعها الجديد القريب على موطنها الأول ؟

لقد ذَرَّ منها كما ترون على اليابان أشعة ، وبصَّ منها الساعة على مهاد العروبة وبلاد الإسلام شعاع ! وعمّا قليل يسطع في أقصى الشرق وفي أدناه وهجها وسناها فتَهْتَزُّ الأرض من جديد وتربو ، ثم تشقق عن العبقريات التي ارتجلت الحكمة واكتشفت المعرفة وسنت الأخلاق ودفعت المدنية الإنسان إلى مداها البعيد .

قالوا لتركى الأناضول : مالك وللشرق ، ومالك للعرب ، ومالك وللإسلام ؟ تعال نبحث عن أجدادك في الألب ، وعن قومك في الفورم ، وعن مدينتك في اللوفر ؛ ثم أزموه أن يلبس القبعة ، وأرغموه أن يكتب من الشمال ، وفصلوا الدين عن الحكومة ، وانتزعوا العربية من التركية ، وحرّموا الشعب المتدين تقاليد الإسلام ، وحرّموا عليه أخلاق الشرق ، ثم ألغوا العيدين ، واستبدلوا بعيد الجمعة عيد الأحد ، ثم نقلوا الأمة المروعة المشدوّهة على المدرّعات إلى الشاطئ الأوربي ثم أحرّقوا من ورائها سفائن طارق !

على أن التركي الأصيل الذي استضاء بهدى الإسلام ، وتثقف بعلم العرب ، وساهم في مجد الفتوح ، لم يَصْغَ قلبه لهذا التغير المفروض ، فظل فؤاده حيث طبعه محمد الرسول ، وبقى جسمه حيث وضعه محمد الفاتح !

أما موضع الخطر فأولئك النشء الذين قست عليهم الحرب ، وبغت عليهم السلم ، فخصروا علل أخطائهم وأسباب أرزائهم في معنى الخلافة فنقوها من

(١) متع الضحى : بلغ آخر غايته وهو عند الضحى الأكبر

الأرض ؛ ثم أفرط عليهم العداء فتحيقوا ما يلبسها من شرقية وعروبة ودين ؛ أولئك سيزهقون في حاضرهم روح الماضي ، ويقطعون عن ضمائرهم صوت التاريخ ، ويبنون قوميتهم على أسس مستعارة ، ويجددون شخصيتهم على تقليد طائش ، ويخضعون عقليتهم لعبودية قاتلة ، ثم يتنفخون بالصوت الرفيع المدل قائلين : إن تركية للترك . فيقول لهم الدهر الساخر : نعم ، وإن الترك لأوربا !

نخامة الغازي العظيم أتاتورك !^(١) لقد جبرت الجناح المهيض ، وأحييت « الرجل المريض »^(٢) ، وأقذت من برائن العوادي السود تركية الفتاة ، ما في ذلك شك . فاسمك العزيز عنوان تاريخها الحديث ، وعزمك الجبار قوام دستورها القائم ، وروحك الوثاب سناد مستقبلها الطارف ؛ ولكنك ظلمت تاريخك الخاص بمخالفة الطبيعة في التجديد ومجانبة المنطق في الإصلاح . أخشى أن يسجل الرقيب الذي لا يغفل أنك أحييت دولة وأمت أمة ، وبنيت دستوراً وهدمت عقيدة ، وبعثت لغة ودفنت ثقافة !

ماجريرة العرب على الترك وقد استخلفوهم على الدين واستأمنوهم على الرسالة ؟ وما جريمة الإسلام على الترك وقد نعشهم من الخمول وأخرجهم من الجهالة ؟ وماذا يبقى من الترك ولغة الترك وثقافة الترك إذا محوت أثر العروبة ودينها من كل ذلك ؟ إن العرب ليسوا أقل شأنًا من الطليان والجرمان ، وإن الإسلام ليس بأضعف في رفع الشعوب من وثنية اليابان ، ولكنها موجة من المادية الطاغية غشت على الأبصار وطغت على البصائر ، ستنحسر غمرتها عن مجالى الفضيلة والحق ولو بعد حين !

[١١ مارس سنة ١٩٣٥]

(١) أتاتورك لقب جديد للغازي مصطفى كمال معناه : « الأب التركي » ، أى أبو الترك .

(٢) لقب أطلقه ساسة أوربا على تركية القديمة

الفردية علتنا الاصابة

لا تزال الفردية أيّن الصفات المميزة للعرب ؛ ولا تزال هذه الصفة أجلى ما تكون في مصر ! فإن المرء ليغالى في فرديته حتى ليوشك أن يكون أمة وحده ! غلبت هذه الشيمة على العرب الأولين لقلة المرافق المشتركة ، وأثرة الطبيعة الشحيحة ، ووحدة الحياة الرتيبة ، واستقلال النفس القوية . فالرجل منهم كان يحصر الدنيا في خيمته ، ويجمع العالم في قبيلته ؛ ثم يختصر القبيلة في نفسه فيجعلها قاعدة لتمثاله وإطاراً لصورته ! فهو لا يحيا حياة بهائم الأنعام تحمى ضعفها بالاجتماع ، وإنما يعيش عيش سباع الطير والوحش لا تُشبل على أفرأخها وأجراًها إلا ريثما تترأش وتضرى . فلما اختيروا للدعوة الكبرى استجابوا لقوة القوى ، واطمأنوا لألفة الروح ، واستعجروا لحكم الجماعة ، حتى بلغوا رسالة الله ؛ ثم تحرك فيهم الهوى الموروث وتيقّظ الطبع الأثر ، فهبت الفردية لتحلل العقدة وتشتت الوحدة ، حتى قسّمت الوطن بلاداً ، ومزقت الشعب أفراداً ، خضعوا لسلطان المغير ودانوا لقوة الغاصب !

لا تزال هذه الفردية القبيحة وتوابعها من شهوة الرياسة وحب الاستئثار ودناءة الحرص ، تُقَطّع أوشاج المجتمع في أقطار العرب ، فتفسد كل موضوع وتبطل كل مشروع وتُسُتْعَث كل ألفة . وفي مصر أحد تلك الأقطار تستطيع أن تعرض جملة أمرها على رأيك فتجد المثال الذى لا يبعد والحال التى لا تختلف .

فالسياسة هنا وهناك لا تكاد أحزابها تقوم على فكرة جامعة ومبدأ متحد ؛ إنما هي فرد يَنْبُئُه في الخير أو ينبغ في الشر ، فتألف عليه الأفراد المختلفون فيكون منهم مكان النظام ^(١) من العقد يمسكه ما دام حيًّا قويًّا ، فإذا ما انقطع ذهب الحب أبديد . والاقتصاد هنا وهناك جهود فردية تحشى المنافسة وتتعجل الربح وترضى بالنصيب الأخص ، لأن الفردية قتلت فينا الثقة فلا نساهم في رأس مال ، وأضعفت شعورنا بالخير العام فلا نشارك في مشروع ، ونشرت بيننا داء الحسد فلا نستقيم على رأي جميع . وما النهضة الاقتصادية الحديثة إلا نبوغ فرد أنس الناس بناحيته ، واطمأنوا إلى كفايته ، فأخذوا إليه بالثقة وألقوا في يديه المقاليد . والأدب هنا وهناك لا تزال دوافعه فردية ومراميه خاصة ؛ فالقصيدة عواطف الشاعر لا تكاد تخرج عن دخائل نفسه ومدارج حسه ؛ والمقالة خواطر الكاتب لا تكاد ترمى إلى غرض محدود ولا تجرى في مذهب معين ؛ والأغنية لواعج المغنى فلا تعبر عن المعانى العامة ولا تهتف بالأمانى المشتركة . أما الملاحم القومية والقصص الاجتماعية والأناشيد الشعبية ، فتلك أغراض لا تزال منابعها ناضبة ودوافعها دخيلة يأخذ المرء حال من الوجد أو الشوق أو الطرب فيجد من القصائد والأناشيد ما يترجم عن هذه الحال فيدندن ويتغنى ؛ وتكون الجماعة منا في مجمع من الجامع أو ملهى من الملاهى أو موكب من الموكب ، فيأخذها انفعال مشترك من ابتهاج أو احتجاج أو افتخار أو تحمس ، فتريد أن تعبر عن ذلك بقول واحد وصوت واحد ونغم واحد ، فلا تجد إلا خلجات تتوقد ، ونظرات تتردد ، ثم سكوناً بارداً كعرق المبهوت الخجل ! حتى السلام الملكي نعرفه نغماً ولا نعرفه كَلِمًا كأنما وضعوه لأمة بكاء !

كذلك الفن هنا وهناك لا يجد من حَرَج الفردية مكاناً للتنوع ولا مجالاً للتقدم . فالتصوير كالشعر قلما يتعدى صورة الفرد وعاطفته ؛ والرقص حتى من الرجال لا يكون إلا من فرد ، ولا يظهر من هذا الفرد إلا متعاقباً على أجزاء خاصة من جسمه كالعجز والبطن والثدين والعنق ؛ فهو حركات متقطعة مستقلة كأبيات القصيدة القديمة لا تربطها علاقة ولا تجمعها وحدة ! والغناء والموسيقى يقعان دائماً على أصوات مفردة ، وتقاسم مرعدة ، وفرديات (مونولوجات) متشابهة ، ومعان متكررة ! فليس لنا — حتى ولا للقرويين — غناء جماعى ولا رقص جماعى يعبران عن شعور الجماعة ساعة الطرب أو الغضب أو النصر بكلمات موقعة وحركات موزونة ؛ ولكل أمة من أمم الأرض أفنان شتى من ذلك حتى الزنوج ! إن الفردية تعلق فتكون الاستبداد ، وتسفل فتكون الأنانية . وإن الجمعية^(١) ترتفع فتكون الإنسانية ، وتنخفض فتكون العصبية . وإن بين الإنسانية والعصبية شعباً يعز وأمة ترقى وذكرراً يبقى وأثراً يخلد ؛ ولكن بين الاستبداد والأنانية تحكّم الهوى وشقاء العيش وذل الأبد . فإذا رأيت الأحزاب تتناقض وتنحل ، ومشروعات الشباب تضعف وتعتل ، وإدارة الحكومة تسوء وتختل ، فابحث علل ذلك — غير مخطئ — فى هذه الفردية حين تتعلّى فتستبد ، أو حين تتدلى فتستأثر . فلولا هذا الطبع الأصيل الذى طغى على الشعور وبغى على الفطرة لتنبه فينا الضمير الاجتماعى فأخلصنا للأمة كما نخلص للأسرة ، وعملنا فى الديوان كما نعمل فى البيت ، وأحببنا لعامة الناس ما نحب لخاصة النفس ، ولكن الفردية داء دخيل لا يحسمه إلا الدين الذى حسمه عن نفوس العرب حين اتبعوه . فهل إلى رجوع إليه من سبيل ؟

[١ أبريل سنة ١٩٣٥]

على ذكر كتاب

في مصر من الباشوات المثقفين فئة كثيرة تميزوا عن الأشباه لأنهم مهروا في أداء العمل أو وقعوا في طريق الفرص أو رقوا في معارج السياسة ؛ ثم تهيأت لهم بالمدرسة والممارسة أسباب العلم والخبرة ، فخبروا أسرار الأمور ، وسبروا أغوار المشا كل ، وصرفوا شؤون الدولة على نحو من الحكرة المفروضة . فهم لا يبرحون ضارين في الميدان الحكومي فرقة فرقة ، يتقاذفون الإدارة ويتنازعون الوزارة ويتداولون الأمر ، حتى أسرفوا على خير الأمة وافتاتوا على رأى الجماعة ، فقصروا كفايتهم على الخصومة ، وحددوا غايتهم بالحكومة . فهم إذا وثبوا إلى الحكم استفرغوا الوسع في البقاء فيه ، وإذا انقلبوا عنه استنفدوا الوسائل في الرجوع إليه . أما تسجيل التجربة بالتأليف ، ونشر المعرفة بالصحافة ، وتأييد العدالة بالحاماة ، فعمل لا يدخل في حساب الجهد ولا يخطر في مرام النية ! كأن العودة إلى ملابسة الشعب ومداخلة العامة ومزاولة الحرفة أصبحت لا تتفق مع نباهة الاسم ، ولا تتسق مع جلالة القلب ، ولا تجرى على تقاليد المنصب ! في البلاد التي نطيل إليها النظر ونزعم لها الكمال ونحصر فيها القدوة ، نجد رئيس الحكومة إذا تعطل من الحكم ، ورئيس الجمهورية إذا انتهى من الرئاسة ، عاد كل منهما إلى الموضع الذي صعد منه إلى الديوان أو انتخب فيه إلى القصر ، فيستأنف الجهاد اليومي في سبيل الأسرة والأمة والحكومة بنشاط البادئ

ونفسية التابع ورجاء الطمّوح ، فهو يدور مع الطبيعة دورة العام : يبدأ لينتهى .
وينتهى ليبدأ ؛ وفي كل طور من أطواره المتعاقبة تراه يندمج في البيئة ، ويأْتلف
مع النظام ، ويرمى عن الواجب ؛ فينشر المذكرات ويحرر المقالات ويحضر المرافعات ،
ويكابد في خلال ذلك طمع الناشر وعنت الناقد ومنافسة الحرفة ؛ ولكنه على
الرغم من رهق الحياة الحافلة وكلال السن العالية ، يؤدي إلى وطنه المنعم زكاة
النبوغ وضريبة الجهد ، يؤديهما عملاً لا يتأبّه وإحساناً لا يَمُنُّ وإخلاصاً لا يمين .

ذلك هناك والكفاية موفورة والحجة واضحة والأمر متّسق ؛ أما هنا
ورجالات الرأي قلال ، وتبعات العمل ثقال ، وميادين الجهاد غُزْل ، ترى النابه
منا متى بلغ الوزارة من أى طريق وفي أى سن ، ختم حياته العاملة فاخترل
الماضى ، واعتزل الشعب ، وازدري العمل ، وغفا على رخاء معاشه . فهو وزير
ما دامت وزارته ، فإذا سقط انقلب إلى مداره العالى يُزَجّج فراغه المملول بالتردد
بين أبهاء المستوزرين ونادى الحزب أو نادى (محمد على) يتشمّ الرياح ، ويتسقط
الأخبار ، ويتربص بالحكومة القائمة الدوائر .

هو وزير أو منتظر ؛ فمالك تكلفه أن يكتب في صحيفة حزبه ، أو يساهم
بالجد في نهضة شعبه ؟ تلك تكاليف العيش لمن لم يدرك الثروة ، وأزواد الطريق
لمن لم يبلغ الغاية . والوزارة غاية الأمل في الثراء والعظمة ، فإذا أدركها لا يسعه
بعدها كرسى في مكتب ، ولا يُجزّيه سهم في شركة . والظفر بها ولو مرة حق
مكتسب يسلكه في سلسلة المتعاطين حرفة الحكم ، فيضع نفسه ولقبه في صندوق
ذهبي ، ثم يعلقه في خيوط المُنى ، ثم يدع النسيم يهدده بين باب القصر ونافذة

المندوب^(١)، حتى إذا عصفت بالوزارة أزمة، أو شغرى في مجلسها محل، رفع برأسه
الغطاء العنجدى وقال :

أنا أشرُّب ! إذن أنا موجود !

على أن القاعدة العنيدة أخذت تحمل في طواياها بعض الشواذ، فقد رضى
الوزير والسفير حافظ عفيفى باشا أن ينزل إلى صفوف الباحثين والمؤلفين فأصدر
كتابه القيم « الإنجليز في بلادهم » عن استقراء دقيق واطلاع شامل، فكان
تعريضاً أليماً بذلك الذكاء المتعطل الذى يستفيد ولا يفيد، وذلك النبوغ الفاجر
الذى يدخل الحكم ليعسف ويخرج منه ليكيد !

(١) المندوب السامى وهو عميد السياسة الانجليزية فى مصر قبل المعاهدة المصرية الانجليزية



العالم هل جرى

ها هو ذا العام الجديد يُهلّ ، فأين السّجل ؟ تعال نقرأ ما خطه التاريخ
في صفحتنا التي طواها الدهر أمس ! هل انفرجت خوانق الأغلال قليلاً
عن الرقاب العانية ؟ هل انجلت غواشى الغفلة عن العيون السادرة ؟ هل انجاب
قتام النذل عن النفوس العزيزة ؟ هل ائتلفت على عوادي الخطوب هذه القلوب
الشتيّة ؟ هل اقتنع المعتدون والمستبدون أننا ماضٍ ينبعث ومجد يستيقظ وأمة
تريد أن تستأنف بلاءها في جهاد الناس وتستعيد مكانها من صدر الوجود ؟
رويدك لا تطل النظر فلن تجد فيه وا أسفاه إلا عبْرَ عينيك! ^(١) لقد طويت
هذه الصفحة كما طويت قبلها تلك الصفحات على بياض غير ناصع ! وإن تاريخنا
لا يزال يكتب عرضاً في تاريخ الدول أو لحقاً في تاريخ إنجلترا ! فليس له
في التقويم العربي حساب جار ولا في سفر العالم فصل مستقل !

لو كنا نسير إلى وراء لعثرنا يوماً بمجد المصريين والعرب ، ولو كنا نسير
إلى الأمام لظفرنا يوماً بمجد الفرنسيين والإنجليز ، ولكننا سقطنا من الونى
والوهن في طريق الإنسانية يخطو فوقنا الركب ويدور علينا الفلك ، حتى رن
في أسماعنا صوت الأجداد يهيب صارخاً بالرقود ، فنهضنا نهضة المنبّت الحائر
نستلهم الأعراق ونستنبى الدلائل ونتملق الأحداث ونستحث القادة . ثم انتضى
على هذه النهضة المتلكئة قرن وما نزال شمالاً يتجمع وأملاً يتطلع وغرماً يشبّ

(١) العبر بالضم : سخنة العين تبكيها . ورأى عبر عينيه . رأى ما يكرهه وبكى منه

متى السير إذن يا هادى الحجة ؟ لقد مللنا قرع الطبول ودَقَّ البشائر ،
وقتلنا الزمن فى تأييد رأى وتقنيد رأي ، وأضعنا الجهد فى عقد لواء وحل لواء ،
وخجلنا من هذا الموقف السلبى الذى يرصد الأُهب فى الخيال ويصور الخطط
بالشعر ويطلب النصر فى أحلام المنى !

انطوت صفحة هذا العام المنصرم ولم تسجل فى أوطان العروبة غير الأسى
والألم : سجلت فى مصر كما سجلت من قبل أهواء تتصارع ، وأطماعاً تتعارض ،
وفردية تطغى ، وأثرة تُسف ، وخصومة تكيد ، وشعباً يكابد داء الضرائر^(١)
فى زعمائه ، ويكاد يستجير بعدوه من أوليائه ، وينظر فى يده العتاد وفى
طبعه الاستعداد ، ثم لا يزال برغم ذلك وضع الشأن فى الحياة ، مسلوب الإرادة
فى الحكم ، مبذول المقادة للغاصب .

وفى العراق سجلت أحداثاً ترمض القلوب وتثير دفائن الهم ، من ديب
العقارب بين الجيرة ، وسعى النمائم بين الأخوة ، وتمكين الطائفية للنفوذ الدخيل !
وفى الشام سجلت تفريق الكلمة بالوعود ، وتمزيق الجسم بالحيلة ، وتسكين
الألم بالمرقد . كذلك سجلت فى المغرب دموعاً يمسحها اللاطم بكفه ، ووشائج
يقطعها الظالم بسيفه ، ونفوساً ينزوها الحفاظ للجنس والدين فتركض فى القيد ،
وتضطرب اضطراب المهيض فى القفص .

ثم سجلت فى شبه الجزيرة فعل الفقر البئيس فى دار الهجرة وملاذ الدعوة
ومُطَمَّانٍ الضريح المقدس .

أما السطور الحمر التى سجلتها لفلسطين البائسة ، فمن صبيب دماءها كان المداد

(١) داء الضرائر : الحسد

ومن نشيج بكائها كان الكليم : هى إعلان بيعها القهرى فى سوق السياسة ، يتزايد فيه أهلها العرب بالحق . والحق رأى واجتهاد ، وبالقانون والقانون ورق ومداد ؛ ثم يهود العالم كله بالذهب والذهب إله وشيطان ، وبانجلترا وانجلترا أسطول وبرلمان ! فالعرب فى فلسطين مقضى عليهم بالقتل والتشريد ، وإخوانهم فى الأوطان الأخرى ينظرون إليهم نظر العواد إلى المريض المشفى ، يسعفونه بالدعاء ، ويواسونه بالبكاء ، والدعاء لا يرفع الواقع ، والبكاء لا يدفع الموت

هذه عناوين الصفحة المطوية ليس بينها عنوان جميل ! فليت شعرى ماذا تخط أقلام القدر فى صفحة العام الجديد ؟!

لو كنا ننتفع بالذكريات ونستفيد من العِظَات ، لما بددنا الجهود فى التجارب ، وأفسدنا الأمور بالتردد . إن لنا تاريخاً إنسانياً حافلاً ، فيه لكل عظمة ذكرى ، ولكل ملمة تجربة . وإن لنا دستوراً إلهياً كاملاً ، فيه لكل مضلة هدى ، ولكل قضية بينة . فإذا التمسنا دليلنا من روح السلف ، واقتبسنا هداًنا من وحى الله ، استقمنا على الطريقة التى نهجها الرسول ، فتوافينا معاً على الغاية ، وانتهينا جميعاً عندها إلى الوحدة .

إن الرسالة العربية التى هاجرت مغلوبة من مكة إلى المدينة ، سافرت غالبية من الشرق إلى الغرب ، بفضل مبدئها الإلهى الذى قامت عليه ودعت إليه وفازت به ، وهو توحيد الله ، وتوحيد الكلمة ، وتوحيد القوى ، وتوحيد الغاية وقد استوثق الأمر لأهلها ما استمسكوا به . فلما تراخت العرى بينهم وبينه تقاذفتهم السبل ، وتقاسمتهم الأطماع ، وصار بهم التخاذل والتواكل إلى ما هم عليه اليوم

جميعه هنر الفترى

احتفلت هذه الجمعية البرّة منذ يومين بانتضاء عامين من جهادها النبيل فى إنهاض القرية المصرية ، وهذه الجمعية هى أيضاً من أعمال الشباب ؛ ولعلها أقرب أعمالهم الجليلة إلى الخير المحض ! فإن ماركبوه إلى اليوم من تحم السياسة ، وما عاجلوه من خطط الاقتصاد ، إنما كان مبعثه الغرور القومى ، أو الشعور الوطنى ، أوهما معاً . أما هذا العمل ، فمبعثه الخالص عاطفة البر فى الإنسان بأخيه الإنسان ؛ وهذه العاطفة إنما غرستها فى القلوب يد القدرة ، وأتمتها قوة الفطرة ، وفرضتها طبيعة الحياة ، ليحصل بها التئام شمل الناس ، وانتظام عقد المجتمع ، واتحاد وجهة الإنسانية بالتعاون والتضامن إلى الكمال البشرى الممكن .

راع الشباب — وهم موضع الحس المرهف من الأمة — ما جرّه تفشى الأمية على القرى المصرية من انقطاع السير ، وانخزال الحركة ، وانتشار العلل ، وانفجار الأحداث ، واغبرار العيش ، والقرية هى مصدر القوة للشعب ، ومورد الثروة للوطن ، فحشدوا جنودهم فى هذا الميدان ، وسددوا جهودهم إلى هذا الغرض ، وراحوا يهاجمون الجهل والفقر والمرض فى تلك الحظائر أو المقابر التى ضمنت أجوافها السود أربعة أخماس الأمة ، ثم دأبوا يقرعون الآذان بالخطابة ، ويخزّون الضمائر بالكتابة ، ويهيئون بالحكومة والقادة أن يأخذوا من تجميل المدينة لتأثيل القرية ، ومن ترف الباشا لحاجة الفلاح ، ومن فلسفة الخاصة لأمية العامة ، حتى ارتفعت حجب الأسماع ، وانكشفت أعطية القلوب ، فعطف على قضية القرويين

رجال البلد من أولى الحكم وأهل العلم وذوى المثالة، وأفوا من قدرة الشبيبة وخبرة الكهولة دستور العمل المنتج لإنجاد الفلاح وإسعاد القرية ...

لعل أنطق الأدلة بخطورة العمل الذى تقوم به هذه الجمعية الجليلة، أن أصف لك قرية أعرف بيوتها كما أعرف بيتي، وآلف أهلها كما آلف أهلى. وستجد حين توازن بين قريتي وقريتك أننى وصفت على الجملة قرى مصر جميعاً :
كومة من سباح الأرض قام عليها أكواخ متلاصقة من اللبن^(١)، سقوها بالخشب والقصب، وحملوها بالعلف والخطب، وجملوها بشرفات من الروث اليابس، ثم جعلوا ظهورها مراحيض للحاجة، وبطونها مسرحاً عجاجاً لشتى الأوالف والدواجن من الكلاب والقطا والعجول والدجاج والبط؛ ثم جمعوا بين قاعة الإنسان وزريبة الحيوان فى فناء واحد، فالحديث يمتزج بالخوار، والمضغ يشبه بالاجترار، والرجل والثور، والمرأة والبقرة، والطفل والعجل، يعيشون سواسية فى شموعية عجز عن تحقيق حلمها (الروس) ! لا يؤديك إلى هذه الدويرات العُمى مسلك واسع ولا طريق مشروع؛ إنما هى طوائف طوائف، تفتحت كل طائفة منها على زقاق ضيق غير نافذ، ولن تستطيع الدخول فى هذا الزقاق إلا من الطريق الدائر حول القرية ! ... بلى قد يشق البلدة منفذ صاعد هابط متحدر متعرج وعمر، ولكنه بين الفجوات والحفر يكون أشبه بصراط الحق بين مزالق الفتنة يركبها من الشمال مستنقع ومن الجنوب مستنقع، ثم يحيط بها ويتخللها تلال من السرجين^(٢) والسماد منها الرطب ومنها اليابس، وفى أحضان هذه التلال

(١) اللبن : الطوب الذى لم يحرق . (٢) السرجين : الزبل .

وعلى حوافى هذه المناقع ، قامت مجالس القوم ، يجلسون فيها تحت الجدران وفوق المصاطب يستجمئون حيناً من العمل الدائب والعناء المرهق ، لا يألمون لسع البعوض ، ولا ينكرون ريح الوحل ؛ ثم لا يجرى بينهم إلا الحديث القابض للنفس كتضاءف الذين على الأرض ، وتحكم للمالك فى الريع ، وفتك الآفات بالزراع ، وإلحاح الكساد على القطن ، وما تدخله تلك الحال على النفس الجاهلة من وساوس الأطماع وسخائم الحقد وغوائل الحسد !

إصطلحت على دمائهم الفقيرة جرائم الملايا والبلهارسيا والانكلستوما ، فعدوا كواسف الوجوه خواسف الجسوم خوائر القوى ، يعالجون المرض بالصبر ، ويخففون الألم بالتسليم ، ويدافعون الموت بالتعاون ، ويسيثئون الظن بالمستشفيات التى لا تقبلهم إلا بالشفاعة ، ولا تعاملهم إلا بالفظاظة ، ولا تحسن علاجهم إلا بالمال فى العيادات الخاصة . . . وأين المال من رجل كل ما يملكه أجرة يومه لقوت يومه ؟ ولت هذا القوت كان من الأقوات التى تصلح الجسم وتدفع الشقم وترد العافية ! إنما هو فى الغالب رُغفان من الذرة أو الشعير مآدومة ببعض أحرار البقول^(١) واللبن المملح . . .

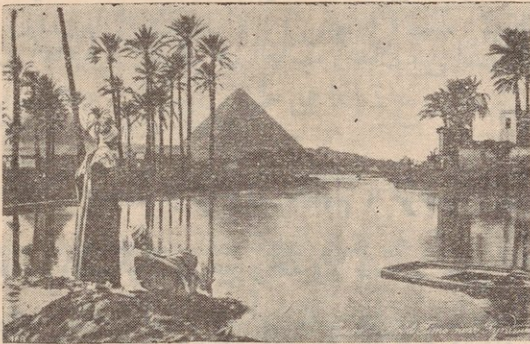
استغل الملاك ضعفهم والمرابون جهلهم ، فوضعوا أيديهم على أختامهم يطبعونها على العقود والصكوك فى غير رحمة ولا ذمة . حتى إذا انقضى الحول ، وآل كدح الأسرة الناصبة وجهد الماشية اللاعبة وشقاء الفلاح المسكين إلى الثمرة المرجوة ، عدا عليها الدائن اللص ، أو المالك الظالم ، فجباها لجيبه أو جفاها لخزنه . . .

(١) أحرار البقول : ما يؤكل منها غير مطبوخ كالهندى والخس . . .

ذلك على الإجمال وصف القرية ؛ فهل تجد فرقاً بينها وبين أخصاص الهمج
فى نشأة الحياة وطفولة الزمن ؟ وتلك هى على التقريب حال الفلاح ، فهل تجد
فرقاً بينه وبين البهيم الذى لا يصطنع العلم ولا يدعى المدنية ولا يزعم لنوعه
الرقى ؟ ...

فإذا استطاعت هذه الجمعية الشابة أن تجعل من هذه الأقطار المركومة
مسكنًا يجمل فى العين ويجدى على الصحة ، ومن هذا السكائن المهمل رجلاً
يشعر بالحياة ويسير مع الأمة ، فقد فى نفسك أى واجب تؤدى وأي خير تفيد !

[٢٢ أبريل سنة ١٩٣٥]



أعياد الحياة والحرية

تخرج الرسالة اليوم إلى الناس في (شم النسيم) . وشم النسيم في مصر عيد اكتمال الربيع ، يخرج الناس من دورهم فيه إلى الطبيعة السافرة المجلوة في العراء الكاسي بأفنان الزهر ، وفي الهواء الناعم بأنفاس الرياحين ، يشهدون افتتاح سر الحياة في الأرض ، وانفتاح باب الجنة على الروض ، وانتشار جمال الله في الكون ، وافتراق الدهر العابس عن بساتين البشر تقيض في العيون والصدور ، وتشرق على الحقول والدور ، وتهبُّ القرب بين الله والإنسان والطبيعة

لشدَّ ما تفعل بالنفوس مشاهد الحياة وذكري الحرية !

في هذا اليوم يحتفل المصريون في (شم النسيم) بعودة الروح إلى الدنيا ، وهبة الطبيعة من مرقد الموت . وبالألمس كان عيد الفصح المسيحي ، احتفل فيه نصارى الشرق كما احتفل في مثله من قبله نصارى الغرب ، برجة الناسوت وقيامة يسوع . ومنذ أيام كان عيد الفصح اليهودي ، احتفل فيه بنو إسرائيل بخروجهم من ظلم الفراعين وعودة الحرية بهم إلى أرض فلسطين ! فلهذا الفصل الجميل كيف يعود فيه الخلق ، ويرجع معه الشباب ، وتحيا به الحرية ، ويسبح منه الوجود في فيض من الشعور القدسي يوقظ في الإنسان أنه حي ، وفي الحى أنه حر ، وفي الحر أنه جميل ، وفي الجميل أنه صالح ، وفي الصالح أنه خالق بملكوت الله وخلافة الأرض

تباركت يا مبدع الربيع ومصور الجمال ومعيد الخلق ! هذا النيل يتنفس بالحياة مأؤه فما لأنفسنا تموت ؟ وهذا الوادى يتفجر بالخصب ثراه فما لآمالنا تدوى ؟ وهذا الربيع يرف بالحسن نسيمه فما لأخلاقنا تسوء ؟ ألسنا جزءاً من الطبيعة نتجدد كما تتجدد ، وندور على قطب الحياة كما تدور ، ونجرى على سنن الكون كما تجرى ؟ إذن فلماذا يعود أبريل فى كل عام فيردّ إلى الشجر حُلاه ، وإلى البلبل أغاريده ، وإلى العش زياطه ، وإلى الحيوان نشاطه ، وإلى العالم كله بهاء ورونقه ؛ ونلقاه نحن فى كل موعد إبان وروده ، فلا نجد عنده وأسفاه ريشة لجناح ولا نفحة لأمل ولا جدّة لدارس !

هكذا قضى الله أن يكون الربيع مستأنف القوة والفتوة والرجاء لكل حى ، ومسترجع الذّكر الممضة والأطياف الحزينة لابن آدم ! فهذه الشجرة التى تراها فينانة الأفرع رياءً الأماليد طالما ورف ظلها السجسج فى هذا الأوان على صبي ناعم وهوى وليد ! كانت عشا لطاثرين بسط الشباب لهما فى الجناح ، وفصح الحب لهما فى الجو ، فيطيران ما شاء الهوى أن يطيرا ، ثم يأويان إليها ويغردان عليها حتى تقوض العش ونسل الجناح ويبست الحنجرة ! وهما هى ذى الشجرة عراها الخريف عشرين مرة وكساها الربيع عشرين مرة ، ولكن ذاوى الشبيبة لن ينضروا ماضى الحبيبة لن يعود !

وهذا المرج الذى تراه موشى البرود منصور الجنبات ، كان فى عام من الأعوام مسرحاً لمشهد من مشاهد الصباية ! انتظمت به عقود الحب ، وانتشرت فيه حبات القلب ، وتبددت عليه خطوات السعادة.

ثم تصوّح المريج وعاد فاخضوضر وأزهر ، ولكن مضاجع الهوى لن تمهد ،
وذواهب الخطى لن تؤوب !

وهذا الجدول الرقراق الذى تسمع هسيسه فوق الحصى وتحت الصفصاف ،
كان فى ربيع من الأربعةِ مرآةً لوجهين حبيبين قرءا سريهما فى صفائه ،
ومزجا حديثهما بخرير مائه ؛ ثم جف مجراه وما لبث أن فاض ، وانقطع حديثه
ثم عاد فاستفاض ؛ ولكن الوجهين لن يعود بينهما لقاء ، والحديثين لن يكون
لاتهما ابتهاء !

وهكذا يجد الإنسان وحده فى كل منظر من مناظر الأرض ومظهر من
مظاهر الربيع ، أثراً بعد عين ، ودواراً بعد نشوة ، وبلى بعد جدّة ، وذكري
بعد أمل !

على أن للربيع يداً على النهضة المصرية لا تكفرها له القلوب ما تجدد
على الدهر عيده : تلك هى رجعة الروح فيه إلى حياتنا الاقتصادية . وما هذه
الروح الراجعة إلا بنك مصر ، بثها الله فى نفحات الخلد من أوائل مايو ،
فنضرت من حياتنا ما ذوى ، وأقامت من بنائنا ما هوى ، واتحدت بطبيعة
الزمن الموزون وحركة الفلك المنتظم ، فهى تتقدم ولا تتأخر ، وتجري ولا تتعثر ،
وتطلب الغاية ولا تحيد

لذلك يعود الربيع كل عام فيفتح للناس هوة الماضى ، ويفتح لبنك
مصر وحده باب المستقبل ، فينمو نمو النبات بركةً على بركة ، ويتضاعف

تضاعف الحياة شَرِكة بعد شركة ، ويجذب الوجود المصرى معه إلى السبيل
التي يأمن فيها الفناء ويخرج منها إلى العافية !

بعد ثمانية أيام يحتفل المصريون بمرور خمسة عشر ربيعاً على مولده .
وسيكون هذا الاحتفال المترقب حجة لمصر أو حجة عليها ! فإذا أجمعت
على أن يكون احتفالها بعيدة احتفالاً بنهضتها به وحياتها فيه ، دلت الناس
على جدارتها بفضلها ، وعرفانها بجميل أهلها ، واطرادها مع الكفاية والجد
في سبيله ، وإلا كان احتفالها بهذا العيد العظيم كاحتفالها اليوم بشم النسيم :
تحتفل فيه بالفسيخ والعرق والعهر ، ثم لا تعبأ بجمال الطبيعة في جنة ولا نهر !



بَنكِ مِصْرَ

— ١ —



غداً في الساعة الخامسة يبدأ
الإحتفال القومي بمرور خمسة عشر عاماً
على مولد بنك مصر . والاحتفال بعيد
هذا البنك النامي الخصب إحتفالاً
بالنصر المؤزر في جهاد الأمة لاستقلالها
الحق ؛ فإن مصر منذ انحسر عن
الأرض ذلك الطوفان الدموي الذي
غمرها أربع سنين^(١) هبّت تقرر في

الدول وجودها الطبيعي الحر فما صغت لها أذن ، ولا نهضت بحجتها عدالة . ذلك
لأن أوربا الجائعة المجهودة تريد أن تسد فجوات القنابل وحفائر الخنادق وأخاديد
القبور بما بقي على الأحداث من أقوات الشرق ؛ والشرق — كما تعلم —
يستطيل بالكرم ويستعز بالجاء ؛ فما دمت تُحِلُّه الصدر وتبوءه الوظيفة فلا عليه
بعد ذلك أن يكون كرسيه بالاستعارة ، ومأكله بالدين ، ومسكنه بالأجرة !

حمل المنتجعون العجاف من أهل أوربا ثمر نشاطهم الصناعي إلى أسواقنا
القاصرة المستهلكة ، وقاموا على أرزاقنا مقام القيم يَبْضُون لنا منها بما لا يكاد

(١) نريد الحرب العالمية الكبرى التي شبت نارها من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨

يستر الجسم ويمسك الرمق ، ثم يحولونها عمراناً في خرائب باريس وسلطاناً في حكومة لندن ؛ ويسمعوننا نشور في المحابر ونصيح على المنابر فيقولون : اكتبوا ما واثى المدادُ القلم ، واخطبوا ما أسعف الريق اللسان ، فلن ينزع العلق خراطيمه الماصة من الجلد ما دامت جنودكم مقبورة في الشكنات ، وأموالكم مطمورة في الخزائن . حينئذ قال رجل الساعة محمد طلعت حرب باشا : رويدكم ! سنرسلها شعواء بالذهب لا بالحديد !

* * *

كانت مصر في العهد الذي أسس فيه بنك مصر في مأزق من مأزق الحياة المشتبهة الخادعة : تنعم في رخاء كاذب وأمن مريب ، ووراءها أوزار حرب ضروس ، وأمامها لوايح أزمة طاحنة ، وشباب البلاد تعصف في رءوسهم نخوة الوطنية والحرية والكرامة ، فلا يفكرون إلا في الاحتلال ولا يعملون إلا للسياسة ؛ وأغنياء الأمة جامحون على أموالهم المكدسة جثوم الدجاجة المرخم على بيضها العقيم ، لا يُثمرونه بأنفسهم لنقص الكفاية ، ولا يكون استثماره لغيرهم لفقد الثقة ؛ ورجال الدولة مشغولون بجباية الخراج وتحضير الميزانية واستئناف المفاوضات وتحرير مشروعات المعاهدة ، فلا يملكون حماية التجارة لقيود الجرك ، ولا يستطيعون إنشاء الصناعة لمناوأة المحتل ؛ والأجانب عاكفون على منابع الوادى يستنزفونها بالربا ويكدرونها بالسفح ، ثم لا يسمحون للظآن أن يألم ، ولا للمهان أن يغضب وكانت عناية الله التي ألهمت سعد زغلول أن يخرج شعبه من رق الاحتلال السياسي ، هي التي ألهمت في الوقت نفسه طلعت حرب أن يخرج قومه من رق الاحتلال الاقتصادي ؛ وكلا الرجلين منذ نشأ ميسر لما قام له : فسعد باشا بطبعه

رجل كفاح وخصومة ، وزعيم برلمان وحكومة ، ورسول من رسل الوطنية الروحية
له عصمته وجاذبيته وإيمانه ؛ وطلعت باشا بطبعه رجل إنشاء وعمل ، وصاحب
تدبير وخطة ، ورسول من رسل الوطنية المادية ، يهذب النفس برفاهة الجسم ،
ويرفع العمران بوفرة الإنتاج ، ويضمن الاستقلال بقوة الثروة ، وله كذلك عبقريته
ونزاهته وإخلاصه .

وثق الناس بالزعيمين الخطيرين فجادوا للأول بالأنفس فشاد بيت الأمة ،
وكون الرأي العام ، وألف الوفد ؛ وجادوا للثاني بالأموال فشاد بنك مصر . وأنشأ
شركات مصر ، وكون ثروة مصر ؛ وربى سعد باشا لوطنه شباب جهاد وتضحية
كانوا منه مكان القلب الشاعر والحس المدرك والروح الملهم ؛ وربى طلعت باشا
لشعبه شباب اقتصاد وروية ، كانوا منه مكان البصيرة الحازمة واليد العاملة
والعقل المنظم ؛ ثم كان من هؤلاء وهؤلاء دليل ناهض على يقظة هذه الأمة
وشعورها بإزادتها لما تفعل ، وسيادتها على ما تملك ، وحريتها فيما تريد

لا أستطيع بهذا القلم الموجز في هذا المكان المحدود أن أجمل ما أضفاه
بنك مصر وشركاته ومنشآته من النعمة على الأمة . وإن في تقرير مجلس الإدارة
الذى نشر منذ أيام عن السنة الخامسة عشرة من حياة البنك ، والخطبة الخطيرة
التي سيلقيها المدير الجليل في احتفال الغد عن حياة البنك ، لبلاغاً لمن لم يسمع
إلى اليوم ذلك اللحن القومي القدسي الذى يتألف من صريف الأموال المصرية
في البنك ، وهدير البواخر المصرية في البحر ، وأزيز الطواثر المصرية في الجو ،
ودوى المصانع المصرية في الحلة !

إن نجاح بنك مصر وشركاته هو وحده الحجة الفاهضة على نضوج هذا
الشعب ، لأنه نسق من الضرورة والقدرة والنظام والثقة لا يقوم على الهوى ،

ولا ينتظم على الطيش ولا يدوم على الفساد ولا يتقدم على العجز ولا يبلغ شيئاً وراء الزعامة الرخوة . فبينما نجد النهضة السياسية تنتكس فترجع إلى الموت ، والحالة الأخلاقية تنحل فتعود إلى المهانة ، والحركة الأدبية تضطرب فتتقلب إلى الفوضى ، نجد هذا البنك ينمو النبات بركة على بركة ، ويتضاعف تضاعف الحياة شركة بعد شركة ، ويجذب الوجود المصرى معه إلى السبيل التى يأمن فيها الفناء ويخرج منها إلى العافية !

— ٢ —

نعود إلى الحديث عن بنك مصر مغتربين كما يعود المطرب إلى تكرار لحنه والمؤمن إلى ترديد صلاته ! وهل كان بنك مصر وعيده فى الأسبوع المنصرم إلا لحناً شدا على كل لسان ، ودعاء صعد من كل قلب ؟ لقد جاء هذا العيد القومى كما توقعناه دليلاً على رشد هذه الأمة الكريمة : رَحَضَ عن سمعتها الأذى ، ودَحَضَ عن كفايتها التهم ، وجلا عن نهضتها الشكوك ، وبدد عن مستقبلها السحب ، وأعان — فى شأى الحديقة ، وعشاء الكوتننتال ، ومهرجان القاهرة ، وحفلات الأقاليم ، بلسان طلعت حرب باشا مدير البنك ، وأحمد عبد الوهاب باشا وزير المالية ، والسّر إدوارد كوك عميد سياسة الاقتصاد الإنجليزية ، والمسيو هنرى نوس ممثل رءوس الأموال الأجنبية — أن مصر التى غلّها العجز الاجتماعى حيناً من الدهر عن استعمال حقها واستغلال خيرها واستثمار غناها ، قد أتاح لها بنك مصر وشركاته أن تشعر بالقوة التى كمنت فيها ، وتقفن إلى القدرة التى ذهلت عنها ، وتخرج من ذلة اليتم والعدم والقصور إلى غرة الرشد والوجد والأهلية .

نعم كانت الأيام الثلاثة التى حِفِلت بعيد بنك مصر مظاهرة قومية موفقة ، شارك فيها قصر الملك ودار المندوب وجميع الأحزاب وكافة الطبقات وعلمة الشعب

في الساعة التي رجعت فيها السياسة المصرية إلى ذبذبتها الأولى : تتحرك ولا تسير ، وتتردد ولا تستقر ، وتتصرف ولا تملك . وكان ابتهاج الأمة بها ابتهاجاً بحقتها الذي يتخلص من الباطل ، وفوزها الذي يتميز من الفشل ، ونصرها الذي يتبرأ من الهزيمة !

تستطيع أن تناقش وتعارض وتستريب إن زعم لك زاعم أن يقظتنا للعلم والأدب والحرية والسياسة بلغت الحس العالى المرهف ، ولكنك أمام الأرقام التي قدمها إليك بالقول طلعت حرب ، والمنتجات التي وضعها في يديك بالفعل طلعت حرب ، والمؤسسات التي عرضها عليك بالسينما طلعت حرب ، تعتقد اعتقاداً رياضياً أن نهضتنا الاقتصادية يقين لا يخامرہ شك ، وواقع لا تزخره مبالغة . وإن في تسميتنا هذه النهضة التي نهضها بنك مصر فُحِّلَتْ عن الأمة حبة العجز بالنهضة الاقتصادية ، تسمية لها بالوصف الأشهر والأثر الأغلب ؛ أما الواقع فإنها انتظمت مرافق البلد من كل نوع ، وتناولت أمور الناس من كل جهة : أجدت على العلم ففتحت له أبواب العمل ؛ وعلى التعليم فهدت له سبل التطبيق ؛ وعلى الأدب فاستعملت اللغة في أعمال المال ، ونشرت الثقافة بتسهيل الطباعة ؛ وعلى الأخلاق فأحيت في الرجال الثقة وقوّت في الشباب الرجولة ؛ وعلى الاجتماع فوقّت الأمة شر العطلة الجرمية والأزمة المستحكمة ، باستخدامها الألوف من الموظفين والصناع والعمال في شركات البنك وفروعه ؛ وعلى القومية فخلقت الروح الجماعية بإنشائها الأعمال التي تقوم على رؤوس المال وتوزّع العمل وتساند القوى وتضامن الجماعة ؛ وعلى السياسة فكفكت عنها شِرة النفوذ المالى الأجنبي بمنازلتها الجريئة له في ميادينہ القوية الحصينة ؛ وعلى الإسلام فساعدت

على إقامة ركن من أركانه ، وكشف الضر عن منزل وحيه وقرآنه ؛ وعلى وحدة العرب فوصلتها بأسباب التعاون ، ووثقتها بسلاسل من الذهب . والاقتصاد اليوم وقبل اليوم كان دستور الحياة ، وعلة السعى لها ، وغاية الجهاد فيها ، فلا بدع إذا أثر في كل شيء وعمل في كل حركة وهاج في كل ثورة وصاح في كل نهضة .

شهدت كثيراً من المؤتمرات والمظاهرات والاحتفالات في أغراض شتى ، فكان شعورى الذى أجده فيها شعور الحالم الذى يتوهم الحقيقة ، والفاقد الذى ينشد الوجدان ، والآمل الذى يرجو الظفر ؛ ولكنى شهدت هذه المرة احتفالات قومى بعيد بنك مصر ، فكان الشعور الذى ملكنى وملك الناس شعور العالم الذى اطمأن إلى التجربة ، والواجد الذى اغتبط بالحصول ، والظافر الذى انتشى بالنصر ، والذى استعز بالكرامة

وكنا نلحظ البشر الذى يجول في الحيا الذى لا ينبسط ، والابتسام الذى يجرى على الشفة التى لا تفتتر ، فنتخيل في وجه طلعت حرب وهو يشع بالإخلاص الساذج مستقبل بلادنا الذى يتهلل ، وأمل شبابنا الذى يتسم .

نصر الله بالرضى والغبطة وجوه أولئك الأبرار المخلصين الذى شغفهم حب الخير ففكروا وأملوا ، ثم آمنوا وعملوا ، ثم استمسكوا بروح الله وقوة الشعب على عصف الخطوب وإلحاح المكاييد ، حتى استقر بهم الإيمان على الفوز ، واستقام بهم الإخلاص على الطريقة ، فكانوا مثلاً للجهاد الصابر المثابر الذى يتلمس القوة من جوانب الضعف ، ويتطلب الكثرة من أشتات القلة ، ويخلق النجاح اليقين من أحاديث المنى ، ويرفع في مُعترك الشُّبه والظنون هذا الصرح الباذخ فيكون قاعدة للمصلح البانى ، ومنارة للمتخلف الوانى ، ومثابة للمتنكب الشريد !

إلى بعض الكبراء

عندكم ياسادتي المال ، ولكم الجاه ، وكان فيكم الحكم فلم تأبون أن يكون معكم المجد أيضاً ؟ رفعناكم واتضعنا ، وحكّمناكم وأطعنا ؛ ثم صغنا مجدنا ألقاباً لعظمتكم ، وحشدنا أبناءنا جنداً لسطوتكم ، وجعلنا أموالنا مدداً لثروتكم ، وقلنا أفراد تقويهم روح الجماعة ، ورموز تلبسهم فكرة الوطن ، وألوية ترفعهم سواعد الأمة ؛ فإذا ضعفكم ينوء بقوة الحكومة ، وإسفافكم يهبط بسمو المنصب ، وارتفاعكم كارتفاع الأسهم النارية : فرقعة ولألاء ، ثم سقوط وفناء ! ...

يزعم أرباب الشعر وأصحاب الخيال أن الإنسان ملكٌ مُرنقُ الجناح ، هبط من سمائه ولم يصعد ؛ فهو لا ينفك ما عاش نزوعاً إلى موطنه ! وهم يعنون بذلك أن الإنسان بالجزء الإلهي الذي فيه مسوق إلى الكمال ، مَشُوق إلى الرفعة ، فهو يفرغ من مطالب الجسد ليخلص إلى رغائب الروح ، ويتبدى بالأثرة في ضيق الأنانية لينتهى إلى الإيثار في سعة الغيرية ، وينشأ على هوى الطبيعة معنى جزئياً ليعود بحكم التطور ففكرة إنسانية ! فما الذي قتل فيكم هذا النزوع السماوي ، وصرف عنكم هذا الطموح المقدس ، فقيدتكم جاذبية المادة ، وعقلتكم شهوة الغرض ، وأيتم على نداء البطولة واستحثاث الرجولة إلا أن تكونوا ناساً كأقل الناس ، لكم كروش لا تكتفي ، ونفوس لا تشفى ، وأطماع لا تحد ...

ربما علل النفسيون هذا الميل الشاذ في بعض كبراء اليوم ، بأنهم من قَدِ الخلق الصالح في قصور ذاتي معنوي لا ينفك ؛ فهم يرتفعون قَدْفاً في السماء ، ثم يسقطون جذباً إلى الأرض ، ولا يشعرون إلا كما يشعر الحجر بأن القاذف

الجهول رمى بهم أمانى فوق ، وسحق بهم أناسى تحت !!

كذلك من يتعلم ولا يتربى ، ويتربي ولا يتدين ، ويتحرك ولا يقصد ، ويتصرف ولا يريد ! أولئك يُحدون دنياهم بالأفق ، ويختمون حياتهم بالموت ، ويَزنون سعادتهم بالمادة ، ويضخمون على أقوات الشعب ضخامة الفيلة المروضة ليكونوا مركباً للملوك وفرجة للناس وغذاء للأرض ! وهؤلاء أنماط من الخلق كانوا ضُبابة العهد القديم ، رسبت فيها أكداره وشوائبه ؛ ثم كانوا بحكم تخلفهم جسراً محطماً الأركان مهدم القواعد ، لا بد للجيل الجديد من اجتيازه لينتقل من عالم إلى عالم ، ويخرج من عصر إلى عصر ؛ فهو يحملنا على اضطراب وخلل ، ونحن نعبره على احتراس ومهل ؛ وفي هذا الاحتراس وذلك الاضطراب سر ما ترى في خطانا من قصر وفي نهضتنا من بطء .

مألة هذه الهزيمة في مصر ، وما سبب هذا الخلاف في فلسطين ، وما باعث هذه الثورة في العراق ؟ لا تلتمس دواعى ذلك كله في كيد الدخيل وخداع العدو ، فإن الغاصب يستطيع إن شاء أن يسلبك مالك بالحيلة ، أو استقلالك بالغيلة ، ولكنه لا يستطيع أن يفتنك عن شرفك وخلقك وضميرك وأنت رجل ! إنما يدفع هذه الفيلة الأهلية الغلف بخراطينها الماحقة وأخفافها الساحقة وإهابها الضفيق ، فتسوى أمامه الأرض ، وتمهد له الطريق ، وتحمل له فوق ظهورها العرش ... !!

إن مشكلة الدستور ، وقضية (نزاهة الحكم) ، برهانان صارخان على أننا أتيننا يوم أتيننا من ناحية الخلق ! وتلك ناحية لا يحصنها وأسفاه شهادة تُعطى وخطبة تُلقى ومقالة تُكتب ؛ إنما يحصنها الله بدينه ، والمعلم بهذيبه ، والأب بسيرته ، والزمن بطوله . وهل في سادتنا وكبرائنا الذين أضلونا السبيل من لم يشد

شيئاً من العلم في المدارس ، ويدرك ذرواً من الأخلاق في الكتب ؟ ولكن علم هؤلاء بالحلال والحرام كعلم القاتل والصل ، لا يعصم النفس ولا يوقظ الضمير ولا ينفى الجهل ولا يمس الحياة العملية ! ... فنحن كما ترى مقضى على نهضتنا بالتثاقل ، وعلى أمتنا بالتخاذل ، حتى يصبح الدين قائماً ، والضمير حاكماً ، والعمل عقيدة ، والإحسان طبيعة ، والواجب مرعياً ، والتبعة مفروضة ؛ وحيثئذ ينتظم وضعنا الشاذ ، ويتسق وجودنا النافر ، وتنفق من الشلال مطايا الرجعية الذميمة !

* * *

قل لأولئك الذين أحرقوا روما وما زالوا يعزفون أناشيد الجحيم على أوتار نيرون ! ماذا جنى هذا الشعب الكريم حتى سفهتم حقه في الحياة ، وأضعتم نصيبه من الحرية ؟ كان في يديه دستور فأين ذهب ؟ وكان في طريقه استقلال فأين اختفى ؟ وكان في تاريخه ستة عشر عاماً حامية بالجهاد دامية بالضحايا فأين قطوفها المشتهة وحصائدها المرجوة ؟ ...

تصرفتم في حقوقه تصرف السفينة في المال المتروك ، واتخذتم من مرافقه وسائل للكيّد الأحمق وموارد للربح الخاص ، وجعلتم من أفراده المتحدين أولياء لا يعدوهم الإحسان ، وخصماء لا تُعْبَهُم الإساءة ، ونسيتم أن في البلد احتلالاً يقظ الرأي كلؤء العين يحصى عليكم الأنفاس ويتربص بكم الدوائر !

كان يقظان وكنتم غازين فدلف إلينا من جهتم ، واحتج علينا بخطئكم ، ثم ذبكم عن الحكم ذبّ البعوض ، وقبض بيديه العاريتين على سياسة البلاد ، ووقف الأمة المنكودة بين الحيرة والشك في عواقب هذا الفساد ! ...

ذِكْرَى الْمَوْلَدِ

ذكرى مولد الرسول هي ذكرى قيامة الروح وولادة الحرية ونشور الخلق ؛
فكأن مولده كان البعث الأول الذى طهر النفس وعمر الدنيا وقرر الحق
للإنسان ، كما أن البعث الأخير سيخلص الروح ويبتدىء الآخرة ويعلن الملك لله
كان العالم يومئذ يضرب فى رق المادة وعبودية الشهوة وسلطان القوة ،
فلم يكن للمثل الأعلى وجود فى ذهنه ، ولا للغرض النبيل أثر فى سعيه ،
ولا للشعور الإنسانى مجرى فى حسه ، ولا للسمو الإلهى معنى فى نفسه ؛ إنما كان
حيوانياً شهوته الغلب ، مادياً غايته اللذة ، أنانياً شريعته الهوى ؛ ثم أسرف
فى البهيمية حتى جعل كل أنثى مباحة لكل ذكر ، وفى المادية حتى اتخذ إلهه
من خشب أو حجر ، وفى الأنانية حتى قتل أولاده خشية الإملاق والضرر .
فلما أتى النبي العربى فتح فى غار حراء باباً إلى السماء ، تنزلت منه الملائكة
والروح على هذا الهيكل المنحل والجسد المعتل ، فنفتخت فيه سر الحياة ومعنى
الخلود وحقيقة الله . وحينئذ شعر سليل الأرض أن له أسباباً إلى السموات رتت
على طول غفلته ، وأن له حياة خيراً من هذه الحياة استسرى علمها فى جهالته ؛
فتشوف إلى الأفق البعيد ، واستشرف إلى السمات العالى ، وأرسل نظره وراء
النظر النبوى من فوق الجبل فى صمت حراء المفكر ، وفى سكون الوادى الملهم ،
وفى غيابة الفضاء الرهيب ، يفكر فى الملكوت الدائم ، ويسبّح للجلال القائم ،
ويغنى فى الوجود المطلق

كانت العقيدة قبل محمد أن تموت الروح أو يموت الجسم ، وأن يحكم الله أو يحكم الإنسان ، وأن يظهر الدين أو تظهر الدنيا ؛ أما تقرير الصلة بين المعنى والذات ، وبين المصباح والمشكاة ، وبين الحياة الأولى والحياة الأخرى ، وبين الإرادة السفلى والإرادة العليا ، فذلك هو القصد الإلهي من رسالة محمد ، والتنفيذ الحمدي لإرادة الله

وكان العالم قبل يوم محمد يرسف في عبودية عقلية تقتل التفكير ، وعبودية جسمية تعقل التصرف ؛ فلم يكن للأسرة نظام ، ولا للقبيلة قانون ، ولا للأمة دستور ، ولا للعقيدة شريعة ؛ إنما هو طغيان عاسف يتحكم في الفرد ويسيطر على الجماعة : فالأب يملك على بنيه الموت والحياة بحكم الطبيعة ، والشيخ يفرض على عشيرته الأمر والنهي بمقتضى العرف ، والملك يخضع نفوس الشعب باسم الدين ، والكاهن ينسخ عقول الناس بقوة الجهل ، والناس أجمعون عدا هؤلاء الأربعة أتباعٌ وأوزاعٌ وهمل

فلما بعث الرسول الكريم رحمة للعالمين بعث الحرية من قبرها ، وأطلق العقول من أسرها ، وجعل التنافس في الخير ، والتعاون على البر ، والتفاضل بالتقوى ؛ ثم وصل بين القلوب بالمؤاخاة ، وعدل بين الحقوق بالمساواة ، ودخل بين النفوس بالمحبة ، حتى شعر الضعيف أن جند الله قوته ، والفقير أن بيت المال ثروته ، والوحيد أن المؤمنين جميعاً إخوته ؛ ثم محاه الفروق بين أجناس الإنسان ، وأزال الحدود بين مختلف الأوطان ، فأصبحت الأرض كلها وطناً مشاعاً ، والعالم كله أسرة متحدة ، لا يهيمن على علائقها إلا الحب ، ولا يقوم

على مراقبتها إلا الإنصاف ، وليس فيها بين المرء وخليفته حجاب ، ولا بين العبد وربّه واسطة ...

يا رعى الله ذكراك المقدسة يا غار (ثور) ! لقد كنت مبعث الحرية ، كما كان غار (حراء) مبعث الروح ! فأنت في جبل الخلاص ، وهو في جبل التجلى !! ...

وكان العالم قبل مولد محمد يعانى تفكك الخلق وتحلل الرجولة وتغلب الأثرة وتحكم السفاهة ؛ فسطوة اليد تسرف على العدل ، وعصبية الدم تبغى على الحق ، وسلطان المال يجنى على الإنسانية ، وسورة الترف تعتدى على المروءة ؛ فالتجارة بخس وتطفيف ، والعهود نقض وتسويق ، والناس يعيشون عيش الوحش : تنافر وتدابر واحتيال واغتيال وشهوة ! ! فلما ظهر البطل العظيم والإنسان الكامل ، كانت شمائله وأفعاله رسالة أخرى فى الخلق : كان تطبيقاً لقوانين الدين بالمثل ، وتعليماً لآداب النفس بالعمل ، وتنظيماً لغرائز الحياة بالقدوة ؛ ثم فعلت شخصيته ودعوته فى نفوس رويت بالدماء ونقلت بالعداء وعاشت على الفرقة ، فألقهم على المودة وجمعهم على الوحدة ؛ ثم جعل لهم من كتاب الله نوراً ، ومن سنته دستوراً ، ورمى بهم فساد الدنيا فأصلحوا الأرض ومدنوا العالم وهذبوا الناس

ذلك ما تلقينه ذكرى مولد الرسول فى رَوْع المؤمنين العقول الذاكر ! فليت شعري ماذا يجد فى نفسه وفى قومه من روح محمد وحرية محمد وخلق محمد ! ...

ألسنا نعيش اليوم صوراً كقطع الشطرنج ، وأتباعاً كعبيد الأرض ، وهمجاً
كهمج الجاهلية ؟ وهل كان ذلك يكون لو أننا اتخذنا من أحكام الله منهاجاً ،
ومن كلام رسوله علاجاً ، ومن حياة السابقين الأولين قدوة ؟
إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام وطغيان
الحكام وسلطان الجهالة ، فما أجدر القلوب الواعية الحرة على اختلاف منازعها
ومشارعها أن تخشع إجلالاً لذكرى رسول التوحيد والوحدة ، ونبي الحرية
والديمقراطية ، وداعية السلام والوئام والمحبة ! ...

[١٠ يونيو سنة ١٩٣٥]



صيف الأريب

زفرت جهنم زفرتها السنوية كما تزعم الأساطير، فعقدت على وجهي (الوادي) غشاء من سموم ودخن . فالطبيعة في غلافها الناري مكبوتة ، والأرض من حُمّاها الصالب مسبوتة^(١) ، والناس من إلحاح القيظ متبلّدون هامدون يقابلون لفحه بجلد المضطر ، ويعالجون برّحه بصبر الشهيد ! ولكن الجلد يناع فهو عرق يتقطر ، والصبر يرفض فهو بخار يتصعد ، وبين هذا التقطير وذلك التصعيد نفس تذوب وجسم يذبل وعزم ينسرق وفكر يضمحل . فليت شعري ماذا عسى أن يعمل من اضطر إلى أن يعمل ؟ هذا مكتب الأديب الصحفي يشع الوهج كأتون القرن ، وينفث الضيق كحجرة السجن ، ويبعث القلق كغرفة الانتظار ؛ وهو مع ذلك مقضى عليه أن يفكر ويعبر ويرتب ويهذب ويقابل ويجادل ، حتى يهن عصبه ، وينقطع سببه ، فيعود إلى منزله المعلق في الجو الأغبر على زحمة الشارع وضوضاء العامة ، يطلب الهدوء فلا يجده ، ويلتمس النوم فلا يناله !

ليس له وأسفاه قصر يبسم بالنعيم وينسم بالعطر ويشرق بالجمال ويموج بالزهر ويتطرى بالماء ويمطى في الظل ويتبسط في السعة ويسبحو في الخفض ويعرق في السكون ويضرب حواليه نطاقاً سحرياً من الأحلام واللذة ، فيعود به من وقدة الجو ، ويلوذ به من مشقة العمل

وليس له وأسفاه مال يعبر عليه ثبج البحر ، ويرد به مدن الماء ، ويبلغ

(١) الحى الصالب : الشديدة الحرارة التي معها رعدة والمسبوتة : المغشى عليها

فوقه قرى الجبل ، فيسرى عن نفسه بعض عناء العام و بلاء الأيام بما يرى من
مفائق الطبيعة على الربى ، ومجالى الفردوس فوق السهول ، ومباهج المدنية
على الشواطىء .

وليس له وا أسفاه ما للأديب الموظف من المؤتمرات العامة ، والسيارات
التعليمية ، يغشاها فى منازحه أوربا أو ختائل لبنان ، فينال من زهرة الدنيا ومُتعة
العيش على حساب الدولة وعلى حب العلم

الطالب يعود فى العطلة إلى الريف ؛ والموظف الصغير يذهب فى الإجازة
إلى المصيف ؛ والموظف الكبير يجد من مرتبه فضلاً يشتري به السياحة والراحة
والبهجة ؛ والموظف الأكبر يُجشّم نفسه الكبرى (خدمة) للحكومة فى (الخارج)
فيؤديها على أتمها نائماً فوق صدور الأمانى ، حالمًا على هدهدة الأغاني ، هائمًا
وراء الخدمة المنشودة فى أودية الشعر والسحر ، ثم لا يكلف الخزينة العامرة
إلا بضع مئات لمكافأته ، وبضع كلمات لشكره ؛ والكبراء الذين يعيشون علينا
ولا ينتسبون إلينا ، يجمعون دم الفلاح الغالى فى حقاق من ذهب ، ويلفون لحمه
اللذيذ فى حقائب من حرير ، ثم يرحلون بهما إلى أسواق إبليس فى (مونت كارلو)
(و نيس) ، فيشترون بهما أبهة أشهر ، وعريضة أسابيع ، وغزوى عُمر !

إذن لا يبقى لسعير المصيف إلا الطبقة التى تنسج لهؤلاء جميعاً بُرد السعادة :
طبقة العمل الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يجدى على أهله إلا قوت يوم بيوم .
هى طبقة الموظف الأصغر ، والصانع المستذل ، والعامل المستغل ، والفلاح المهمل ،
والتاجر المدين ، والأديب المسكين ؛ فهم يعملون فى عطلة الناس — وأجرهم

على الله — حتى لا تسكن الدنيا ، وحتى لا يقف الفلك !!

أنشأت الأمة مصاييف لأطفال الفقراء ، وأعدت الدولة قطار (البحر) وقطار (الزهرة) لأنصاف الأغنياء ، فإذا أنشأت الأمة أو أعدت الدولة لمساكين الأدباء ؟ أليسوا رسل الحق والخير والجمال والمعرفة إلى من زهتهم السطوة فلبجوا في الباطل ، وأعمتهم الشهوة فتدققوا في الشر ، ولوهمهم الطمع فاطمأنوا إلى القبح ، وركبهم الغرور فجنحوا للجهالة ؟ أليسوا أحرى بأن تقيم لهم الحكومة (جبل البرناس) على بقعة من ضفاف النيل أو على رقعة من شواطئ البحر ، يستجمون عليه من الإعياء ، ويتصلون فيه بالسماء ، وينشدون الأمة من روائع الوحي أجمل مما أنشدته (الموز) التسع آلهات الآداب والفنون على قيثارة إله الشعر والبلاغة أبولون ... ولكن رويدك يا أشعب !! إن الحكومة التي لا تشترك في مجلة الصحفي إلا بعد طلب ورجاء ، ولا تشتري نسخاً من كتاب الأديب إلا بعد أخذ وعطاء ، يشق عليها أن تقيم (جبل البرناس) على مثل هذا الأساس !

على أن الخيال عالم والحقيقة عالم آخر ، والأديب حريص على ألا يسبح في عالمه غيره ، فلماذا يمد عينيه الرغبتين إلى عالم الناس ؟

إن في ليالى القاهرة الساحرة الرخية لرضى للنفس الشاعرة : سماء كصفحة الأمل المشرق تتألق بالأنوار ، وفضاء كغيب الله يموج بالأفكار والأسرار ، ونسيم كأجنحة الأملاك يذهب عن الأجسام رهق النهار ، وجنات الجزيرة ، وخلوات الجزيرة ، ومسرات الجسر ، ومسارح النيل ، تخلق في ذهن الخصب والشعور الفتان ، ما لا تخلقه جنات سويسرا ولا رياض لبنان !

مقدم الشاب الصالح

عرفت منذ أيام فتى غريص الشباب رقيق الإهاب وضئ الطلعة ؛ يتكلم فيشع عقله في معانيه ، ويشيع ذكاؤه في مراميه ، ويسميل شعوره على ألفاظه . وهو لا يتكلم إلا عن العمل ، ولا يناقش إلا في الواقع ، ولا يرمى إلا إلى غرض . طموح النفس فلا يحصر أفعه يأس ولا يحد غايته مطلب ؛ بعيد الهمة فلا يضلله شارد الخيال ولا يغره خادع الأمل ؛ رفيع الهوى فلا يشوب غرضه سوء ولا يفسد طموحه أثره . نبت في أكرم المنابت من إقليم الغريبة ، فأبوه عميد أسرته وزعيم بلدته وسرى نابه من سرة إقليمه ؛ رباه في مهد النعيم ونشأه في ظلال الغنى وقلبه في أحضان الترف ؛ فكان خليقاً أن يمسه الغباء وهو داء الغنى ، وأن يصيبه الخمول وهو بلية الترف ، ولكنه لقوة الطبع واستعداد الفطرة شب ذكى الفؤاد إلى درجة الحكمة ، مشبوب العزم إلى حد المغامرة . يذهب بنفسه غالباً إلى الاعتداد الوائق ، ويميل بحيائه أحياناً إلى الجرأة المؤدبة ، وينظر إلى غاية الحياة — وهو لا يزال في بدايتها — نظر الكيس اللبيب المحرب ، فيهاجم السياسيين من ناحية استخفافهم بالخلق ، والموظفين من جهة استهانتهم بالواجب ، والفلاحين من حيث اعتمادهم في الإنتاج على القديم الرث ، وفي العلاج على القدر والمصادفة . على أنه أمام أبيه — وهو قرة عينه — مثال البر ورمز الطاعة ، فلا يفند له رأياً ، ولا يعصى له أمراً ، ولا يخالف له نصيحة

تخرج منذ أسبوع في إحدى المدارس العالية ، وكان الثانى في ترتيب الناجحين ، وإن شئت فقل الأول ، لأن الفرق بينه وبين سابقه لا يقدم

لضآلته ولا يؤخر ، فالوظيفة بحكم أوليته في النجاح ومعونة أسرته بالنفوذ تنتظره في كل مكان وتطلبه في كل وزارة ، ولكنه زارني منذ يومين فوجدته على غير عادته مشغول القلب منقبض الصدر مشترك الخاطر ، لا أثر عليه لنشوة الفوز ولا للذة الراحة ولا لفرحة المنصب ، كأنما هو آخر الدبلوم أو فقير متقدم من غير وسيلة !

— مالك ساهم الوجه مكروب النفس يا فهمي ؟ هنيئاً لك الدبلوم والأولية ! فقال والأسى يبين في صوته ولهجته : ليتني لم أنل هذه الدبلوم ولم أحز خطر هذا السبق ؛ فلقد كان في لذة المدارس وشهوة المنافسة وترقب النجاح وانتظار الحرية ، رضى لنفسى الطامحة ، وكفاية لقلبي الرغيب . أما الآن فالقراغ يثقل حتى يقتل نفسى ، والوقت يطول حتى يَمُكُّ رُوحى ، والأمل يضيق حتى يُظلم حياتى ! أريد أن أعمل فيمنعنى أبى ، لأنه يضمن بصحتى على مخاطر الفلاحة ، وبراحتى على متاعب الفلاحين ، وبسعادتى على هموم المسؤولية — إذن ماذا يريد لك أبوك ؟

— يريد لى الوظيفة ! والوظيفة سجن لنفسى الطليقة ، وتعطيل للمسكاتى الموهوبة ، ومحو لمعارفى المكسوبة ، وقتل لآمالى الناشئة ، وتوجيه لميولى الطبيعية إلى الغرض الذى لا أحب والقصد الذى لا أريد

إن فى مزارعنا الواسعة مجالاً فسيحاً لنشاطى ، ومَرَاداً بعيداً لعلمي ، ومختبراً صالحاً لتجاربى ، ومغرساً كريماً لآمالى ؛ فأنا أؤثر أن أحمل عبء العمل عن والدى ، وأستغل علمى وعملى فى تحقيق مقاصدى ، فأحافظ بالاستقلال الذاتى على خلقى وحرىتى ، وأساهم بالعمل المنتج فى نفع أمتى وإسعاد أسرتى ماذا تجدى على الوظيفة ؟ عشرة جنيهات فى الشهر ؟ لقد كان أبى ينفق

على خمسة وعشرين وأنا طالب ، فكم جنيهاً ينفقها علىّ وأنا موظف ؟ إذن سينفق علىّ أضعاف مرتبتي لأخدم غيره وأفارق بيته ، وأظل السنين الطوال موظفاً وضيع المكانة ، مسلوب الإرادة ، محدود الرزق ، خامل الحياة !

إن شهادتي في فن الزراعة ؛ والوظيفة الفنية كالوظيفة العلمية لا تصلح طريقاً إلى السلطان ولا وسيلة للجهاد ولا أداة للثروة ؛ إنما الفن مجده في استقلاله ، وخيره في حريته . على أن وظائف الحكومة — بعد أن خفضوا أجرها ، وأخسّوا قدرها ، وحفّوا طريقها بالمكاره ، وهددوا معاشها بالنقص ، وزعزعوا ضمانها بالكيد ، وروعوا أمنها بالسياسة — أصبحت مطلباً لقصار الآمال ، ومذهباً لصغار النفوس ، وملجأ لضعاف الحيلة . فأما الذي يجد في نفسه شعور القدرة ، وفي بيته رأس المال ، وفي أرضه مكان العمل ، ثم يتشوف إلى قيد الوظيفة وذل التبعية ، فلا أدري بم أعترض له أمام النبيل والرجولة ؟

فقلت له وأنا موزع النفس بين الإعجاب به والثناء له والحذب عليه : كلامك هذا يا بني عنوان عقلك وبرهان فضلك ودليل دعواك . وليت شعري ما حجة أبيك الكريم أمام هذا الخلق العظيم والمنطق الواضح ! لعله من أولئك الذين يعتقدون أن الولد إذا دخل المدرسة ثم خرج بالشهادة ثم لم يوظف ، كان ما أنفقه خسارة لا تعوز ، وما تعلمه عبثاً لا يفيد !

فقال : كلا ! إن أبي من أرجح الناس عقلاً ، وأسدهم رأياً ، وأعلمهم بمزايا العمل الحر ؛ ولكنها التقاليد الموروثة ، والعواطف الغالبة ؛ وسأنتهي آخر الأمر على رغم هواي ومنأي إلى رأيه . فقلت له : إذن دعني على الأقل أقل عنك هذا الحديث ليكون خطاباً إلى أبيك ودرساً لإخوانك وموضوعاً للرسالة !

كَلِّكُمْ حَوَارِئُونَ فَمِنْهُمْ ذَا ؟

لا تسمع من أى إنسان فى أى مكان إلا تذمراً على حال المجتمع ، وتضجراً من نظام العيش ، وتضوراً من فساد الحكم ، وتحسراً على أخلاق الناس ! فما من سياسى تلقاه إلا رأيته لهيف الجوانح ذاهب القلب ، لا يملك عينه من الدمع ، ولا قلبه من الوجد ، ولا لسانه من هذه الشكاة : أضاعوا استقلال البلاد ، ووأدوا دستور الأمة ، ونشروا بخططهم على الشعب سوء النبأ ! فقد كان لنا بجانب « الاحتلال » مكان ، ومع « دار الاستشارة » رأى ، وقبل نفاذ الأمور كلمة ، وفوق كل اعتبار كرامة ؛ وكان لهذا كله على ضآلته وهزاله ثمن فادح مرهق ، أديناه ضحايا برة من أرواح الشباب فى ساحة الجهاد ، وملايين تسعة من أموال الأمة فى « قانون التضمنات » ، ثم أصبحنا وإذا المكان خلاء والإشارة أمر والكلمة رجاء والكرامة ضراعة !

أجل ! يقول كل سياسى هذا الكلام ، ويلوم هذا الملام ، حتى أولئك الذين قتلوا بأيديهم الدستور أمس ، سيكون عليه اليوم بأربعة آماق ، لأن الإنجليز أكرموا فدفنوه !

وما من موظف تراه إلا حدثك والهم يعتلج فى صدره ، والأسى يتلظى على وجهه : كيف تحكمت الحجابة فى دوائر الحكم ، وفشا التواكل فى دواوين الحكومة ! « فالشهادة العالية » فى التعيين زور مع التوصية ، والكفاية البارعة

فى الترقية خرق مع الهوى ، وحسن العمل فى سبيل الحظوة جناية مع سوء الحظ .
ثم ترى « الأقلام » غاصة بالكتابة ، والمكاتب مكتظة بالأضياع ، والوزارات
مزدهمة بالسائلين والمستعجلين ، والأوراق الحائرة تنتقل من يد إلى يد ، وتخرج
من مكتب إلى مكتب ، وترحل من بلد إلى بلد ، لأن « التواكل » الماهر قضى
على كل كاتب أو حاسب أن يزيج همها عن نفسه ، ويخرج حكمها من اختصاصه ،
فتلبث على هذه الحال بين الحل والترحال شهوراً وسنين ، وهى مع الجدل لا تستغرق
تفكير لحظة وعمل ساعة !

يقول كل موظف هذا الكلام ، ويتهم هذا الاتهام ، حتى أولئك
الطفيليون الذين عينوا لقبض المرتب ، وظلوا على الشيوع من غير عمل ولا مكتب !

وما من أديب تخلو إليه إلا نثر عليك دموع الخنساء ، ونظم فى مسمعيك
تشاؤم أبى العلاء ، وسألك وهو متبلد من الحيرة ، متلدد من الدهش : متى كان
البذاء من الأدب ، والهجاء من النقد ، والادعاء من الفن ، والتقليد البهيم من
العبقرية ، والكيد اللئيم من الصحافة ؟

كان الأدب سبيلاً بين الله والنفس ، وسلاماً بين الروح والجسم ، ولساناً
بين الجمال والحس ، ودليلاً بين الهوى والخير ، ونسباً بين القراة والبعد ، فأصبح
كما ترى سبباً من أسباب العداوة ، وسبيلاً من سبل الفرقة ، وبوقاً من أبواق
الفتنة ، ومظهراً من مظاهر الجهالة !

يقول كل أديب هذا الكلام ، ويلقى عليك هذا الاستفهام ، حتى أولئك

السفهاء الذين يلبسون ظلمًا مسوح الأدب ، ثم يلتمسون الظهور بالوقية في كل من كتب !

وما من رجل من رجال الدين تجلس إليه إلا قال لك ودموع الحسنين^(١) تنهل على رُذنه العريض انهلال القطر : لم يبق للدين في هذه الدنيا سلطان ، ولا للخلق في هذه الفوضى مكان ، ولا للفضيلة في هذه المادية قيمة / ولقد استشرى فساد العصر حتى نال من تقوى العلماء ، فأصبحوا يأنفون من الورع ، وينفرون من البساطة ، ويتأهبون عن العامة ، ويمدون أعينهم لشهوة الحياة ، ويذهبون أنفسهم على فتنة الحكم ، ويتخلون عن الدعوة إلى سبيل الله إلى الدعوة إلى أهواء الفرد !

يقول كل عالم هذا الكلام ، ويهتم هذا الاهتمام ، حتى أولئك الضعفاء الذين اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا ، وجعلوا من نفوسهم إلى الباطل سبيلًا ودليلاً !

وما من تاجر تعامله ، أو صانع تقاونه ، إلا ابتدرك بالزراية على الذين نفقوا على الغش ، وأثروا على الخداع ، وسلبوا ثقة الشعب باسم الأخوة ، وسرقوا مال الجمهور باسم الوطن ، حتى جعلوا التجارة والصناعة فيما بينهم وبين الناس معنى من معاني النهب ، وحيلة من حيل الشطارة ؛ فأنت تدخل المتجر أو المصنع وفي حسك لا محالة أنك مغبون في السعر ، أو مخدوع في النوع ، أو مظلوم في التقدير !

يقول ذلك كل تاجر وكل صانع حتى أولئك الذين قضى عليهم موت الضمير

أن يصدّقوك فى البيع ، ويكذبوك فى التسليم ، ويعاهدوك على نوع فيغيروه ،
ولا يزيد رجّعهم من غشه على مليم !

وهكذا تسمع هذا السخط الحاقد والنقد اللاذع والتعريض الممض والزراية
الساخرة من كل لسان فى أى طبقة ، وفى كل حديث فى أى مجلس ، فتقف
موقف المشدوه بين العجب والغضب وتسال :

إذا كنتم يا قوم جميعاً حَوَارِيّين ، فمن الذى خان الوطن بدوانقه الثلاثين ؟
كلكم يلوم فمن الملووم ؟ وكلكم يتهم فمن المجرم ؟ ...

وعظ مالك بن دينار عظةً تقاطرت عليها دموع أصحابه ، ثم افتقد مصحفه !
فنظر إليهم وكلهم من أثر كلامه لا يملك عينه وقال : ويحكم ! كلكم يبكى فمن
سرق المصحف ؟

[أول يوليو سنة ١٩٣٥]



الشيخ محمد عبده

— ١ —



« عجب عجيب !! شيخ يلبس
حُلة مقطوعة الكم ، ضيقة الرُدف ،
مُبَنَّقَة الجيب ^(١) ، ويعتم على طربوش
كطرايش الأفندية ، وينتعل حذاء
كأحذية الفرنجة ، ثم يتكلم الفرنسية
ويصاحب الخواجات ، ويغشى بلاد
الكفر ، ويترجم كتب أوربا ، ويأخذ
عن جمال الدين ، ويدرس المنطق على

رغم ابن الصلاح ، ويريد أن يُدخل في الأزهر علوم المدارس ، ويشغل بالأدب
وينشئ المقالات للصحف ؛ ثم يحرم « الدوسة » ، وينكر الوسيلة ، ويحلل
الموقودة ، ويسوغ لبس القبعة ، ويجيز الربا في صناديق التوفير ، ويحاول الاجتهاد ،
ويفسر القرآن على غير طريق السلف ... !!

نعوذ بالله من شر هذه الحنة وعواقب هذه الفتنة ، ونسأله أن يقبضها على
منهج السنة وعقيدة الجماعة ... »

هكذا كان يقول جمهور « العلماء » في صحن الأزهر حين انبلج نور الإصلاح
من جبين محمد عبده كما كان يقول مشركو قریش في فناء الكعبة حين انشق

(١) بنق القميص : جعل له بنيقة (ياقة)

نور الهدى من غرة محمد رسول الله ! ذلك لأن دعوة الدين فجأت الكعبة على دنيا مقلوبة الأوضاع فى الأخلاق والطباع ، فقال الناس حين رأوا رجلاً رأسه فى السماء ورؤوسهم فى الأرض : أنظروا كيف يريد أن يبدل نظام الكون ويغير خلق الله؟! وكذلك دعوة الإصلاح باغتن الأزهر على سكون كذهول البلبه، وخمود كغشية الموت ، واستغراق كخدر الأفيون ، من طول ما تنكرت له الأحداث ، وطغت عليه البدع ، وعثت فيه الجهالة ، فارتد إلى مثل تكايا الصوفية أو صوامع الرهبان ، يقطع أهله عن الناس ، ويجرى بهم إلى الخلف ، ويعيش معهم فى الماضى ، ويجعل المثل الأعلى لرجل الدين أن يتوفر على مسائل الفقه ، ويتقيد بأراء السلف ، ويتعبد بألفاظ الموتى ؛ فلما نبههم الإمام محمد عبده إلى أن الدين للدنيا وأن العلم للعمل ، والعلماء إنما يخلفون الأنبياء ليظل أثر الدعوة شديداً وحبل الدين جديداً وخلافة الله قائمة ، فتحوا أعينهم على رجل يخالف سمته سمّت البيئته ، ويبين زيه زى القوم ، ويناقض رأيه رأى الخلقه ، فاستوحشوا من ناحيته وأنكروه ، ثم قالوا معتزلى مبتدع !

قال الأستاذ الإمام وهو ينفذ باسم ما حثوه على عطفيه من الظنون والتهم : لا صلاح للدين إلا بصلاح الأزهر ، ولا قيامة للدنيا إلا بقيامة أهله ! ثم استعان على خصومه بالإحسان والنصيحة والصبر حتى آمن من آمن وهادن من هادن ، فوضع يمينه فى أيديهم ، ويسراه فى أيدي أولئك الذين فتهم الغرب فأنقضوا رءوسهم إلى مدنية الإسلام ، وذووا وجوههم عن ثقافة العرب ، يحاول أن يصل بين الثقافتين ، ويوفق بين العقليتين ، ويجعل من هؤلاء وهؤلاء وحدة متسقة

الفكر ، متفقه الهوى ، متحدة الغرض ، تؤلف بين الدين والعلم ، وتقرب بين الشرق والغرب ، وتصل بين الماضى والحاضر ؛ فنجس على قدر ما ينجح الأنبياء والمصلحون فى إبان الدعوة ، يهيئون الأرض فى رجف من الخصومة ، ويبذرون البذر فى عصف من المعارضة ، ثم ينفثون فى أتباعهم القليلين المخلصين أرواحهم الخالقة وقواهم الخارقة ، ليكونوا من بعدهم أوصياء على الغراس وشهوداً على الناس وأدلاء على المحجة .

لا ريب أن الإمام محمداً كان من أولئك الاعلام المصطفين الذين يوضح الله بهم طريق الإنسانية من قرن إلى قرن . وأخص ما تميزهم به الطبيعة متانة الخلق وصلابة الرجولة ، وشدة الأسر ، وقوة الحيوية ، وحدة الذهن ، وصفاء الملكة . ورث عن أبيه وثاقة التركيب ، وشجاعة القلب ، فشب نابياً عن الضعف ، آيياً على السكون . يريد أبوه أن يكون تلميذاً كليلاته فى المكتب ، فيأبى هو إلا أن يكون زارعاً كاخوته فى الحقل ! ويرسله أبوه إلى المعهد الأحمدي يطلب العلم ، فيفر منه إلى مدارج السبل يطلب الفلاحة ! لأن حفظ القرآن وحملته الفقه كانوا موضع العطف من القلوب لقلة الكسب وضعف الحيلة ؛ وحيويته تأنف الحمود ، وحرية تأبى القيود ، ورجولته تعاف الشفقة .

ثم لجأ إلى الشيخ درويش خال أبيه ، وهو صوفى عالم من أهل البحيرة سار فى الأرض حتى بلغ طرابلس الغرب ، فأخذ الشريعة والطريقة على السيد محمد المدنى ؛ والتصوف فى المغرب يقوم على ذكر الله بالاستحضار ، وتلاوة القرآن بالاستذكار ، ورياضة النفس بالتأمل . فأخذ يروض جموح طبعه بالصلاة ،

ويلطف مُحِيًّا شبابه بالذكر ، ويطفي غليل قلبه بالدرس ، حتى فتح السبيل بين نفسه وبين الوجود الأبدى والكمال المطلق .

ثم اتصل بالسيد جمال الدين فتولى عقله يتفقه بالمنطق ويكمّله بالحكمة ويقويه بالملاحظة ؛ فكان لهؤلاء الثلاثة : أبيه مربى جسمه ، وشيخه مربى روحه ، وأستاذه مربى عقله ، أبلغ الأثر في تكوين صفاته وتوجيه حياته وتبليغ رسالته ...

— ٢ —

تولدت حيوية الإمام القوية من جبلة أبيه الحرة في « محلة نصر » ، وتكونت نفسيته الدينية من صوفية خاله النقية في « كنيسة أورين » ، وتفتحت عقليته العالمية في شمس جمال الدين المشرقة بالقاهرة ؛ فكان سر الوراثة يُجريه في الاعتقاد على الإخلاص ، وفي العزم على المضاء ، وفي القول على الصراحة ، وفي العمل على الجرأة ، وفي الحياة على التمرّد . فالقلق المقدس الذي يشبه في الحكاء الأرهاص في الأنبياء ، كان لا يفتأ منذ حداثة الشيخ يساوره في كل هم يحاوله وعمل يزاوله وموضع يستقر فيه . وذلك القلق مبعثه في المصلح صفاء النفس ولطف الحس وحدة الفطنة ، فهو وحده يدرك النقص فيروم الكمال ، ويلحظ الخطأ فيطلب الصواب ، ويسأم الركود فيبتغي التحول . ولذلك كان الإمام لا يُكره طبعه على حال ، ولا يلبس سمعه على رأى ، ولا يملك لسانه عن نقد ، ولا يكف عزمه عن تغيير ، ولا يخلز جهده عن إصلاح

دخل المعهد الأحمدى فبرم بالتعلم لفساد الطريقة وسوء الكتب ، فكان وكده طول عمره أن ينعش الدين من هذا الخمود ، ويخرج الأزهر من هذه

الفوضى ، وينقذ الطلاب من هذا العنت . وظهرت مقالاته في (الأهرام) وهو لا يزال في صدر الطلب تحمل دعوة هذا العقل المتجدد المتمرد إلى العلوم العقلية والمعارف العصرية والأدب المنتج . ثم تولى رئاسة المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية فثار على الأساليب الكتابية في الدواوين ، والتقاليد الإدارية في الحكم ، والبدع الفاشية في الدين ، والعادات المنكرة في المجتمع . وكانت مقالاته في (الوقائع المصرية) دستوراً للغة ونظاماً للكتابة ومنهاجاً للفضيلة ، قام على نفاذها سلطان من شجاعته وقوة من نفوذه

ثم شايع العرابيين في الغضبة المصرية الأولى مشايعة البصير الحازم ، فأعقبته النفي إلى سورية . وهناك دله ذلك الشعور النبوي فيه على ما جره سوء سياسة السلطان من انفراج الحال بين الأديان ، وجفاف الثرى بين الإخوان ، فوضع دستوراً لإصلاح التعليم الديني قدمه إلى شيخ الإسلام ، ومشروعاً لإصلاح القطر السوري قدمه إلى والي بيروت . ولو أخذت بهما الحكومة العثمانية لكان شأنها غير ذلك الشأن ، وعاقبتها غير هذه العاقبة

ثم اتسع أفق تفكيره وانفسح مدى نظره ، فراعه حال المسلمين من قناعتهم بالبدون واستناعتهم إلى الهون وقعودهم عن مسيرة التمدن ، فوافى الأفغانى إلى باريس ، ودعا في مجلة (العروة الوثقى) أشتات الأمة إلى الوحدة ، وأموات الجهالة إلى البعث ، وأسرى العبودية إلى التحرر

ثم ولوه بعد العفو عنه القضاء ، فلام بين الأحكام المدنية والدينية ، وساوى في النظام بين المحاكم الأهلية والشرعية ، وارتجل لهذه من الإصلاح ما حقق من وجودها النفع ، وجدد في قضائها الثقة ، وضمن لقضاؤها التنفيذ !

ثم عاد فحصر إصلاحه الداخلى والخارجى والدينى والمدنى ، فى إصلاح الأزهر ، لأنه منشأ الدعاة والهداة والقضاة والمعلمين فى مصر وغير مصر ؛ فإذا قلبه على الوضع الذى يريد ، فقد وضع المسكواة على أصل العلة ، واختصر الطريق إلى بلوغ الغاية ؛ ولكن أبالهب وأشنعاه فى الأزهر وفى قصر الخديو أرادوا وأأسفاه أن يطفئوا بأفواههم نور الله ، فأطفأوا بكيدهم سراج حياته !

ذلك سر الوراثة الفلسفية عن أبيه القروى الفقير الباسل . أما سر الوراثة الروحية عن خاله التقي العارف ، فهو رجوعه إلى مشارع الدين الصافية وعقائد القرآن الأولى . قال ذات يوم لخاله : ما طريقتكم ؟ قال : الإسلام . قال : وما وردكم ؟ قال : القرآن . فلم يتبع منذ يومئذ غير سبيل المؤمنين ومنهج الأئمة : أيقظ همه للإسلام فقرب عقائده من الأفهام ، وقطع عنه السنة المبشرين والمستعمرين بالأدلة النواهض والحجج الملمزة ؛ وجعل عزمه للقرآن ففاز منه برياض موفقة وأعلام بينة : فبراهين قضاياه من قواعد ، وبينات دعاواه من شواهد ، ومضامين عبقرياته من هديه ، وأفانين بلاغاته من وحيه ، وعناوين مقالاته من آيه ؛ فكأنه رسول الرسول ظهر فى عصر العلم الشاك والمدنية الملحدة ليكشف عما غيب الله من نور الكتاب وسره !

أما سر الوراثة العقلية عن أستاذه الحكيم الثائر ، فهو ذلك النفوذ البعيد فى علوم الفلسفة ، والبصر الشديد بضروب المعرفة ، والإلمام المحيط بثقافة العصر ، والعلم الواسع بقواعد العمران وتاريخ الأديان وطبائع الشعوب وأخبار الأمم . وسر النتائج فى هذه الوراثة الثلاث : طبع ذكى ، ونبوغ فطرى ، ونفحة

فالمجالس تُشيع حر الكلام ، والصحف تذيع بارع النقد ، والخطويون يتخذون من الأدباء ندامى ومن الشعراء بطانة ؛ حتى قرى نفس حافظ وأنداده من ناشئ الشباب الطامحين أن الأدب كان سبيل الثراء (لليثى) ، وسبب المجد (للبارودى) ووسيلة الزلفى (لشوقى) ، فتجهز لهذه الغاية بجهاز هذه البيئة ، فروى رقائق الشعر ، وجمع مقطعات الحديث ، وراض نفسه على معاناة القريض

كان عمر حافظ سنتين حين توفى أبوه فقيراً فى (ديروط) ، فنشأ فى مهد اليتيم والعُدم لا يجد حانياً غير أمه ولا كافياً غير خاله ، فجاز مرحلة التعليم الابتدائى فى ضيق وشدة . ثم قضى بضع سنين فى طنطا متبطلاً يُزجى فراغه بالقراءة ويدفع ملاله بالقريض . ولم يستطع خاله لسبب ما أن يجلو عنه غمة البائس وذلة اليتيم ، فكان لا يفتأ متبرماً بالعيش ، متأفقاً من الناس ، متجنباً على القدر ، لا ينشئ الشعر إلا فى ذاك . ثم دفعته الحاجة إلى مكاتب المحامين — وكانت يومئذ مفتحة الأبواب لكل داخل — فتبلغ^(١) بالعمل فيها حيناً ، حتى أسعفته القرص فدخل المدرسة الحربية ، وهى مطمح بصره وحديث أمانيه . ثم خرج منها ضابطاً إلى السودان ليشهد صلف الانجليز وضراعة المصريين ، فيثور مع إخوانه الضباط على جور المحتل وفضول الدخيل ، فينفى فيمن نفى من السودان والجيش

عاد حافظ كما كان يضطرب فى الحياة النابية المهمة ، لا يستريح لعمل ولا يستقر على أمر ولا يتشوف إلى غاية ؛ لأن طفولته الشاردة المهمة طبعته على الكسل والملل والتشاؤم والوحشة ؛ ولأن عقيدته التقليدية الخاطئة بأن الشعر

(١) تبلغ بالعمل : عاش به عيش الكفاف

وحده يشغل الحياة ويبسط الرزق ويكسب الحقوق ، أحيته على نمط مسلم
ابن الوليد وأبى نواس وأضرابهما ممن عاشوا صنائع الملوك وحائل على الجوائز
ووسائل للهو ؛ فأبى الوظيفة وهى على حبل ذراعه ، وآثر أن يعيش فى ظلال
الإمام محمد عبده ينتفع بجاهه وينبىء إلى رفده ، ويفشى مع ذلك أبهاء النعمة
يسامر أهلها بعذب حديثه ، وينادهم برقيق شعره ، ثم يتطلع الحين بعد الحين
إلى صلات القصر فيحجبه عنها شاعر الأمير بحوله وقوله

ومن دأب الشعراء الكاسبين بالشعر أن يبدروا إلى حد السفه إذا عاشوا
للحاضر كصريع الغواني وابن هانى ، وأن يقتروا إلى حد الكزازة إذا عاشوا
للمستقبل كأبى العتاهية والبحترى ، ومن الأولين كان حافظ !

تمتلى يده بالمال اليوم فتعتريه حال من البرم والقلق لا تنفك عنه حتى يتلفه
كله قبل الغد على إخوانه الكثيرين من طرائد البؤس وصرعى الأدب ؛
ثم يطارحهم بعد ذلك على مقاعد القهوة الشعر الباكى فى لؤم الزمان وظلم الإنسان
وشقاء الأديب !

قطع حافظ مراحل عمره على هذا المنهج البوهيمى لا يدخل فى نظام ،
ولا يصبر على جهد ، ولا يرغب فى عمل ، ولا يطمئن إلى تبعة ؛ وإنما يضطرب
نهاره من قهوة إلى قهوة ، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس ؛ وأينما كان كان
الأنس الشامل والظرف الناصع والأدب الغض والحديث المشقق الذى يمتزج
بالروح ويغمر بالنشوة جوانب النفس

تقوضت أسرة حافظ وهو فى المهد ، فشب وحشى الطبع معرّى الغريزة
لا يتضح فى نفسه معنى المنزل ، ولا تجرى فى حسه شعور الأسرة ؛ ثم وقفت

به قناعته الشاعرة عند الحد القريب من معالجة الأدب ، فقصر جهده على صوغ الشعر في المناسبات ، وجمع النوادر للسمر ، حتى بلغ من ذلك مكاناً لا يتعلق به ذرٌّ ؛ ولكنه حين أُريد على ترجمة البؤساء وكتاب الأخلاق ، ووكالة دار الكتب ، أدركته علة النشأة فقعدت به عن التمام وخذلته عن الإجابة وشلته عن العمل . . .

— ٢ —

كان حافظ في ميعة شبابه يطلب الثروة على قدر طموحه ، والحظوة على قدر نبوغه ؛ ولكنه طلبهما من طريق الحق الذي يدعيه كل شاعر على الناس ، لا من طريق الواجب الذي يؤديه كل إنسان إلى المجتمع . فلما أخفق بالطبع لم يرد أن يعيش كما يعيش سائر الناس على العمل الميسور ، وإنما ارتد ارتداد الأنوف المحتج إلى الفلاحة الشاعرة الصابرة ، يحمل بؤسه على « حرفة الأدب » كما يحمل المؤمن رزقه على حكمة القدر . ثم عاش عيش الطائر الغرد : عمره ساعته ، ودنياه روضته ، وشريعته طبيعته ، ودأبه أن يطير في الغيم والصحو ، ويشدو في الطرب والشجو ، ثم يسقط على الحب أينما انتثر !

ولقد كان من جريرة هذه الحياة النابية العقيم التي حيَّها حافظ أن قتلت فيه الطموح فلم ينشط إلى سعى ، وأذهلته عن الغاية فلم يسر على مبدأ ، ووقفته على الشاطئ فلم يتعمق في فلسفة ، وشغلته عن الدرس فلم يتكامل بثقافة . كان مبدؤه الأدبي مبدأ اليوم ، كما كانت حياته المادية حياة الساعة : رأى الآمال تتهاوت حيناً من الدهر على أريكة الخديوية في مصر وغرش الخلافة في الآستانة ، فجرى لسانه بالشعر المطبوع في مدح عباس وتمجيد عبد الحميد . ثم اتصل بالإمام

وشيعته من سراة البلاد وشيوخ الأمة ، ولهم يومئذ في الإنجليز رجاء موصول
وظن حسن ، فصدرت عنه في هذه الفترة قصيدة في رثاء الملكة فيكتوريا ،
وقصيدة في تتويج الملك إدوار السابع ، وقصيدتان في وداع اللورد كرومر .
عبر بهما عن الرأى السياسى الأرسقراطى فى ذلك الحين . ثم خلص للشعب ، فلابس
دهاءه وخالط زعماءه ، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة إلى لواء مصطفى كامل ،
فمزج شكواه بشكوى البلاد ، وضرب على أوتار القلوب أناشيد الجهاد ، ونظم
أمانى الشباب من حبات قلبه ، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره . ثم عطف
عليه الوزير الأديب حشمت باشا فأكرمه بالعمل فى (دار الكتب) ، وأجزل له
الوظيفة طمعاً فى مواهبه وثواباً على فضله . ولكن الشاعر حمل الوظيفة على باب
المكافأة المفروضة ، فاستراح للخفض ، واستنم للذعة ، وفتر عن قول الشعر
إلا مدفوعاً إليه من فترة إلى فترة . فلما خرج على التقاعد انضوى إلى أعلام
(الوفد) ، واتصل بالزعيم سعد اتصال النديم ، وحاول أن يبعث فى نفسه الشعر
الوطنى ولكنه كان قد أضنى (١) . . .

وكان فكر حافظ فيضَ الشعور وعفو البديهة ، ينشأ فى الكثير الغالب
من آراء المجالس وأقوال الصحف ومخزون الحافظة ، فلم تُعنه حياته على التروية ،
ولم يدعُه اضطرابه إلى التأمل ، ولم تطلقه قيوده إلى الطبيعة ، وإنما ظل صنعة
لوحى البيئة وإلهام الفطرة وتوجيه المناسبة . فهو فى قصائده للإمام يذكّر تعلق
الناس بالأباطيل ، وتهالكهم على عبادة الموتى ، ولا يزيد فى ذلك على نقد الإمام
ونعيه . وفى قصائده لقاسم أمين يذكّر الحجاب والسفور بما لا يخرج عن مذهبه

(١) أضنى الشاعر : انقطع شعره

ورأيه . وفي قصيدته التي أنشدها في احتفال مدرسة البنات ببور سعيد يتكلم في تعليم الأم وسفور المرأة وعيوب الجماعة بما لا جديد فيه . وفي قصائده التي نظمها في مشروع الجامعة المصرية الأهلية وافتتاحها يجمل ما فصلت الصحف من الموازنة بين الإكثار من الكتابات وإنشاء الجامعة . وفي رثائه لتولستوى يذكر السلم والحرب والخير والشر والغنى والفقر بما لا يبعد عن تناول الناس ولا يرتفع عن مستوى الجمهور . من أجل ذلك كان فكره مستقيماً لا ينحرف ، وواضحاً لا يلتبس ، وسديداً لا يطيش . والسرفيه اعتماده على قوة الإجماع ، لا على غرابة الإبداع ...

وكانت ثقافة حافظ ثقافة الشاعر العربي الأول : يتزود لمجالس الملوك بالأخبار والطرف ، ولحافل الأدباء بالأشعار واللغة ؛ ويستعين على ذلك بسلامة الذوق ، وصفاء الطبع ، وقوة الحافظة ، وكثرة الاطلاع ، وجودة الاستماع ، وإلحاح الحاجة . وحافظ في كل أولئك موضع منفرد ومكان بارز !

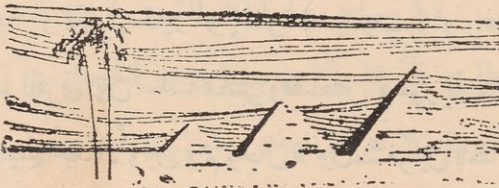
عكف منذ شب على دواوين الشعراء وأجزاء (الأغاني) يتنخلها ، ويتمثلها ، ويعاود النظر فيها ، ويستكمل الحظ منها ، حتى بلغ من مختار الرواية ومصطفى الكلام ما لا غاية بعده . ثم قنع من فروع الثقافة الأخرى بنتف من المسائل الأولية ، ينقلها عن السماع ويأخذها عن الصحف إذا ظن أنها تدخل بوجه من الوجوه فيما يعنيه من ابتكار الأسمار وصوغ القريض حتى لغته الفرنسية ظلت بكاء فلم يتقنها ولم يستفد منها لا بالقراءة ولا بالترجمة ! وثقافة الشاعر

المدنى المجدد ثقافة محيطه شاملة ، تشارك فى ضروب المعرفة مشاركة بصيرة ، وتتابع
تقدم الفكر متابعة حرة .

أما صياغة حافظ فى موهبته الأولى ومزيتته الظاهرة . وهو فى ذلك ثانى
الخمسة^(١) الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر ، وتجددت على صنعتهم بلاغة
القصيد . ولعله انفرد عن هؤلاء جميعاً بالصدق فى تعبيره عن هموم قلبه ، وتفسيره
لأمانى شعبه ، وتصويره لساوى عصره ...

[٢٩ يوليو سنة ١٩٣٥]

(١) البارودى وحافظ وصبرى وشوقي ومطران .



مصر والشرق الإسلامي

إذا قلتَ إنا أمة من غير منهج ودولة من غير سياسة لا تبعد عن الصدق ! فإن التبعية المثلثة التي ضربتها علينا الأقدار الخصيمة في السياسة والاقتصاد والأدب قتلت في عقولنا الرأي الأصيل ، وفي نفوسنا العزم المستقل ، وفي مواهبنا العمل المرتجل . فنحن في مجموع الناس أتباع وأوزاع ننظر إلى الأمم تعمل وإلى العالم يسير بعين بلهاء لا يجاوز بصرها مدى العجب ! وعلَّتنا أن ساستنا وقادتنا كلهم من رجال القول لا من رجال الفعل ، ومن أرباب القلم لا من أرباب السيف ، ومن جنود القانون لا من جنود (الأوامر) . رُبُّوا على مقاعد المدارس ، وثَقُّوا على مباحث الكتب ، ودُرِّبوا على مكاتب الدواوين ، وحرّموا التربية العسكرية وهي وحدها القائمة على الخطة والنظام والأمر والتنفيذ والشرف ؛ فكانت سياستهم سياسة الترقب والتردد والخوف ، لا يصدرون ولا يوردون إلا عن فتوى فقيه أو تقرير خبير أو إشارة (مندوب) أو رغبة سلطان أو إدارة حزب . وذلك هو الفرق بين سياسة مصر وفلسطين وسورية ، وبين سياسة العراق وإيران وتركيا . فبينما تجد الأولين وهم رجال قانون مشغولين بالمفاوضات والمعاهدات والاحتجاجات والشكوى ، تجد الآخرين وهم رجال حرب لا يتبعون غير قانون الطبيعة ، ولا يفهمون غير سطور الجبش ، ولا يعبأون إلا بالواقع ، ولا يعضون إلا على العزم ، ولا يآوون إلا إلى الأمة

ففي مجلس من مجالس الحكم أو في ناد من أندية السمر ، تجول في خواطريهم الفكرة ، أو تجرى في نفوسهم الأمنية ، فما هي إلا صيحة القائد حتى تصبح قانوناً

مرسوماً كالخطة ، ماضياً كالنظام ، شاملاً كالتعبئة . والعسكري لا يتردد ولا يتلصكاً ، وإنما ينطلق ماضى الصريمة قُدماً إلى وجهه : مبدؤه الأمر، وطريقه المعركة ، وغايته النصر !

تدبر ذلك ووازن بين هذه السياسة الدبلوماسية التي تضطرب ولا تستقر ، وتدور ولا تتقدم ، وتناقش ولا تنتج ، وبين تلك السياسة العسكرية التي تهجم ولا تضطرب ، وتُقدم ولا تتقهقر ، وتعمل ولا تناقش ؛ فلعلك واجد في الموازنة تعليل هذا الشذوذ الذى نحن فيه ! أمة لا تقل عن أكثر الأمم رجالاً ولا مالاً ولا قوة ، يدفعها ماض مجيد ، ويحفزها حاضر مُلِحٌّ ، ويفريها مستقبل واعد ؛ ثم موقعها من أعظم المواقع ، ومغرسها من أكرم المغارس ، وعدتها الممكنة من خير العدد ، وتراها مع ذلك لا تزال صاغرة تعطى بالقهر وقاصرة لا تملك التصرف ! هل تجد بربك علة خمودها وونائها في غير قيادتها الرخوة وسياستها المستكينة وإرادتها المعطلة؟ ما منهج سياستها في الغرب؟ متابعة انجلترا على هوى الاحتلال ، ومصانعة الدول على حكم الامتيازات ، وإطفاء هذه البقعة المشرقة في وجه أفريقيا بهذا المظهر الكاسف . وما منهج سياستها في الشرق؟ إن كنت تسمى الإغفال سياسة والقطيعة خطة ، فأثرهما ما ترى بيننا وبين الحجاز من تناكر لا يسوغه عرف ولا تقتضيه طبيعة ولا تجره منفعة ، وما تشهد بيننا وبين جاراتنا الأخوات من تدابر لا يسلم عليه تضامن ولا يجرى معه تعاون ولا تنتظم به وحدة ؛ ثم ما تسمع بيننا وبين الشرق الإسلامى من تغاضب على التمثيل السياسى ، وهو أقل ما توجبه الروابط الدينية والتاريخية والجنسية من التواصل والتعاطف والمجاملة سخونا إلى حد السرف على تمثيلنا الخارجى في أوروبا ، حتى في العواصم التي لا تصلنا بها سياسة ولا تجارة ولا جالية . فلما نبهنا إخواننا في آسية إلى أنهم أم

كأولئك الأمم لهم ما ليس لنا من استقلال صحيح وسيادة كاملة ، فضلاً عما بيننا وبينهم من أواصر التاريخ ووشائج القربى ، مثلنا أنفسنا هناك فى الغالب بمن تنفيهم الأهواء لا بمن تدعوهم الحالة ، وجعلنا للعراق وإيران وأفغانستان سفيراً واحداً يقيم فى طهران !

مس ذلك من كبرياء الأمتين الأختين فتناقلت العراق عن تعيين سفيرها فى القاهرة ، ونقلت الأفغان وزيرها المعين إلى مكة ! ذلك والغرب يتحلب فوه إلى ازدراد الشرق ، فهو يستعين عليه (بالعصبة) ويحتال له بالتجارة ويتدسس إليه بالعلم ويدور من ورائه بالمعاهدات ؛ ثم يرى أن العرب صلبه والإسلام روحه فيهمج عليهما بالمودة ويتسابق إليهما بالخدعة ! ولكن الإسلام والعرب يريدان أن يظل الشرق مطلع النور ومصدر الحرية ومنبت العزة ؛ وتحقيق هذه الإرادة موكل إلى اجتماع الكلمة واتحاد الوجهة وتساير الهوى فى الأمم الإسلامية التى ألفت بين قلوبها العقيدة ، وفرقت بين جسومها المطامع

ومن أحق من مصر إذا استقلت إرادتها وتقررت سياستها وتحررت كفايتها بجمع هذه القلوب المخلصة على جهاد الاستعمار، وقيادة هذه النفوس المؤمنة إلى نصره الحق؟ إن وطننا يا قوم مترامى الحدود؟ فلماذا تحدونه على الضيق وإن قومنا ضخم العديد فلماذا تحصرونهم على القلة؟ وإن إخواننا كرام يصفون المودة ويولون المعونة فلماذا تجعلون بيننا وبينهم سداً من الإهمال والغفلة؟ إن الأمم القوية الناجحة لترخص الأموال والأنفس فى التمكين لأدبها ونفوذها وتجارها فى الشرق، فكيف نعرض نحن عن ذلك وهو يأتينا عفواً عن طريق القرابة فى البلد والنسب، والوحدة فى اللغة والأدب، والمشابهة فى الحظ والحالة!؟

سعد باشا زغلول

- ١ -



كان رحمه الله كالبحر
لا تطلعه من أى جهاته إلا غمر
نفسك بجلال العظيم ، وشغل
رأسك بخيال الشاعر ، وأخذ
حسك بروعة المجهول ! لم يكن
إنساناً كسائر الناس عظمته
موضع الشذوذ فى بشريته ،
وعبقريته بعض الكمال فى تقصه ،
وقوته عرّاض منتقل فى ضعفه ؛
إنما كانت العظمة أصلاً فى طبعه ،

والعبقريّة فطرة فى خلقه ، والقوة جوهرأ فى إرادته . وإذا كان النبوغ قوة
فى ملكة على حساب ملكات ، وارتفاعاً فى جهة بانخفاض جهات ، فإن نبوغ
سعد باشا كان نظاماً عدلاً فى نوعه : ظهر فى كل موهبة من مواهبه بمقدار
واحد ، وبهر فى كل أثر من آثاره بشعاع ممتاز . فهو فى صرامة المنطق مثله
فى لطافة الشعر ، وفى جرأة القلب مثله فى رقة الشعور ، وفى بلاغة اللسان مثله

فى براعة الذهن ، وفى كيد الخصومة نفسه فى شرف الرجولة ، وفى قيادة الجمعية التشريعية عينه فى قيادة الأمة المصرية !

سعد زغلول ومحمد عبده هما الآفة الشاهدة على سمو الجنسية المصرية الخالصة ، والحجة القائمة على فضل الثقافة العربية الصحيحة . نشأ كلاهما قرويين لم يشب دماءهما عنصر دخيل ، أزهرين لم يشل تفكيرهما تقليد عاجز ؛ ثم مضيا على إلهام الجنس ورسم التاريخ وهدى العقيدة ، يدعو أحدهما إلى إصلاح الدين ويدعو الآخر إلى صلاح الدنيا ، برجولة الخلق وفحولة التفكير وبطولة التضحية ، حتى كان من أثر جهادهما المباشر ما نحن والشرق فيه من انتباه العقل وانتعاش الوجدان وثورة الحمية

كانت معجزة الرجلين فى رسالتهما الإنسانية من نوع معجزة الرسول فى رسالته الإلهية : رجولة قاهرة ، وفصاحة ساحرة ، وخلق عظيم . وتلك هى عناصر الشخصية الجبارة التى تأمرك وكأنها تستشيرك ، وتقودك وكأنها تتابعك ، وتتطامن إليك وأنت منها كما تكون من البحر أو الجبل أو العاصفة !

إذا شئت أن تختصر رسالة سعد فى كلمة فهى (الدفاع عن الحق) ؛ تطاوع له منذ شب بدافع من غريزته الحاكمة وطبيعته الناقدة . فكان فى كل مرحلة من مراحل حياته يذود عنه طغيان القوة وسلطان الهوى وعدوان الرذيلة . عيّن بعد خروجه من الأزهر محرراً فى الوقائع المصرية مع أستاذه الإمام ، فكان يكتب فى الاستبداد والشورى والأخلاق ، وينتقد الأحكام التى كانت تصدرها يومئذ (المجالس الملقاة) . ثم عيّن ناظراً لقلم قضايا الجيزة ، وكان حكمه حكم

القاضي الجزئي ، فنزل الحق من عدله وعقله في حمى أمين ؛ ثم أصغى لصرخة الحق في الغضبة العرابية ففصل من وظيفته ، فزاول المحاماة وهي يومئذ حيلة الباطل وخصيصة العدل وآفة الخلق ؛ فأنقذها من هذه المراغة ، وطهرها من ذلك الرجس ، وردّها إلى طبيعتها مجلوة الصدر عفيفة الأديم تساعد القانون وتؤيد الحق

وكان سعد أفندي زغلول أول محام أقرته المحاكم الأهلية في مصر ، فجعل دستور هذه الحرفة النبيلة هذا الجواب الجامع الذي أجاب به ممتحنه وقد سأله عن واجبات المحامي فقال :

« درس القضية ، والدفاع عن الحق ، واحترام القضاء »

ثم اختير نائب قاض في محكمة الاستئناف ، ويومئذ درس الفرنسية ونال إجازة الحقوق ، فبرع القضاة الأوربيين بالذهن الغواص ، والدرس المحيط ، والتوجيه النزيه ، والاستدلال الصحيح ، والاستنباط الدقيق ، والحكم الموفق . ثم انتقل من القضاء إلى وزارة المعارف ، وكان لدنلوب فيها استبداد الطاغية ، وفساد المستعمر ، وعناد القدر ؛ وكان لهذا الفاجر صرعى كثيرون أولهم اللغة العربية والكرامة المصرية ، فطاطاً سعد بسطوة الحق علو المستشار ، وأعز جانب العربية في وطنها ، فجعلها لغة الثقافة ؛ ووضع الأقدار في مواضعها ، فرفع بذلك من قدر الكفاية !

ثم انتخبته الأمة نائباً عنها في « الجمعية التشريعية » ، فكان بشخصيته الغلاية ولهجته الخلابة وحججه المألزمة وأجوبته المفحمة رهبة الوزراء ودهشة النواب ومُتّجه الأفئدة . وكان منهاجه فيها قوله المأثور :

« الحق فوق القوة ، والأمة فوق الحكومة » !

ثم أعلنت الهدنة ووضعت الحرب العامة قضية العالم كله على مكاتب الغالبين في (فرساي) ، فدوى في سمعه صوت الحق الصريع ، وعصفت في رأسه نخوة الشعب المستذل ، فنهض للغاصب المزهو نهضته المعروفة ، فخيّس بها أنف الجبار العنيد ، وفتح بفصلها الدامي تاريخ مصر الجديد .

وهكذا اصطفى الله سعداً لرسالة الحق في أمة سَفَهَتْه في نفسها فلا تأخذه ولا تعطيه ، ثم ركبّه على الصورة التي أرادها لتبليغ هذه الرسالة ، ثم هدى به قافلة قومه إلى طريق السلامة ، وجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة

— ٢ —

كانت رسالة سعد كما رأيت (الدفاع عن الحق) في زمن خذل الحق فأنتهى فيه الحكم إلى الأثرة ، وشعب جهل الحق فجري به الأمر على الباطل . وكانت عُدّة هذا المحامي المدّره لذلك الدفاع البلاغة والمنطق والقانون : فالبلادة للجمهور ، والمنطق للخصوم ، والقانون للحكومة . ولست أرمى بذلك إلى تقسيم كلام الزعيم إلى التأثير المحض ، والإقناع المطلق ، والتطبيق المجرد ، فإن خطبته في كل موضع وفي أى موضوع لا تخلو من هذه العناصر الثلاثة . وإنما يظهر بعضها على بعض حين يقتضى المقام ذلك الظهور ؛ فهو يوجه التأثير بالفكرة إلى الذهن إذا هاجم الإنكار والجهل ، ويوجهه بالعاطفة إلى النفس إذا عالج الخمود والغفلة ، ثم يوجهه بالنصوص إلى الذّاكرة إذا عارض القوة والسلطة . ولم ير التاريخ المصرى بل الشرق قبل سعد خطيباً بليلاً اللسان ندىّ الصوت طلق البديهة دافع الحجة حافل الخاطر ،

رائع البيان ، أنيق اللهجة ، حسن السمت ، يزواج بين المنطق والشعر ، ويعاقب بين الإقناع والإمتاع ، ويراوح بين الجد والهزل ، ويتصرف في فنون القول تصرف الشاعر برقة الأسلوب ، والفيلسوف بدقة الفكر ، والموسيقى بجمال الإيقاع ؛ وكل ذلك في هالة من الشخصية المهيمنة الجذابة ، تساعد بلاغة اللسان والعين واليد شعاع إلهي باهر ينفذ إلى النفوس المتكبرة فتتضع ، وإلى الأذهان المكابرة فتقتنع ، وإلى القلوب اللينة فتنام .

كان سعد رجل جلاد وجدل ؛ تمرس منذ الحداثة بشدائد الحياة ومكاره العمل ، وراض نفسه منذ الدراسة على أدبي اللسان والقلم ، وتنفس به العمر في ميادين الجهاد في الحق ، فتكملت عبقريته الموهوبة بالمعرفة ، وتثقت بالتجربة ، وتفتت بالمران ، حتى كان منه ذلك الخطيب المرتجل الذي يهضب^(١) بالكلام أربع ساعات متواليات لا يتلكأ ، ولا يتأجلج ، ولا يتكثر بالغو ، ولا يستعين بالتكرار ، ولا يطرد نشاط السامع . وكأنما كانت الخطابة لطول مازاولها تصدر عنه كما يصدر الفعل عن الطبع الملازم والعادة المستحكمة ؛ فالفكر عميق من غير إعنات ، والأسلوب رشيق من غير تكلف ، واللفظ متخير من غير قصد ، والمعاني متساوقة تختلف باختلاف العقول والميول والحال ، فتقع من قلوب سامعيها العشرين ألفاً موقع الأنداء من جفاف الأرض : هذا بالصورة الآخذة ، وذلك بالفكرة النافذة ، وذلك بالحجة الوثيقة ، وأولئك جميعاً بالبيان الملهم والأداء العجيب !

أكثر ما في خطب الخطباء حنجرة وإلقاء وحركة ؛ فإذا قرأت بعد ذلك

(١) يقال : فلان يهضب بالشعر أو بالخطب : يسح سحاً

ما سمعت تبينت فيه الكلام الزائف والرأى المجازف والأسلوب المهوش . أما سعد فتسمعه وتقرأه فلا تجد بين الحالين إلا الفرق بين الخطيب المائل بشخصه ، والكاتب المائل بروحه . ذلك لأنه يخطب كما يكتب ؛ ويكتب كما يخطب ، متوخياً في الأمرين براعة التفكير و بلاغة الأداء وجمال الأخيلة وصحة الأقيسة وقوة الأدلة .

كان سعد برد الله ثراه وخلد ذكره يحب الكلام كما يحب العمل ، وينشط بالجلاد كما ينشط بالجدل ، ويطرب لآلقة الذهن كما يطرب لقهر الخصومة ، ويقدم المنطق حتى ليأخذ به من نفسه لعدوه ، ويقوى بالكفاح حتى ليركبه المرض والوهن إذا ما استعجم .

دخلت ذات يوم (بيت الأمة)^(١) في وفد من قومي نجد الثقة بالرئيس حين انصدع من حوله الوفد ، وأثمرت به الحكومة ، وتحشّن عليه الانجليز ، ودس له المراءون الغدر في الملق ، ولم يبق معه إلا اعتداده بنفسه ، واعتقاده بحقه ، وثقة الشعب الأعزل به . وكان في ذلك اليوم عليلاً لا يخرج إلى أحد ولا يدخل عليه أحد ، ولكن الوفد المسافر المشوق يأبى في إلحاح وإصرار إلا أن يرى رئيسه وإن لم ينزل ، ويسمعه رأيه وإن لم يتكلم . فنزل الزعيم النبيل مدثراً بلقائف المرض يتحامل على نفسه ويتهالك على مقعده . وكان فناء الدار وشارع الدار وحجرات الدار قد انفجرت انفجار عرفات بالدعاء والتفدية حين لاح وجهه الشاحب من العلة .

قدم وفدنا إلى الرئيس عرائض الثقة في غلاف حريري جميل ، ثم تعاقبت

(١) لقب أطلق على بيت سعد الخاص

الخطب على الأسماع ما بين سمين وهزيل ، والخطيب المعجز جالس إلى مكتبه يصغى إلى كل خطيب ويصفق لكل خطبة ، حتى انتهى القوم ووقف هو يقول كلمة الشكر ، فبدأها بصوت خافت متهافت ، ثم ما لبث أن شبا وجهه واستقام عوده وارتفع صوته ، وتنوعت لهجته بالنبرات المؤثرة ، وتحركت يده بالإشارات المبينة ، ثم تدفق تدفق السيل الهادر ساعة كاملة هتاك فيها أستار الغول والخديعة عن سياسة الحكومة والخصوم ، فما سمع الناس كاليوم خطيباً ينطق عن الوحي ، وأسلوباً يتسامي للإعجاز ، وصوتاً يمتزج رنينه الفضى بأجزاء النفس ، وخطبة لا يظفر بمثلها البيانون نموذجاً كاملاً للفن !

تلك صورة جانبية لناحية من نواحي فن الزعيم ، جلوناها على قدر هذه الصفحة . ولعلنا نعود يوماً إلى هذا الإجمال فنفضله ، وإلى هذا التركيب فنحلله .

[٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٥]



أحمد شوقي



إجتمع رأى الناس — ما عدا
الشعراء — على أن شوقي طيب الله
ذكره ، كان تعويضاً عادلاً عن عشرة
قرون خلت من تاريخ العرب لم يظهر
فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع
من وحي الشعر ، ويجدد ما اندرس
من نهج الأدب ، ويحفظ للبيان العربي
قسطه المأثور من التعبير الملهم عن كلمة الله
المنبثة في الكون ، وأسرار الجمال
المضرة في الطبيعة، ومعاني الخير الغامضة

في الحياة ؛ وأجمعوا على أن فقدته كان فقداً للوجدان الفنى في الشعب الذى علمه
كيف يتذوق الأدب ويستسيغ الشعر وينضح عواطفه الجافة بفيض هذه القرينة
النابعة الثرة . فالأعوام تعقب الأعوام والذكرى تخلف الذكرى ، والأسى
لا يزال يمرض الجوانح لامتناع الصبر عليه وإعواز العوض منه . وسيتبقى شوقي
كما وضعه القدر كمالاً فى نقص كان ، وهيهات أن يصير نقصاً فى كمال سيكون .
وسيدور الفلك ويدور ، ويقصد النقد ويجور ، ويتطور الذوق ويسمو ، وشعر
شوقي ثابت ما ثبت الحق ، خالد ما خلد القرآن ، مقروء ما بقى العرب !

ذلك لأن الطبيعة اختارته لرسالة الشعر بعد فترة مؤسفة من الرسل ، ثم أثرته بالنصيب الأوفى من الفكر والخيال والعاطفة ، وهن الملكات الثلاث التي ترفد القريحة وتمد الطبع وعلى تفاوتها في القوة والضعف يتفاوت الفنان في السبق والتخلف ؛ ثم زودته بالأذن الموسيقية والقريحة السخية والأداة الطيبة ، فشب عبقرياً بالفطرة ، لا شأن للبيئة في تنشئته ولا للمدرسة في إعداده ولا للفرصة في توجيهه . وهل كان أثر البيئة وقفاً عليه ، وتعليم المدرسة خاصاً به ، ومواتاة الفرص امتيازاً له ؟ إنما كان مثله في رسالة الشعر كمثل الأنبياء في رسالة الدين ، يختارهم الله من الضعفاء والفقراء والأमीين ليكون جلاله عليهم أبهر ، ومعجزته فيهم أظهر ، وحبته منهم أبلغ

وشوق رجل روحه أقوى من فنه ، وشعره أوسع من علمه ، وحكمته أمتن من خلقه ، وقدرته أكبر من استعداده ، فلا يشك قارئه في أنه وسيط لروح خفية تقوده ، ورسول لقوة إلهية تلهمه . وما اكتسب من القراءة والأسفار إلا إرهاف الذوق وتحصيل المادة وتوسيع الخبرة . والذوق في الفن كالعقل في العلم إنما يحصلان بالدرس والتجربة والسن . والطبيعة تصنع صاحب العبقرية ولكنها تبدأ صاحب الذوق .

الشاعر المطبوع رجل يتأثر خياله بقوة ، وينفعل قلبه بسرعة ، ثم يكون بين خياله وقلبه تجاوب سريع مستمر . له أذن مرهفة الحس تظن للإيقاع وتطرب للنغم ، وذوق سليم الإدراك يعرف جمال الشعر ويعلم مواقع الكلم ، ونفس ترى المثل الرائع فتحمى وتحتمس ، ثم يدفعها السمو الفني فيها إلى المنافسة الحرة

والمعارضة النبيلة . وإذا تناول الفكرة الأساسية الأولية لموضوع ما ، لا يلبث أن يراها في دخيلة نفسه تنمو وتتسع وتتركب وتتشعب وتتلون ، ثم تغدو ولوداً خصبة ؛ ثم لا ينفك شاعراً بالحاجة الملحة إلى الإنتاج الناشئ عن غزارة الفيض وحرارة العاطفة ؛ ثم يدرك في يسر ما بين المعاني المجردة والمواد المحسنة من علاقة ، فيتخذ من هذه ألواناً لتلك ، بحيث تولد هذه الأفكار في الذهن مكسوة بهذه الصور . تتمثل في خاطره المواد من ذات نفسها على الوجه الأنسب للتصوير والوضع الأجل في النظم ، فإذا كان الموضوع مؤثراً انثالت عليه العواطف معجلة تريد أن تظهر ، مزدحمة تحاول أن تفيض .

ذلك هو الشاعر المطبوع وذلك هو شوقي . علمناه بالدرس وعرفناه بالصحبة ، فما انخرل يوماً في تحليلته وإسفافه عن مواقف العبقرية . وإذا كان في شعر شبابه مأسور الفكر محصور الخيال محدود النظر ، لا يعبر إلا عن رأى القصر ، ولا يصور إلا بألوان البيئته ، فقد كانت هذه الحقبة الرسمية غيبة للشاعر عن نفسه ، وذو لاً منه عن وجوده . وقديماً كانت صلات الشعراء بالملوك والخلفاء عاهة الشعر وآفة العبقرية . فلما أعتقته الحرب الكبرى من رق الوظيفة ، وأطلقتته انجلترا بالنفي إلى الأندلس ، تيقظ فيه الرسول الشاعر والحكيم المصلح ، فخلق بخياله في كل جو ، وسطع بعقله في كل أفق ، وشدا بالإسلام والعروبة والمصرية شداً رددته كل لسان واهتزله كل قلب . ثم زاد في القيثاره العربية الأوتار الناقصة ، فأضاف الشعر القصصى والشعر التمثيلي إلى شعرنا الغنائى ، فكان بذلك وحده الشاعر الكامل !

شوقى كان كله من صنع الطبيعة : ولد منشداً كما ولد البلبل مغرداً . فالحكم
على شعره بقوانين النقد الوضعية ، وآراء الناقدين الشخصية ، لا يضعه فى مكانه
ولا يزنه بميزانه . إقرأه ثم راجع فيه نفسك ، واستشر فى أثره فيك حسك ؛ فإذا
وجدت ذهنك يشتغل ، وشعورك يشتعل ، وروحك تتصل بروحه ، وذوقك
يرتاح لذوقه ، فثق أنك بإزاء شاعر علت مزاياه على النقد ، وسخرت مواهبه
بالقيود .

إن شوقى سيظل على رغم الهتاف به مغموط الحق ما دام الشعر العربى
للخاصة ، لأن الخواص أكثرهم لا ينصفونه ، والعوام كلهم لا يفهمونه . فمتى
زالت معرة الأمية عن الأمة العربية أصبح لشعره يومئذ شأن وأى شأن .

[٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٥]



١٧ رَمَضَانَ

كان الإسلام المهاجر من مكة الجاهلية لا يزال خافض الجناح في يثرب .
وكان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار لا يزالون تحت البلاء : يمتحن الله
صبرهم بالألم ، ويختبر إيمانهم بالفتنة ، ليحص الذين يجتبيهم لنشر الدعوة ، ويعلم
الذين يصطفيهم لجهاد الرسالة . فالقرشيون يؤثبون عليهم القبائل ، واليهود
ينصبون لهم الحبائل ، والمنافقون يدسون لهم الغدر في الملك . فلما أذن الله لدينه
أن يعود ولجده أن يسود ولنوره أن يتم ، أرسل جنوده الثلاثة إلى وادي بدر ،
يتعاقبون على سبعين نضواً من أباعر المدينة ، ويستعينون بصبر المجاهد على القلة ،
وبعزة المؤمن على الذلة ، وبغفة الزاهد على الفاقة ؛ ويسيرون في استغراق الصوفى
المدلّ إلى ما وعدهم الله من إحدى الطائفتين : العير أو النفير^(١) ، وإحدى الحسنتين :
النصر أو الشهادة . ولكن العير الذى يفهق بالثراء الضخم نجابه أبو سفيان على
الساحل ، فلم يبق إلا مكة الغاضبة لثروتها وسطوتها ودينها قد نزلت بالعدوة
القصوى من الوادى مع أبى جهل ! تسعانة وخمسون من فلذات كبدها أرسلتهم
في الخيل والحديد يجيشون على محمد بالغل ، ويفورون على صحبه بالحفيظة ، ويرون
الإسلام فى هذا العدد القليل والمظهر الهزيل فيحسبون أنه أمكنهم من نفسه ودلهم
على مصرعه

التقى الجمعان فى صبيحة اليوم السابع عشر من شهر رمضان ، وكان المسلمون
على فقرهم وضرهم ثلث المشركين ، وكان المشركون على كثرتهم وعدتهم صفوة
(١) العير : قافلة التجارة التى كان يقوم بها أبو سفيان من الشام . والنفير النجدة التى قام
بها أبو جهل من مكة

قريش ، فوقف الإسلام من الشرك كان يومئذ موقف محنة . كان بين العذوتين في بدر مفرق الطريق ؛ فإما أن يقود محمد زمام البشرية في سبيل الله فتنجو ، وإما أن يردها أبو جهل إلى مجاهل التيه والضلال فتهلك . وقفت مدينة الإنسان بأديانها وعلومها وراء محمد على القلب^(١) ، ووقفت همجية الحيوان بأصنامها وأوهامها وراء أبي جهل على الكتيب ! فكان طريق وعقبة ، ونور وظلمة ، وإله وشيطان ! فإما أن يتمزق تراث الإنسانية على هذا الصخر ، ويتبدد نور الله في هذا القفر ؛ وإما أن تتم المعجزة فتفيض الحياة على الناس من هذه البئر ، ويتصل الماضي بالمستقبل من هذه الطريق ، ويبدأ التاريخ عهده الجديد بهذه الموقعة !

« اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ! اللهم فنصرك الذي وعدتني ! اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض ! » . ذلك كان دعاء الرسول أمام العريش ووجهه إلى القبلة ، ويده إلى السماء ، ورداؤه من الدهول في الله يسقط عن منكبيه فيرده الصديق ويقول : بعض هذا يا نبي الله فإن ربك منجز وعده ! وما هي إلا خفقة من خفقات الوحي حتى نزل الوعد بالنصر ، وجاءت البشرى بالجنة ، فغاب المسلمون في إشراق عجيب من الإيمان ، لا يرسم في أخيلتهم إلا الحور ، ولا يصور في عيونهم إلا الملائكة . وقذف الله في قلوب المشركين الرعب فانهار السد الغليظ أمام النبع النابض من صخور بدر ، وانجباب القمم الكثيف عن النور الوامض من ربوع يثرب ، وانكشفت المعجزة الإلهية عن انتصار ثلثائة على قرابة ألف !

موقعة بدر الكبرى لا تُذكر بخطتها وعدتها ونفقتها وعديدها في تاريخ الحرب ، فلعلها في كل ذلك لا تزيد على معركة بين حيين في مدينة ؛ إنما تذكر بنتائجها وآثارها في تاريخ السلم ، لأنها كانت حكما قاطعا من أحكام القدر غير

مجرى التاريخ ، وعدل وجهه الدنيا ، ومكن للعرب في دورهم أن يبلغوا رسالة الله ،
ويؤدوا أمانة الحضارة ، ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم
لم يكن النصر فيها ثمرة من ثمار السلاح والكثرة ، ولكنه كان ثمرة من ثمار
الإيمان والصدق . والإيمان الصادق قوة من الله فيها الملائكة والروح ، وفيها الأمل
والمثل ، وفيها الحب والإيثار ، فلا تبالى العدد ولا ترهب السلاح ولا تعرف الخطر !
بهذا الإيمان الصادق خلق الله من الضعف قوة في بدر والقادسية واليرموك .
وبهذا الإيمان الصادق جعل الله من البادية الجدبية والعروبة الشتيتة عمراناً طبق
الأرض بالخير ، وملكاً نظم الدنيا بالعدل ، وديناً ألف القلوب بالرحمة .

بهذا الشعور القدسي الذي يحس وينهض ويقود ، وبهذا اليقين النفسى
الذى يجاهد وينتصر ويسود ، وقف الشباب المصرى الباسل من دخلاء الجيش ،
موقف البدرين من كفار قريش ، يشقون بهتافهم أذن الأصم ، ويقرعون
باحتجاجهم ضمير المصر ، ويجدعون بثباتهم أنف المستكبر ! لا ينكلون أمام
الرصاص ، ولا يرهبون وحشة السجن ، ولا يجزعون عند الفاجعة . وعاطفة
الوطنية كعقيدة الدين : فناء فى الغيرية ، واندماج فى الجمعية ، وتوجيه الأمل
الطموح إلى المقصد الأعلى . وأجمل ما فى وطنية الشباب المصرى اليوم ، هو أجمل
ما كان فى عقيدة الشباب العربى أمس : اتحاد قائم على الألفة ، وتضامن مبنى
على الوحدة ، ومزاج مركب من الشعور الدافق والإيمان الصادق والتفكير المنظم
إن اليوم السابع عشر من شهر رمضان سيظل يوماً مشهوداً فى تاريخ الأمة
العربية بنزول القرآن وغلبة الحق ، وفى تاريخ الأمة المصرية بنصرة الشباب
ووحدة الأحزاب وعودة الدستور .

أبو الطيب المتنبي

— ١ —



المتنبي كما تخيله جبران

في مثل هذا الأسبوع من سنة
أربع وخمسين وثلاثمائة للهجرة طُلَّ في
سواد بغداد دم الرجل الطموح والبطل
الشاعر أبي الطيب أحمد بن الحسين
المتنبي ، فهمدت بهموده نفس دائبة
الشبوب وعزيمة دائمة الوثوب وهمة
رفيعة المصعد ! وكان المأمول أن يكون
هذا العدد من الرسالة ديواناً لما يليقيه
أساتذة الجامعة المصرية من المحاضرات
في (أسبوع المتنبي) ، ولكن العواصف
الهُوج التي ثارت بالبلاد فروع قلب

الناس ، وزعزعت سلام الجامعة ، حالت من دون هذا الأمل . وأبو الطيب الذي
رُزق السعادة في شعره ، وأوقى النباهة الخالدة في ذكره ، لا يزال حظه العاثر لعبة
الأيام وأهلية القدر ! هذا العراق الذي وُلد به ودفن فيه قد أعرض بسمعه عن
ذكره وهو المثل الذي يرتجيه لشبابه ، والروح الذي يبتغيه لتهضته ! وهذه
حلب التي جعلها نشيداً في فم الزمن قد قسم الهوى رأياً على ذكره فجاءت

بما لا يتفق مع قدره ، ولا يسمو إلى جلاله ! وهذه مصر التي كان أول من أخذها بالخضوع الضارع^(١) ، وعابها بالزهد الوضع^(٢) ، ونبه عينها الوثنى إلى فساد الحكم^(٣) قد دفنت ذكراه بين وعد من (رابطة الأدب العربي) عفى عليه النسيان ، ونية من الجامعة المصرية ثبّطت عنها الحوادث ؛ فلم يظفر شاعر القوة وشهيد المجد إلا بحفلتين جديرتين بفضلِه : حفلة قومية أقامها شباب العرب الأبرار في (سان باولو) ، وحفلة رسمية سيقمها رجال الأدب الأخيار في (دمشق) !
وسان باولو لم تخلق في دنياه ، ودمشق لم تذكر إلا مرة في شعره

كان أول عهدى بالمتنبى أن والدى — سقى الله ثراه — أهدي إلىّ في يوم من الأيام ديوانه ، وكنت لا أزال غلاماً يافعاً قد ارتفع قليلاً عن سن الحداثة ، فأنا أقرأ القصص وأحفظ المتون ، وأتلقى الدروس الأولية في الأزهر ، وأكثر من نظم الشعر في المناسبات المختلفة على معان سقيمة وقوالب مشوشة ؛ فأراد أبى أن أستعين بالنظر في هذا الديوان على تقويم ملكتى وتهذيب طبعى . فأقبلت عليه إقبال المنهوم المحروم ، لأنه الكتاب الوحيد الذى أملك ، والغذاء الشهى الذى أحب ، والحنان الأبوى الذى أقدر . كنت أقرأه فأدرك موسيقاه بشعورى وإن كنت لا أدرك معناه بعقلى ، وأحس أن شعاعاً سحرياً ينبثق عن سطوره فيغمر القلب بالنشوة ، ويرفع النفس بالحماسة ، كاللحن القوى ينساب فى الأذن الأمية نغماً من غير معنى ، وجمالاً من غير تحديد ، ووحياً من غير بيان ، ولذة من غير وعى

(١) سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسامين الأعبء القُزُم

(٢) أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

(٣) نامت نواظير مصر عن تعالها حتى بشمن وما تفنى العناقيد

ازداد على الدرس والأيام فهمى للمتنبى، فصار للذوق الساذج حجة من الفن، وللحب الذى صادف خلاء من القلب قوة من المنطق . وكان أستاذنا الموصفى — تغمده الله بالرحمة — لا يصح فى رأيه أحد من الشعراء المولدين وبخاصة أبو الطيب ، فدرس فى أذواق تلاميذه الكراهة له والنفور من شعره . وتأثر بذلك الإيحاء رفيقائ طه حسين ومحمود زناتى ، وقاومه فى نفسى تلك العوامل الأولى فلم أر رأيهما فيه ، ولم أملئ تعصبهما عليه . وكثُرَ ما كنا نتمارى فى أدبه وتهاجى بسببه ! ولا زلنا نتذاكر تلك المداعبات الأدبية الأخوية فنستروح منها شميم الصبى الغريز ، ونسيم العيش الأبله ، ونفح الولاء الخالص

١ — [إن أبلغ ما أثر فى نفسى من حياة المتنبى منذ عرفته هى هذه النفسية المذبذبة بين الطموح والعجز ، وتلك الشخصية المذبذبة بين الوسيلة والغاية] سمت نفسه منذ أيفع إلى معالى الأمور ولم يجد معيناً عليها غير المال والقوة . أما القوة فقد التمسها فى قيادة الأعراب باسم الدين أو باسم العدالة فأخفق ؛ وأما المال فاحتال عليه بوحى العبقريّة وقوة الشاعرية فأصاب . وكان الشاعر المغامر من هذه الوسيلة الأرضية ، ومن تلك الغاية السماوية ، بين عاملين مختلفين : عامل يرفعه فيدلّ على الملوك ويتأبه على السوق ويتجافى عن الهون ، ويقول لبعض الأمراء :

وفؤادى من الملوك وإن كان لسانى يُرى من الشعراء

وعامل يضعه فيهبه لهبة هشاشة السائل ، ويحرص على المال حرص الشحيح ، ويعفر خذّه الأصغر فى البحث عن درهم ، ويقول لبعض الأغنياء :

تهلل قبل تسليمى عليه وألقى ماله قبل الوساد

ولكنه فى كلتا الحالين كان طالب مُلك ، وعاشق مجد ، وخاطب دولة

وُلد أبو الطيب في ذُرور القرن الرابع عَظيماً بالاستعداد ، قوياً بالنشأة ، طموحاً بالفطرة . فلا تحاول أن ترجع هذه الصفات فيه إلى أحوال داعية وأسباب موجبة ؛ فإن إعجاز القدرة أن يُولد الملك في حجر السوق ، ويدرج العبقري في عش القدم ، ويظهر النبي في بيت المشرك . إنما العظمة خِلقَةٌ في العظيم ، تقويها عوامل وتضعفها عوامل . فولادة المتنبي بالكوفة ، وتجوله في البادية ، وتنقله في القبائل ، وكدحه الدائب أربعاً وثلاثين سنة وراء الرزق الشرود ، يضرب من أفق إلى أفق ، ويخرج من هول إلى هول ، نَمَتْ فيه أخلاق الجرأة والصراحة والصدق والصبر والمغامرة واللّسن ؛ واتصاله سيف الدولة الأديب الشجاع السَّمَح هذب فيه الشاعرية والفروسية ، وهما غريزتا البداوة وخصيصة العروبة ؛ ثم ظهوره في العصر الذي تحللت فيه روابط الخلافة ، وتعددت حواضر الأدب ، وتطاولت كفايات السيف والقلم إلى العروش المقدسة والمناصب الفخمة ، وأثمر تداخل الثقافات المختلفة ما أثمر من شمول العلم ونضوج العقل واعتراض الشكوك وتعدد الفرق ، وسع في ذهنه أفق المعرفة ، وقوى في نفسه الطموح إلى الرياسة ، وهيج في رأسه الثورة على القدر ، وأراه في بغداد بعض الكتاب يصل بالأدب إلى الوزارة ، وبعض العبيد في مصر يصل بالحيلة إلى الإمارة ، فطوع له رأيه في نفسه أن يبايع لها بالملك ، ثم أخذها بسمت الملوك ، وألزمها شارة الخاصة ، وعاشر الدهماء معاشرة الأنوف المسكرة ، وسائر الرؤساء مسيطرة الغريم الحاقد ، وسخر قوته وعبقريته في طلب هذا (الحق) وتحقيق هذا المطلب حتى ملأ الدنيا بذكره ، وشغل الناس بأمره

[المتنبى فى كتاب الأدب العربى فصل قائم بذاته ؛ لأن حياته التى اختلفت عليها العوامل ، وازدحمت فيها الأحداث ، واعتكرت بها الآمال ، وفاضت منها التجارب ، أمكنته من نوع جديد فى الشعر يتسم بالتفكير الحى والابتكار الجرى والأداء الحر] فأقبل عليه عشاق الأدب وطلاب الشهرة من ذوى السلطان فى خراسان والعراق والشام ومصر ، يتسابقون إلى وده ويتنافسون فى رضاه . وربما توسل بعضهم بالشفاعة ليحطبه فى حبله ، وجلس أحدهم بين يديه لىسمع مدحه فيه ، وهو يتصون عن مدح السوق ، ويتكرم عن موقف الشاعر ، فسعى إليه الرؤساء المحرومون بالعداوة ، واجتمع عليه الشعراء المغمورون بالحسد ، وتعاون هؤلاء وأولئك على تعقب سقطاته وجحود فضله ؛ فكان من أثر الكتب التى ألفت فى نقده ، والقصائد التى قيلت فى هجوه ، والخصومة الأدبية التى أثيرت من حوله ، والحركة الذهنية التى نشأت من شعره ، أن سار ذكره مسير الشمس ، وصار شعره سجل الخلود ، وغدا مدحه مطمح الملوك ، وأصبح أدبه وما اتصل به من النقود والشروح مكتبة !

عقلية المتنبى عقلية بدوية خالصة . تتعلق بالحس أكثر من تعلقها بالمعنى ، وتعتمد بالواقع أكثر من اعتدادها بالخيال ، وتعتمد على القوة أكثر من اعتمادها على الحيلة . لذلك كان زهول الصوفية نابياً فى عقله ، وشعور الجمال خابياً فى قلبه ، وأثر الدين ضعيفاً فى حياته . ثم كانت فلسفته حاجة الدنيا ، وخطته سنة الطبيعة ، وفكرته صورة الواقع ، وغايته غاية الرجل الطاح : شخصيته تبغى الظهور ، وشهوته ترغب المال ، وحيويته تطلب الغلب ، وعظمته تريد الحكم . لذلك كان أخص ما يميزه بروز شخصيته فى شعره ، وصدق إيمانه برأيه ، وقوة

اعتداده بنفسه، وصحة تعبيره عن طبائع النفس ومشاكل الناس وأغراض الحياة
عبقرية أبي الطيب سباحة الجناح لماحة الطرف مبسوطة الأفق ؛ ولكنه
قيداً بالمادة وحصرها فيما تدور عليه من كاذب المدح ولاذع الهجاء ، فقررت قرار
الطائر الحبيس ، تُخافت بالأغاريد المزورة على طبيعتها ، وتكابد الشوق الملح
إلى الهواء والسماء والروض ؛ ثم تفلت أحياناً من ربة القيد فتخلق في سماء الإلهام
وتهتف بالمعجز من قلاند الحكم وشوارد الأمثال وطرائف الذهن ، حتى
في الأغراض المبتذلة والمواقف الوضيعة .

وهكذا كانت قوى المتنبي ومواهبه مقهورة معذبة ! ولعله كان أقسى ما يكون
على قريحته وعبقريته ! فقد أرادها على الابتكار في مدح لا يعتقد ، ووصف
لا يحسه ، فجاءت معانيه في أمثال هذه الأغراض توليداً من عقله ، لا نقلاً
عن شعوره ؛ ومن ثم كثر فيها الإغراق لقيامها على الدعوى المرسل ؛ والغموض
لا تنزعها من الخواج المهمة ؛ والتناقض لتعبيرها عن غير كائن ؛ والتشابه لتفصيلها
على غير معين .

أما فيما يشعر به كالهجاء والعتاب والنقد والفخر والشكوى ، فسيل لا يحجزه
أسد ، وبحر لا يحصره ساحل . وهو في تدفع السيل وعمق البحر وسعة العباب ،
مثله في بقاء الحركة واختلاج الأداء وضيق الفكرة : شخصية مفروضة على الذهن ،
وروح شعاعة على الإحساس ، وزيف في الارتفاع والإسفاف يدل على جناح النسر !
[والحق أن المتنبي شاعر القوة ، شاعر الحرب ، شاعر الغامرة ، شاعر الجدل !
فلو كان سياسياً لكان مكياً فلي ، أو قائداً لكان نابليون ، أو فيلسوفاً

لكان نيتشه !]

مِنْ حَادِثِ النِّيرُوزِ

كنا ليلة النيروز المسيحي^(١) نَسْمُرُ في دار صديق ؛ ولهذا الصديق زوجة من لوزان دقيقة الفهم رقيقة الشائل لطيفة التكوين ؛ أغرمت بمصر وأخلاق أهلها إغراماً شديداً ، فهي تحاول أن تتكلم العربية ، وتؤثر أن تعيش على الأوضاع المصرية ، وتتابع بالنظر العطوف نهضتنا المجاهدة ، وتدافع بالحجة القارعة ما تفتريه علينا الألسن الأوربية الجاحدة ، وتحب كلما حضرت مجلسها أن تناقلى الحديث في مصر والعرب والإسلام والشرق ، وهي في كل ذلك واسعة الاطلاع من طول ما تسافر ومن كثرة ما تقرأ

كان زوجها وفريق من المدعويين يلعبون الورق على المائدة اليهودية المغربية ، وكان فريق آخر يستمع إلى (الراديو) وهو يذيع الأناشيد الكنسية المهللة ، وأنا وهى على كرسيين متقابلين أمام المدفأة ، نتجاذب على عادتنا أطراف الحديث المسقّق ، ونتصفح على طريقتنا أوجه الرأى المختلف ، فأجد في حديثها الشهى الممتع ما يجده ذلك الذى يلعب ، وذاك الذى يشرب ، وهذا الذى يسمع !

تناهزت النفوس المتحابة لذة الصفوفى الساعات المودعة ، وتجاوبت في البيع القريبة أصوات النواقيس المُرِنّة ، وتلاقت الحياة والموت في قلب الليلة الخضرمة^(٢)

(١) النيروز هو اليوم الأول من السنة الشمسية

(٢) لأنها أخذت شطراً من العام الماضى وشطراً من العام الجديد

وتهتكت سدول المهد المحجب عن العام الوليد ، فقالت لى ساعتئذ والرفاق يتبادلون
المودة بالعيون ، ويتناقلون التهنئة بالشفاه :

أنظر كيف يولد العام المسيحي فى بقاع الأرض ! إنه يولد كما يولد الأمل
المعسول فى النفوس المرحة الغضة . فالكنايس تعج بالصلوات المستبشرة ، والمنازل
تفيض بالمسرات المتجددة ، والعالم الغربى كله لا يذكر فى هذه اللحظة عامًا دفن
مع الأمس ذوت فيه نواضر المنى وذهب معه بعض العمر وإنما يذكر عامًا
يولد مع اليوم يستأنف نشاطه فيه ، ويستمد رجاءه منه ، ويستقبل حدّثان
الغد بالثغر الباسم والعزم الصارم والنظر الرغيب . وما أدرى — وقد نشأت
فى ربوع الغرب وطوّفت فى بعض أنحاء الشرق — لماذا كان المسلمون وحدهم
اليوم رماد الموقد المضطرم : يتحرك بهم الفلك وهم ساكنون ، وتتفجر عليهم
الأحداث وهم غافلون ، ويُلقون فى مراغة الذل وهم راضون ، وتؤكل بهم أرزاق
الأرض وهم قانعون ، ويجادل عنهم خصومهم وهم ساكنون ؟ أيرجع ذلك
إلى العقيدة أم إلى الطبيعة ؟

فأجبتها والحجل يكسر من طرفى ويعقد من لسانى :

ربما كان مرجعه إلى الاثنين معاً !

وكانت تنظر إلى لهب النار يرقص واريًا بين وقود المدفأة ، فحوت فى دهشة
وسرعة وجهها إلى وثبتت نظرها فى ، وقالت :

كيف ؟! ألم تكن عقيدتهم اليوم هى العقيدة التى ألفت من شتات البدو
دولة ، وبعثت من جوف الصحارى حضارة ، ونفخت من روح الله فى قلوب
الصعاليك فطمحوا إلى ملك كسرى وهم جياع ، وسموا إلى عرش قيصر وهم عراة ،
وصمدوا إلى حكم العالم وهم سذج ؟

ألم تكن طبيعتهم اليوم هي الطبيعة التي تكرمت عن الدون وتجاغت عن
الهُنُون وتسامت إلى القدر الخطير وتمردت على الطغيان المستبد ، وجعلتهم يضعون
أنفسهم في كفة والعالم كله في كفة ، فسموا — كما علمت منك — من عداهم
بالعجم ، كما سمى الرومان من عداهم بالبربر ؟

قللت لها : كلا وأسفاه ! ليست العقيدة هي العقيدة ، ولا الطبيعة هي
الطبيعة ! كانت عقيدتهم كما قلت سامية تبعث الطموح ، صافية تكسب
الخلوص ، بسيطة تنتج الوفاق ، جامعة توجب الوحدة ؛ توفق بين الدين والدنيا
من غير كلفة ، وتصل بين الله والإنسان من غير واسطة ، فاختلط بها في القرون
الأخيرة شعوزة الهنود وأساطير اليهود وصوفية الفرس ولاهوتية اليونان فأصبحت
بأنحدر الذاهل والتواضع الجبان والزهد الكسول والاتكال الخلف ، والجدل
العقيم والاختلاف المفرق ؛ ثم تبخر من هذا الخليط المشوه إكسير الحياة فلم يبق
إلا الرواسب الغريبة ، وتصعد منه عبر الروح فلم يبق إلا الأوراق الجفيفة . فالدين
اليوم شعائر من غير شعور ، وتقليد من غير فهم ، واعتقاد من غير تطبيق ،
وشعوزة من غير حقيقة ، وأحكام من غير حكم

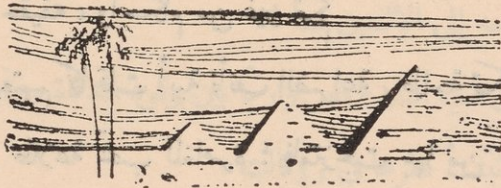
وكانت طبيعتهم كما قلت أبية تأنف الضراعة ، طماحة تكره القناعة ، وثابة
تحاول التفوق ، طلاعة تحب المغامرة ؛ فامتزجت بها من بعد الفتوح دماء
الأجناس المملوكة ، وأدواء الأمم المنهوكة ، وأوباء الأقاليم القصية ؛ ثم قرت فيها
صُبابة الأحقاب ، وانهت إليها نفاية الأعقاب ، وناءت بها أعباء التقاليد . فالعقلية
الإسلامية اليوم مشوبة غير صريحة ، معقدة غير واضحة ؛ وهي من عبث الأحداث
متنافرة لا تلتئم ، متخاذلة لا تقاوم

إنما العقيدة الخالصة والطبيعة السليمة لا تزالان في بوادي الحجاز وهضبات
نجد؛ ولكن الفرق بين عرب الجزيرة اليوم وبينهم بالأمس أن العالم غير العالم،
والوسيلة غير الوسيلة، والغاية غير الغاية !

فإذا لم نجل عن عقيدتنا هذا الصداً العارض، وننف عن ثقافتنا هذا الهراء
الغث، ونجذ من خلفنا ذيل التقاليد الفاسدة، ظل سيرنا يا سيدتي بطيئاً
لا يلحق وجهنا باطلاً لا يفيد

وكانت فورة اللعب والطرب قد فرّت في نفوس القوم، فخلت المائدة،
وسكت المذايع، وفتر الحديث، وتهيا السامرون للخروج، فلم تستطع السيدة
الفاضلة أن تعقب على هذا الكلام

[١٣ يناير سنة ١٩٣٦]



ملك وشاعر

حل أصدق المواعيد^(١) في يومين متعاقبين بالملك جورج الخامس وبالشاعر رديارد كبلنج ، فارفضَ لخطبهما الصبر الإنجليزى الذى يتماسك بطبعه على مض النوازل ، وتجاوبت بأصداء الأسى الوقور أقطارُ الملكِ البريطانى الشامل ، وشعر القلب الامبراطورى برجفة صماء لموت الملك ، وأحس اللسان الاستعمارى بعقدة بكاء لموت الشاعر . ذلك لأن صاحب الجلالة كان يمثل شعبه فى نبه وديمقراطيته ، وصاحب العبقرية كان يمثله فى طموحه ووطنيته . فأولهما كان رمز السمو الخلقى فى طبع السياسة ، وثانيهما كان لحن الغرور القومى فى معنى الأدب !

كان الملك جورج الخامس معنى جديداً من معانى الملكية الجديدة . وفق بين غرفة الملك وتواضع الديمقراطية ، وألف بين قيود الحكم ونوازع الحرية ، وصالح بين حفاظ التقاليد وطبيعة التطور ، ولائم بين إرادة العاهل وسلطة الدستور ، وواءم بين سياسة الدولة ورغبة الأمة ، واستبدل بالسلطة الزمنية التى أماتها فيه الزمان ، وورثها عنه البرلمان ، سلطةً روحيةً أحلتها من شعبه محل القداسة ، ورفعته فى أفقه مكان العلم ، وجعلته فى حكمه سلام الحزبية إذا احتدمت ، وقرار السياسة إذا اضطربت ، وصلة الامبراطورية إذا تقاطعت ،

ومواساة المرضى من برّح الألم ، وتعزية البؤس^(١) من مس الحاجة . ثم تكرم
عن أثره الملوك وتميّز السادة ، فكان في الحرب يأكل ما يأكل الناس ،
وفي الأزمة ينفق ما ينفق الأوساط ، وفي المحنة يكابد ما يكابد الشعب ،
وفي الرخاء يكاد الإحسان العام لا يترك في يديه من مخصصاته النصف مليون
الإقراية الألفين

كانت ملكية الملك جورج الخامس كما رأيت لفظاً معناه الحب والخير
والواجب. ومن هنا وجدت الأحزاب على اختلافها مضامينها فيه؛ فهي تثور فيما بينها
وتسكن إليه ، وتختلف في رأيها وتتفق عليه ، وتفترق في طرقها وتلتقي عنده ،
حتى قال زعيم من زعماء الأحرار مستر اسكويت : « إن العروش لتهاوى
حولنا ، لأن بعضها قائم على أساس من الظلم ، وبعضها مرفوع على غشاء
من التقاليد ؛ ولكن عرش هذه البلاد محمول على مشيئة الشعب البريطاني ،
فهو مستقر لا يتزعزع ، راسخ لا يميّد » . وحتى قال زعيم من زعماء العمال
مستر استافورد : « إن الملكية الدستورية ستظل طويلاً في هذه الأمة خير
أداة لاختيار رأس الدولة »

من أجل ذلك الخلق الأقوم كان حزن الإنكليز على ملكهم خالصاً
من الرياء الرسمي ، صادراً عن الشعور الصادق بالحب لرجل غلب الأبوة على الملك ،
واستغنى بالطيبة عن البراعة ، وسد بكمال الخلق نقص القدرة

وكان الشاعر كبلنج مفتوناً بعظمة الإمبراطورية ؛ صاغ من نسبها النصار

(١) البؤس : جمع بئس . قال الشاعر : حتى عدت من البؤس المساكين

شعره ، وألف من لجبها المتناسق أغاريده ؛ ثم شدا بالمجد الطواف على أثباج
للأء ، وهتف بالنصر الرفاف على وجوه الأرض ، وجعل من شعره الجواب نشيداً
قومياً تردده الآفاق البريطانية كما تردد نشيد الملك !

ولد كبلنج فى بلاد قال فيها : « إنها أعجب بلاد خضعت للمخلوق وفتحت
للخالق » . ولد فى الهند بمبى كى يولد الهنود ، ولكنه وعى فوجد نفسه سيداً ،
ووجد الهندى الذى ولد معه عبداً ، يعيش على كده وهو ناعم بين وسكويه
وحسانه ، ويرقى على ظهره إذا هم بركوب حصانه ! أخلقة هى الخلقة ، والبيئة
هى البيئة ، والطبقة هى الطبقة . ولكن كبلنج رأى بشرته ودمه من لون العلم
الخفاق ، ورأى بشرة الهندى ودمه من لون الأرض المستغلة ، فأدرك علة
الامتياز وسر التفوق . عرف أن البريطانى بحكم الجنس قد يدعى ذكياً
وهو فذم ، وكنساً وهو أخرق ، وكافياً وهو عاجز ، وسابقاً وهو متخلف ،
فاستهم بهذه القوة التى تشع مع الشمس فى كل أفق ، وتنتشر مع الحياة فى كل
قطر ، وتنسبط على حواشى البر والبحر أمناً وحماية . فحبس على إعلان مفاخرها
لسانه ، ووقف على تسويغ عدوانها عقله ؛ فموه حجج الاستعمار بالشعر ، وألهب
سُعار العصبية بالحماسة ، وشوه جمال الوطنية بالأثرة ، وجعل الأدب وهو شعاع
الروح دليلاً لبغى القوى ولؤمه ، ومهد لأساطيل الطغيان استعباد الإنسان
للإنسان ، بحجة « أن الشرق شرق والغرب غرب فلا يلتقيان » إلا على شر ،
ولا يفترقان إلا على ثار !

من أجل ذلك الإخلاص اللهم كان مرض كبلنج تحت الرعاية الملكية ،

وكانت جنازة كبلنج جنازة « شبه رسمية » !

إن في مثل سياسة الملك جورج الخامس لأماناً من طغيان الروس، وثوران النفوس، وقيام الدعوات الباطلة، وشيوع المذاهب الجريئة، وانقلاب الحكم في الدولة، واضطراب السلم في الأمة، واغترار العيش في أوجه العامة. وإن في مثل أدب الشاعر كبلنج لروحاً مزهوة تعتلج بالشعور الوطني، وتختلج بالغرور القومي، وتدفع بالهمم الوانية إلى اللحاق، وتنزع بالنفوس الضاربة عن المذلة، وتكشف للقلوب المنخوبة عن معاني الرجولة !

إن في كل حادث ذكرى ؛ وإن في كل حديث بلاغاً !

[٢٧ يناير سنة ١٩٣٦]



تايخ يثور

على ضفاف الوادى ، وهضاب فلسطين ، ورياض سورية ، يثور تاريخ
ويغضب مجد ويستغيث مظلوم ... !

على الوطن الذى ورفت على نيله أول حضارة^(١) ، وفوق البلد الذى هبط على
طوره أول دين^(٢) ، وفى القطر الذى انبثقت من ساحله أول ثقافة^(٣) ، تُمتحن
الحرية بمن فرضوا على الملك أول دستور^(٤) ، وتُمتن العدالة ممن حملوا لله
أول كتاب^(٥) ، وتبتلى الإنسانية بمن أعلنوا للانسان أول حق^(٦) ... !

على هذه الأقطار الثلاثة التى شع منها السلام والإسلام والخير ، يستكلب
الطمع ويشتجر الهوى وينفجر البغى . فالمفاوضات وعيد ، والاحتجاجات حديد ،
والمواعيد مراوغة ، كأنما عى المنطق من طول ما مارس العلم ! ومات الضمير
من كثرة ما دارس الخلق ! وزهق العدل من شدة ما زاول القانون !

فى القاهرة وأورشليم ودمشق شباب يحمى على لذع البنادق ، ودم يفور
على مسّ الأسنة ، وأمل يشرق فى الوجوه الوضيئة ، وطموح يومض فى العيون
الرغبية ، وماض تميز فى إبهام الدهر يمتثل فى الأذهان الصافية ، ومجد تأئل
فى أربعة عشر قرناً يعصف بالنفوس الفتية ! فماذا تصنع مديّة اللص فى قلب
تدرّع بالإيمان ؟ وماذا تبلغ سطوة الباطل من حق تسجل فى لوح الزمان ؟ !

يا لله ! ألم يأن لدعاة المدنية ... وحماة الحرية ... ورسلى العلم ... أن يروضوا

(١) مصر (٢) فلسطين (٣) سورية (٤) الانجليز (٥) اليهود (٦) الفرنسيون

عقولهم على الحقيقة ، ويفتحوا أعينهم على الواقع ؟! إن هذا الشعب الذى تتحلب أفواههم قَرَمًا لأكله لا يزال يعيش فى ملك آبائه الفاتحين ، ولا يزال مطوى الحنايا على العزيمة التى قبض بها من قبل على زمام الدنيا ، وشارك فى تصريف الأقدار ، وأملى إرادته على سجل الزمن ! إن حلمه لثقيل ولكن غضبته مفزعة ؛ وإن نومه لطويل ولكن يقظته مروعة ! إنه على اختلاف أقطاره لا يزال يحمل فى نفسه سر (الجزيرة) التى يعيش فيها الجمل الوقور الصابر والأسد المصور المتوثب !

إن فى كبد أوربا ججرة من العرب منذ غزتها بالدين والمدنية والعلم سفائن طارق ! ولقد انطفت البراكين ولما تنطفي هذه الججرة ! أجلت العرب عن أرضها بالبربرية الهوجاء والتعصب الحاقد والقسوة الجاحمة ، ثم كتبت الكتائب المتحالفة وغزتهم فى عقر بلادهم باسم الدين المظلوم فى عهد (صلاح الدين) ، ثم بالعلم المسموم فى عصر (عبد الحميد) ، ثم بالمدينة المغشوشة فى عهد (عصبة الأمم) ! فما كان الدين والعلم والتمدن إلا ألفاظاً حُمِلت بالكراهة على معانى الثأر والاستعمار والغصب ! ثم أغرؤا بنا الجهالة والجحاعة والفوضى ، ومضوا فى ظلال الأمن يُعقدون^(١) من دماننا الذهب ، ويتخذون من لحومنا القوت ، حاسبين أننا نخدرون بالأباطيل قلائق نفيق ، مُثقلون بالتقاليد فلا تنهض . ولكن المعدن يا غُلفَ القلوب كريم ! وهذا الذى يعلوه غبار لا صدأ ! وهما هى ذى سياسة الإرهاب والاعتصاب تجلوه عن شباب عرفوا كيف يموتون أكثر مما عرفوا كيف يعيشون ! وهما هم أولاء يمشون على ما بلى من هياكل الشيوخ ، كما يمشى المرحون على ما جف من سفير^(٢) الشجر !! إنهم يسرعون الخطى إلى الربيع الباسم والجو الطليق ، وفى أسماعهم

(١) مجاز من قولهم : أعقد العسل وعقده بالتشديد أغلاه حتى غلظ

(٢) السفير : ما سقط من ورق الشجر وتحات لأن الريح يسفره أى تكنسه

المرهفة دوى لا ينقطع بهذا الهتاف : « لقد فتح آباؤكم ثلاث قارات في ربع قرن ، أفتعجزون عن تحرير ثلاثة بلاد في نصف قرن ؟ ! »

إن شباب العرب مصريين وسوريين قد أخذوا موثقهم من الدم الشهيد أن يعيشوا أغرة أو يموتوا كراماً ! فلا تتحدّوا بالعذاب السفیه جنساً برمته وتاريخاً بأسره ؛ ولا تعشوا بالمعاجم التي تعب فيها اللغويون والمجامع قسموا النهب تنظيمًا والقتل تعلیمًا والغزو صداقة ! جربوا الصداقة بمعناها اللغوي الصحيح تفرّوا المال والرجال والسمعة ؛ فإن هذا الشعب الذي وقعتم في صفوه ^(١) وتعبتم من غزوه ويئسّم من خداعه ، كان له في السياسة العالمية شأن ، وفي اللغة الدولية اصطلاح ، وفي قيادة الإنسانية محل ، ومن إصلاح المجتمع نصيب ! فهو يفهم الصداقة ويقدّر للمعاونة ويكبر التضامن ويعقد صلّاته بالناس على ضوء شريعته وقرآنه !

إن سلام الشرق منوط بسلام العرب . وإن السلام والإسلام لفظان مترادفان على معنى واحد . وليس من معاني السلام المهانة ، ولا من دلالات الإسلام الاستكانة ! إنما هما الحياة القائمة على الحرية والإخاء والمساواة ، وهي الأقاليم الثلاثة التي رسمتها الثورة على علمكم المثلث ^(٢) !

بغير هذا لا يرضى العرب . وبدون هذا لا يحيا العرب . فراجعوا في سياستكم العقل السالم من الهوى ، والضمير الخالص من الرّيبة ، وحكموا بينكم وبينهم مبادئ الناس ، فإنهم كما تحسون وتلمسون من الناس !

[١٠ فبراير سنة ١٩٣٦]

(١) أى كدبرتموه كما يقع القذى في صفو الماء (٢) الخطاب لفرنسا

شباب العراق في مصر

قل لأولئك الذين زعموا أن مصر نبئت على العروبة فقطعت الأسباب الموصولة ، وأبيست الأرحام المبلولة : تعالوا فانظروا كيف بَشَّتْ بالعراق بشاشة الألفة ، ورفَّت لبنيه رفيف القرابة ، وأشبِلت عليهم إشبال الأمومة !

قل لهم : تعالوا فاسألوا شباب الفراتين : هل كانوا على ضفاف النيل في أرض غير أرضهم ، وقوم غير قومهم ، وبيئة غير بيئتهم ؟ لقد كان إقبالهم على محطة القاهرة كما إقبال الربيع ، واستقبالهم فيها كاستقبال العافية ! نزلوا من القطار على اكتاف البهاليل من شباب النيل ، وحلوا في قلوب الميامين من رجال الوادي ، وهتفت الجموع الحاشدة باسمي فؤاد وغازي ، وجرت الألسن الخاطبة بلفظي القرابة والوحدة ، وتلاقت العواطف الضامئة على وِردى الإخاء والمودة . ودخل الطلاب العراقيون في غمار الألوف المتلهلة ، فتجاذبت الدماء ، وتمازجت القلوب ، وتعاطفت الذكريات ، وتجاوبت الأمانى ، وترجمت اللغة ! ثم كانوا طوال الأسبوع المنصرم غبطة القاهرة وبهجة الأندية وحديث الصحف ، يظلمون من مطلع النهار إلى مقطع الليل غرقى في احتفاء المدينة بين ترحيب يومض في العيون ، وتسليم يفتَرُّ في الشفاه ، وإعجاب يدوِّى في الأكف ، وكرم يفيض على الموائد ، ثم لا يسعفون كل مَشُوق لسعة الحركة ، ولا يجيبون كل داع لضيق المدة

والحق أن الشباب العراقيين كانوا كما قال الدكتور محبوب ثابت : طاقة من شتيت الزهر النضير قدمتها بغداد إلى القاهرة في العيد . مثلوا العراق في الرجولة

والعزة ، ومثله الأستاذ القاضى فى الوقار والنبيل ، فكانوا بهذا المظهر الجميل
دليل اليقين لمن يطيع فى أمتهم الشك ، وشاهد الاطمئنان لمن يعقد على
نهضتهم الأمل !

كان مبعث الجفاء بين أقطار العرب انقطاع الأسباب وبُعد الشقة . ثم
غشيت كل سماء من سمواتها الزُّهر غمةٌ من أطماع الغرب ، حُجبت عن العيون
الضياء ، وعن النفوس الصفاء ، وعن العقول المعرفة ؛ فذهب القوم أشتاتاً يتلمس
كل امرئٌ فى الظلام طريقه ! حتى إذا استيقظ فى الوجدان شعور العروبة ، وعاد
فأشرق فى الأذهان نور الدين ، أبصرنا فإذا بيننا من بغى الإنسان حواجز تنقاصر
عندها الخطى ، وتتناكر دونها المعارف !

أزِيلُوا قائمَ الحدود وجددوا دارس الطريق تتلاق الوجوه وتتعارف الأخوة .
واعملوا ما يعمل فى العراق رسول الوحدة ياسين ، وفى مصر أمثال الوزير محمد على
والزعيم طلعت حرب ، تجددوا الاتحاد العربى جارفاً كدعوة محمد ، سريعاً كفتوح
أمية ، خصيباً كخضارة العباس !

هذه هى مصر الصحيحة يا شباب الرافدين ! لا يزال دينها دينكم ، ولغتها
لغتكم ، وهواها هواكم ! إنها لم تترك ولم تروها لأنها فى جوف الحوت ! ^(١) وهأنتم
أولاء تسمعون حشرجتها الأليمة فى حلقة ، وستجيش بين معدته وأضراسه جَيْشَان
السم الزعاف حتى يلفظها حية سليمةً كيونس ! ^(٢) حينئذ تتجه (ابنة الشمس) ^(٣)
إلى مطلع الشمس ! وهناك يكون مجد العرب اليوم كما كان هناك مجدهم بالأمس !

(١) المراد به الاحتلال (٢) يونس بن متى (ع) وقصته مع الحوت معروفة (٣) مصر

وليس الشرق موطن الديانات والمدنيات بضيق ولا جديب
 إن الأرض لتزلزل في كل مكان بالدخيل يا بني الهلال الخصيب! (١)
 وإن تاريخ الجدد لينبجس فواراً حاراً من صحن المساجد الجامعة! هل تذكرون
 ثورة بغداد في جامع الحيدرخانة؟ هل رأيتم غضبة دمشق في الجامع الأموي؟
 هل سمعتم صرخة القدس في الجامع الأقصى؟ هل علمتم وثبة القاهرة من الجامع
 الأزهر؟ إن لذلك معنى عجيبي لا يند عن خاطر ولا يلتوى على ذهن: ذلك أن
 المنارة التي يذكر عليها اسم الله لا تزال هي المكان الذي يرتفع فيه صوت
 الحرية، وأن الحراب الذي يقوم فيه الدين لا يزال هو الركن الذي يأوي إليه
 الحق، وأن الإسلام الذي ألف شتيت البدو في الأول هو النظام الذي يجمع
 شمل العرب في الآخر!

لقد كانت زيارة الطلاب العراقيين فرصة ميمونة لتوثيق الصلات التاريخية
 المقدسة. صاحفونا بالأيدى، وخاطبونا بالألسن، وسمعونا بالآذان، فامتحت الفوارق
 العارضة، وانجابت الحجب الكثيفة، واستبان للناس أن الخيال جان على
 الحقيقة، وأن السماع كاذب على العيان، وأن الوحدة المستحيلة أمر من الواقع!
 نعي البرق شاعر العراق الزهاوى والمصريون والعراقيون في حفلة اتحاد
 الجامعة، فكان وقع المصاب في نفوس الفريقين واحداً لا يختلف؛ وقام كبير
 الأدباء فأبن كبير الشعراء بكلمة تلقاها الإخوان بعاطفة واحدة وشعور مشترك،
 لأن الزهاوى كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة، فتتردد أصدائها
 الموقظة في ربوات بردى وخمائل النيل وسواحل المغرب! وأدب الزهاوي

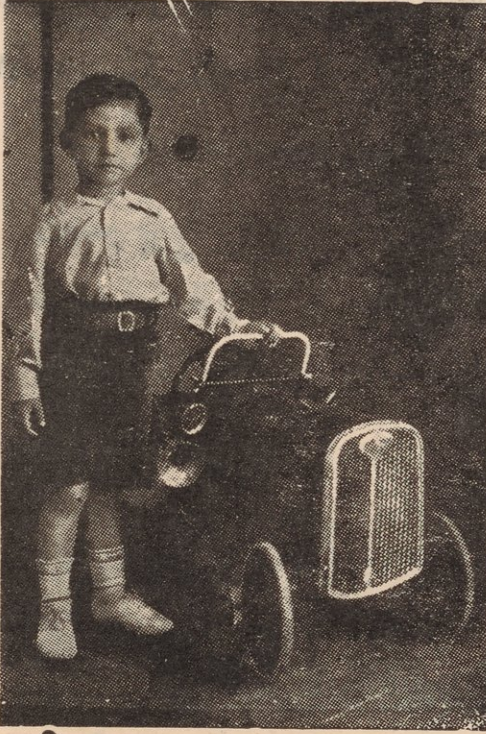
وأمثاله هو الذى وصل القلوب العربية فى مجاهل القرون السود بخيوط إلهية غير
منظورة ، ولولاها لم تكن هذه الزورة ! وبهذه الزورة وأمثالها نتعارف ونتآلف
ونتحد ! فتعالوا يا أخلاف المجد الفقيد وأسلاف المجد الوليد تتعاون على دفع
الأذى عن العزة المهانة ! تعالوا تقرأ فى سمع الزمان أن أمة الرسالة تريد أن تؤدى
الأمانة ! ولكن قبل ذلك كله :

تعالوا نبجد دارس العهد بيننا كلانا على هذا الجفاء ملوم

[٣ مارس سنة ١٩٣٦]



ولدى



يا قارئ أنت صديق فدعني
أرق على يديك هذه العبرات
الباقية ! هذا ولدى كما ترى ،
رُزقته على حال عابسة كاليأس ،
وكهولة بأسة كاهرم ، وحياة
باردة كال موت ، فأشرق في نفسى
إشراق الأمل ، وأورق في عودى
إيراق الربيع ، وولّد في حياتى
العقيمة معانى الجدّة والاستمرار
والخلود !

كنت فى طريق الحياة كالشارد الهيمان ، أنشد الراحة ولا أجد الظل ،
وأفيض المحبة ولا أجد الحبيب ، وألبس الناس ولا أجد الأُنس ، وأكسب
المال ولا أجد السعادة ، وأعالج العيش ولا أدرك الغاية ! كنت كالصوت الأصم
لا يُرجّعه صدى ، والروح الحائر لا يُقرّئه هدى ، والمعنى المبهم لا يحدده خاطر !
كنت كالآلة نتجتها آلة واستهلكها عمل ، فهى تخدم غيرها بالتسخير ، وتميت
نفسها بالدوب ، ولا تحفظ نوعها بالولادة ؛ فكان يصلنى بالماضى أبى ، ويمسكنى

بالحاضر أجلى ، ثم لا يربطنى بالمستقبل رابط من أمل أو ولد . فلما جاء (رجاء) وجدتني أولد فيه من جديد . فأنا أنظر إلى الدنيا بعين الخيال ، وأبسم إلى الوجود بشعر الأطفال ، وأضطرب فى الحياة اضطراب الحى الكامل يدفعه من ورائه طمع ، ويجذبه من أمامه طموح ! شعرت بالدم الحار يتدفق نشيطاً فى جسمى ، وبالأمل القوى ينبعث جديداً فى نفسى ، وبالمرح القوي يضج لاهياً فى حياتى ، وبالعيش الكثيب تتراقص على حواشيه الخضر عرائس المنى ! فأنا أعب مع رجاء بلعبه ، وأتحدث إلى رجاء ببلغته ، وأتبع عقلى هوى رجاء فأدخل معه فى كل ملهى دخول البراءة ، وأطير به فى كل روض طيران الفراشة ، ثم لم يعد العمل الذى أعمله جديراً بعمرى ، ولا الجهد الذى أبذله كفاء لغايتى ، فضاعفت السعى ، وتجاهلت النصب ، وتناسيت المرض ، وطلبت النجاح فى كل وجه ! ذلك لأن الصبي الذكى الجميل أطل خيالى بحياته ، ووسّع وجودى بوجوده ، فكان عمرى يغوص فى طوايا العدم قليلاً قليلاً ليمد عمره بالبقاء ، كما يغوص أصل الشجرة فى الأرض ليمد فروعها بالغذاء

شغل رجاء فراغى كله ، وملاً وجودى كله ، حتى أصبح شغلى ووجودى ! فهو صغيراً أنا ، وأنا كبيراً هو . يا كل فأشبع ، ويشرب فأرتوى ، وينام فأستريح ، ويحلم فتسبح روحى وروحه فى إشراق سماوى من الغبطة لا يوصف ولا يحد !

ما هذا الضياء الذى يشع فى نظراتى ؟ ما هذا الرجاء الذى يشيع فى بسماتى ؟ ما هذا الرضا الذى يعمر نفسى ؟ ما هذا النعيم الذى يملأ شعورى ؟ ذلك كله انعكاس حياة على حياة ، وتدفق روح فى روح ، وتأثير ولد فى والد !

ثم انقضت تلك السنون الأربع ! فصوّحت الواحة وأوحش القفر ،
وانطفأت الومضة وأغطش الليل ، وتبدد الحلم وتجهّم الواقع ، وأخفق الطب
ومات رجاء !

يا جبار السموات والأرض رُحماك ! أفى مثل خفقة الوسنان تُبدّل الدنيا
غير الدنيا ، فيعود النعيم شقاء والملاء خلاء والأمل ذكري ؟ ! أفى مثل تحية
العجلان يصمت الروض الغرد ويسكن البيت اللاعب ويقبح الوجود الجميل ؟
حنانيك يا لطيف ! ما هذا اللهيب الغريب الذى يهب على غشاء الصدر ومراق
البطن فيرمض الحشا ويذيب لغائف القلب ؟ اللهم هذا القضاء فأين اللطف ؟
وهذا البلاء فأين الصبر ؟ وهذا العدل فأين الرحمة ؟

إن قلبي ينزف من عيني عبرات بعضها صامت وبعضها مُعول ! فهل لبيان
الدمع ترجمان ، ولعويل الثا كل ألحان ؟ إن اللغة كوّن محدود فهل تترجم
اللانهاية ؟ وإن الآلة عَصَب مكدود فهل تعزف الضّرَم الوارى ؟ إن من يعرف
حالى قبل رجاء وحالى معه يعرف حالى بعده ! أشهد لقد جزعت عليه جزءاً
لم يغن فيه عزاء ولا عظة ! كنت أنقر ممن يعزيني عنه لأنه يهينه ، وأسكن
إلى من بنا كينى عليه لأنه يُكبره ، وأستريح إلى النادبات يندبن القلب الذى
مات والأمل الذى فات والملّك الذى رُفِع !

لم يكن رجاء طفلاً عادياً حتى أملاك الصبر عنه وأطيع السلوان فيه ؛ إنما كان
صورة الخيال الشاعر ورغبة القلب المشوق ! كان وهو فى سنه التى تراها يعرف
أوضاع الأدب ، ويدرك أسرار الجمال ، ويفهم شؤون الأسرة ، ويؤلف لى
(الحواديت) كلما ضمني وإياه مجلس السمر ! كان يجعل نفسه دائماً بطل

(الحدوتة) فهو يصرع الأسود التي هاجمت الناس من حديقة الحيوانات ،
ويدفع (العساكر) عن التلاميذ في أيام المظاهرات ، ويجمع مساكين الحى
في فناء الدار ليوزع عليهم ما صاده بينديقته الصغيرة من مختلف الطير !

والهف نفسى عليه يوم تسلل إليه الحمام الراسد في وعكة قال الطبيب إنها
(البرد) ، ثم أعلن بعد ثلاثة أيام أنها (الدقتريا) ! لقد عبث الداء الويل
بجسمه النضر كما تعبث الريح السّموم بالزهرة الغضة ! ولكن ذكاه وجماله
ولطفه ما برحت قوية ناصعة ، تصارع العدم بحيوية الطفولة ، وتحاجّ القدر
في حكمة الحياة والموت !

والهف نفسى عليه ساعة أخذته غصة الموت ، وأدركته شهقة الروح ،
فصاح بملء فيه الجميل : (بابا ! بابا !) كأنما ظن أباه يدفع عنه ما لا يدفع
عن نفسه !

لنا الله من قبلك ومن بعدك يا رجاء ، وللذين تطولوا بالمواساة فيك
السلامة والبقاء !

[٦ أبريل سنة ١٩٣٦]



محمد ﷺ

إن في حزن القوي عزاء لجزع الضعيف

تخطفت المنايا السود فلذات الرسول بنات بعد بنين ، فلم يبق إلا فاطمة قرة
لعينه وعزاء لنفسه . وكانت جراحات القلب العظيم لا تجد لمسها المصّ فراغاً
بين آلام الرسالة فتندمل في سكون وصمت . فلما عنت سورة الشّرك في مكة ،
وعلت كلمة الله في الجزيرة ، وتحققت وحدة العرب في الوجود ، وأخذت نفحات
السلام الإلهي تنضج الجو المشتعل بالنار ، وتطهر الثرى المحضوب بالدم ، تنهت
في الإنسان الأعلى مشاعر الطبيعة ، وتجددت في العربي الرسول عواطف الأبوة ،
وحزّ في نفس محمد أن يرى أمهات المؤمنين يعقمن عشرة أعوام متتابعة ، فيبيوتهن
التسعة حول المسجد المهلل الذّاكر غرقى في السكون الرهيب والصمت الموحش ،
لا يؤنس حجراتها غناء المهد ، ولا يبهج أفئيتها مروح الطفولة
لا ريب أن أسرة محمد الرسول شملت جزيرة العرب كلها ، وستشمل عالم
الإسلام أجمع ؛ ولكن أسرة محمد الرجل لا تزال المأمن آلام العبقريّة ، ومحنة
من محن البطولة . تدرع باسم الله وبرز وحده لشياطين الأرض ، فجاهد الوثنية
حتى أقر الحق ، وعالج الإنسانية حتى أعلن الخير ، وشذب الطبيعة حتى أنمى
الجمال ، وبلغ الرسالة حتى لم يبق لرضى الله غاية لم تدرك ، ولا لصالح الناس
سبيل لم تشترع ، ولكنه هدَفَ للستين في جهاد الشّرك والجهل والهوى ،
ولا يزال يجد في جوانب نفسه الكبيرة عاطفة لم تُرضَ وحاجة لم تُقْضَ ورسالة

لم تتم ! تلك هى عاطفة القلب للولد ، وحاجة النفس إلى التجدد ، ورسالة الحياة إلى الحياة

بين ظلال النخل والكرم ، وفى بيته المصرى على العالية من ضواحي المدينة ، أتم الله نعمته على رسوله فوهب له على الكبر إبراهيم ! يومئذ تنفس الصبح بأنفاس الفردوس ، وضاحكت الشمس خمائل يثرب من خلال الأجنحة النيرة ، ومست يد الربيع الخصبه دوحة النبوة ، وغرقت نفوس المؤمنين فى مثل صفاء الخلد ، وأقبل المهاجرون والأنصار على المسجد المستبشر يهتفون النبى بالخليفة الوليد والأمل الجديد والعوض المبارك . ونهض الرسول الوالد إلى بيت مارية القبطية ليرى نعمة ربه وبضعة كبده ، فوجد فى طلعة إبراهيم الأنس الذى يعوزه ، والرضى الذى يرجوه ، والخلف الذى يتمله ؛ ففاضت غبطته لله حمداً وعلى المؤمنين بركة وفى الفقراء صدقة . رفع أمه إلى مقام أزواجه ، ونفح مرضعته بسبع من المعزى سمان يحلبن عليها وعليه ، ثم عق له بكبشين أملحين ، وتصدق بزنة شعره فضة . وتعود كل صباح أن يزور أم ولده فيحمله منها ليضمه ويشمه ، ويتذوق طعم السعادة الأرضية فى ريحه ، ويطالع نفسه العائدة فى نفسه ؛ ثم يدخل به على الأمهات اللاتى ولدن جميع المسلمين ولم يلدن ، فيباهى بحسنه ، ويعتبط بنموه ، ويحتمل راضياً فى سبيل ذلك كلة غيرة حميرائه^(١) وكيد نسائه

ولكن أنبياء الله موضع بلائه وسر حكمته ! دعوتهم الحق والحق ثقيل ، وعُدَّتْهم الصبر والصبر كليل ، وبرهانهم الألم والألم قاتل ! غرباء فى الأرض

(١) أم المؤمنين عائشة

لأنهم من السماء ، وأغراض لسهام القدر لأنهم ضحايا ، وأمثلة لبؤس العيش لأنهم عبر ! هذا ابراهيم حبة قلب أبيه وسواد عين أمه مسبوتاً على فراش المرض تحت النخيل ! تذوى نضارته على وهج الحمى ، وتذوب حشاشته على عمر ك الموت ، وأمّه وخالته قائمتان على سريريه تشهدان منظر آيهون في جانبه على الوالدين الجنون والكفر والعدم ! وهذا أبو إبراهيم يضعضه النبأ المروّع فيتحامل على عبد الرحمن ابن عوف ، ويمشى ثقيل الخطى لهيف الفؤاد إلى الصغير المحتضر !

لو كان لمتاع العيش غناء لتقلب فيه المؤمن ؛ ولو كان لقانون الموت استثناء لأفلت منه المصلح ؛ ولو كان في قلب الثا كل الحزون شبهة لجلتها محنة الله لرسوله ! أخذ النبي ابراهيم من حجر أمه فوضعه في حجره ، ثم نظر من خلال الدمع إلى قسامه المشرقة تغشاها ظلال الموت ، وقال بصوت متهدج وفؤاد متأجج واستسلام مطمئن : « إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً »

يا لله لقلوب الوالدين ! إن النبي الذي وُلد في مهد اليتم ، ودرج في حجر العُدم ، وتقسمت عمره عوادي الخطوب ، فكابد أذى قریش وحقد المناققين وكيد اليهود ، وعالج مكاره الدعوة من القلة والذلة والهزيمة والفتنة ، قد احتمل كل ذلك بصبر المجاهد ويقين المؤمن وعزم الرسول ، ويصيبه الله في إبراهيم وهو رضيع فيرفض عنه الصبر ويتملكه الجزع ، ويقف من الشكل الأليم موقف كل والد يرى جزءه الجديد يبلى ، ورجاءه الناشئ يخيب ، ثم يقول : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزع ، وإنا بعدك يا إبراهيم لحزونون . أما والله لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزننا عليك بأشد من هذا ! » وينال من الصحابة حزن الرسول فيتقدمون إليه يُذَكرونه ما نهى

عنه فيقول : « ما عن الحزن نهيت . وإنما نهيت عن العويل . وإن ما ترون
بني أثرُ ما بالقلب من محبة ورحمة . ومن لم يُبد الرحمة لا يبدى غيره عليه الرحمة »
على أن حزن الرسلى لا يكون إلا بمقدار ما فيهم من ضعف الإنسان . لذلك
لم يلبث الرسول أن عاد إلى نفسه فصلى على ولده ، وسوى عليه القبر بيده ، ثم رش
فوقه الماء وأعلم عليه علامة وقال : « إنها لا تضر ولا تنفع ، ولكنها تقر عين الحى .
وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه »

تعزيت يارسول الله لأن الألم سبيل من سبيل دعوتك ، والعزاء أصل من
أصول دينك ، والأرض وما عليها أهون من دمعك ، والسماء وما فيها ثواب
لصبرك ، ولكن ماذا يصنع البائس المحزون إذا فقد الرجاء ، وليس له في يومه صبر
ولا في غده عزاء ؟

[٢٠ أبريل سنة ١٩٣٦]



الملك العالم فؤاد الأول



سبحانك اللهم مالك الملك !
تدبّر أمرك في سمو على مدارك
العقل ، وتنفذ حكمك في استقلال
عن هوى الناس ! فلا حرص الوالد
على وحيدته يلطّف قضاءك فيه ،
ولا حاجة الشعب إلى مليكه تردّ
بأسك عنه . حكمة ضلّت فيها الفطنة
ضلال الأفنّ ، وقوة ضاعت فيها
القدرة ضياع العجز ، وسلطان
خضع له الملك خضوع الشوكة !

كان الملك فؤاد (رحمه الله) مظهرًا من مظاهر القدر في الأرض . يجلس
على عرش من أعرق العروش نسبًا في الملك ؛ ثم يأمر فيطيع شعب ، ويقول
فيسمع عصر ، ويعمل فيسجل تاريخ ، ويضع حكمه في الأمور موضع الإرادة
الساوية فيكون شريعة لا تخالف ، وعقيدة لا تنكر . وتلك طريقة الملك
بمعناه الشرق الموروث ، تصلح ما دام لها من هدى الله دليل ومن رّوح العدالة
سند . وشبل إسماعيل كان ملكًا بنشأته ومصلحًا بطبعه : ربّى تربية ملكية ،
ونشأ تنشئة عسكرية ، وثقّف ثقافة حديثة . ثم تقلب بين ملكية رومة ،

وخلافة الأستانة ، وخديوية القاهرة ، فارتسم على صفحة ذهنه صور من كل .
ولكن عبقريته الفنية وعقليته العلمية ورجولته العملية ، جعلت منه ملكاً فيه
خصائص الملك ، وليس فيه نقائص الملوك وإذا قلت إن الشرق لم ير قبل فؤاد
ملكاً واسع الإحاطة شامل الثقافة قوى الإدراك لا تبعد عن الصدق
كانت مواهب الأمير فؤاد تأبى عليه إلا أن يكون كخالد بن يزيد رجل
علم إن لم يكن رجل ملك . لذلك لم يصبر طويلاً على أن يكون حاشية للسلطان
في سراى عبد الحميد أو قصر عباس ، فعاد فاتبع إحدى سبيلي المجد ؛ وأقبل
يدكى النهضة المصرية بالعلم النافع والعمل المنتج والقوة المحركة ؛ فكان رئيساً
لتسع عشرة جمعية أو مؤسسة ما بين علمية واقتصادية وخيرية ، كلها من اقتراح
رأيه أو من ثمرة سعيه . فلما بوأه الله عرش مصر في ساعة مضطربة وحالة مبهمة ،
كان يرى لطول ما خبر الشعب وكثرة ما عالج الأمور ووفرة ما عرف
من الوسائل وكفاية ما تزود للإصلاح وقوة ما ضمن لتوزيع العدل ، أنه أول
الناس وأولى الناس بقيادة أُمته في أشد مراحلها تعرضاً للضلال والخطر . وهذه
القيادة نوع من أنواع الحكم المطلق ، يعتمد على وحي العقيدة وإخلاص الرأي
كالخلافة ، أكثر مما يعتمد على استبداد الزعامة وقوة الجمهور كالدكتاتورية .
ومن ذلك كان منشأ النزاع الثلاثي الذي قام بين العرش والاحتلال والدستور
حيناً على حين . ومن طبيعة هذا النزاع أن يتجاذب أطراف الأمة الثلاثة فتنبسط
لتنقبض ، وتتسع لتضيق ؛ ولكن القوة التي كان الملك فؤاد يستمدّها من صبره
وحكمته وجراته وخبرته وذكائه كانت في الكثير الغالب تشد الطرف الراجح
إلى يده ، فيسير في الإصلاح بالقدر الذي يبقى على هذا التجاذب من الإمكان
والقدرة . ومع ذلك كان التقدم في عهده على محافظته وأناته محسوس الأثر ؛
فلقد تعهد منابت الثقافة فغذاها بعونه ، وتفقد منابع الثروة فرفدها بعنايته ،

وبسط رعايته على كل أمر من أمور الدولة وكل شأن من شئون الأمة حتى لا تجد عملاً من الأعمال العامة إلا كان فيه بسطة من لسانه أو يده .

ولعل أشرق وجوه الإصلاح في عهد المليك الراحل ما اتصل منها بالجمعيات الاقتصادية والمؤسسات العلمية والمؤتمرات الدولية والمتاحف الأثرية والمرافق العامة . أما الأعمال الفردية والجهود الأدبية فكان نصيبها من حكمه السعيد كنصيبها من حكم جده الأعلى محمد على . على أن عناية المليك العظيم بها قد بدت بواكيرها المرجوة في مثل بنك التسليف وجمع اللغة ؛ فلو مد الله في عمره الحافل المبارك حتى تنضج لكان عصره أشبه بعصر لويس الرابع عشر .

كان الملك فؤاد بالرغم من عوامل نشأته وعلى النقيض من ميول أبيه ، شديد التعلق بدينه ، قوى الحرص على شرفيته . يكره أن يجعل من مصر قطعة من أوربا ، ويجب أن تظل دولة إسلامية شرقية لها تقاليد خاصة وأسانيدها المتصلة ، وسماتها المميّزة ، فساعد الحجاب ، وأيد الطربوش ، وعضد الدين في كل خلاف بينه وبين التطرف . وكان من ذلك شيء من التصادم المكبوت بين الرغائب الوثابة الشابة ، وبين هذه الأناة الملكية الحكيمة .

إن من العسير على المنطق النزيه أن يحكم اليوم على أعمال مليكنا العالم العامل الكفء ، فإنها إنما بدت للناس على أسنة رجال البلاط وعلى أيدي رجال الحكومة ؛ والبلاط قد يتأثر بشهوات الناس ، والحكومة قد تتأثر بنزوات الساسة . ومهما يقل التاريخ في العصر الفؤادى فسيسجل بالخط البارز أنه عصر الرخاء للنيل ، وعهد الاستقلال للأمة ، وفجر النهضة في مصر .

عزى الله مصر عن ملكها العظيم الفقيد ، وبارك الله لمصر في ملكها العزيز الجديد .

صاحب الجلال لفاروق الأول



لم ترمصر في أرجح الظن
قبل احتفالها بمقدم فاروق^(١)، قلبها
يخفق بالحب عن إخلاص ،
ونفسها تفيض بالإجلال عن
حقيقة ، ولسانها يجأر بالدعاء
عن عقيدة ، وسواؤها يتسابق
إلى الاحتفال عن طوعية . لقد
كان ملكها الشاب منذ عودته
من دارعلمه إلى دار حُكمه مهوى
أفئدتها ونجوى ضمائرهما ومجمع

أمانيتها وموضع إعجابها ، لا تصدر في ذلك عن رياء ولا تنقل عن تقليد ولا تعمل
عن تكلف ؛ إنما الطرقات والشرفات والنوافذ كانت مسایل روحية تزخر
بعواطمها الكريمة لملك نشأته على طبعها وحسها ، وأعدته لعرشها بنفسها ،
وعقدت على تاجه المصري الخالص أملها في السلطان الحر والحياة العزيزة .

أرأيت إلى الشعب الشكور كيف وقف صفين من قصر رأس التين إلى قصر
عابدين ، ومن سراى القبة إلى مسجد الحسين ، يلقي على ملكه المحبوب الولاء
مبشورًا في النظر ، والرجاء مكنونًا في الهمس ، والإعجاب معلنًا في التصفيق ،

(١) مقدم جلالته من إنجلترا ليتولى الحكم

فيلتقى شعوره بشعوره ، ويمتزج هواه بهواه ، فيصبح الشعب جسماً رأسه فاروق ، ويصبح فاروق رمزاً مدلوله الشعب ؟

أرأيت إلى الشعب الفخور كيف احتشد مساء الجمعة حول آلات الراديو في الدور والأندية والمقاهى يستمع إلى مليكه الجديد وهو يقرأ فاتحة مُلكه السعيد بلغة عربية مبينة ، ولهجة مصرية فصيحة ، فانفعل بحزن الملك البار وبكى من هذا الانفعال ، وتأثر بشعبية الملك الحر وابتهج من هذا التأثير ، وأحس وهو يحيه أن روحاً قدسية تبعث في هيكله الواهن القوة والفتوة والأمل .

والحق أن تحية فاروق للوطن على هذا النحو الجميل ، وصلاته لله في هذا المظهر المتواضع ، ورسالته إلى الشعب على هذه الصورة الصريحة ، ونزوله عن ثلث مخصصاته للأمة الشاكرة ، كانت أبرع استهلال لعهد الموموق الخصيب .

إذا كان من الحق أن بعض الأسماء ينزل من السماء ، فإن اسم فاروق وضعه القدر وضعاً لهذه الساعة المشهودة من تاريخ مصر . ولعلها أشبه بالساعة التي لُقِبَ فيها الرسول (ص) عمر بالفاروق : فقد كان الإسلام قبل عمر ذليلاً فعزّ ، وقليلًا فكثُر ، ومستخفياً فاستعلن . وهذه مصر تُرْتَقُّ على ثراها الأحداث من كل جانب : فالاحتلال الغاصب ينقص ببيغيه سيادتها في التملك وعُدتها للدفاع وحريتها في التصرف ؛ والاستعمار الجشع يرصد الأهب على حدودها بالعين الخؤون والمنطق المسلح ؛ والناس من إلحاح الذل وإفراط الظلم وامتنياز الدخيل وقصور القانون في حال من الخمود لا ينفع فيها تذكير ولا تبلغ عليها دعوة ؛ وسياسة البلاد تسير في تيه من الأرض فتضطرب لتتقلب وتعود لتبدأ . فلما أراد الله لطريقها أن تتضح ، ولقافلتها أن تسير ، ألقى بأزمته في أيدي الشباب ؛ والشباب يسرون بهداية الله ، ويجاهدون بقوة الإيمان ، ويبلغون بكرم التضحية ؛

فأعادوا للأمة حياتها الدستورية خالصة من الخداع والكذب . ثم جعل الله على الأمة ملكاً من الشباب تتسائر أهواؤهم إلى هواه ، وتتلاقى آراؤهم عند رأيه ، فيقول لهم في منطق فصيح صريح : « إننى أستقبل حياتى الجديدة بعزم وثاب وإرادة قوية ، وأعاهدكم عهداً وثيقاً على أننى سأقف حياتى على العمل لنفعكم ، وموالة السعى فى سبيل إسعادكم . لقد رأيت عن كشب حبكم لى ، وتعلقكم بى ؛ لذلك أرى لزماً على أن أعلن ما اعتزمته من التضامن معكم فى سبيل مصر العزيزة ، فإنى أومن بأن مجد الملك من مجد شعبه »

ذلك هو ملكنا العظيم بعقيدته السلمية ونفسيته الكريمة وخطته الواخحة ؛ وهذا هو دستورنا القديم أعادته إرادة رشيدة ، وأعدته وزارة نزيهة ، وجمعته انتخابات حرة ؛ وأولئك هم شبابنا الخالص ترمدوا على حياة الجمود وعقدوا نيّتهم على أن يعيشوا كراماً أو يموتوا أغزّة . فمن أين إذن تُؤتى النهضة المصرية ؟ لا تُؤتى النهضة المصرية إلا من جهتين كانتا فى كل زمان ومكان مصدر الشرور للأمة : جهة الفساد فى الحاشية ، وجهة الخلاف فى الزعامة . فأما الفساد فى الحاشية — ومعاذ الله أن يكون — فوباله أن يزيف فى البلاط حقيقة الأمة بميوله ، أو يشوّه فى الأمة صورة الحكومة بفضوله . وفى ذلك ما فيه من انفراج الحال بين الشعب وملاذه الأعلى . وأما الخلاف فى الزعامة فبلاؤه تمزيق الوحدة وتفريق الكلمة وتوزيع الجهد وتغليب الشهوة وتمليك الخصم . وما فتّى أعضاءنا وهذّ من قوانا إلا هذا الخلاف الباغى لا يراى به إلا اقتناص المال أو الجاه أو الحكم . على أن فى الحب الأصل المتبادل بين الملك الديمقراطى البر وبين شعبه الوفى الخالص ، ضمناً يرفع الحجب المسدولة ، ويمنع الوساطة المدخولة ، ويديمّ تجمعة ما بين النفوس الزعيمة ثبت الله عرشه بالسلام ونضر عهده بالوئام وجمل حكمه بالاستقلال والمشورة !

الفد المرفف

كاد الأدباء الناشئون فى مصر وفى غير مصر ىنصرفون عن الانشاء إلى النقد . وأرفد بالنقد هنا معناه العامى أو مدلوله الأعم ؛ فإن النقد المنطقى بمعناه الأخص إنما هو ملكة فنية أصيلة ، وترفية أدبية طويلة ، وثقافة علمية شاملة . والناقد بهذا الاعتبار ىشارك المشترع فى صدق التفرز ، والفلسوف فى دقة الملاحظة ، والقاضى فى قوة الحكم . ومن ثم كان نوابغ النقد فى العالم أندر من نوابغ الشعر والكتابة . وهذا الذى تقرأه فى الصحف العربية من حفن إلى حفن لا ىدخل فى هذا الباب إلا كما ىدخل المحون فى نطاق الجد ، أو العبث فى سباق المنطق ؛ كالرجل يقعد به العجز عن الاحاق بالقادرفن فىقف نفسه موقف القائد الحصف ، ىلمز هذا وىتنادر على ذاك ، وىزعم أنه وحده المسىطر على ثمرات الذهن ، فىحكم بذوقه الخاص على هذه بالقبح وعلى تلك بالفجاجة ؛ وأمره كله لا ىخرج عن مألوف الطباع الساخرة الفكهة : تصور الحق بلون الباطل لتضحك ، وتبرز الجمفل فى مظهر القبح لتسىء . وعفب الناس طرفة فى بعض الناس ، لا فكلفهم إلا تحرفك اللسان إذا لقوا سامعاً ، أو تجرفر القلم إذا وجدوا صحففة . هذا طالب فى ثانوفات القاهرة فملى خطة فى الكتابة على الجامعة ؛ وذاك معلم فى ابتدائوف بفروت فلقى درساً فى الصحافة على القاهرة ؛ وذلك صحفى فى مطارح الهجرة فقفى بالموت على الأدب العربى كله !

علام اعتمدت فاف بنى فى إنشاء خطتك ؟ وإلام رجعت فافأخى فى إعداد

درسك ؟ وم اتخذت يا زميلي أسباب حكمك ؟ وهل تظفر من هؤلاء بجواب ما دمت في الزمن الذي ترى فيه الناظم ينظم ولا يعلم العروض ، والكاتب يكتب ولا يدرس النحو ، والمجادل يجادل ولا يفقه الأصول ؟ إنها فوضى تتولد في عصور الانتقال وتفشو في ابتداء اليقظة فلا يسكن أمر إلى قرار ، ولا يطمئن نظام على وجه ، ولا يخلص رأى من حيرة ، ولا يصدر حكم عن اختصاص !

إن هذا الضرب من النقد إما أن ينبعث عن مكان من الحقد فيرمى إلى التجريح ، وإما أن ينطلق من مواضع الغرور فيسعى إلى الهدم . كان منذ قريب يعتمد الناقد إلى الكتاب القيم في الفلسفة أو التاريخ أو القانون قد ألفه مؤلفه من دمه وعصبه وعقله وعمره وماله ، فيقف منه موقف الحاسد الأحق ينقد في بعض صفحاته فعلاً تعدى بغير حرفه ، أو اسماً جمع على غير قياسه — وقد يكون لكل منهما وجه — ثم يحكم على الكتاب كله بأنه سخي لا يقرأ ، وضعيف لا يعيش ! ثم أصبح اليوم يعرض للموضوع فيقول : هذا قديم لأنه يدور على بحث في تاريخ الشرق أو على معنى من معاني الدين أو على أثر من آثار البلاغة ، وهذا جديد لأنه يقوم على حادثة من حوادث الغرب أو على رجل من رجال الأكاديمية أو على غانية من غواني المسرح وهذا مقلد لأن أسلوبه شريف ممتنع ، وهذا مجدد لأن أسلوبه مبتذل ممكن ! ثم تعصف بأقلامهم اللينة نخوة الحفاظ وحماسة الفتوة فيصيحون :

أमितوا أدب العاطفة وأحيوا أدب القوة !

أبيدوا أدب الخاصة وأوجدوا أدب الشعب !

انبدوا أدب المقالة والزموا أدب القصة !

صيحة قرارها حق ومقامها باطل ! فإن إجماع الناس واقع على أن خلو الأدب الحديث من أدب القوة وأدب الشعب وأدب القصة خلل لا بد أن يسد، ونقص لا بد أن يكمل ؛ ولكن من الذى يقول ويعنى ما يقول : إن وجود هذه الأنواع يقتضى عدم الأخرى ؟ إن لكل فن من الأدب طبقة من الناس تتذوقه، فإذا منعها إياه طلبته . والناقص لا يكمل برفع نقص ووضع نقص ؛ والبناء لا يتم بهدم ركن وإقامة ركن

أرايتك^(١) إذا كان الأدب كله قوياً يخشّن الصدور ، وحساسياً يؤرث الحفاظ ، أما كنت تقول : أين الأدب الذى يصور ألوان الحياة المريرة ، ويترجم أشجان القلوب الكسيرة ، ويرقق حواشى الأنفس الجافية ؟

أرايتك إذا كان الأدب كله شعبياً يعبر باللسنة السوقية وينقل عن عواطف العامة ، أما كنت تقول : أين الأدب الذى يرضى أذواق الخاصة فيجمع بين سمو الفكرة ونبل العاطفة وقوة الأسلوب فى صورة من الفن الرفيع تسمو بالنفوس إلى المثل الأعلى وتغمر الشعور بالجمال الخالد ؟

الأدب صورة النفس فلا بد أن ترسم فيه مشاعر الفرد . والأدب مرآة الحياة فلا بد أن تنعكس فيه ألوان المجتمع . وما دام فى الناس الحساس والبليد ، والحوار والجليد ، وفى الدنيا التفاوت الذى يوجد التمايز ، والألم الذى يفجر الدموع ، واللذة التى تبعث المسرة ، والمدنية التى تخلق التنوع ، فلا بد أن يكون الأدب الصحيح صدى لكل ذلك .

(١) أرايتك بمعنى أخبرنى

ليست وظيفة النقد أن يهدم أو يعميت أو يشترع . تلك وظيفة الطبيعة التي
تطور كل شيء ، وتغير كل نظام ، وتسد كل عوز ، وفق قانون ثابت . إنما وظيفة
الناقد أن ينظم الموجود وينبه الأذهان إلى المفقود . أما أن يحاول تغيير الطباع
بقانون ، وقلب الأوضاع بمقالة ، ومحو الثابت بنكتة ، فذلك عبث لا يخلق
بكرامة إنسان ، وتهريج لا يتركو بضمير فنّان

أما بعد فلعل في هذا الإجمال يا صديقي (نجيب) بعض الجواب عن مقالك
(فوضى النقد) ، ولعلك تكتفي مني بذكره عن نشره ، فإنك سميت أشخاصاً
وعينت كتباً وحددت حوادث ، وفي بعض ما قلت مشابهة مما يقول هؤلاء !
ومن خلق الرسالة كما تعلم أن تكتفي بالتلميح ، وتتأبه عن التجريح ، وتعوذ بفطنة
قراءها من شر ذلك

[١٨ مايو سنة ١٩٣٦]



أروع أيام سعيد

لعل يوم الجمعة التاسع عشر من شهر يونية كان أروع أيام سعد ! إنتصر فيه وهو رفاتٌ وفكرةٌ وذكري، على الحقد الذي طالما نبج المجد، وعلى السلطان الذي طالما قهر الزعامة . كانت روعة أيامه الغرّ التي أسفرت عنها ليالي مالطة وسيشيل وجبل طارق آتيةً من شخصيته التي طاولت العروش، وعزيمته التي صاولت الجيوش، وبلاغته التي عاجزت القدر . أما يوم نقل الرفات إلى الضريح الرسمي فكانت روعته آتية من الفكرة التي ثبتت على الاضطهاد، وغلبت على الاستبداد، وظهرت على الإفك، ظهور الدين على الشرك؛ بالإيمان والإخلاص والتضحية . وسر الجلالة العظمى في سعد أنه كان وهو حي يمثل كبرياء الشعب، ثم أصبح وهو ميتٌ يمثل سلطان الأمة . كان يمثل كبرياء الشعب لأنه خرج منه ونبغ فيه ، فكان حجة له على كبرائه الذين كانوا يتأبهون عنه ويلمّزونه بالضعف ، وينبذونه بالفلاحه ؛ ثم عاد يمثل سلطان الأمة لأن جهاده الباسل بها ولها جعل اسمه رمزاً للاستقلال وعلماً على الدستور وعنواناً على الديمقراطية . فمظاهر الفرح المستطير، أو الحزن الرُمّض ، أو العزة المستطيلة ، التي أعلنها الشعب يوم خرج من معتقله أو رجع من منفاه ، ويوم الاحتفال بوفاته أو بنقل رفاتة ، كانت مظاهر صادقة لعواطفه المتحدة ، صدرت عنه بدافع من نفسه وباعث من شعوره ، لأن سعداً لم يعد رجلاً محدود الوجود بذاته ومميزاته ورغائبه ، وإنما أصبح معنى مقدساً من معاني الشمول يختصر في نفسه خصائص جنسه ، ويجمع في قلبه أمانيّ شعبه ؛

فهو علم يخفق بالأمل ، ومنارة تشع بالهداية ورسول من رسل القيادة الذين يبعثهم الله إلى الناس في متاهة السبُل وضلالة النفوس فيكونون رمزاً لرجاء الإنسان في الله ، ومثالاً لرحمة الله بالإنسان

كانت النفس المصرية في ذلك اليوم المشهود على حال عجيبة من شتى الأحاسيس ومختلف العواطف : سرور مَزْمُومٌ بفوز الإرادة القومية واستطاعتها بعد تسع سنين أن تصحح خطأ فادحاً من أخطاء الغرور الجاهل ، وحننٌ دخيل هادئٌ لاحتجاب الشعاع وقد غام الأفق واستعجم المسلك ، ثم شماتة حانقة تصيح بالجبابرة الضعاف من أفواه الطرق ومنافذ البيوت وعلى أطورة الشوارع وسوح الميادين قائلة : أنا الأمة ! أنا الإرادة الأولى ! أنا الكلمة الأخيرة !

وكان في موكب الرفات المنتصر قوم يمشون ، وجوههم إلى الأرض ، وأفكارهم إلى وراء ، يقولون في أنفسهم : « استعنا على كبت هذا المجد الثائر بقوة السلطان وخبّة البرلمان وثروة الخزانة فإذا كل أولئك معناه هَوَجُ العاصفة ورهج الغبار وسرف المطر ؛ وإذا الشمس من فوق أولئك لا تزال ساطعة الشعاع دائبة الارتفاع لا يرتقى إليها صخب ، ولا يعلق بها قَتَمٌ ! إن الموت نفسه قد انخرلت عنه قواه فلم يستطع طمسه في عين الوجود ولا محوه من سمع الزمن . لا يزال ملء الحاضر وعدة المستقبل ، ومن العناء الباطل أن يحاول الجبروت مهما طغى أن يدخله في الماضي . هؤلاء هم الجند الذين طالما أكرهناهم على أن يطاردوه في الأقاليم ، ويحاصروه في العواصم ، ويصادروه في الأنديّة ، ويضايقوه في المنازل ، ويحولوا بينه وبين الشعب ، قد انقلبوا — بأى معجزة لا ندرى — فصاروا زينة لمجده وقوة لوفده وحراساً لمبدئه !

وكان يإزاء واحدٍ من هؤلاء الباشوات المفكرين طالب صادق الحدس المعنى الفراسة ، لا يزال على وجهه الأبلج أثر من عصي الشرطة وبنادق الجند ، فرأى

بين الحى المستذل الضارع ، وبين الميت المتجبر الشامخ ، عبرة من عبر الدهر ،
وحكمة من حكم القدر ، فهبّ يصوغ من هذا المعنى هتافاً له ولرفاقه ؛ ولكنه تذكر
أن الوطنى لا يحقد ولا يشمت ولا ينتقم ؛ فاكتمنى بأن يقول لهذا الزعيم الرحيم
فى نفسه : لقد أدركت بعد الأوان أن المجد خير من الحطام ، وأن الشعب أبقى من
الحكومة ! لقد بلغت كل عال غير المجد ، وربحت كل نفيس غير الشرف !
ذلك سعد مثال الزعامة الحق يانواب الأمة ! كان فى مماته كما كان فى حياته
موضع القداسة منها وموطن الرجاء فيها ، لأنه أول مصرى حكمها بأمرها ، وساسها
برأيها ، ونقلها من نظام القطيع إلى نظام الشورى ، وحول خزانها من المتاع الخاص
إلى المتاع المشترك ، وجعل العلاقة بين الأمة والحكومة « علاقة الجندى بالقائد ،
لا علاقة الطائر بالصائد »

كان سعد من الشعب وظل طول عمره مع الشعب . تجبر ولكن على طغيان
الثروة ، وتكبر ولكن على صلف المحتد . أما علينا وعلى أمثالنا من سواد الناس
فكان كالأخ العطوف والوالد الحذب

بهذه السيرة المجيدة فى الحياة يجب أن يقتدى أصحابه البررة ؛ وبهذه العقلية
السليمة فى الحكم ينبغى أن يسير خليفته إلى الفوز . وبهذه الصفحة المشرقة
فى التاريخ يضع سعد للخاصة دستور الزعامة ، ويضرب للعامة مثل البطولة .
وبهذه المنزلة الفريدة التى نزلها من شعبه يتولد فى النفوس الشابة الرغبة طموح
العظمة فيسعون لها بالحق ، ويتنافسون فيها بالكفاية .

هاتان سبيلان واضحتا المعالم بينتا الحدود فى سياسة الأمة . أدت أولاهما بسعد
إلى حياة الموت ، وأسرت أخراهما بفلان إلى موت الحياة ! فهل لأكياس الناس
بينهما خيار ؟

إلى صاحب السعادة المحافظ

أمين أفندي الحاوي كاتب عمومي له في هذه الصناعة القدم الأولى
والمكان المنفرد . حفظ في صدر أيامه كتابي : (إنشاء العطار للمحبين والتجار) ،
و (أبداع الأساليب في العرائض والمكاتيب) ، وهما كتابان يجمعان أعاجيب
شئى مما يخطر للبكم من أهل الهوى ، ويعرض للجهال من ذوى الحاجة . ثم دخل
الجندية في قرعة الخديو عباس ، وهى القرعة التذكارية التى طُلب فيها لدائه
(للجهادية) ؛ فكان يكتب لرفاقه الجنود رسائل الشوق والعشق والسلام
كل رسالة بنصف قرش . فلما خرج من الجيش العامل إلى (الرديف) سلك
نفسه فى نظام (البوليس) تسع سنين كوامل ، ازداد فيها علماً بطرائق النظام
وطوائف الأحكام وأحوال المجتمع . وكان من الممكن أن يتقلب فى نعيم الشرطة
مدة أطول ، لولا أن خيرها المتدفق فى يده من الشوارع والخوانيت قد فاض
على جسمه ، فتراكب لحمه ، وتدلى بطنه ، واستغار فيه الشحم حتى كاد ينقطع
قيامه ؛ فلم يكن بد من الحكم عليه بهذه الحجة القائمة على طِراح عينه وطول يده
وقعود همته . فخرج إلى حياة النحر ، وهى منذ شب حديث عبقريته
ومطمح أمانيه . واتخذ له مكتباً تحت السماء أمام سراى المحافظة ، وألقى حيله
الموهوبة والمكسوبة فى غمرة الحياة وزحمة العيش ، فعادت له بالشهرة الراحمة
فى دنيا القضايا والشكايا والسмсرة . فكانت العريضة أو الرسالة أو (الكمبالة)

التي يحررها الحاوى ، أملاً لحرفائه فى ضمان الفوز ، ومثلاً لزملائه فى فن الكتابة .
ثم تدخل فى زوايا البيوت ، وتغلغل فى طوايا السرائر ، وتبسط على موائد الأنس ،
وتفنن فى أساليب الوساطة ، فكان دليل « الخاطب » ونديم الشارب وسلوة
الحزون وسمسار المشتري ووكيل المدعى وسفير الخصوم ورسول الأوبة . تراه
أكثر النهار على مقعده الخشبي الضيق فى جلباب فضفاض من الكستور المخطط ،
ومعطف رقيق من النسيج المهلهل ، ورغائب الناس تنثال عليه انثيال النحل
العاسلة على الخلية الضخمة : هذا صاحب مظامة يريد عرض حال ، وذاك طالب
مصلحة يتلمس طريق المسعى ، وتلك زوجة هاجر أو حبيبة فاجر تطلب المعونة
من قلمه أو لسانه ، وهذا رافع دعوى يريد توكيل محام ، وذلك زميل عجلان
يطلب كلمة لغوية أو جملة نحوية يزين بها رسالته الغالية الثمن (لزبونتة) الرفيعة
القدر ، وأمين الأريب فى يده قلم ، وفوق أذنه قلم ، وعلى شفته بسمت تتعاقب
مختلفات السعة واللون والدلالة ، يتلقى كل طالب برغبته وكل سائل بجوابه .
وهو بعد ذلك لكثرة ما يغشى بيوت الناس عارف بأحاديث الأسر ، عالم بأحداث
الجماع ، خبير بألوان المطاعم . فعنده قصة كل زوجين ، وخبر كل صديقين ،
وخصيصة كل صحيفة من صحاف المائدة ؛ فالقرع شفاء من كل داء ، والرز نصيب
الأرض من حقول السماء ؛ وفى الكبد خروق لا تسدها إلا الملوخية ، وفى الجسم
عروق لا ينبضها إلا الكنافة

من عادة أمين أفندى أن يزورنا كما يزور غيرنا حيناً بعد حين ، فيمتعنا
ساعة بأخباره وأسراره ونوادره ؛ ثم ينصرف وتحت إبطه رزمة مما تكسده

عندنا من المجلات المقروءة . دخل علينا أمس جاداً على غير عادته ، وقوراً على خلاف طبعه ؛ ولم يكده يلقي التحية حتى ألقى إلى شيء من الزهو صحيفة مسطرة من ورق (العرائض) وفي رأسها بقلم الثلث : (إلى صاحب السعادة المحافظ) ، وفي ذيلها بقلم الرقعة : (ابن الحاوي) ، وقال :

كتاب مفتوح إلى سعادة المحافظ عن طريق الرسالة . أنتشره أم تطويه ؟ فقلت له : وماذا تريد من سعادة المحافظ يا أمين أفندي ؟

فقال : قرأت في الصحف أنه ألقى (مصايف الأطفال) ، فهزني الخبر وملكتني شهوة الكلام ، فكتبت إليه هذا الكتاب أريد منه أن يضيف نقطة من بحر كرمه إلى مصايف فتصبح بفضلـه مصايف ! والكتاب بين يديك فاقراً

قرأت الكتاب في غمر من أحاسيس شتى تتلون تبعاً بالإعجاب والإنكار ، والحزن والضحك ، والانفعال والتبـلـد . ثم قلت له : إني أقبل كتابك موضوعاً وأرفضه شكلاً ، لأنك عرفت كيف تفكر ، ولم تعرف كيف تعبر ؛ ولغة الدواوين وأسلوب (العرائض) لا يدخلان من أبواب الرسالة ؟

فقال وقد طغى في وجهه الدم ، ونزا في رأسه الغضب ، وانتشر على شفتيه شاربـه الأزرق : كيف ! لقد حفظت الكفراوى ، ولزمت الشيخ عlish ، وصحبت الشيخ رشيد ، وجادلت الأستاذ وجدى ، وقضيت في المحرم أربعين عاماً ! أفتجابهني بعد ذلك بأننى لا أعرف كيف أكتب ! فقلت له : هون عليك ! سأكتب لك هذا الكتاب بلغة المجلات ، فإن أعجبك أمضيته . ثم شرعت أكتب :

صاحب السعادة محافظ القاهرة

« يتقدم إليك بهذه الكلمة والد فقير كابد من نصب العيش وعنت البؤس وتربية الأولاد ما جعله مثلاً صحيحاً لآلام طبقته . إنك ألغيت (مصايف الأطفال) فألغيت حقاً كسبه الفقير من الغنى ، وأخذته العامة من الخاصة . كان هذا الحق لنقصه وقصوره كنظرة أهل النار إلى أهل الجنة يضاعف ألم الحرمان ويحسم شقاء البؤس ، ولكنه على أية حال كان ترضية لكرامة الشعب

ولقد كان في نفسى أن أطلب إلى وزارة الأمة أن تجعل المصايف مضاف تؤوى شرداء الطفولة وطرداء الناقة ، فتتقلها بذلك من الخصوص إلى العموم ، وتحولها من تملق الكمال إلى معالجة الضرورة . فأفاريذ الشوارع وأفواه الطرق وزوايا الأبنية مغطاة في الليل القارس القاسى بمجسوم اليتامى والمهل من أطفال القاهرة ، تترعرع في أحضانهم القدرة أفراس الرذيلة ، وتتكاثر على روائحهم الكريهة جراثيم المنكر ، والملاجئ وحدها علاج هذه الحال الأليمة . فإذا كان هذا الإلغاء لسد هذا الخلل وإصلاح هذا الفساد فما عدوت الصواب ولا أخطأت الحزم ؛ وأما إن كان لقلة المال أو ضعف الرغبة فقد قضيت على فكرة جميلة واعتديت على حق مقدس ... »

وكان أمين قد سكت عنه الغضب ، فنظر فيما أكتب ثم قال منفعلًا :
ما هذا ؟ أين المباشرة ؟ وأين ما يجب لمثل هذا العظيم من عبارات التفخيم ؟ أرجو ألا تكمل ! سأخذ كتابى وأسلمه إلى الباشا يدًا بيد ! فقلت له : أرحتنى أراحك الله ! وسلمته الكتاب يدًا بيد ، ثم صاحفته يدًا بيد . وخرج الحاوى وأنا أرجح أنى كسبت عدوًا جديدًا من جرّاء النشر فى الرسالة

الحلفن ...

ذلك اسم كان^(١) يطلقه الزعيم (ياسين) على ستة من الإخوان جمعهم تشابه الذوق ، وألّف بينهم تجانس الهوى ، فتساهوا الصفاء ، وتقاسموا المودة ، وخلطوا حياتهم بحياة بعض ، فما كانوا يفترقون أصائل الأيام ولا عشايا الليالى . كانوا يتخذون سائرهم كل ليلة فى دار أحدهم ، فيتحلقون على مائدة الشاي السخية ، أو يتقابلون أمام المدفأة الواجحة ، ثم يديرون بينهم سقاط الحديث على أروع ما تُشقه الأذهان الخصبية من براعة الفكرة وملاحاة النكتة وطلاوة الخبر وسلامة النقد وصحة الحكم ، فلا يدعون شأنًا من شؤون الحياة ، ولا وجهًا من وجوه السياسة ، ولا أمرًا من أمور البلد ، إلا تناولوه باللسان المرفف والفؤاد اليقظ والنظر المستقل . فهم معارضون ولا لسان لهم فى حزب ، ومصلحون ولا يد لهم فى زعامة

كانوا يمثلون نواحى النشاط الفكرى فى العراق أصدق التمثيل ؛ ففهم رجل الجيش ، ورجل التعليم ، ورجل القانون ، ورجل الطب ، ورجل المال ، ورجل الشعب . ذلك إلى امتياز كل منهم بسمّة من سمات الطبع ، وصفة من صفات الخلق . فطه الهاشمي^(٢) عذب الروح ، سَرِيّ الأخلاق ، وقور النفس ، مصروف الهم إلى القراءة المنتجة والتأليف المحكم فيما يتصل بالتاريخ والحرب ؛ ولو ترك

(١) كان ذلك فى سنة ١٩٣٢

(٢) رئيس أركان الجيش يومئذ ووزير الدفاع الآن

إلى نفسه لما خرج من مكتبته ولا قام عن مكتبته . وناجى الأصيل^(١) نبيل
 العاطفة ، حلو الفكاهة ، سمح المقادة ، أفلاطوني النزعة ، يعيش في السماء ويحلم
 دائماً بالمدينة الفاضلة . ويوسف عز الدين^(٢) متئد اللسان ، حصين الصدر ،
 سريع الفطنة ، يتبسط في هزل الكلام ويتحوط في جده ؛ وهو لا ينفك لإخوانه
 موضع السر ومرجع المشورة . وكامل الجادر جي^(٣) متوقد الذكاء ، متمرد الطبع ،
 متوثب العزيمة ، دائب الحركة ، صليب الرأي ، يدين بالديمقراطية ، ويميل إلى
 الاشتراكية ، ويرفرف بجناحيه على الفلاح والعامل والمتعطل . وموفق الألوسي^(٤)
 طموح القلب ، سريع البادرة ، بارز الشخصية ، يعتد برأيه إلى حد العناد ، ويعتز
 بنفسه إلى حد المخاطرة . وشوكت الزهاوى^(٥) واسع البال ، ضيق الأفق ، رصين
 العقل ، قد قصر جهده على عمله فلا يكاد يطمع في شيء ، ولا يشارك في رأي ،
 ولا يحفل بمحدث . وأولئك كانوا لما اجتمع لهم من ضروب الثقافة وشتى الخلال صورة
 مصغرة للأمة ، يعيشون منعزلين وهم فيها ، ويفكرون مستقلين وهم منها ، كأنهم
 كانوا آلامها رموزاً تتميز بتميز العنوان ، وتنفرد انفراد العلم . كانوا جميعاً في ربة
 الحكومة إلا كاملاً ، فكان للججاعة الكلمة الحرة والفكرة الطليقة . وقف على
 السياسة الصريحة قواه ، وأيقظ لأطوارها المختلفة رأيه ، فكان يناصر الحزب
 مادام معارضاً ، فإذا قبل الحكم تركه إلى غيره ، حتى انفرد هو ذات يوم بالمعارضة .
 كان اليد اليمنى لياسين في حزب الإخاء الوطني ، وياسين أمل البلاد المرجو
 وزعيمها المنتظر ؛ فلما رآه يقصد الحكم عن طريق الملاينة والمسايرة خالفه ومعه

(١) مدير دار المعلمين العالية (٢) مراقب الميزانية (٣) من سراة بغداد

(٤) مدير كلية الحقوق (٥) طبيب بالصحة

مقاعد البرلمان ووظائف الديوان ومزايا السلطة ، وخرج مُعاضباً إلى الجهاد بالنفس والمال ، فزاول المحاماة ، وعالج الصحافة ، ولقى في سبيل ذلك ما يليق المعارضون الملتزمون من الضيق والعنت

كان لي في هذه (الحلقة) كرسى وثير دائم ، يحيطه الإخوان بالعطف ويخصونه بالكرامة . وكنت أجد في نفسي من الأنس بهم والطمأنينة إليهم ما لا أجده لجماعة أخرى ؛ فكنت أناقلهم شجون الحديث فأعلم منهم ما لا أقرأه في الصحف ولا أسمعه من الناس ولا أراه في الحكومة . كانوا يحملون في نفوسهم آمال العراق الناشئ ، وفي رؤوسهم ثورة الشباب الجديد : سياستهم الجماعة قبل الفرد ، والعامة قبل الخاصة ، والعراق قبل العروبة . ولكن آراءهم كانت في رأيي أشبه بأحلام الفلاسفة تحت رواق المعبد ؛ لأنك إذا استثنت كمالاً لا تجد فيهم من يفكر في انقلاب أو يجهر بمعارضة

تركت العراق وفيصل ونورى وجعفر قد مكّنوا دولته بالمرونة اللبقة والسياسة التجارية التي تعطى لتأخذ . وكان شباب العراق قد سئموا سياسة الأمر الواقع وبرّموا بالإرادة المطلقة ، فتمنوا حكومة زعيمهم المحبوب ياسين . وتسلم ياسين مقاليد الأمور وانضوى إليه رفيقاه ، وآل إليهم سلطان البلاط بالفعل ، ونفوذ (دار الاعتماد)^(١) بالقانون . وسارت السفينة آمنة كما يرى البعيد من الأنغام والصخور . ثم تفرقت السبل بعدئذ برجال الحلقة

طخ ! طخ ! طخ ! ثلاث قنابل ألقها ثلاث طوائر على سراي الحكومة !

فروعت الموظفين وأفزعت الأهلين ، فأخلوا السراى وأغلقوا المدينة ! ماذا ؟
الجيش الثائر يحاصر بغداد ويطلب إلى المليك إقالة الوزارة ! وبكر صدق الفاتك
الطاح يقترح للوزارة الجديدة حكمة سليمان ! وحكمة سليمان يُدخل في وزارته
الحلقة ما عدا طرفيها ! لقد كان صديق الحلقة ، وكان في معارضته من طراز
(كامل) لا يحفل الثراء ولا يبالي المنصب ، حتى رووا أنه ضاق يوماً براتب
سائقه فذهب به إلى قائد الشرطة يرجو منه أن يجد له عملاً يعيش عليه !

[٩ نوفمبر سنة ١٩٣٦]



بعد المعاهدة

بعد ليل غاشي الجوانب تراكت على (الوادي) همومه ، وطريق دامي
المسالك تشابهت على الدليل رسومه ، انجلي الغيب الكثيف عن وضّح الفجر ،
وانتهي الطريق الخفيف إلى أمان الغاية ؛ فحمدنا الشّري عند الصباح ، ورضينا
الغنيمة بعد المعركة ، وهدهدنا الأمانى على نشيد الفوز .

كنا مقيدين لا نملك مع القيد مجال العمل ، ومحجورين لا نجد مع الحجر
سبيل التصرف ، ومستذلين لا ندرك مع (الامتيازات) معنى الكرامة ،
ومستقادين لا نعرف مع (الاحتلال) عبء التبعة ؛ فإذا كانت مصر الأمس
قد مشّت عرجاء في طريق التقدم ، وجاهدت عزلاء في ميدان العيش ، فإنما
كان وزر ذلك على الغاصب الذي سلط قوته على الحق ومنفعته على العدل ،
فحجز البلاد عن وجهتها الحرة حقبة من الدهر أوفت على نصف قرن . أما اليوم
وقد انكسر القيد ، وانتفى الحجز ، وتقلص الاحتلال ، وتضاغر الامتياز ،
وقال لك القوى الغالب : لقد رشدت فتصرف في أمرك ، وشبيت فدافع عن
حوزتك ، واستقللت فاحكم في بلدك ، فلا يسعك في تقصير عذر ، ولا يسعفك
في دفاع حجة

هذه ثروة النيل التليدة والطريقة عبثت بها أهواء القيم المفروض بالباطل ،
فنقص النامي وبلد الحساس وفسد الصالح واعوج المستقيم وتنافر المنسجم ؛ فكل
شيء فيها معتل يفتقر إلى علاج ، أو منتشر يحتاج إلى ضبط . فإذا قصرنا الجهد

أو أكثره على تنفيذ المعاهدة من إنشاء الجيش وبناء الثكنات وشق الطرق ،
ظل حالنا على ما كان من بؤس العيش ، ونقص الكفاية ، وعجز القدرة . وهل
يكون الأمر حينئذ إلا حبس قوى الأمة على الاستقلال فى السعى إليه
أو فى المحافظة عليه ؟ وهل يزيد الاستقلال على أن يكون استرداداً للحرية
المسلوبة ، تنعم الأمة فى ظله وهى آمنة ، وتعمل فى حماه وهى حرة ، وتحكم على
مقتضاه وهى سيدة ؟

إن إعداد الأمة لحل نصيبها من أمانة الحياة ورسالة الحضارة وعهد المحالفة ،
يقتضى أن تتظاهر ملكاتها الموحدة وكفاياتها المدبرة وقواها المنفذة على طرد
الجهل منها ، ودفع الفقر عنها ، ومعالجة المرض فيها . وهذه العلل الثلاث هى **تُجماع**
العلل ، لا تجد عاهة من عاهات الجسم ولا آفة من آفات الروح فى الفرد
أو فى الجماعة إلا ضاربةً فيها بعرق ، أو واصلهً إليها بسبب . والأمة كلها خلق
سَوِيٌّ كامل لا تستطيع أن تقويه وترقيه إذا عُنيت بعضو دون عضو ، وشغلت
بملكة دون مملكة

كل ما فىنا فارغ ينبغى العمل ، وباطل يريد التغيير ، ورثٌ يطلب التجدد .
وتلك مخلفات العهود السود وتركات الأجيال المريضة ، نمت فىنا نمو الجرائم
يزرعها ويغذيها المحتل الذى لا يرحم ، والحاكم الذى لا يعدل ، والواغل الذى لا يعف
كان من جرائم فقد الاستقلال فى الحكم أن فقدناه فى كل شىء حتى
فى الذات ؛ فنحن نفكر تابعين ، ونعمل مقلدين ، ونعيش متواكلين ، ونسعى على غير
اطمئنان ولا ثقة . وقد ظهرت هذه التبعية واضحة فى الآداب والعادات ، وهى أدخل
الأشياء فى بناء الشخصية وأبعدها عن التراث المشترك بين الأمم كالعلم والحضارة .

ولعل أقبح آثاره ما نجده في الشباب من رخاوة العود وطراوة الخلق ،
وفي الكحول من ضراعة النفس وضعف الإرادة . فإن ترك الدفاع عن أنفسنا
لغيرنا كَسَبْنَا طباع العيش الأبله من الوداعة والأغضاء والرضى ، فلا ترى في الجملة
من يغضب للإهانة ويشور للعدوان ويتحمس للخصومة . وإن استبداد الأجنبي
بأمرنا من دوننا قتل فينا التفكير ، وأنام فينا الضمير ، ودهانا بطائفة من طبائع
الاستبداد كالملق والنفاق والتواضع والأثرة . فالأمة مستنمية لهوى الحكومة ،
والحكومة مستكينة لإرادته المحتل ، وبين طبقات الشعب ودواوين الحكم
منافع مسعورة لا ترتوى ، ومحابة مهتوكة لا تستحي ، وتواكل غفلان لا يفيق
نعم كل ذلك كان نتيجة لفقد الاستقلال ما في ذلك ريب ؛ ومن الممكن
أن يكون وجوده علة في عدم هذه النقائص على التدريج مسيطرة لفعل الزمن ؛
ولكن الوقت ضيق والفرصة عجي والضرورة حافزة ، فلا بد لأولياء العهد الجديد
أن يغسلوا أدران العهد القديم بالسموم ، ويحسموا أدواء الماضي بالكي ، ويجعلوا
بين العهدين سداً من النار والحديد لا ينفذ منه إلا مصهور أو مطهر

نريد أن ندخل العهد الجديد في لباس الإحرام : صدورنا نقية من أحقاد
الحزبية ، ونفوسنا بريئة من شهوات العصبية ، وميولنا نزيهة عن خسيس المطامع
كنا نعيش كما يعيش السَّوَام في البر أو السمك في البحر ، لا تجمعنا وحدة
شاملة ، ولا توجهنا غاية معينة . وكان ذلك أثراً محتوماً للسلطات التي كانت
تتنازع الحكم ، والتيارات التي كانت تتوزع الثقافة ، والامتيازات التي كانت
تمزق المجتمع

أما اليوم فتريد أن نعيش كما يعيش الناس في كل أمة : وطن صريح
الاستقلال قوى الشوكة ، لا سلطان لقوة خارجية عليه ، ولا سيادة لغة أجنبية
فيه ، ولا استبداد لشركة أوربية به ؛ وحرية مهذبة الأطراف مأمونة السفه ،
ينعم الفرد فيها بنفسه ، ويأمن بها على رأيه ؛ ومجتمع راقى الطبقات مثقف
النواحي ، يؤلف نافرّه الخلق ، ويجمع شتيته الحب ، ويرفّه حياته التعاون
ويؤويه إلى كنفه إله وعلم وملاك . ذلك ما نرتجيه في الحياة الجديدة ، وذلك
ما نبتغيه من الحكومة الرشيدة

[٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٦]



استقلال اللغة

استقلال اللغة مظهر استقلال الذات ، ووحدة اللسان جزء من معنى الأمة ، واتحاد البيان سبيل إلى توحيد الرأي والهوى والثقافة . فإذا سمعت امرأً يتكلم غير لغته من دون ضرورة ، أو يلهج غير لهجته من دون مناسبة ، فلا يخامرْك شك في أنه كذلك في خليقته وعقيدته ونمط تفكيره وأسلوب عمله . وإذا رأيت أمة تدير في أفواهها ألسنة الأمم ، وتستعير في أعمالها دلالات الناس ، فلا تتردد في الحكم عليها بالتبعية المدنية والعبودية الأدبية والوجود الملقق . وإذا شق عليك أن ترى في الأرض هذه الأمة ، أو تسمع في الأمة ذلك الإنسان ، فتحامل على شعورك وجل جولة في إحدى عواصم مصر ، فهنا أو هناك تجد في معارض التجارة ودور الصناعة وبيوت المال وأماكن اللهو ، خليطاً من الناس كجيش الديمستق^(١)

تجمع فيه كل لسن وأمة فما يفهم الحدّث إلا التراجم تدخل متجراً من المتاجر ، أو مصرفاً من المصارف ، أو مقصفاً من المقاصف ، أو شركة من الشركات ، فلا تقرأ في الإعلانات والمستندات إلا كتابة أجنبية ، ولا تسمع في المحادثات والمفاوضات إلا لغة أجنبية . فإذا حرصت على أن تفهم بالعربية لاعتزازك بها أو لجهلك بغيرها ، تضاءلت في رأى مخاطبك فينظر إليك بشطر عينه ، ويكلمك ببعض شفته ؛ وربما صغرت وصغرت حتى يستسرّ عليه صراك فلا يفحلك . وتغشى قصراً من قصور الأمراء أو داراً من دور الكبراء ،

(١) الديمستق لقب قائد جيش الروم . والبيت للمتنبي في وصف معركة (الحدث) وكانت

بين سيف الدولة وبين الروم

فتسمع النادين^(١) يتطارحون الحديث بالفرنسية أو التركية ، فإذا شاركهم فيه بلغتك وقرأوا آذانهم عن سماعك ، لأنك نقلت الحديث الخطير إلى لغة السوق ، وأنزلت البهو الوثير إلى مجلس العامة . وتلقى أبناء (الذوات) في المشارب والملاعب ، والأندية قسمهم يتراطنون بلغة مشوهة التأليف مدخولة الوضع بغیضة اللهجة ، من نحو قولهم : (incroyable mon cher دا شیء) ، (je ne peux pas أطلع l'escalier) ولو وجدت في هذا الخلط نظراً من أولئك الأيفاع المدللين الذين نشأتهم المهود الأرستقراطية ، وثقتهم المدارس الأجنبية ، فإنك لا تجد غير حمى الروح إذا تكلفه من درج في البيئات الشعبية ، وخرج من المعاهد الدينية . فقد حدثوا أن شيخاً من شیوخ اللغة ومعلمها أوفدته وزارة المعارف إلى إنجلترا ليلم بطرائق التعليم ومذاهب التربية ؛ فكث تحت ضباب لندن عاماً أو عامين ثم عاد ، فإذا لسانه قد اعوج وسمته قد تبدل ! يكلمك فتسمع من وراء (البنية) كلاماً عربى الحروف سكسونى الخارج ! فإذا تمضمض بالجملة أو الجملتين فى المعنى المألوف توقف وتأفف ، ثم راح يزواج فى الفقرة الواحدة بين العربية والإنجليزية ، لأن العربية أصبحت أمام الخاطر الدفاق ، والخيال السباق ، والمعانى الجديدة ، أعجز من أن تسعف اللسان وتجارى البيان وتحدد الفكرة !

كل ذلك كنا نراه فنشعر بالغرابة وسط الدار ، وبالذلة بين الأهل ، وبالتبعة تحت العلم . وكل ذلك كنا نسمعه فنحمل الآذان على مكروهه ، ونروض الأنفس على أذاه ، لأن أمورنا كانت فى كل ناحية من نواحي الحياة شذوذاً لا يستقيم فى عقل ، ونشوراً لا يتسق فى شعور . فلما أذن الله لوجودنا أن يتميز ، ولاستقلالنا أن يتم ، كان من المحتوم على أولياء العهد الجديد أن يعالجوا الضعف الذى يوهن وثبات العزة ، ويزيلوا النقص الذى يعوق خطوات الكمال

(١) ندا القوم : اجتمعوا أو حضروا النادي .

تريد اللغة العربية من أولياء العهد الجديد أن يطردوا الاحتلال اللغوى من الشركات كما طردته تركيا، فيمدوا لها أسباب السيادة، ويهيئوا للمتعطلين وسائل العمل ، ويضمنوا للأهلين صحة التعامل ، ويمصروا هذه البيوت التى تطاول الحكومة فى النفوذ ، وتجابه الأمة بالعجز ، ويشتمل كل منها على دولة وسفارة وامتنياز . تريد العربية أن تكون لسان العلم فى المدارس الأجنبية ، وفى كليات الجامعة المصرية ، فإن التعليم باللغة الأوربية ينقل بعض الأفراد إلى العلم ، ولكن التعليم باللغة الوطنية ينقل كل العلم إلى الأمة . وما دام لغة مجمع لغوى قوى يساعدها على النمو ، فلن يخشى عليها فى الطريق قصور ولا فشل

تريد العربية أن تأخذ مكانها الشرعى فى المحاكم المختلطة ريثما تدك قواعدھا المعاهدة . فإن من أعجب الأمور أن يضع القانون بين قوم يعيشون بالقانون ، ويزهق العدل فى دار أقيمت للعدل . وقد كان الإغضاء على ذلك يحتمل على مصانعة القوة ومخادعة السياسة ، ولكنه اليوم لا يحتمل إلا على تقييد العجز وترويض الاستكانة

كذلك تريد العربية أن تظهر من شوائب التركية فى الدواوين والقوانين والمدارس والجيش ، فلا تحب أن يداخلها بعد اليوم باشكاتب ونوبتجى وبوستجى وقلفة وطابور ويمكخانه ويوزباشى وصاغ وأميرالاي الخ . ولنا فيما يعمل الترك والفرس بالعربية ممثلٌ مائل ودافع محرض

ذلك ما تريده اللغة من الحكومة . أما ما تريده من الأمة فذلك شئٌ تلهمه العزة وتلميه الكرامة ؛ فإن لغة المرء تاريخه وذاته ؛ فالغض منها غض منه ، والتفضيل عليها تفضيل عليه ، ولا يرضى لنفسه الضعة والصغار إلا مهين أو عاجز .

بَيْنَ سُلْطَانٍ وَسُلْطَانٍ

يا كافرين بالشعر والأحلام والحب ! أتريدون بعد حادث اليوم معجزة ؟
هذا ملك المغرب ، وإمبراطور المشرق ، وإله البحر ، وصاحب العرش
الحمول على أعناق الشعوب ، ووارث التاج المتألق على جباه القرون ، وخليفة
المجد المحفوف بالجلال الباهر والسؤدد العريق والسنة المقدسة ، وسليل الدم السرى
الذى يتدفق بالحياة فى هدوء ويجيش بالنشاط فى ثبات ، وريب البيئة التى تعظم
القوانين وتقدس التقاليد وتعبد الإمبراطورية ! هذا هو ينزل عن العرش ، ويُلقى
التاج ، وينبذ اللقب ، ويهجر الوطن ، ويلحق بحبيبته أميراً لا يميزه شعار ،
وإنساناً لا تحدوه أبهة ، وفرداً لا تصحبه حاشية !

يا جاحدين لسلام الروح وراحة القلب ورضى العاطفة ، أتمارون بعد اليوم
فى هذه الآلة ؟

زعمتم أن الأرض بُدلت غير الأرض ، والدنيا أصبحت غير الدنيا ، فقد رتم
سعادة الحياة بالوزن والكيل والمساحة ، وقلتم أودى منطق العقل بإلهام القلب ،
وأزرت مادية العلم بروحية الأدب ، وغلبت أثره المنفعة على إيثار التضحية ؛
ورحتم تتجهزون بما صنع العلم من صواعق وزلازل وبراكين ، لتنسفوا ما قام
من المدنية ، وتقتلوا ما بقى من الإنسانية ، وتقرئوا فى ملكوت الله نظاماً لا يعيش
فيه جمال ولا خير ولا حق ؛ فقام أكبر ملك فى العالم ، على أظهر مكان فى الأرض ؛
يعلن أن عظمة الملك لا تضمن سعادة النفس ، وسلطان العرش لا يعوض حرية

الإرادة ، وجواهر التاج لا تساوى بَسْمَةَ الحبيب !

سبحانك يا بديع الحياة والحي ! ما هذا الذى تضعه فى العيون فتسميه سحراً ، وتجريه على الشفاه فندعوه جاذبية ، وترسله فى الأعضاء فيكون رشاقة ؟ ما هذا الذى تودعه هذا الجسم الرقيق الناعم فيقهر سطوة الجبار ، ويُسوَّى أخدع المتكبر ، ويطاطى إشراف الملك ؟ أهو إعجاز القدرة التى تغلب بالأضعف ؟ أم سر الحكمة التى تمكر بالأقوى ؟ أم روح القدس الذى ينفذ قانون الحياة فى هذا الكوكب ؟ بين سُورة الملك وأمانة التاج ، وبين فتنة الجمال ومحنة الهوى ، وقف العاهل إدوار الثامن ملك إنجلترا وامبراطور الهند يتحسس فى مطاوى الغيب مشيئة القدر : أيعيش فى نفسه ولنفسه ، أم يعيش فى جنسه وللناس ؟ أيطل رمزاً لأتمته يخفق فوق رءوسها كالعلم ويتغلغل فى قلوبها كالإيمان ، ويتردد على ألسنتها كالصلاة ، ثم لا يكون له ما للعامل الفقير من وجود مستقل وإرادة مختارة ؟ أم يرتد إلى طبيعة الإنسان فيضرب بنفسه فى الزحام ، ويبحث عن نصيبه فى الرغام ، ويضطلع بعبئه ككل فرد ؟ أبقى أسير التقاليد التى نسجتها عناكب الماضى البعيد على نوافذ البلاط والبرلمان ، فلا يفكر إلا بإيحاء ، ولا يتحرك إلا بميمات ، ولا يتكلم إلا بمقدار ، ولا يعمل إلا بإشارة ؟ أم يتمرّد تمرّد الحى المريد ، فيدفع من أمامه ذلك الحاجز الصفيق الثقيل ، ويجذّ من ورائه ذلك الذيل العتيق الطويل ، ثم ينطلق فى أجواء الله انطلاق الطائر المرح ، يقع فى كل روضة ، ويهبط على كل غدير ، ويمتلئ أليفه فوق عرُوش الزهور ، وعلى بُسْط المروج ، وبين أفنان الخائل ؟

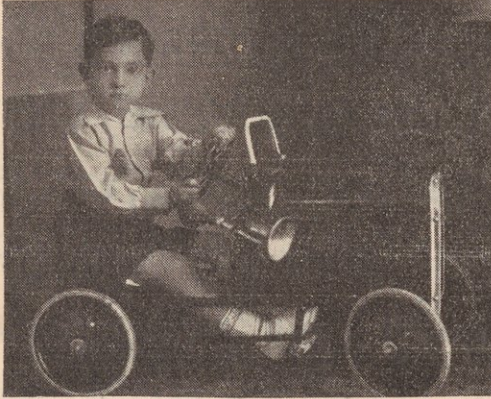
كانت هذه الآراء الحائرة تعصف نكباء فى رأس الملك ، بينما كان فى (لندن) الواجبُ المير الخشن يتمثل فى وجه (بلدوين) الحازم الجبار ، ومن خلفه برلمان

متحد يؤيد دستوره ، وملكوت واسع يريد امبراطوره ، وشعب مخلص يجب ملكه؛ وفي مدينة (كان) حب عنيف ملح يشرق في قسّات (مسز سمبسون) الفاتنة، ومن ورائه إنسان يطلب حرّيته وقلب ينشد سعادته وحى يبتغى حظه من الحياة وهنا يتدخل القدر الذى يحكم وحده على الملوك ، فيحل عقدة الرواية التى يشهداها العالم كله على غير ما يحلها به الروائيون الخياليون ، فينصر تجديد الطبيعة على تقليد العرف ، ويُغلب سلطان الحب على سلطان الواجب ، ويرفع سرير الأسرة على عرش الأمة !

يا كافرين بالشعر والأحلام والحب ! أتريدون بعد حادث اليوم معجزة ؟ أيها الناسون ما صنعت حواء بأبيكم آدم ! لا تحسبوا أن الماسونية والجاوسية والشيوعية والصهيونية والفاشية والنازية هى التى تقبّل فى السر أوفى العلن أوضاع المجتمع . قتشوا فى زوايا كل أولئك عن المرأة ! وإذا كانت مأساة البرنس ادوار تذكرنا بمأساة البطل أنطوان ، فليست كليو بطرة أول النساء ، ولا مسز سمبسون آخرهن . وسيظل هذا الجنس القوى الخفى الغامض سلطان الكون المطلق ؛ فهو محور الطموح والمنافسة ، ومصدر الخير والشر ، ومنبع السرور والألم . ولئن خضع له اليوم ادوار فمن قبله خضع نابليون ، ومن قبل نابليون خضع الرشيد وقال فيما حدّث الرواة :

ملك الثلاث الأنسات عنانى	وحللن من قلبي بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها	وأطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى	- وبه قوين - أعزّ من سلطانى

ذكرى ميلاد



في مثل هذا الأسبوع من
عام ١٩٣٢ وأنا في دار السلام ،
هبط على برق الأثير هبوط
الملك البشير على زكريا الواهن
اليأس . بشرني بأن اسمي
قد اشترك ، ووجودي قد ازدوج ،

وعمرى قد امتد ، وأصلى قد تفرّع ! فأخذني شعور لا عهد لي بمثله ؛ لا أصفه
لأنه أعمق من الإدراك ، ولا أنساه لأنه أوسع من الذاكرة . هو شعور خليط
مبهم : لا هو حماسة ولا هو نشوة ، ولا هو جذل ولا هو غبطة ؛ وإنما هو
كل أولئك وشيء آخر لا أدريه ، لون مشاهد الطبيعة بألوان الأمل ، وعطر
نسائم (دجلة) بروائح الجنة ، وزين مغاني الكرخ بأوشية السحر . فخرجتُ
إلى بساتين (الصاحية) وفي إهابي المشبوب رجل آخر ، يحيا لأنه يحب الحياة ،
ويعمل لأنه يريد العمل ، ويُزهي لأنه يسعى لأُسرة . مررت بالأطفال الذين
كنت أراهم كل يوم ، فبدت لي في قسائمهم وبساتيمهم معانٍ جديدة . لم يعودوا
شقاء الوالدين وهم الحياة كما كنت أشعر ، وإنما أصبحوا كطفلي بهجة الوجود
وراحة المكدود ورجاء المستقبل . ثم وجدته آنس بكل أب ، وأسكن

إلى كل أم ، وأشعر كما يشعر كل والد بحمل رخي رضىٍ يثقل رويداً رويداً
على البال المطمئن الوادع !

عدت إلى مصر فرأيتنى أرسخَ في الوطنية لأنى غدوت أصلاً من أصولها ،
وأعزّ في القرابة لأنى صرتُ فصلاً من فصولها ؛ ثم تجددت الأفراح ، وتسابقت
التهاني ، وتنافست الهدايا ، وتعاقبت المآدب ، وغرقت الدار الكئيبة في فيض
من البهجة ، ورقصت الروضة الموحشة على ألحان البلبل ، ورفرفت السعادة الهشة
على مهد الوليد

وكان عشنا الآمن الغارُ يعلن في كل رابع عشر من شهر يناير ذكره للنعمة
وشكره لله ؛ فيرفُّ للأصدقاء بالأنس ، ويخفُّ للفقراء بالصدقة ، وتفتتح مصاريعه
الضاحكة لتهنئات الصباح ودعوات الأحبة ، ويخرج المرموق المعشوق صاحب
العيد في زينته وبهجته كالسوسنة الغضة ، يقابل مهنئيه ، ويتقبل هداياه ، ويستعرض
لعبه ، ويُسعُّ على الحفل البهيج من روحه الجذاب وحسنه الفاتن وذكاؤه
الباكر ، إشعاعاً من وراء العلوم لا يدركه إلا الأب الحنون وإلا الأعزب
الشاعر ...

حنانك يا رباه ! أكل ذلك أصبح اليوم ذكرى ؟ أغاية السعادة
في الأرض أن تنقلب وحشةً في النفس وظلمة في العين وحسرة في الفؤاد ؟
لا يزال صوته الصافي الجميل يرن في شعورى كله : فأنا أسمعه يقول ويده الصغيرة
تجذب يدي : « يالله نشتري خروف عيدى يا بابا ... عاوز أتومبيل أحمر

زَيَّ أَتومبيل الملك يا بابا » ، فأخرج معه كما يخرج الصديقان الأليفان لأمر مشترك ، فينتقى ثيابه بذوقه ، ويختار لعبه بنفسه ، ويقترح على أن نذهب إلى (حديقة الفردوس) ، فيمشى بين أفواف الزهر أو على زخرف المشى ، فلا أدرى أجمال الروض زها فيه فنضر حتى فتن ، أم جماله هو فاض على الروض فزها حتى بهر ! ثم يتفرق بصره المبهور بين التماثيل والتصاوير والورد ، فيذهل عن طريقه فيخوض في الماء فجأة ؛ فيخلع حذاءه وينزع جوربه ثم يدعهما للشمس ويقعد هو تحت المظلة أو فوق العشب يرسل على أبيه السعيد سيلاً من الأسئلة لا ينقطع ، وفيضاً من المسرة لا ينضب ؛ ثم يعود إلى بيته المزدان المرح ، فيستقبل في المساء أعمامه أحمد أمين وزكى وخلاف والعبادى وعوض وزناتى ويونس وسائر محبيه ومحبي أبيه ، فينقلهم بإشراق نفسه واثلاق طبعه من عالم الناس إلى عالم الملائكة !

ثم دار الفلك وتجرّم العام ، وعاد اليوم الرابع عشر من شهر يناير ! ولكنه واحسرتاه يعود هذه المرة على بيت غير البيت ، ودنيا غير الدنيا ! فلا العش مريحٌ بفرخه ، ولا الروض شادٍ ببلبله ، ولا الأتومبيل حالٍ براكبه !

يعود على ثياب مطوية ، ولعب مخفية ، وصور مستورة ، وعيون مقروحة ، وقلوب محطمة ، وآمال مهيبضة ! فلا بساط الأنس ممدود يرافق ، ولا حفلة العيد ساهرة يا أحبة !

أجل يعود اليوم الرابع عشر من شهر يناير ، ولكنه والهفتاه يعود على قبر
جنّي الأزاهير بين حقول القرية البعيدة ؛ تسهر عليه الشجرة الصغيرة ، وترعاه
من قرب عيون الأهل !

فيا من دعوت نفسك الرؤوف الرحيم ! أين أجد رأفتك فيخف أسأى ،
وأصيب رحمتك فيندمل جرحي ؟!

ويا شاعر العروبة وحكيم الدهر وطريد الغير ، متى أجد مصداق بيتك
المعزّي الخالد :

ستألف فِقدانَ الذي قد فقدته كإلفك وجَدانَ الذي أنت واجد !

[١١ يناير سنة ١٩٣٧]



الدفاع المقدس

قانون الحياة مادتان : هجوم على القوت ، ودفاع عن الذات . وما كلمات النباهة والمجد والخلود إلا طعوم مغريات في يد الطبيعة ، تتذرع بها إلى ضمان الحياة بالوفرة ، كما تتذرع بالجمال والشهوة واللذة إلى بقاء النوع بالولادة . فالخلى الخلق بالبقاء تتوفر فيه ولا ريب قوة السعى لنفسه ، وقوة الوقوف لغيره ؛ فإذا فقد هاتين القوتين أو إحداها كان طفيلياً على مائدة الحياة ، وفضولياً في ملكوت الطبيعة . وليست العزة التي تملك القاصر حين يرشد أو التابع حين يستقل ، إلا يقظة الأنانية في طبعه ، وثورة الحيوية في دمه . وهذا الذى نشهده اليوم في مصر المستقلة من التسابق إلى إعداد القوة ، والتنافس في إنشاء الدفاع ، إنما هو استكمال لإحدى وسيلتى العيش ، واستشعار لأرقى طبيعتى الوجود . فقد كانت مصر قبل عهدها الجديد تجرى على قدر مجهول في الغيب ، وتعيش على خطر معلوم من العدو ، ثم لا تجد في واديه ولا في أيديها ما يدفع الغارة ويمنع الحوزة ، فهى كالمرأة حمايتها على الزوج ، وكالقاصر تبعته على الوصى . لذلك خشعت نفوسها أمام القوى الساطية خشوع الوحش المروض إذا حُطَّ نابه وقلم ظفره ، فلا تدخل في شر ، ولا تشارك في مراء ، ولا تملك من دون ولېها المحتل نفعاً ولا ضرراً . كان ذلك وأكثر الدول السيدة الأيَّدة كالبلجيك واليونان والترك لا يطولها أصلاً ، ولا يكثرها نفراً ، ولا يفوقها ثروة . وكان ذلك والقوة هى الدستور النافذ في الأرض ؛ فالتسليح خطة السياسة ، والحرب

عماد السلام ، والمنفعة حجة القانون ، وعصبة الأمم والمعاهدات تدريم^(١)
لخلب الأسد ؛ ولكن الاحتلال الذى غل اليد وشل الإرادة قد سلبنا فيما سلب
الثقة بالقدرة ، والاعتماد على النفس ، فكنا فقراء مع الغنى ، أذلاء على الكثرة ،
لا ندرى على اليقين قيمة ما نملك ولا مدى ما نطيق .

أما اليوم وقد تحطمت حلقات القيود على ضغط الجهاد الملحّ والزعامة الخاصة ،
فهاهى ذى مصر طليقة على سجيّتها ، سافرة عن طويتها ، قد عصفت فى رأسها
النخوة ، وتمرد فى نفسها التاريخ ، فهى تتأهب لإعلان قوتها وإعزاز كلمتها
وتحصين عزتها فى ميادين الحرب الثلاثة ! وهام أولاء أبنائها الميامين البررة
يتدفقون فى التبرع السخى لمشروع الدفاع الوطنى تدفق الدماء الحية فى قلوبهم
الحرّة ! وسيددهش العالم لهبتهم العاصفة ، كما دهش من قبل لغفوتهم الثقيلة ،
فإن مصر فى كل شىء فريدة عجيبّة !

لقد هبوا أول الجهاد فسخّوا لها بالأنفس ، وهم يهبّون اليوم أول النصر
ليسخّوا لها بالأموال ؛ وعلى قدر الإخلاص والتضحية فى الهبة الأولى ، سيكون
البذل والإيثار ولا ريب فى الهبة الثانية .

صحيح أن تلك النهضة بدأت من الشعب وانتهت إلى الحكومة ، وأن هذه
النهضة ابتدأت من الحكومة وستنتهى إلى الشعب ؛ ولكن ذلك لا يقدر
فى حقيقتها ، ولا يشكك فى نتيجتها ، فإن حكومة اليوم هى شعب الأمس ،
والذين ألبوا الأنفس على ذل الاحتلال ، هم أنفسهم الذين يحمسون الأفتدة لعز
الاستقلال ؛ وبين عرش الملك ، وكرسى الحكم ، ومقعد البرلمان ، ونام ناشئ

(١) تجميل الأظفار بالقص والصقل والصبغ (Manicure)

من خلوص النية ، وانسجام قائم على وحدة الغاية ؛ ولن يهلك على خلوص النية رأى ، ولن يضل على وحدة الغاية سبيل .

افتتح التبرع للدفاع المقدس الوزراء فتبعهم الموظفون ؛ فهل يفتتحه من الجانب الآخر الأمراء والأغنياء ليتبعهم الأهلون ؟
يريد الوطن الضعيف الأعزل من أولئك الذين ربّهم على دلال السرف ، وقلوبهم في أعطاف النعيم ، خشاً أهّهم بخيره ، وأفعم خزائهم بذهبه ، وبسط ملكهم على أكثر أرضه ، ومد نفوذهم على معظم بنيه ، أن يعزّوه لئفى عليهم ، ويسلحوه ليدافع عنهم ، ويبروه ليدوم عليهم بره وظله .

ما الذى يجبس هذا الأمير المترف أن ينفق على سلاح وطنه مثل ما ينفق على سلاح صيده ، ويبذل في سبيل أمتة بعض ما يبذل في سبيل شهوته ؟
وما لهذا الباشا البطين صاحب الهيل والهيلمان^(١) ، وملك الثيران والأطيان ، ورب النفوذ والسلطان ، يقرّ أذنه عن نداء وطنه ، وإنما عظمتته من فضله ، وعزّته من أهله ، وثروته من ثراه ! أيتلكأ الباشا ويتباطأ الأمير حتى تنشأ عدة الدفاع مما يرضخ^(٢) به الفقير والأجير والعامل ؟ وهل ترك هذا أو ذاك لأحد من هؤلاء شيئاً يعطيه ؟ وهل من المروءة أن يدعا الفقير أو الأجير يتبرع من قوته وهو لا يكفيه ؟ !

سادتى أصحاب السمو وأرباب السعادة ! إن الفقير يغذيك طيلة العمر بعرقه ، وسيدافع عنكم يوم الفزع بدمه ، ولن يكلفكم هذا الصابر المسكين إلا أن تشتروا له الفأس ، وتقدموا إليه السلاح ، فهل هذا كثير ؟

[١٨ يناير سنة ١٩٣٧]

(١) المال الكثير . (٢) رضح له بالمال : أعطاه قليلاً منه .

لو كنا نقرأ

فى مصر تسعمائة وتسعون فى كل ألف لا يقرأون ، وتسعة من العشرة الباقية ينتفون الأخبار من الصحف اليومية ، ويقطفون النكت من المجلات الخفيفة ؛ وواحد هو الذى يقرأ الكتاب المثقف ويطالع المجلة المهدّبة ؛ وهذا الواحد الأحد يدركه فى أكثر العام فتور الطبع أو عدوى البيئة أو فوضى النظام ، فيعاف الكتاب ، ويجتوى الصحيفة ، ثم يقعد فى مشارب القهوة يتقمع ، أو يسير فى مجالى الطبيعة يتأمل ، أو يضطجع فى مراقد السكينة يستجم . ذلك تقدير مقارب تهجم به على (مصلحة الإحصاء) وفى يدينا استقراء متتبع لا يتهيا لغير من قضى أكثر العمر فى التعليم والتأليف والصحافة . وتقدير المؤلفين والكتاب فى هذا الباب هو الكاشف الحق عن مكان الأمة من التربية القويمة والثقافة والرقى الصحيح . أما قياس درجة الرقى على نسبة القارئ بالقوة لا بالفعل ، فذلك عمل كل ما يدل عليه أنه خانة فى سجل التعداد . ماذا يرد على العقلية المصرية إذا بلغ (فكاكو الخط) فينا مائة فى المائة ما دام فك الخط لا يطلق عقلاً أسيراً ولا يجلو بصرأ حسيراً ولا يذكى قريحة كابية ؟ أوافق مصلحة الإحصاء على أن فى الخمسة عشر مليون نفس أكثر من مليونى قارئ ، وأن فى هذين المليونين ألوفاً من ذوى الشهادات المدرسية والدرجات الجامعية يستطيعون أن يكشفوا للعقل آفاق المعرفة ، وينهجوا للنفس طرائق الكمال ؛ ولكنك

إذا وازنت بين عدد المتعلمين وعدد ما يطبع من الكتاب وما يوزع من الصحيفة خاسرك الشك في إحصاء المصلحة ، أوفى تعليم المدرسة ، أوفى عقلك أنت ! ينشر في العام كله بضعة من الكتب يتراوح ما يطبع من كل واحد منها بين الألف والثلاثة ، ثم تساق إلى قراءته بالطليل والزمر مصرُ جمعاء وفي معوتها العالم العربي أجمع ، ومع ذلك لا تنفذ طبعته المباركة بعد الإغراء والإهداء قبل خمس سنين !

أليس معنى ذلك أن هذا الشعب أُمى وإن عرف حروف الهجاء ، وعامى وإن تلقب بألقاب العلماء ؟ تتبّع الطالب من يوم دخوله روضة الأطفال إلى يوم خروجه من الجامعة ؛ فهل تراه يقرأ - إن قرأ - إلا كتب المدرسة أو ملخصات المعلم أو فكاهات الصحف ؟ إنك تراه ساعة الدرس وأذنه إلى فم الأستاذ ، ويده على القلم ، وعينه في الدفتر ، يختصر ما اختصر ، ويقتصر على ما اقتصر ؛ وتراه ساعة الفراغ يحاول أن ينقشه بالتكرار على صفحة ذهنه ، فيصدع رأسه بتريد ما لا يفهمه ، ويفشى نفسه بإساعة ما لا يهضمه ؛ حتى إذا خرج من المدرسة خرج مكروباً لا يتقارّ من الكلال والسأم ، فينفس عن نفسه بالفكاهة الرخيصة أو القراءة السهلة ! فإذا نال الشهادة بالحفظ تبعه هذا النفور إلى مكتبه إذا كان عبد الوظيفة ، أو إلى مكتبه إن كان حر العمل ، فيكره الأدب لأنه يتذكر درس (المحفوظات) ، ويعاف القراءة لأنه لم ينس درس (المطالعة) ؛ وعمله وأمله لا يقتضيانه التعمق ولا المزيد ؛ فيعود كما بدأه الله أُمياً يعمل بالإرشاد ، وفطرياً يهتدى بالفريزة . والمعلم الذي يخرج التلميذ اليوم كان هذا التلميذ نفسه بالأمس . أرسل إلى مدرس في كلية الآداب كتاباً يسألني فيه أن أقطع عنه (الرسالة)

لأنه لا يجد وقتاً لقراءتها ، وهو لا يلقاك إلا حدثك بما قالته المجلة الفلانية عن الفتاة فلانة ، وماتهرأت به المجلة الأخرى من الأستاذ فلان ؛ ثم سأله أحد طلابه عن (واسط) فقال له : أحسبها مكاناً في طريق (القصير) ! قرأت هذا الكتاب فعذرت وكيل المعرض الزراعى الصناعى وقد دخل عليه مندوب « الرسالة » يطلب إليه « تصريحاً صحفياً » بدخول المعرض ، فقال له وأمارات التعجب الساخر تتخيل على جبينه العريض : ولكننى لم أر هذه (الرسالة) قط ! فلم يجبه مندوبنا وإنما أجابه حاجبه هو بقوله : لا ، يا بك ! هذه مجلة صفتها كيت وكيت ؛ وأنا وابنتى نقرأها كل أسبوع ، ونجلدها كل سنة ! سمعت هذا الخبر فعذرت ذلك الباشا القارونى الذى أهديت إليه « الرسالة » لصلة بين أخى وبينه ، فردها على وقد كتب على غلافها الأبيض بالقلم الغليظ : (مرفود) فوق في نفسى أن الباشا يتشبه بالملوك والخلفاء ، فى رد الموعزين من الأدباء والشعراء . فهمت أن أكتب إليه أشكره وأستغفيه لولا أن نهينى صديق من أوتى منطق الناس أن (مرفود) معناها (مرفوض) . ولا أريد الترسل فى هذا الحديث ، ففى ذاكرة كل صحافى من بابه طرائف وأعاجيب !

الحق أننا أمة أمية ننظر إلى الكتاب نظر المتعظم الخائف ، أو المتقنع العازف . وما دمنا لا نرى الكتاب ضرورة للروح ، كما نرى الرغيف ضرورة للبدن ، فنحن مع الخليقة الدنيا على هامش العيش أو على سطح الوجود تتطور المذاهب والآراء ، كما تتطور الحلى والأزياء ؛ فإذا لم تنقص بالقراءة المتجددة أخبار هذا التطور من أطراف الأرض عشت فى عصر كغريب العقل أجنبي الشعور وحشى الثقافة ، كالذى يلبس فى الناس زياً مضى بدل زى حضر

إن من وظائف المدرسة أن تعودك القراءة وتعلمك كيف تقرأ ، وإن من وظائفك أن تقرأ وأن تعرف ماذا تقرأ ؛ فإذا لم تفعل هي فقد قصرت عن رسالة ، وإن لم تفعل أنت فقد فرطت في واجب .

ليت الذين يطلبون من الأدباء أن ينتجوا ويحيدوا الإنتاج ، يطلبون من القراء أن يقرأوا ويحسنوا القراءة . فلو كنا نقرأ لخلقنا الكاتب والكاتب ؛ ولو كنا نقرأ لأخصبنا حقول المعرفة فأزهرت في كل مكان وأثمرت في كل نفس . ولو كنا نقرأ لما كان بيننا هذا التفاوت الغريب الذى تتذبذب فيه الأفكار بين عقلية بدائية وعقلية نهائية . ولو كان العالم العربى يقرأ لنشر من الكتاب زهاء مائة الألف ، ووُزع من الصحيفة قرابة المليون . وإذن تستطيع أنت أن تتصور كيف تزدهر الثقافة وتنتشر الصحافة ويتنوع الأدب ويرقى الأديب !

[٨ فبراير سنة ١٩٣٧]



جميعاً صدق الزهاوى

— ١ —

من حق الزهاوى على (الرسالة) وهى ديوان العرب وسجل الأدب أن تقف على ذكره العظيمة الألفية وقفة الذاكر بالجميل تحيى بنشير الورد خلود مجده ، وتحى بنشير الدمع مصاب فقده . فلقد ساعد على إنهاض العرب بوثوب فكره ، وعلى إحياء الأدب بوميض روحه ، وعلى إنعاش (الرسالة) بعيون شعره . ومن حق الزهاوى على صاحب الرسالة أن يقوم فى هذه المناسبة فيفرغ فى سمع الزمان الواعى هذا الحديث الذى يتسم على ما أظن بخبرة الصديق وثقة المطلع ونزاهة المؤرخ . فإنى ما ذكرت العراق إلا ذكرت فى أول أشيائه فندق (كارلتون) ، وفى أول أشخاصه شخص الزهاوى . ذلك أن أول مكان لقيت فيه العراق هو هذا الفندق ، وأول إنسان سمعت منه العراق هو هذا الرجل !

كنت جالساً فى بهو هذا الفندق صباح اليوم الثانى لقدومى بغداد ، أروض قلبى على روعة العراق ، وأذنى على لهجة العراق ، وعيني على غرابة الصور ، وإذا بأحد الندل يلقى إلى بطاقة كتب عليها (جميل صدق الزهاوى) ، ولم تكذ تلوح فى مخيلتى صورة الشاعر التى صورها السماع والقراءة حتى رأيت على باب

البهو شيخاً في حدود الثمانين ، قد انخرع متنه وثقلت رجله ورعشت يده ،
فلا يحمل بعضه بعضاً إلا بجهد

أقبل على يتخلج على ذراع غلامه وقد انبسطت أسارير جبينه العريض
وانفرجت شفتاه الذابلتان عن ابتسامة نضرة عذبة ، ثم سلم على تسليم البشاشة
بيد مرتجفة ، ورحب بي ترحيب الكرم بصوت متهدج ؛ ثم انطلق يشكو
جحود الأمة وإغفال الدولة ، وكيد الخصوم وإلحاح المرض ؛ وتطرق إلى خصومته
عامئذ مع الأستاذ العقاد فذكر — والأسف المر يكسبه لهجة المظلوم وهيئة
الشهيد — كيف استغلها في العراق من سدّد خطاه في الشعر ، وأرجف بها من تولاه
بالرعاية ؛ وحمد الله على أننى جئت بدل العقاد فقد كان وجوده ، كما كان يظن ، تأليفاً
متصلاً على فضله ، وإزعاجاً مستمراً لسكينته

لم يدع لى الزائر الكريم فرجة بين كلامه الدافق أدخل عليه منها بالتخفيف
والتسرية ، فإن الزهاوى — كما علمت بعد — ديدنه أن يتكلم ، كالبلبل خاصته
أن يغرد ، وكالزهر طبيعته أن يفوح ؛ فهو في مجلس الصداقة شاك أو شاكر ،
وفي مجلس الأدب محاضر أو شاعر ، وفي مجلس الأُنس مفاكه أو محدث

كان الشيخ يتكلم أو ينشد ونبراته المؤثرة ، وقسماته المعبرة ، ولحيته الخفيفة
المرسلة ، ووجهه المسنون الأعجف ، وشاربه النائم على فمه الأهرت^(١) ، وعينه البراقة
ترأرى^(٢) من خلف المنظار ، وشعره الأشمط يتهدل على نتوء الصدغ ، تخيّل إلى
أن طيفاً من أطيف الجدود ، أو نبياً من أنبياء اليهود ، قد انشق عنه حجاب

(١) الواسع . (٢) رَأَى : حرك كلتا عينيه وأدارها

الزمن فجأة في هذا المكان الصامت والنور القاتم والجو الغريب . ولكن الحيوية التي تنبض في حركاته ، والشبيبة التي تفيض في كلماته ، والعزيمة التي تضطرم في نظراته ، كانت تطرد هذا الخيال وتجعلني وجهاً لوجه أمام (كتلة) من الأعصاب القوية المشدودة تتكلم وتتألم ، وتثور وتهداً ، وتسخط وترضى ، وموضوع مقالها وانفعالها لا يخرج أبداً عن (الأنا) إذا صح هذا التعبير

دأبت عربانة^(١) الشيخ بعد ذلك على أن تقف أمام منزلي صباح يوم الجمعة من كل أسبوع ، فكنت أستقبله استقبال العابد المتحنت للكهنة الملهم . ثم نقضى ضحوة النهار معاً يحدثني فأعجب ، أو ينشدني فأطرب . وقد تكون أذني إلى فمه وليس معنا ثالث ، ولكنه يجاهر بالإلقاء ، ويصور المعنى بالصوت والإيماء ، حتى يدهش المنزل وينصت الشارع . وهو بين الفترة والفترة يعود إلى شكاته وشكواه ، وأظن أنا أمام هذا الجيشان الروحي ساهماً حالمًا أفكر في الذهن الذي لا يكل ، واللسان الذي لا يفتر ، والزهو الذي لا يتطامن ، والطموح الذي لا يتقاصر ، والقلق الذي لا يسكن ، والتمرد الذي لا يهن ، والشباب الذي يلبس رداء الشيخوخة ، والحياة التي تتخذ هيئة الموت

كنت ألقاه في خلال الأسبوع مع الناس في منتداه بشارع الرشيد ، أو على ضفة دجلة جالساً على الدكة الخشبية ينشد الأبيات الرائعة ، أو يرسل النكتة الباردة ، أو يروي الخبر الطريف في بشاشة جذابة وقهقهة ساذجة ، ويده

(١) العربانة : العربية بلغة بغداد

المرتعة لا تنفك تعبت بمسبحته الصغيرة ، أو تصعد وتهبط بسيكارتة العراقية ،
أو تمتد (بالآنة)^(١) إلى نادل القهوة كلما طلب الشاي إلى صديق
وكنت أزوره في مشواه (بالصابونجية) فأراه في مبادله قاعداً يشكو الوصب
لأنه قضى الليل ساهداً يقرأ ، أو ذاهلاً ينظم . فلقصص والمجلات منتثرة
على سريريه وعلى مقعده ، والمسودات مدسوسة تحت مخدته أو في ثيابه ، فلا يتالك
حين يرانى أن يصيح : أنظر كيف أذيب عمرى في شعرى والأمة تقذفني بالبهتان ،
والحكومة تخرجنى من مجلس الأعيان ، والمالك يستكثر على أن أكون شاعراً
البلاط ! « إني سأذهب وستبقى أشعارى معبرة عن شعورى وناطقبة بالامى ،
فهى دموع ذرفتها على الطرس ، وهى خليقة أن تبعث من عيون قارئها دمعة
هى كل جزأى من نظمها »

— ٢ —

ولد الزهاوى^(٢) فى يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر يونيو سنة ١٨٦٣
ببغداد لأبوين كرديين كريمين تميزت أسرتهما بالدين والفقه والأدب ، فقد كان
أبوه محمد فيضى الزهاوى مفتياً لدار السلام وأخوه فقيهاً من فقهاءها ، فنشأ بين
أبيه وأخيه يرتاض عقله ليتنقف ، ويرتاش خياله ليطير ؛ ولكن أخاه كما حدثنى ✓
جميل ، كان حثر اللسان^(٣) لا يتذوق الأدب ؛ فكان يزوده عن رواية الشعر ،
ويصده عن دراسة اللغة ؛ ويأبى عناده هو وتسامح أبيه إلا أن يديم النظر
فى الأدب ، ويروض القريحة على القريض . كان هم أخيه وأمل أبيه أن يستقيم

(١) الآنة : عملة هندية تساوى $\frac{1}{4}$ من الروية (٢) الزهاوى نسبة إلى زهاو وهى
بلدة من أعمال كرمان شاه الفارسية كانت موطن جدته لأبيه .
(٣) لسان حثر : لا يجد طعم الطعام

على عمود أسرته فيكون صاحب قضاء وقته ، ولكنه استقام على محتوم طريقته فكان صاحب دعوة وفلسفة . والاستعداد الموهوب في الطبع هو مشيئة الخالق في الخلق ، جعل من الزهاوى أبا العلاء وقد كان أهله يريدونه أبا حنيفة ؛ وجعل من الرصافي أبانواس وقد كان الألوسي رحمه الله يريد أن يبعث في معروف الرصافة معروف الكرخ !

كان العراق أيام نشأ الزهاوى تركى السلطان سني الحكومة . فالتعليم المدني فيه كان تابعاً في لغته وطريقته وغايته لسياسة الأجنبي وهواه ، فلم يخرج إلا رجال جيش يخضعون للنظام ، أو رجال إدارة يذعنون للحكم . أما التعليم الديني فقد ظل في صحن الجوامع على ما عهدته الناس ، عربي اللسان حر النزعة طليق الفكرة مستقل الغاية . وطبيعة هذا النوع من التعليم الجدلي المطلق أن يخلق الجاهل للشعور البليد فيضل ، ويكشف الآفاق للفكر النافذ فيبلغ ، ويساعد الجبلية في الإنسان على حسب الاستعداد فتعلو أو تهبط . فهو يساعد المهمة القاعدة على السقوط ، والنفس القانعة على القنوط ، والذهن المبطى على التخلف ، كما يساعد العقل الحائر على التزندق ، والطبع القلق على التمرد ، والإرادة المستقلة على الزعامة . ورجال الثورة والإصلاح في تاريخنا الحديث كانوا جميعاً من أهل هذه الثقافة ، كالأفغانى ، وعرابى ، ونديم ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، والكواكبي ، والزهاوى ، والزهاوى ، ومن إليهم . والناهبون من أهل هذه الثقافة لا ينفكون دائبين على القراءة والتتبع والمشاركة ليدفعوا عن أنفسهم معرة القدم ، وهم عسيون إذا جددوا أن يسرفوا في التجديد كذى العاهة يدفعه النفور من ذلة الضعف إلى الإفراط في العسف والتجبر

فالزهاوى الجرىء بطبعه ، الطموح باستعداده ، تثقف بهذه الثقافة ثم تنفست على أعصابه الشاعرة أمواج العروبة ترسلها على بغداد الصحارى الملهمة ، ثم نزعته عرق العم والخال من الكردية فجاهد وجالد وغامر ؛ والكرد كالعرب إن لم يكونوا من العرب . ثم ابتلي وهو فى الخامسة والعشرين من عمره بداء فى النخاع الشوكي لازمه بقية حياته ؛ ورمى بعد ذلك بالشلل فى رجله فبرم واكتأب وتشاءم ؛ ثم منى من عصره بفساد السلطان واستطالة الجهل والاحلال الخلق ، فدفعته هذه العوامل كلها إلى موقف المصلحين من الإنذار والتضحية

رأى وهو فى الأستاذة عبد الحميد يلقي الأحرار مغولين فى غيابة السجن أو فى قاع البحر ، فأرسل إليه مع رسبوتينه أبى الهدى قصيدة منها :

أيا امر ظل الله فى أرضه بما نهى الله عنه والرسول المبجل
فيفقر ذا مال وينفى مبرأ ويسجن مظلوماً ويسبى ويقتل
تمهل قليلاً لا تغظ أمة إذا تحرك فيها الغيظ لا تتمهل
وأيديك إن طالت فلا تغترربها فإن يد الأيام منهن أطول
فسجنه حيناً ثم نفاه

وسمع وهو عضو فى (مجلس المبعوثان) عن بغداد مقرر الميزانية يذكر فى وزارة الحربية مبلغاً جسيماً من المال جعلوه لقراءة البخارى فى الأسطول فقال : أنا أفهم أن يكون هذا المبلغ فى ميزانية الأوقاف ؛ أما فى الحربية فالمفهوم أن الأسطول يمشى بالبخار لا بالبخارى . فثار عليه المجلس وشغب عليه العامة ورأى ما تعانیه المرأة من عنت الاستعباد والاستبداد والجهل ، فهب لإيقاظها ونصرتها ، حتى كتب فى (المؤيد) مقاله المشهور : « المرأة والدفاع عنها » فنزل

الناس في بغداد وفي غير بغداد ، فسعوا به إلى ولاية الأمر ليعزله ، وحرشوا عليه دهاء الشعب ليقتلوه ، فاضطر إلى لزوم داره

ونظم في أعقاب عمره (ثورة في الجحيم) ففزع المتزمتون من شرها إلى الملك فيصل ، فلما كلفه في ذلك قال : ماذا أصنع يا مولاي ؟ عجزت عن إضرام الثورة في الأرض فأضرمتها في السماء !

لم يخلد الزهاوى إلى التبطل ، ولم يعيش على مروءات الناس كأكثر أهل الشعر ، وإنما غامر في خطير الأمور ، وطمح إلى بعيد المدارك ، فلأحياته بالأمل الدافع والعمل الثمر : عين في بغداد عضواً في مجلس المعارف ، ثم مديراً لمطبعة الحكومة ، ثم محرراً للجريدة الرسمية ، ثم انتخب عضواً في محكمة الاستئناف . ودعاه الخليفة حين نبه ذكره إلى الأستاذة فخر فيها لسان النقد ، وأقضى بها مضاجع الجاسوسية ، فانتقض أمره وساء مقامه . ولما أعلن الدستور عين أستاذاً للفلسفة الإسلامية في « المكتب الملكي » ، ثم مدرساً للأدب العربية في « دار الفنون » ؛ ثم عاد إلى بغداد فعين أستاذاً للشريعة في مدرسة الحقوق ، ثم انتخب نائباً عن العراق في مجلس المبعوثان ؛ وهو في ذلك كله حركة ذهنية دائرة وجملة عصبية نائرة ، لا يفتر ليله عن الشعر أو القراءة ، ولا يكل نهاره عن الحديث أو الكتابة ، حتى غلب الترك وأدبل منهم في بغداد للعرب ، فكان الشأن لأصحاب الجيش وأقطاب السياسة ؛ أما الزهاوى وأمثاله من رجال الفكر والشعر فاتخذوا طريقهم على الهامش . وكان الشاعر قد ألقى للمجد معاذيره من انسراق القوى واستحكام العلل ، فبات يرسل الأقباس والأضواء من جسمه المتهدم وقلبه المتضرم حتى خمد .

كأنما تفتح عقل الزهاوى قبل أن يتيقظ هواه ، وحلق فكره قبل أن ينهض خياله ، وأدرك علمه قبل أن يولد شعره ! فلقد كان يهدف للثلاثين من عمره وليس له من أولب الشعر وحي ، ولا فى برناس الشعراء محل . إنما كان فى صدر شبابه ينظر فى العلوم الفلسفية والطبيعية ؛ وسبيله إلى ذلك ما ترجم من المقالات فى الكتب والمجلات ، لأنه لم يعرف من اللغات غير العربية والفارسية والتركية والكردية ، وكلها لا تصل فكر الإنسان بالتطور ، ولا تنفع غلة الظمان إلى المعرفة . ومع ذلك استبطن الزهاوى دخائل هذه العلوم بعقله النافذ حتى ألف كتاب (الكائنات) فى الفلسفة ، وكتاب (الجاذبية وتعليلها) فى الطبيعة ، ذهب فىهما مذهباً خاصاً خالف به أقطاب العلم وجهابذة النظر كقوله : إن علة الجاذبية ليست جذب المادة للمادة ، وإنما هى دفعها لها بسبب ما تشعه من الألكترونات . وسواء أنهض دليله أم دحّض فإنه يدل على النظر الثاقب والفكر المستقل . ورجاحة عقله هى التى حملته وهو فى ربيع العمر على أن يشرف على ظواهر الكون وحقائق الوجود من سماء فكره لا من سماء خياله ؛ والمعهود فى عامة الشعراء أن يكونوا على النقيض من ذلك . فلما هيأته الأقدار الجميلة لرسالة الشعر كان فكره أقوى من خياله وأسمى من عاطفته ؛ والفكر والخيال والعاطفة هن ملكات النفس الأدبية الثلاث ، يصدر عنهن فيض القرينة ، ويرد إليهن إلهام العبقريّة . ولكن الشعر لا يهيمن عليه إلا الخيال والعاطفة ؛ أما حاجته إلى الفكر فمحدودة بمقدار ما يضىء الطريق للخيال والعاطفة حتى يأمنا الضلالة . فالفكر للعبقرية بمثابة العين ، والخيال والعاطفة لها بمثابة الجناحين ، فإذا تغلبا عليه كان

الشروود والزيغ ، وإن تغلب عليهما كان الجفاف والعقم . ومن هنا جردوا أكثر ما قال أبو العلاء وأقل ما نظم أبو الطيب من الشعرية . والزهاوى شاعر من شعراء الفكرة ، له البصيرة الناقدة والفطنة النافذة ، وليس له الأذن التى «تمسق»^(١) ولا القريحة التى تصنع . فاللفظ قد لا يختار ، والوزن قد لا يتسق ، والأسلوب قد لا ينسجم ، ولكن الفكرة الحية الجريئة تعج بين الأبيات المتخاذلة عجيج الأمواج المزبدة بين الشواطىء المنهارة

الزهاوى عقلية أفافة وحيوية دفاقة وطبيعة ساخرة ؛ وهذا التوثب الحماسي فيه هو الذى جعله يؤثر النظم فى تقييد خواطره . وهذه الحماسة قد تنفك أحياناً عن الفكرة لكلالها أو ابتذالها ، فيذهب الشاعر ولا يبقى الفيلسوف ، ويكون الزهاوى معك كالآلة تدور مليئة مترنة ما دامت على شىء ، فإذا نفدت مادتها فجأة انطلقت تدور على الفارغ سريعة مضطربة . ذلك لأن الفكرة الفلسفية هى المادة الأصلية فى شعر الزهاوى . وليس الشعر كله فكرة وإنما هو فضلاً عنها صورة يرسمها الخيال ، وشعور تبعثه العاطفة . على أن فكرة الفيلسوف واضحة ، وجمالها فى هذا الوضوح ، وفكرة الشاعر خفية ، وسحرها فى هذا الخفاء . فإما أن تدرس الطبيعة لتعرفها وتشرحها فتكون صاحب فلسفة ، وإما أن تدرسها لتقلدها وتصورها فتكون صاحب شعر . أما الخلط بين الفلسفة والشعر لأن الشاعر يدرس ظواهر الكون ، فكالخلط بين التصوير والتشريح لأن المصور يدرس بواطن الجسم

(١) لا مانع فيما أظن من أن نشق هذا الفعل من الموسيقى

كان الزهاوى كشوقى حريصاً على متابعة العصر ومسايرة التطور؛ ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد، وحس مرهف يأنف التخلف. ويزيد الزهاوى أن الفخر يزهاه، والتهيه يذهب به، فيحب الثناء ويبغض النقد. فهو لفرقة من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد، ولنفوره من معرة الجود يذهب بالرأى إلى التطرف، ولطمعه فى نباهة الذكر يجارى ميول الخاصة ويعارض هوى العامة. ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم، ووزارة على الجود بمحاربة أهل الدين، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مآلوف الأمة.

والزهاوى بعد هذا وفوق هذا كان رسولاً من رسل الفكرة الإنسانية، وبطلاً من أبطال النهضة العربية. كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة فتتردد أصدائها الموقظة على ربوات بردى، وخمائل النيل، وسواحل المغرب. وأدب الزهاوى وأمثاله هو الذى وصل القلوب العربية فى مجاهل القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة، حتى استطاعت اليوم أن تتعارف وتتآلف وتتخالف؛ ثم تسعى لتعود أمة كما كانت، وتقوى لتصبح دولة كما يجب أن تكون

[٢٢ مارس سنة ١٩٣٧]

العالمُ الهَجْرِي

هكذا تتعاقب أمواج السنين على ساحل الحياة ، فتنتفي الخبثَ وتطرح الغُثَاءَ
وتركُم الأحداث ، وتزيد في سجل التاريخ صفحة بعد صفحة ؛ وابن آدم الفاني
محمول على غواربها الرُّغْن ، تقذف بعضه مع الرمل والزبد ، وترجع بعضه
إلى العُباب واللج ! ومن يرجع فسوف يعود ؛ ومن عاد فسوف لا يرجع !
هكذا يتحرك الفلك الدوار حركة الطاحون الثقيلة الساحقة فيلفظ القشر ،
ويحفظ اللباب ، ويصفي أكدار الوجود بالعدم ، ويُعفي حطام الصيف بريح
الخريف ، ويجدد مارثً من ديباجة العيش بأفواف الربيع ؛ وابن آدم في يد
القدر المصرّف محراث ومنجل ؛ بعضه يزرع الأمان والعمران والخير ، وبعضه
يقطع السلام والوئام والحب ، وبين هاتين القوتين المتكافئتين يسير هذا الكوكب
المظلم فلا يقف ، ويتدفق هذا الدهر الأثْيُ فلا يركد ، ثم لا ينسحق بينهما
إلا هذا الغبي الذي سلط نفسه على نفسه !

لله الحمد ولنا المجد ! لم تكن أمتنا من شيعه الظلام ولا عصبة الخصام ولا فرقة
الهدم . إنما كانت خير أمة أخرجت للناس ، أمرت بالمعروف ، ونهت عن المنكر
وأعلنت كلمة الله ، وبلغت رسالة الحق ، وحملت أمانة العلم . هذا تاريخنا ، تتألق
أيامه الغرُّ في ظلام الماضي ، كما تتألق الكواكب الزهر في حَلَاك الليل . أرشدنا
الضال فاهتدى ، وحمينا الذليل فعز ، وعلمنا الجاهل فتعلم . ثم مكنا في أرضنا

الفسيحة ودنيانا العريضة لعناصر الجمال والخير ، فقويت في كل نفس ، وازدهرت في كل جنس ، وانبعثت في كل دين ، وانتشرت في كل أفق . وحققنا لهذا الإنسان طريد العدوان وعبد الطغيان أحاديث أحلامه وهو اجس أمانيه : من الأخوة التي يعم بها النعيم ، والمساواة التي يقوم عليها العدل ، والحرية التي تخصب فيها المدارك ، لأن رسالتنا لم يوحها الجوع ولا الطمع ، وإنما أوحاها الذي خلق الموت والحياة ، وجعل الظلام والنور ، وأوجد الفساد والصالح ، ليدرأ قوة بقوة ، وينقذ إنساناً بإنسان فلما أدركنا ضعف الخلق ونقص البشر ، فقد حتنا تكاليف الرسالة وأعباء المجد ، أغفينا حقبة لنسترفه ونستجم ؛ ثم صوحنا اليوم نمسح الكرى عن الجفون وننفخ الغبار عن الأوجه ، فإذا العالم يعصف به سعار من الجشع المسلح والطمع الباغى ؛ وإذا الدين الشرق يقلبه المزاج الغربى إلى كلب وغلَب . فعبقرية موسى رباً ودسيسة ، وروحية عيسى خصومة وحرب ؛ وإذا رجل^(١) لم تنبته صحراء العروبة ولم تنفحه عطور الشرق يطغيه الحديد ويطهره الحديد ، فيقول وهو يحطم الصليب في الحبشة : أنا حامى الإسلام !

وأذل الإسلام إذا لم يعزه أهله ! لا يا سيدى ! إن الإسلام قوته فيه ودفاعه منه ، ولا يزال كتابه فى أيدينا يعمر القلوب بالقوة ، ويغمر النفوس بالحياة : والقوة قوة الإيمان ، والحياة حياة الروح ؛ أما قوه الأساطيل على الماء وفى الهواء فعمرها يوم وليلة ، ثم لا تكون إلا دخاناً فى السماء ، وحطاماً على الأرض !

لا يكون الغرب بغير الشرق إلا كما يكون الجسم بغير الروح . فلا بد من تآلف العقليتين وتحالف القوتين لإقرار النظام فى الدنيا والسلام فى العالم . والإسلام

(١) السنيور موسولينى زعيم الأمة الايطالية الفاشية .

— دستور الديمقراطية الصحيحة والاشتراكية المنظمة ، والأخوة الشاملة —
يسط يده لكل يدتدفع الإنسانية إلى التقدم ، وترفع المدنية إلى السمو . وهؤلاء
المستعمرون الجياع الذين هالهم سره وراعمهم معناه ، فحاولوا أن يطفئوه في مشرق
نوره ، ويخفئوه في مصدر صوته ، ليسرقوا الضمائر في الظلام ، ويسلبوا الذخائر
في الغفلة ، قد أخطأوا فهمه وجهلوا قواه ؛ فإن نوره من الله ، وسيسطع ما سطعت
الشمس ؛ وإن صوته من السماء ، وسيرتفع ما ارتفع الحق ؛ وإن سلطانه من العدل
وسيبقى ما بقي الكون . فإذا انشقت الأرض وانفطرت السماء وانكدرت الشمس
عاد إلى مصدره الأزلى باهراً كما صدر عنه ، طاهراً كما انبثق منه !

لقد أصابوا أخيراً فخطبوا ودّه وطلبوا حلفه . ذلك عهد جديد بين الشرق
والغرب ، أو بين السلم والحرب ، سيقف فيه الحق الصريح أمام الباطل الخداع
وجهاً لوجه . وسيعلم الإنجليز الذين حالفوا العراق ومصر ، والفرنسيون الذين
عاهدوا سورية ولبنان ، أن الإسلام أصدق وعداً ، وأن العرب أوفى ذمة . ولعل
هذه التجربة القريبة ترفع حجب الظنون عن القلوب والعيون فيعيش أولئك
أصدقاء في فلسطين ، ويعيش هؤلاء حلفاء في المغرب

إن الإسلام روح فهو حياة ، وعقيدة فهو قوة ، وشريعة فهو دستور ، ومحبة
فهو سلم . فعاملوه على ذلك تكسبوا عطفه وتغنموا رفده ؛ أما الخداع والرياء ،
أو الشدة والجفاء ، فتلك أسلحة مفلولة إن قطعت قبلُ بالأمس فلن تقطع
بعدُ اليوم

منطق الوازع

مصر الآن أمام اثنتى عشرة دولة فى (مونتر و) تزيف الإدعاء بالقانون ،
وتكسف الغلاء بالحزم ، وتكشف المغالطة بالحجة ، وتقول للذين ظلموها وظلموا
العدل : هأنذى أمامكم وجهاً لوجه ، وعقلاً لعقل ، ولساناً للسان ؛ أخطبكم بلغاتكم
كأنتى منكم ، وأجادكم بعلمكم كأنتى فيكم ؛ فهل تجدوننى أقل منكم فقهاً
لفلسفة التشريع ، وعلماً بمدنية العدل ، وفهماً لسياسة الحكم ؟ هاهم أولاء بعض
أبنائى أوفدتهم إليكم يحملون كلتى ويمثلون إرادتى ؛ فهل رأيتم أروع خطاباً
من مكرم ، وأبرع برهاناً من بدوى ، وأقطع بياناً من ماهر ؟ أليسوا هم حجتى
العليا على أنكم تدافعون عن نظام لا يجد مساعداً من طبيعة الناس ، ولا مساكاً
من منطق الأشياء ؟

لماذا تخشون أن يكون أمثال هؤلاء قضاة فى ديارهم بين مجرميكم ، وهم يجرون
مع اختياركم فى عنان ، ولا يتخلفون عن أقطابكم فى ميدان ؟
لماذا تأبون أن يتساوى الوطنى والأجنبى فى الحق والواجب ، وأنتم ترون
هذا النهر المبارك يضفى عليكم النعمة ، ويميزكم على أبنائه فى القسمة ؟

ذلك ما تقوله مصر لخصومها (المتأزين) الذين احتشدوا فى مونتر و يفاوضونها
فى تنظيم العدوان ، ويعارضونها فى محو الإهانة . وهذا القول لا عيب فيه إلا اعتماد

على الحق الذى زهق فى دول أوربا، وإلا استناده إلى المنطق الذى اختنق فى كتب الفلاسفة . فلو أنه قيل على أسلوب الزمن الحاضر ، وجرى على منهاج المنطق الحديث ، لما قابله المكابرون إلا بالتصفيق . والمنطق الحديث منطق الفعل لا منطق القول . وإذا كان مدار المنطق الكلامى على القياس ، فإن مدار المنطق العملى على الواقع . والواقع فى قانون الطبيعة له سلطان الأمر الموجود وقوة الشئ المحكوم به . والمفاوضة فيه تختلف عن المفاوضة فى النية المكتوبة والفكرة المقترحة كان بيننا وبين جيراننا فى المزرعة حد جرى عليه الخلاف فلم يتم ، فاختلط الحق بالحق ، ودخل من ملكنا فى ملك الجار مقدار كبير . وفى الأسبوع الماضى نذبت الحكومة مهندساً يبين الحق المشتبه ويعين الحد الجاهل فمسح الأرض ورد المأخوذ ودق الحديد وحرر المحضر ، وأمضاه الجيران وفيهم العمدة . وكان الحدين مزرعتين ، ولكن الخلاف كان بين قريتين ، فاتفقنا نحن وهم على أن نقيم الحد فى اليوم التالى ونجعله مصفى ومرؤى بينهما طريق . ولكننا علمنا فى الليل أنهم طمعوا فيما تحت أيديهم ، فلا يودون أن ينزلوا عنه . وتعليل هذا التحول يسير على من عرف غرائز الناس وخبر طبائع الريف . وفى الصباح الباكر كانت القرية فريقين : فريق الفأس والعمل ، وقد ذهب إلى المزرعة ، وفريق المنطق والكلام وقد ذهب إلى القرية العنيدة . وانعقد مجلس القريتين فى دار العمدة ؛ ثم انطلقت الألسنة البليغة تتجاوب بالعواطف الشاعرة تجاوب البلابل فى أعشاش الربيع . وكانت قوافى الأغاريد ترن موسيقاها بألفاظ الصداقة والود والمصاهرة والمجاورة والقانون والحق ، فتطرب الأذان وتهتز القلوب وتشرق الأوجه .

فلما انتهينا إلى أن هناك حداً يجب أن يقام ، وحقاً يجب أن يُعطى ، تكسر الوجه الضاحك ، وتنكر الصوت الرخيم ، وانتفخت لغايد الشر ، فتهور بالكلام وتهدد بالمعارضة . وكان فيهم رجل رشيد ، فكان يملأ الدلو من حين إلى حين ويُفرغه على القوم فتقر الفورة ويهدأ الحديث . وفي فترة من تلك الفترات الساكنة ، اقترح أن نجعل لجيراننا الطامعين أجلاً متى حل وجب عليهم أن يردوا الحق من غير اعتراض ولا مظل . وارتاح القوم لهذا الحل لأنه يترك لهم العين ويأخذ منهم الأثر ؛ ورضينا به نحن لأنه يحسم النزاع بين القريتين ، ويذهب عن النفس المسالمة شعور الهزيمة .

وكان الخلاف أشد ما كان على مدة الأجل فبدأت بشهر وانتهت بخمسة . وكان الذين وضعوا أيديهم على الحق بالباطل أبسط لساناً في الرفض ، وأصلب عوداً في القبول ؛ أما نحن والقانون والحكومة فكان (ارتكازنا) على خلاء كتبنا الاتفاق وأمضوه بعد وقفات طويلة على كل نص من نصوصه ؛ ثم أخذنا نستعد لتشييد الختام في تمجيد الوثام والسلام ، لولا رسول أقبل من الغيط يعلن أن رجال الفأس والكريك لم ينتظروا نتيجة المؤتمر خفروا المصفي وشقوا المروى ، وأقاموا الطريق ، وحرثوا الأرض ، وأنجزوا في ساعتين ، ما لا ينبجز في يومين .

كان هذا الخبر أضخم الدلاء التي صبت على المؤتمر ، فشدنا نحن ، وخجلوا هم ، وتذكر الجيران الأعزّة حينئذ عواطف المصاهرة والمجاورة فقالوا : هذا هو الحق ! ذلك ملككم وما ينبغي لأحد أن ينازعكم فيه ! !

كان في قدرة مصر أن تتخذ سياسة الأمر الواقع ، فتلغى بإرادتها المطلقة هذه المعرة التي ورثتها عن الترك كما يورث الزهرى الأفرنجي عن الأب المريض . ولو أنها آثرت هذه الخطة لوجدت حجتها في القانون لا في القوة ، ولكن مصر الكريمة المضيفة لا تزال تجرى على أعراق أبائها الميامين ، فلا ترفع اليد ما دام يغنيها اللسان !

على أن قوة الحق المصرى ، وقدرة المفاوض المصرى ، جعلتا القانون الأعزل أرفع صوتاً من المدافع ، وأبعد نفوذاً من القنابل . وأعجب العجب أن الأمم اللاتينية التي سائرت نهضتنا وعاشرت أمتنا قرناً وثلاث قرن ، كانت هي وحدها التي تجهل أن مصر دولة من دول البحر الأبيض ؛ وأن لها ديناً سماوياً يهدهى إلى الحق ، وتشريعاً مدنياً يرمى إلى الخير ، وخلقاً شرقياً يدعو إلى المحبة ؛ وأن رعاياها كانوا قبل الامتيازات وبعدها يتقلبون في خيرات النيل ، ولا وزر لهم إلا أخلاق هذا الشعب النبيل .

[١٩ أبريل سنة ١٩٣٧]



حول الديمقراطية

— لا يا عزيزي ؛ أنا لا أتابعك على هذا التفسير . إن رأي الإمام محمد عبده جلي صريح . وكلمة (ينهض) في قوله المأثور : « لا ينهض الشرق إلا بمستبد عادل » أساس فكرته وعمود رأيه . فإن النهوض لا يكون إلا من القعود . والأمة القاعدة أو الرافدة لا يبعثها إلا القرع الشديد والهاثف القوى . ولا يمكن أن يكون هذا القارع الهاتف رأيها العام لأنه مفقود ، ولا ضميرها الاجتماعي لأنه ميت ؛ إنما يكون رسالة من الله على لسان نبي ، أو هداية من الطبيعة على يد مصلح . وتنفيذ الرسالة الإلهية ، أو الدعوة الإصلاحية ، يرجع إلى خليفة يحكم بأمر الله ، أو طاغية يحكم بأمر نفسه . فإذا كانت الأمة قد نهضت بالفعل كان الاستبداد بأمورها كفاً لنزعاتها عن الطموح ، وجسماً لملكاتها عن العمل ؛ لأن النهضة معناها غافل أحس وجوده ، وخامل فهم نفسه ، وجاهل عرف حقه ، وضال وجد سبيله . والحياة التي تسرى في أفراد الشعب الناهض ، هي بعينها الحياة التي تجري في أعواد الربيع المنبعث : تتحرك في الأمة على صوت النذير في الغفلة ، كما تتحرك الطبيعة على هزيم الرعد في الشتاء . ومتى نفخ الله من روحه في خمود الحى ، سيّره على سنة الوجود وبصره بغاية الحياة ؛ وهنا يكون المستبد مهما عدل سحاباً يحجب النور الذي انبثق ، وسموماً يصوّح الزهر الذي تفتح

فقال صاحبي الشاب وقد ألقى باله لما قلت ففترت حماسته بعض الفتور :

— ولكن المستبد برأيه أو الحاكم بأمره يختصر الآراء في رأيه ، ويجمع الأهواء على هواه ، فنأمن التشرد الذي يُضل ، والتردد الذي يعوق ، والتواكل الذي يضعف ، والتساهل الذي يحابي . فقلت له :

— ذلك يصح والشعب لا يزال قطيعاً من الحيوان الأبله . لا بد له حينئذ من الراعي وعصاه . أما إذا أصبح هذا القطيع أمة لكل فرد من أفرادها كرامة وإرادة ورأى ومصلحة ، فبأى منطق تلغى هذه العقول الملايين التي جعلت لتفكر ، وتنسخ هذه النفوس الملايين التي خلقت لتريد ، لتجعل مكانها نفساً واحدة تعصب قوة الشعب لتقوده ، وتسرق ثروته لتسوده ، ثم يسرف عليها سلطانها فتتخذ الناس عبيد والبلاد ضيعة ؟

أنا أفهم أن المرء يقهر فيخضع ، ويؤسر فيسترق ، لأن الأمر في ذلك لا يخرج عن قانون الطبيعة من تغلب الأقوى وسيادة الأصلح ؛ ولكني لا أستطيع أن أفهم كيف يستأسر شعب بأسره لواحد منه ، فيلقي بزمامه إليه ، ويعول في جميع أموره عليه ، والشعب مهما صغر لا يقل عن شعب ، والفرد مهما كبر لا يزيد على فرد ؛ والقوة والثروة والسلطان هي في ذلك الجمع الذي فيه الجندى والفلاح والعامل ، لا في ذلك المفرد الذي فيه السرف والترف والبنى ؟ !

لقد مات ذلك الإنسان المغفل الذي كان يجعل إلهه حيواناً يربيه ثم يمجده ، أو حماداً يصنعه ثم يعبد

إن الديمقراطية يا صديقي أخلق النظم بكرامة الإنسان وسلامة العالم . هبط

وحياها على الإنسان المفكر الحر فى أثينا ، ثم أصابها ما أصاب رسالات الخير فى الأرض من شيوع الجهالة وبلادة الحس وأثرة الهوى وطغيان الحكم ، فصارت عروساً من غرائس الخيال كالحق والعدل والحرية ، تتمثل فى الأحلام ، وتترأى فى المنى ، وتُقتل فى سبيلها الأنفس الكريمة ؛ حتى ظفر بها الأورنى الحديث بطول جهاده وكثرة ضحاياه ووفرة علمه وقوة شعوره ؛ فأصبح كل فرد بمقتضاها صاحب حق فى الوطن ، وصاحب رأى فى التشريع ، وصاحب صوت فى الحكم ؛ وصار العامل الفقير والصانع الأجير والفلاح المتواضع قادرين على أن يلغوا الوظيفة التى لا تفيد ، ويسقطوا الحكومة التى لا تعدل

الديمقراطية هى المساواة فى الحق والواجب ، والمشاركة فى الغنى والغرم ؛ وهى الميدان الحر للكفايات الممتازة لا يعوقها عن بلوغ الأمد فيه عائق من نسب أو لقب أو ثروة . فكيف يجرى فى ذهنك هذا الخاطر وأنت من أصفى الشباب حساً وأنبلهم نفساً وأكثرهم ثقافة ؟

لم يجد الشاب ما يقوله ؛ لأن الواقع فى ذهنه إنما هو اضطراب الحيرة لا اختار الفكرة ، فعبّر عن كل ما بقى فى خاطره بهذا السؤال :

— وماذا تقول فى موسولينى وهتلر ؟

— أقول إنهما مظهر حادّ من مظاهر الديمقراطية . كلا الرجلين يعمل بالشعب وللشعب ؛ وكلاهما يمثل قوة الأمة وينفذ إرادة الأمة ؛ وكلاهما يعتقد أن اليد التى استطاعت أن ترفع تستطيع أن تضع

ولباب الأمر أن تعترف للأمة بالسلطان ثم تظهره بعد ذلك في أى رجل شئت،
وتحت أى عنوان أردت

فابتسم صديقي الشاب ابتسامة المقتنع ، وحيّا تحية المسلّم ، ثم قال وهو يضع
يده في يدي : إن جهودنا معشر الشباب كانت مسددة إلى غرض واحد هو
استقلال الوطن ؛ فلما أسفر الجهاد عن وجوه الفوز اضطربت الجهود وتشعبت
الآراء واحتجنا في هذا العهد الجديد إلى توجيه جديد . فقلت له : ذلك منهاج
الكتاب والأحزاب والنواب منذ اليوم ، فعسى أن يهديهم الله إياه فينهجوه !

[٢٦ أبريل سنة ١٩٣٧]



الطربوش والقبعة

كان للطربوش امتياز على العمامة أيام كان الأمر للترك والأرناؤود ، لأنه كان يومئذ تاج السلطان وشعار الحكم ولباس الجيش ورمز البطش وعلامة الخطر ؛ فكان يكفي أن يكون في الحى أو فى الناحية مهنرى^(١) واحد لتخشع النفوس وتخضع الرؤوس ويمحى القانون وتنتفى الحكومة ، فلا يمر أحد وهو واقف ، ولا يشترجر اثنان وهو موجود ، ولا يعرف الناس من وراء بيته شرطة فى قسم ، ولا قضاة فى محكمة

وكان للقبعة امتياز على الطربوش أيام كان الشأن لاحتلال الإنجليز وامتياز الدول ؛ لأنها كانت حينئذ شارة الغلبة وبراءة الإجرام وصك الغصب وجواز المرور وإشارة الثراء وأمانة التفوق . فكان يكفي أن نرى (الخواجة) لنرى الغانم الذى لا يغرم ، والمتصرف الذى لا يحاسب ، والضارب الذى لا تقدر أن تغل يديه ، والسفيه الذى لا تستطيع أن ترد عليه ، والمدير الذى يملك المصارف والمصانع والمتاجر والشركات والبارات والمقاهى والملاهى والفنادق ، ومن ورائه المحكمة الخصوصية ، والمحاكم القنصلية ، والمحاكم المختلطة ، والتبجح الأشهر والدعوى العريضة والبأو السليط . فكان الطربوش عنواناً على ذلك الإنسان الذى أفسدت فيه العبودية والجهالة مزايا الإنسانية فجعلته

(١) اسم كان يطلق يومئذ على لابسى الطربوش

حيًا تعافه الحياة ، ووطنياً ينكره الوطن ، وورثياً يأنف منه التراث ، وخلفاً يعرض عنه التاريخ ؛ وكانت القبعة سمة على ذلك الأجنبي المتقحم بقوته على الضعف ، وبقدرته على العجز ، وبصحوته على الغفلة . فالتمايز في واقع الأمر كان بين ناس وناس ، لا بين لباس ولباس . فإنك إذا وضعت الطربوش على جبهة الأسد كان مفخرة ، وإذا وضعته على رأس القرد انقلب مسخرة . وهل تصنع القبعة في الرأس الذليل إلا أن تجعل منه زنجياً في أمريكا ، وحبشياً في أفريقيا ، وصعلوكاً في كل قارة ؟

أما نحن اليوم نخلق جديد في دنيا جديدة : تنبث فينا ملكات الجنس فثرنا على الخسف ، وتمردنا على الأذى ، وزاحمنا الناس بالمناكب العريضة على مكاننا الخالي منذ قرون في صدارة الأمم ، فانفتح الطريق البشري من خلفنا على المجد الأول ، ومن أمامنا على النصر الأخير . وأصبح في وضع الطربوش على جباهنا مَواحٍ من سمو الشمس وشموخ الهرم ، وفي حمرة معان من أشعة الشروق ودماء التضحية وأوراد الربيع وأضواء الذهب . فالتبرم به اليوم لا يجد له فيما أظن مساعداً من العقل ما دام الرأس الذي يحمله قد ارتفع وامتلأ واتزن لا أريد أن أدخل بين الطربوش والقبعة ، ولا أن أدعو إلى ذاك أو إلى تلك ؛ وإنما أريد أن أقول إن ضعفنا هو الذي ظلم الطربوش كما ظلم اللغة والعلم . فإذا سوغ المنطق أن نترك الطربوش لأنه لا يطاول القبعة ، سوغ كذلك أن نهجر العربية لأنها لا تنتشر في كل أرض ، وأن نخرج على العلم لأنه لا يخفق

في كل سماء . ولن تجد أهون على الناس من رجل يأنس في نفسه الضعة فيحتال
على العظمة بارتداء ثوب العظيم

ماذا يضرك الطربوش إذا كان لك طوائر تنز في السحاب ، وبواخر تمخر
في العباب ، ومدافع ترعد في البر ، وغازات تسطع في الجو ، ومجلس ظاهر
في العصبه ، وقول نافذ في السياسة ، ورأى مسموع في العلم ، ومذهب متبوع
في الأدب ، ووطن يدبره حكمك ويستثمره علمك ، ويستقل بخيره وميره بنوه ؟
وماذا تنفعك القبعة إذا قنعت من استقلالك بالإقرار به ، ومن وطنك بالقرار
فيه ؛ ورضيت أن تعيش حميلة على قوة الخليفة ، وصنيعة على رحمة الدول ،
واكتفيت بمظاهر التمدن من اللباس والرياش والترف واللهو ؛ وظلت على الغرائز
الجافية والحس البليد ، تكذب لتمزح ، وتغش لتربح ، وتناقش فيفطر عليك
صوتك ولسانك ويدك ، وتحضر مجلس السماع فتجعله من التأوه والأنين والصخب
والعربدة ماخوراً في مستشفى ؛ وتسير في الطريق مرحاً أو ذاهلاً فتصدم المار
فيلتفت إليك التفاتة العاتب ترضيه ابتسامة عاذرة ، فتهجم أنت عليه بالنظرة
الشرراء والكلمة الفاحشة ؛ وتصعد الترام فتخطو بنعليك على أقدام الراكبين
حتى تبلغ محلك فتتنحط فيه كاشر الوجه غير ملتفت . أو ضاحك السن غير مكترث ؛
وتمر بك الأنسة الخفرة أو السيدة الحاصن فتخز حسها بالنظر الفاجر ، وتؤذى سمعها
بالمنطق الخطل ، ولا ينبهك ضميرك الأغلف إلى أن للأسرة حرمة والمجتمع كرامة ؟
طهر رأسك يا سيدي من درن هذه الخلال ثم ضع عليه طاقة أو لبدة
أو أى غطاء شئت . ترتفع منزلتك في كل عين ، وتقر هيبتك في كل صدر ، فإن

قيمة ذلك في الرأس الذي يحمله ، والشعب الذي يمثله ، لا في أصله ولا في شكله
ولا في لونه . والثوب كما يقول الفرنسيون لا يصنع الراهب
أي شرف أرفع للرأس ، وأي غرأ ملاً للقمم ، من أن تذهب اليوم بشرقيتك
ومصريتك وطربوشك فتقول للذين غمطوك بالأمس : أرايتم إلى الجوهر الحر
والمعدن الكريم كيف طمرته القرون وصهرته الأحداث وتناهبته الأطماع ،
ثم خرج من عمرك العبودية ومعركة الحرية باهر اللون ، متميز الشكل ، كامل
الخصائص . حر الوجود ، لا هو ماسة في خاتم ولا درة في تاج !

[٧ يونيو سنة ١٩٣٧]



أدب السندوتش

لعلك تقول لنفسك سائلاً أو هازلاً ما علاقة الأدب بالسندوتش ؟ ولو كنت أريد الأدب الذى تعارفه أولو الجسد من الناس لأعيا نفسك وأعيانى أن ندلك على هذه العلاقة ؛ ولكننى أريد الأدب الذى تتأدبه ناشئة اليوم . والسندوتش أو الشطيرتان بينهما الكامخ كما يريدون أن تقول ، لقيمت تشتريها وأنت واقف فى المطعم ، وتأكلها وأنت ماش فى الطريق ، وتهضمها وأنت قاعد فى المكتب ، فلا تجد لها بين ذهول العجلة وتفكير العمل هناءة فى ذوقك ولا مرءاة فى جوفك . وهذا الضرب من الطعام القائم على القطف والخطف جنى على الأسرة فخرها لذة المؤاكلة وممتعة المنادمة وأنس العشرة ؛ وجنى على المائدة فسلبها فنها الطاهى وذوقها المنظم وجلستها البهيجة ؛ وجنى على الصحة فأضعف الشهوة وأفسد الهضم ونقص العافية . والثقافة الأدبية اليوم لا تختلف فى سرعتها وتفاهتها وفسادها عن هذا النوع الجديد من الأكل ؛ فهى نبتات من الكتب ، ولققات من الصحف ، وخطفات من الأحاديث ، ومطالعات فى القهوة أو فى الترام أو فى السرير يلقط الكلم فيها النظرُ الخاطف ، كما يلقط الحب الطائر الفرع ؛ ثم نتاج مختصر^(١) معتسر كجنين الحامل أسقطته قبل التمام ؛ وصراخ مزعج فى أذنى هذا السقط ليستهل^(٢) وهو مضغة من اللحم المسيخ لا تشعر ولا تنبض ؛ وأصبح مآل غرفة

(١) اختصر الكلاً : جزه وهو أخضر فانقطع ، واختصر الفاكهة : أكلها قبل نضجها

(٢) استهل الوليد : رفع صوته بالبكاء عند الولادة

المكتب فى البيت كآل غرفة الطعام وقاعة الجلوس فيه ، بنى عليها سندوتش الصحيفة كما بنى على هاتين سندوتش البار والقهوة .

يقول أنصار السندوتش فى الحياة : إن المائدة لا تتفق مع الزمن الدافق والعمل المتصل والتطور المستمر والحركة السريعة ؛ فإن فى طول الجلوس إليها ، وفى قواعد الأكل عليها ، وتعدد الألوان فيها ، واحتفال الأسرة لها ، إضاعة للمال والوقت ، وقتلاً للنشاط والحركة ، وجلباً للسقام والمرض .

ويقول أنصار السندوتش فى الأدب : إن قواعد اللغة قيود لا توافق حرية العصر ، وأساليب البلاغة عوائق لا تجارى قراءة السرعة ، وبدائع الفن شواغل لا تساعد وفرة الإنتاج . والحق الصريح أن آكلى السندوتش أعجلتهم محقر العمل ومشغل الرزق عن النعيم الآمن والجمام الخصب والبيت المطمئن ، فجعلوا صعلكة المطاعم نظاماً وفلسفة ؛ وأن قارئى السندوتش صرفتهم وعوثة الطريق وتكاليف الغاية عن اكتساب الملكة وتحصيل الأداة وتوفير المعرفة ففنعوا بهذا الفتات المتخلف ثم تجشأوا من غير شعب ، وتشدقوا من غير علم ، وطلبوا محو القيود والحدود والمقاييس ليصبح الأدب كوناً عاماً والفن حمى مباحاً فيسموا راوى الأقاويل قصصياً ، ووزان التفاعيل شاعراً ، ونهش الأعراض ناقدًا ، وسلاب القرائح نابغة . ولكن الطبيعة التى تحفظ سر الكمال ، وتحمى ندرة النبوغ ، وتبغى بقاء الأصلح ، تأبى إلا أن يظل قراء السندوتس وآكلو السندوتش فقراء ذوى عمل ، أو أغنياء ذوى لهو ، لا تهيبهم الحياة المضطربة إلى زعامة فى أمر ولا إلى نبوغ فى فكرة .

أنار هذا الموضوع في ذهني طائفة من الرسائل النقدية تلقيتها من أقطار
العربية تستنكر بعض ما تظهر المطابع المصرية من لغو الكهول وعبث الشباب ،
ونشدد النكير على بعض الأحاديث الأدبية التي تبثها الإذاعة اللاسلكية ،
ويعجب فاضل من بغداد وأديب من حلب كيف تمتهن مصر كرامتها فترفع
صوتها الأدبي في العالم من فم شاعر له ديوان مطبوع وذكر مرفوع ثم لا يدرى
شيئاً في قواعد اللغة ولا ضوابط العروض ، فكان يقرأ النثر ولا يقيم لسانه ،
وينشد الشعر ولا يضبط ميزانه ، حتى قالوا والعهدة عليهم إنه أنشد قصيدة ابن
سعيد المغربي ، وهي من بحر السريع على روى الكاف الساكنة ، ففتح
الكاف وجعل صدور الأبيات من بحر وأعجازها من بحر آخر !

الواقع الأليم أن الذين درسوا لغتهم وفقهوها من الأدباء النابهين نفر قليل .
فإذا استئنيت هؤلاء الستة أو السبعة وهم من الكهول الراحلين ، وجدت طبقة
الأدباء كطبقات الصناعات والزراع والتجار يأخذون الأمور بالتقليد والمحاكاة
لا بالدرس والمعاناة ؛ وكما تجد في هؤلاء من ينشئ المتجر ثم يكله إلى أجنبي ينظمه
ويرتبه ، تجد في أولئك من يؤلف الكتاب ثم يدفعه إلى نحوي يعربه ويهذهبه .
ولا تجد في تاريخ العربية قبل هذا العصر ، ولا في تاريخ اللغات في جميع العصور
من يحسب نفسه أديباً في لغة وهو لا يعرف منها إلا ما يعرفه العامى الألف .
والغرور المتبجح والادعاء السفیه لا يستطيعان أن يحملا الناس على أن يقرأوا
السخف ، ولا الزمن على أن يبقى على الضعيف

إن رسالة الأدباء كرسالة الأنبياء فيها عبقرية وجلالة وسمو . فإذا لم يكن
الكاتب أو الشاعر خليقاً أن يسيطر على العقول والميول بمكانه في العلم وسلطانه

فى الأدب ورجحانه فى الرأى كان أشبه بمن يدعى النبوة فى مكة ، أو بمن يمارس
الشعوذة فى لندن !

إن المدارس المصرية تعلم اللغة على منهاج غير واضح ؛ وإن الجامعة المصرية
تبنى الأدب على أساس غير صالح ، وإن الجامعة الأزهرية لا تزال تنفض البلى عن
كتب ملتأة التعبير من مخلفات للعجمة ، إن صلحت لشيء فلن تصلح لتعليم
البلاغة . فليت شعرى إذا خلت أمكنة هؤلاء النفر الذين نبغوا بالاستعداد
والاجتهاد كيف تكون حال الأدب الرفيع فى مصر ؟ أيذهبون وبُطْثان
ما يعوضون على رأى الأستاذ أحمد أمين ؟ أم يذهبون وسرعان ما يُخْلَقون على
رأى الأستاذ العقاد ؟

[١٤ يونية سنة ١٩٣٧]



لا حول ولا قوة إلا بالله (رحمته لله وخلده في
أجناته لهم)

مصطفى لطفي المنفلوطي

- ١ -

رحمة الله عليهم يا سيدي المروية



كان في مستهل هذا العصر نفر
من الأفاع الخلصاء يتنقلون بين
حلق الأزهر كما تتنقل النحل بين
الروض ، لا يتشممون غير الزهر
ولا يتذوقون إلا الرحيق ؛ وكانوا
كالفرّاش رفاق الجسوم خفاف
الأجنحة يتهافتون على أضواء النوابع

المعاصرين أينما تشع ؛ وكانت الومضات الروحية الأخيرة للبارودي واليازجي
ومحمد عبده وقاسم أمين ومصطفى كامل والشنقيطي قد التمت التماعة الموت لتنتطفئ
كلها متعاقبة في العقد الأول من عقود هذا القرن ، فهيأت الأنفس والأذواق
إلى أدب جديد كنا نفتقده فلا نجد . وكان إخواننا اللبنانيون في مصر
وفي أمريكا قد فتحوا نوافذ الأدب العربي على الأدب الغربي فأرونا فنوناً من
القول وضروباً من الفن لا نعرفها في أدب العرب ؛ ولكنها كانت في الكثير
الأغلب سقيمة التراكيب مشوشة القوالب ، فأجفناها على نفاستها كما أجفنا
أساليب المقامات من الألفاظ المسرودة والجل الجوف والصناعة السمجة والمعاني الغثة

وحينئذ أشرق أسلوب المنفلوطى على وجه (المؤيد) إشراق البشاشة ،
وسطع فى أندية الأدب سطوع العبير ، ورن فى أسماع الأدباء رنين النغم . ورأى
القراء الأدباء فى هذا الفن الجديد ما لم يروا فى فقرات الجاحظ وسجعات البديع ،
وما لا يرون فى غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة ، فأقبلوا عليه إقبال الهيم على
المورد الوحيد العذب

وكان هذا النفر من الأيفاع المتأدين يجلسون فى أصائل أيامهم الغريرة أمام
(الرواق العباسى) فى الأزهر يتقارضون الأشعار ، ويلهون بأغفال الناس ، ويترقبون
(مؤيد) الخميس ليقروا مقال المنفلوطى خماس وسداس وسُبَاع ، وطه مرهف
أذنيه ، وزناتى مسبل عينية ، وفلان مأخوذ بروعة الأسلوب فلا ينبس ولا يطرف .
وكلهم يودون لو يعقدون أسبابهم بهذا المنفلوطى الذى اصطفاه الله لرسالة هذا
الأدب البكر ، وجعله الإمام المفتى تلميذه المختار . ولكن المنفلوطى كان فى ذلك
العهد الذى قرأناه فيه قد جاوز الثلاثين ، فهو قليل الإمام بالأزهر ، لا يجلس
إلى شيخ ولا يأوى إلى رواق . وكان قد هيا نفسه ليكون كاتباً لا عالماً فلم يجعل
همه لامتحان ، ولم يشغل ذرعه بشهادة .

وبعد سنتين نشر المنفلوطى مختار ما دمج من فصوله فى المؤيد فى كتاب عنونه
بالنظرات ، وكان قد حكم على الشيخ عبد العزيز شاويش فى مقاله (طبقات
الكتاب) حكماً شديداً ورطه فيه على ما أظن صلته بالمؤيد وبالمغفور له
سعد باشا ؛ والشيخ شاويش يومئذ محرر اللواء بعد مصطفى باشا كامل ، ولطه به
اتصال ، فخرضه على أن ينقد (النظرات) فنقدها ذلك النقد الغاضب الصاحب
فى ثلاثين مقالة ونيفاً لم تدع سبيلاً إلى التعارف بيننا وبينه

ثم زاولت التعليم فكنت أستعيد قراءة المنفلوطى مقسماً بين أقلام الطلبة .
وفى سنة ١٩٢٠ ترجمت (آلام فرتر) وكان صاحب العبرات يومئذ قد بلغ الغاية
فى الشهرة والأدب فرغب فى أن يرانى . وكان لنا صديق مشترك فجمع بيننا فى داره ؛
ورأيت المنفلوطى لأول مرة فرأيت رجلاً مجتمع الأشد ، مربوع الخلق ، ممتلئ
البدن ، غليظ الشارب ، حسن السمّت ، لا تلاحظ على وجهه المظلم المصقول
مخايل الفنان ولا سهوم المفكر . ثم تحسبه وهو يحدثك حديثه المقتضب الخافض
سرياً من عامة السراة فى الصعيد لا حظ له من بلاغة اللسان ولا رياضة القلم .
ثم داخلته فتكشف لى عن ألمعية أصيلة تستتر عادة بين الحياء والحشمة . ووثق
الودّ بينى وبينه توافق المزاج المنقبض والطبع الحي والوجود المنعزل ، فدرسته
على ضوء ما أعلمه من صفات نفسى فلم أجاوز الحق فى تصويره وتقديره

كان المنفلوطى قطعة موسيقية فى ظاهره وباطنه ؛ فهو مؤتلف الخلق ،
متلائم الذوق ، متناسق الفكر ، متسق الأسلوب ، منسجم الزى ، لا تلمح فى قوله
ولا فى فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز الفدامة . كان صحيح الفهم فى بطاء ، سليم
الفكر فى جهد ، دقيق الحس فى سكون ، هبوب اللسان فى تحفظ . وهذه الخلال
تظهر صاحبها للناس فى مظهر العي الجاهل ، فهو لذلك كان يتقى المجالس
ويتجنب الجدل ويكره الخطابة ؛ ومرجع ذلك فيه إلى احتشام التربية التقليدية
فى الأسرة ، ونظام التعليم الصامت فى الأزهر ، وفراط الشعور المرهف بكرامة
النفس . ولكنك إذا جلست إليه رأساً إلى رأس ، تسرّح فى كلامه ، وتبارى
لسانه وخاطره فى النقد الصريح والرأى الناضج والحكم الموفق والتهكم البارع ،
فلا تشك فى أن هذا الذى تحدّثه هو المنفلوطى الذى تقرأه . ثم هو إلى ذلك

رقيق القلب ، عف الضمير ، سليم الصدر ، صحيح العقيدة ، نفاع اليد ، موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته

— ٢ —

كان مولد المنفلوطى كمولد الرافى فى بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث أهله قضاء الشريعة وتقابة الصوفية قرابة مائتي سنة ؛ ولكنه كان خلفةً لنبعتين مختلفتين : فأبوه عربى صريح النسب إلى عترة الحسين ، وأمه تركية شابكة القرابة إلى أسرة الجوربه جى . ونهج المنفلوطى سبيل آبائه فى الثقافة ، حفظ القرآن فى المكتب ، وتلقى العلم فى الأزهر ؛ إلا أن للأدباء من أبناء الفقهاء نبوة فى بعض الحالات على إرادة الوراثة والنشأة ؛ فهم يصدفون فى منتصف الطريق عن دروس الفقه والأصول والعقائد ، إما لأن أذواقهم الأدبية الموهوبة لا تسيع أساليب كتبها المعقدة ، وإما لأن طباعهم المدنية الحرة لا تطيق الحياة الدينية المقيدة . فكان السيد مصطفى على الكره من ورع قلبه ورعاية أبيه لا يُلقى باله كثيراً لغير علوم اللسان وفنون الأدب ؛ فهو يحفظ الأشعار ، ويتصيد الشوارد ، ويصوغ القريض ، وينشئ الرسائل ، وتسير له شهرة فى الأزهرين بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فيقر به الأستاذ الإمام ويرسم له الطريقة المثلى إلى الغاية من الأدب والحياة . ثم يستفيد المنفلوطى من قرب به إلى الإمام صلته بسعد باشا ، ومن زلفاه لدى هذين العظميين نفوقه لدى (المؤيد) . والإمام المجتهد محمد عبده والسياسى الخطيب سعد باشا ، والصحفى الكاتب على يوسف ، كانوا أقوى العناصر فى تكوين المنفلوطى الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد والده . وأولئك الثلاثة كانوا على ما بينهم من التفاوت فى نواحى النبوغ أفهم رجال

العصر الحديث لحقيقة الأدب وأشدّهم حدباً على بؤس أهله
كان المنفلوطى لا يعمل جاداً لشهادة الأزهر ، وإنما كان يعتمد فى نيلها
على جاه الإمام ، كما كان يعتمد من هم على شاكلته من أبناء العلماء على وساطة
والديهم . والإمام المفتى مفسر وحى الله ، وشارح فن عبد القاهر ، ومعيد الأدب
إلى الأزهر ، كان يقيس كفاية الطالب بمقياس سيبويه لا بمقياس أبى حنيفة .
فلما قبضه الله إلى رحمته جزع المنفلوطى فيه على سنده وأمله ، وارتد مقطوع
الرجاء إلى بلده . ثم نعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن فهب يبتغى فى (المؤيد)
الوسيلة إلى النباهة والنجاح ، وأوى من الوزير سعد باشا حامى النبوغ إلى ركن
منيع ، فخلق له منصب التحرير فى وزارة المعارف فضمن له به رغد العيش ووفرة
الإنتاج حتى اختار الله له ما عنده

كان المنفلوطى أديباً موهوباً حظ الطبع فى أدبه أكثر من حظ الصنعة ؛
لأن الصنعة لا تخلق أدباً مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة . والنثر الفنى
كان على عهده لوناً حائلاً من أدب القاضى الفاضل ، أو أثراً ماثلاً لفن
ابن خلدون ؛ يتمثل الأول قوياً فى طبقة المويلحى وحفى ناصف ، ويظهر الثانى
ضعيفاً فى طبقة قاسم أمين ولطفى السيد . ولا يستطيع ناقد أن يقول إن أسلوبه
كان مضروباً على أحد القالبيين ؛ إنما كان أسلوب المنفلوطى فى عصره كأسلوب
ابن خلدون فى عصره ، بديعاً أنشأ الطبع القوى على غير مثال ؛ والفرق أن بلاغة
(النظرات) مرجعها إلى القرينة ، وبلاغة (المقدمة) مرجعها إلى العبقرية
أعلم أن المنفلوطى تأثر فى القديم بابن المقفع وابن العميد ، وفى الحديث

بجبران ونعيمة ، ولكن هذا التأثير دخل في فنه دخول الإلهام والإيحاء ، لا دخول التقليد والاحتذاء ؛ فله من الأولين إشراق الديباجة وقوة النسج ، وله من الآخرين جدة الموضوع وطرافة الفكرة ، ولكنك لا تتذكر وأنت تقرأ أحداً من أولئك جميعاً

عالم المنفلوطى الأقصوصة أول الناس وبلغ في إجادتها شأواً لا ينتظر من نشأة كنشأته في جيل كجيله . وأذكر أننا كنا نقرأ (غرفة الأحزان) و (اليتيم) وأمثالهما فنطرب للقصة على سذاجتها ، أكثر مما نطرب للأسلوب على روعته . وسر الذبوع في أدب المنفلوطى ظهوره على فترة من الأدب اللباب ، ومفاجأته الناس بهذا القصص الرائع الذى يصف الألم ويمثل العيوب ، في أسلوب طلى وسيق مطرد ولفظ مختار . أما صفة الخلود فيه فيمنع من تحقيقها أمران : ضعف الأداة وضيق الثقافه . فأما ضعف الأداة فلأن المنفلوطى لم يكن عالماً بلغته ولا بصيراً بأدبها . لذلك نجد في تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ في غير موضعه . وأما ضيق الثقافه فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالاً مباشراً بعلوم الغرب . لذلك ، تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة . فإذا قدر الله لأدب المنفلوطى أن يفقد سحره وخطره في أطوار المستقبل ، فإن تاريخ الأدب الحديث سيقصر عليه فصلاً من فصوله يجعله في النثر كالبارودى في الشعر . وكفى بذلك عنوان فضل وخلود ذكر . أما مسألة الأدب الباكي والأدب الضاحك ، أو الأدب الضعيف والأدب القوى ، فمغالطة مريضة من النقد سنعرض لها في فرصة أخرى

صاحب الجلالة الفاروق الأول

اجتمع لجلالة الفاروق أعز الله نصره ما لم يجتمع للملك قبله من المزايا والخصائص، فأحببناه أكثر من أخ، وأجللناه أكثر من ملك : شباب كمنصور الربيع كله حياة وجمال وخصب ، وخلق كعُبَهرِيّ النسيم فيه الرّوح والريحان والطف ، ونشأة كنشأة الأخيار المصطفين أقامها الله على أدب الدين وخلال الفتوة ، وجاذبية كشعاع الروح الإلهي تجذب القلوب الصاغية بالهيام والحب ، وشخصية على طراءة السن تبهر العيون بالجلالة وتملأ الصدور بالهيبة ، وديمقراطية على غرة الملك كرحمة الله تُقر في الأذهان معنى السمو وسر العظمة ، وعهد كإشراق الشمس قبله الشرى الجهد والغسق الداجي ، وبعده الصباح المسفر والضحي المانع ؛ وتاج كدارة النور أو هالة القدس حلاه (ميناً) بالشمس وزينه (العز) بالقمر ، فهو يتألق على جباه العصور بالقمرين ، لا بماس الأرض ولا بلؤلؤ البحرين ؛ و ببعض هذه الخصائص والمزايا قدّس الشعوبُ الملوك في الأمس البعيد ؛ وفضل الناس الملكية في اليوم الحاضر

من مثلُ فاروق جمع أطراف المجد فورث ملك الفراعنة وخلافة الإسلام وسلطان العرب ، فكان رمزاً لأول حضارة مدنت الإنسان ، وأقوم رسالة هذبت الحياة ، وأعدل أمة حكمت الأرض ؟ أليس هذا التاج المعنوي الذي يضعه الشعب على مفرقه يوم الخميس المقبل خليقاً بأن يسامى أضخم التيجان ملكاً وأرفعها

مكانة ؟ وهل يغض من خطر التاج أن انحسرت ظلال ملكه بعد أن ورفت على أكثر بقاع الكون ؟ إن قيمة التاج في خلوص جوهره وأثالة مجده وسطوع تاريخه ؛ وهذا التاج الذى له ملك مصر وهذه الملايين العرب والمسلمون ينظرون إليه نظرهم إلى الشعاع الهادى والأمل الباسم ، هو من حيث هذه الصفات الثلاث أعظم تاج على جبين ملك

لا جرم أن فاروقاً الأول هو أول ملك في تاريخ مصر القديم والحديث نشأته الأمة على طبعها وحسها ، وأعدته لعرشها بنفسها ، وتوجته بطوعها ورضاها هذا التتويج الدستورى الشعبى الحر ، ففتحت به عهداً لم يسبق ، وسنت به سنة لم تكن ، وفصلت بالفاروق بين ماضٍ كليل بغى فيه الاحتلال على سيادتها واستقلالها ، واعتدت فيه (الامتيازات) على أنفسها وأموالها ، وبين حاضر زاهر يزخر فيه النيل بالحياة ، ويمجيش بالقوة ، ويفيض بالأمل ، ويقيم مُلكه على الديمقراطية ، وعرشه على الدستور ، وحكمه على العدل ، وصلته بالدول على المساواة . فهل تعجب إذا انقلبت البلاد من ضفاف الشلال إلى أرياف الدال^(١) ، بشراً يتهلل فى الوجوه ، ومرحاً يتنزه فى الأفئدة ، وزينة تتخيل فى الأرض ، وأعلاماً تتفوق فى الجو ، ودعاء يصعد فى السماء ، استعداداً للاحتفال بتتويج الفاروق سيد أعزاء مصر ، وزين شباب الإسلام ، وملك ملوك العرب ؟

إن لابتهاج الشعب بتولى الفاروق حقوقه الملكية بواعث شتى : بعضها يرجع إلى شخصه ، فشخصه عذب الروح قوى الجاذبية ، وبعضها يرجع إلى عهده ،

(١) الدال بالعربية : هى الدلتا بالانغريقية أو الأرض المحصورة بين فرعى النيل فى الوجه البحرى

فعهده أول عهد مصر بالسيادة والحرية ؛ وبعضها يرجع إلى حكمه ، فحكمه حكم الدستور والديمقراطية ؛ ولكل أولئك ملابسات ومناسبات توزعت عواطف هذه الأمة الوديعه المطيعة المخلصه ، ففرقت كما ترى فى نشوة من نشوات الروح ، فيها بهجة القلوب بالحب ، وغبطة النفوس بالعزة ، ولذة الحواس بالطأنينة

مولای الفاروق !

إن من دلائل الفوز التيسير ، ومالك الملك الذى اصطفاك لخلافة هذا المجد العريق قد يسر لشعبك فى مستهل عهدك ما تعسر عليه الحُجَب الطوال من سيادته على أرضه . فتول القيادة العليا للسفين على هدى من الدستور ووحى من شمائلك الحرة ؛ وأفض من شبابك الفردوسى على ما خمد من غزائم هذا الشعب لطول ما كابد من عنت الأحداث وطغيان الدخيل ؛ واطبع النشء من شعبك الهين اللين على غرارك فى ثقافة العقل وثقافة الطبع وثقافة الجسم ، فإنك المثل الأعلى لكل ذلك . ومثلك الفريد يا مولای هو ما تحتاجه مصر فى تجديد ما رث منها ، وتكميل ما نقص فيها ، وتوفير مواهب الإنشاء بها ، وتنظيم قوى الدفاع عنها ، وتوثيق أسبابها العمرانية والاجتماعية والسياسية لتربط بين أملاك العروبة وملكك ، وتصل طرفى المجد بين عرش (مينا) وعرشك . ثبت الله ملكك بالسلام ، ونصر عهدك بالوئام ، وجمل حكمك بالرخاء والصفاء والسكينة

[٢٦ يولية سنة ١٩٣٧]

أسبوع التّج

كانت مصر كلها طَوّال الأسبوع الماضي ، من صباح أحده إلى مساء سبته
في سكرة من الطرب النشوان ، وفورة من الحماسة المضطربة . والطرب والحماسة
كلمتان مسكينتان لا تقعان من حقيقة الأمر في كثير ولا قليل . وكيف تدرك
من هاتين الكلمتين وأشباههما تلك الحال العجيبة التي قامت بسكان هذا البلد
الوفى: أبنائه ونزلائه لمقدم الفاروق ، ولتنويع الفاروق ولمواهب الفاروق، فجعلت
كلامهم وأنغامهم وأحلامهم هتافاً لجده لا يفتر ، ودعاء لعده لا ينقطع ؟!

انفعلت قلوب الناس بما أجنّته للميك الشاب من الإعجاب والحب والأمل ،
فعبرت عن ضوء رجائها وحرارة ولائها بهذه الملايين من المصاييح الكهربائية
رصعت بها وجوه العائر والمتاجر ، وجعلت منها عقوداً منسجمة على أطورة الطرق ،
وأبراجاً متوجة في بُهَر الميادين ، وأقواس نصر في مداخل الشوارع ؛ وافتن فيها
الصناع فرسموا بها أشكالاً تعبر عن شتى العواطف ، وخطوطاً تسفر عن خالص
الأدعية ؛ ثم راحوا يرقصون ويهزجون في إشراق باهر تشعه القلوب المتهللة ،
وتعكسه المدينة المتألقة . ولكن ماذا يصنع الكاتب وقد انبثق في حسه هذا النور ،
وانفتح في ذهنه هذا العالم ، إذا أراد أن يمثله للخاطر البعيد ، ويسجله في صحيفة
الأبد ؟ هل يملك إلا ريشة من المعدن لا تلين ، وألفاظاً من اللغة لا تدل ؟ وهل
اللغة مهما اتسعت موادها إلا أبعاد من صوت النفوس ، وأصداء لهتاف القلوب ؟
ماذا يقول الكاتب أو الشاعر في ثلاثة ملايين من الناس تجردوا من هموم الحياة

وأناية الذات ، واحتشدوا فى مسالك القاهرة يَسْبَحون فى أمواج هذا النور المعبر ، وقد انطوى كل منهم على عالم زاخر بالأمانى والأخيلة والأحاسيس ، ولا حديث لهم ولا نجوى إلا ملكهم الأغر وطالعه الأسعد وعهده الأغر وخلقه الأكل ؛ هذا يذكر فى نخر حادثاً من حوادث ديمقراطيته ، وذاك يروى فى إعجاب نادرة من نوادر عبقريته ، وذلك يقص فى زهو عملاً من أعمال نبلة ؛ والألسنة كلها فى كل مكان أشبه بلواقط المذياع ذوات المصدر الواحد تردد الحديث نفسه بصوته وطريقته ؟

قد يحتشد الناس فى أيام الزينة ومواكب النصر بدافع الإيحاء أو الإغراء أو الفضول ، فيقفون عند الظواهر والأشكال لا يحسون الروح ولا يلمسون الجوهر ولا يحفلون الغرض ، ولكن مواكب التاج كانت أنساً خالصاً لكل فرد ، وعرساً خاصاً بكل أسرة ؛ ساهم فيه كل بماله تقوطاً ، وبقلبه إخلاصاً ، وبسروره غبطة . وهذه هى العقدة النفسية التى تنحل أمامها قوى الكاتب قبل أن يجد لها وصفاً أو يحدد لها علة

رأيت جلالة الفاروق فى حفلات التتويج عن كُتب ، وفى ذهنى صورة طبيعية للغلام الشابل^(١) الذى يهدف للثامنة عشرة من سنه ، فإذا رجل وقور الطامة ، رزين الحركة ، ظاهر الأبهة ، باهر الجلال ؛ نَظَرَتْهُ نظرة روحه لا نظرة عينه ، وعقله عقل جسمه لا عقل سنه . فأدرت حينئذ معنى قول الشاعر الفرنسى : «إن النفوس التى تولد على دَرَج العرش لا تنتظر عبقريتها كرور السنين لتظهر» وتعليل ذلك أن الطفل الملكى متى كان سليم الفطرة تستجيب غرائزه

(١) الشابل : المتلى شباباً ونعمة

إلى وحي العمل الذى يهيمُّ له ؛ وعلمه بأنه يهيمُّ لوراثته الملك يحمله على اتخاذ سَمَتِهِ
وسَمَتِهِ ؛ ثم ينشأ فى جو يساعده ما فيه من النظام والاحترام ومظاهر القدرة
وتقاليد الأسرة على سمو المدارك ونضوج الرجولة ؛ ولا ينفك يسمع فى مجارى
دمه النبيل أصوات أجداده الأجداد تأمر وتنهى ، وتشير وتوحى ، وترسم وتدل ؛
فإذا رُفِعَ إلى العرش واستوى عليه لم يجد فى نفسه شيئاً جديداً ينكره ،
ولا فى جوه مظهراً غريباً يستريبه ؛ فيسير أمره على ما رسمته النشأة وهياتته
الطبيعية ، لا تكلف ولا تعسف ولا تظاهر ولا تذبذب

لذلك انتقل الفاروق من حال التلميذ إلى حال الملك فى سهولة أدهشت
الناس فى مصر وفى غير مصر

وليس لهذا الدهش موضع ، فإن الرجل الذى يختل توازنه ويضطرب أمره ،
هو الذى يتحول بغتة من العجز إلى القدرة ، ومن الخضوع إلى السلطة ، ومن
الصعلكة إلى الملك ، فيستر صغره بالكبر ، وضعفه بالاستبداد ، وفشله بالخديعة ،
ثم لا يطمئن إلى حاله ولا يستقر فى محله ، فيتعلق بالظنون ، ويستمسك بالدسائس ،
ويعتصم بالترفع . ولكن الفاروق العظيم ربيب الملك وسليل محمد على وإبراهيم
وإسماعيل وفؤاد يرى نفسه طبيعياً فى موضعه ؛ وموضعه فوق الحكم وفوق
الأحزاب وفوق المطامع . فلا يمكن أن يكون إلا كما تراه . ومخايل الفاروق
ودلائل الحال تؤكد أنه سيكون فى عهده السعيد الجيد موثلاً الدستور ، وملاذ
الحرية ، وحارس الدين ، وراعى الشعب ، ومرشد الحكومة فى الحيرة ، ومرجع
الأحزاب فى الخلاف . أما ثقافة العقل والجسم والخلق فتلك رسالته التى وكل الله
إليه أداءها بالتشجيع والتشريع والقُدوة .

أَيُّ زَمَانٍ هَذَا !

فرغ الشيخ منصور من قراءة « الأهرام » ، ثم ألقاها من يده الراعشة على الوسادة وقال بلهجة الساخط القانط : « أي زمان هذا » ؟ هل أتى أمر الله وقامت القيامة ؟ !

وكنا خليناه لنفسه ساعةً شغلها بالنظر في الجريدة ، وشغلناها في شأن من شؤنه . فلما تحرك هذه الحركة العصبية ، وقال هذه الجملة التعجبية ، أقبلنا عليه نستفهمه الأمر ونناقله الحديث . والشيخ منصور هذا فقيه نابه من فقهاء الأزهر القديم ، قضى عمره^(١) في خدمة الدين وعلومه وهو على الحال القروية الأولى من بساطة الطعام والنام والملبس ، فلم يشك داء ولم يشرب دواء قط ! أولاده مثقفون مترفون ، يشغلون المناصب الرفيعة ، ويسكنون المنازل الأنيقة ، وينعمون بمتع الحضارة ؛ ولكنه لا يزال هو وزوجه الشيخة يعيشان في دارهما العتيقة في حي الباطنية على النمط الأول : يأتدمان بالقول ، ويتفكهان بالتمر ، ويستصبحان بالزيت ، ولا يخرجان — إن خرجا — إلا لصلة رحم أو لزيارة ضريح . والشيخ لا ينفك يحمد الله على أنه لم يركب سيارة ، ولم يغش قهوة ، ولم يشهد حفلة ، ولم يتعلق بشيء من أسباب الدنيا إلا بما لا بد منه لسلامة البدن والدين ؛ فلولاً أنه يقرأ الصحيفة كل صباح ، ويسمر مع نفر من تلاميذه كل مساء ، لكان بينه وبين هذا العالم المتغير « كمال الانقطاع » .

وهو اليوم يدخل في حدود التسعين من سنه قطع القيام قعيد الغرفة ، إلا أنه سليم الحواس شاهد اللب . ويرى أن الفضل فيما يتمتع به من طول العمر ونقاء الجسم وفراغ البال ، إنما يرجع إلى الإيمان بحكمة الله والرضى بقسمة القدر . وبلغه أن قوماً من العلماء يسكنون في أحياء الأغنياء ، ويستطيّلون على الناس بالجاه والثراء ، وأن أحدهم بلغ من ترفه وسرفه أن اشترى ثلاثة عشرة جنيهاً ، فاستهل الخبز وتعاطم الأمر ثم بكى وقال : يا حسرتا على الدين والعلم ! إن العالم إذا امتلأت عينه من الدنيا فرغ قلبه من الدين !

سأله أحدنا : ماذا قرأت يا مولانا في الجريدة فأنكرته على الزمان ؟ فأجاب بلمهجته تلك :

« حرب داخلية في الغرب ، وحرب خارجية في الشرق ، وحرب عالمية تتربق في البحر ، وتتوثب في البر ، وتتزى على ألسنة الساسة المساعير من أبناء المدنية وربائب الحضارة ؛ ثم سقوط الفرنك في سورية ، وحبوط السياسة في فلسطين ، وهبوط القطن في مصر ، وقنوط الناس في كل مكان من صلاح الحال وانفراج الأزمة ؛ ثم وباء الدنج الذى يؤازر الملايا والأفولونزا على خود الحياة وشل الحركة . لقد كنا لا نرى الموت إلا حيث تكون الشيخوخة الفانية ، ولا نسمع بالمرض إلا قبيل الموت المرغوب ، ولا نعرف من الأطباء إلا طبيب المركز يوم يزور القرية كل أربع سنوات ، فيأمر بتسوية التلال ، وكنس الأركة ، ورش الحيطان الخارجية بالجص . وكانت النفوس راضية مطمئنة تسبح في فيض من نعيم السلام والدعة ، لا يُرمضها حقد على إنسان ، ولا يقلقها حرص على شىء . وكان الناس لا يعلمون عن أوزار الحرب إلا ما يتسقطون من أنبائها الحين بعد الحين بين العثمانيين والمسكوف . وكانت السلامة أدوم ، والأعمار

أطول ، والأرزاق أيسر ، ورحمة الله أقرب ، وأمة الرسول بخير .
أما اليوم فكأنما أصاب الناس سُعار من الجحيم فلا يبرحون بين عمل دائب
وهمَّ ناصب ، وطمع شره ، وتنافس دنيء ، وعداوة راصدة . ثم فشا الطب ففشا
المرض ، وانتشر العلم فانتشرت الجريمة ، وفاض الخير وغاضت البركة ، واستبحرت
المدنية المادية نخفت بين خبيجها الآلى صوت الضمير ، وهلك في عبابها المزبد سلام
النفس . وكان الظن بالمدنية والعلم أن ينزعا من نفوس بني الإنسان غرائز الحيوان
ويهيئاً لهم حياة الجنة التي حرمتهم إياها رذيلة الطمع . فهل رُفع الإيمان من الأرض
حتى عم الناس هذا البلاء ، وأصاب العلماء منه ما أصاب الجهلاء ؟ »

فقلت له : يا شيخنا ! كان عدد الناس في صدر أيامك قليلاً ، وخير الله
بالنسبة إليهم كثيراً ؛ فكانت الحياة وادعة ، والنفوس قانعة ، والجوارح عَفَّة ،
والجوانح سليمة . وبراءة الصدور من الحسد تصل قطيعة القلوب بالألفة ، وترفُّه
لغوب العيش بالمعونة ؛ وخلو البال من الهم يدفع المرض عن الجسم ، ويصد الرذيلة
عن الروح . فلما جاءت المدنية الكاذبة وفرت وسائل الصحة ، ومدت أسباب
الآمن ، فزاد النسل أضعافاً مضاعفة ، وكثرت الحاجات كثرة فاحشة ، فتزاحم
الناس على موارد الرزق ، وتكالبوا على مواد العيش ؛ ثم أيأسهم هذه المدنية
من عزاء الدين ، وشككتهم في ثواب الله ، وأرابتهم في غناء الخلق ، فعادوا
في حضارتهم الزاخرة بعجائب العلم كأبدا الوحش ، لا يقودهم إلا غريزة الحى ،
ولا يحكمهم إلا قانون الحياة . والله وحده يعلم كيف يكون المصير .

فقال الشيخ منصور في تسليم المصدق واستسلام المؤمن :

« الأمر لله يا بني ! لا يقع في ملكه إلا ما يريد . نسأله تعالى أن يبقينا

فيكم على سلامة ، ويخرجنا من دنياكم على خير » .

الحريف في الرّيف

دعنا الآن من القاهرة ! فبشرّها بالباسم قد استسرّ في قطوب الطبيعة ،
وشجرها الوارف قد اقشعر^(١) من رياح الحريف ، وهدوؤها الشاعر قد غاب
في صخب الفتنة ؛ وكأنّما خفقت في جوها المستنير الصفو أبابيل سودّ من
طيور الليل !

دعنا الآن من القاهرة ! فقد أصيب علّمها بداء السياسة، ونكب رأيها
بتدليس الهوى ، وامتنحن خلقتها بشهوة المنفعة ؛ وكأنّما فرغ القادة من جهاد
الأجنبي ليشوى بعضهم بعضاً في حريق الوطن !

دعنا الآن من القاهرة ! وتعال نرفه عن حواسنا وأعصابنا في سكون
الريف الآمن ، وفي كنف الفلاح المؤمن، حيث الهوى جميع ، والحريف ربيع،
والطبيعة الكهلة رواء وغناء وسحر !

يقول هوجو : « إن الحريف هو الربيع انبعث من القبر ناسياً حُلاه
وحُلّه » . ولكن الحريف المصرى في الريف هو الربيع الحق في نصرته وزينته
وعطره . فبينما ترى الحقول المتصلة في بياض الدمقس^(٢) أو صفرة النضار ،
يجردها سبتمبر من القطن الحريرى الأشوك والرز العسجدى الهائج^(٣) ، إذا بها
في خضرة السندس أو زرقة اللازورد ، يكسوها أكتوبر أعواد الذرة اللقّاء

(١) إقشعر : تخشن وتقضب وتغير لونه (٢) الدمقس : الحرير الأبيض

(٣) الهائج من النبت : اليابس

وقصب السكر الوريق ونبات البرسيم المؤزر^(١)؛ فأينما أدت بصرك لا تجد إلا رياضاً
شجراً من شراب وحب ، ومروجاً فيحاء من زهور وكلاً . ثم ترى النيل
في أعقاب فيضانه كذوب التبر ينساب هادراً في الترع والقنوات ، فيجعل من
ضفاف الجداول وحفافي الطرق وحواشي الغيطان سلاسل زبرجدية من الريحان
والعشب . وتنزل على الفلاح المسكود سكينه الرضى والأمل ، فينقلب شاعراً
يتهادى في ظلال الذرة الخفاقة على مدرجة الطريق الخضوضر ، وفكره مستغرق
في الله الذي يضع البركة في غيطه ، أو في المرأة التي تجلب السعادة إلى بيته
ها هو ذا بعد صيفه الجديب الجهد يستنشئ نسيم الراحة بين أولاده
على مصطبة الدار ، أو بين بهائم على رأس الحقل ، ويتربص بقطنه الحزون الثمن
الرييح ، ليقضى دينه فيستريح ، ويزوج ابنه فيفرح ؛ ثم يكسو عواري الأبدان
(بالدبلان) و (الشيت) ، ويمحو مرارة الأفواه بالرمان والبلح . وترى القرية
بذكورها وإنائها تعيش من فسحة هذا الأمل ودعة هذه الحياة وبهجة هذه الحقول
في فيض من الرخاء والغبطة ، لا يسممه كيد ولا تذكره منافسة

خريف الريف وربيعه يتفقان في الخصوبة والبهجة ، ويختلفان في الحيوية
والطبيعة . فبينما تجد ربيع أبريل ومايو مؤراً بالحياة ، فواراً بالعاطفة ، هداراً
بالهتاف ، يجعل من كل حي حركة لا تني ورغبة لا تخمد ؛ إذ تجد ربيع
أكتوبر ونوفمبر ساجي النهار سحسج الظل ساكن الطائر ، ينفذ على كل امرئ
دعة الطمأنينة وسكون التأمل وروعة العبادة . فالمشيئة وثيدة الخطوات ، والوقفة
بعيدة النظرات ، والجلسة طويلة الصمت ، والشبان والشواب يتبادلون التحايا

(١) أزر الزرع بعضه بعضاً : تلاحق والتف فهو مؤزر

بغمر العيون وافترار الشفاه ، كأنما هم وهنٌ نشاوى من رحيق عجيب يعقد الألسن
ولكنه ينعش الروح ويوقظ القلب ويبسط المشاعر !

أى جمال أملك للنواظر والخواطر من جمال السماء الريفية وقد زينتها رياح
الخریف بقزعات^(١) من الغيم الرقيق كأنها القطعاف البيض ترتعى فى المروج
الخضر ؟ هذه السماء بألوانها السحرية المختلفة التى تتعاقب عليها بتعاقب الساعات ،
تنطبق على أرض كركعة الفردوس لا ترى فيها خلاء ولا عراء ولا وحشة ؛
ولا تسمع فيها لغواً ولا تأثيماً إلا هتافات الطير الحائمة على أعذاق^(٢) النخل اليبانة
وسنابل الذرة النضيدة ، وإلا شدّوات الرعاة قد كوموا الحشيش أمام الماشية
وتحلّقوا حول النار المشبوبة يشوون عليها أمطار الذرة^(٣) وصغار السمك ،
ثم يأكلون ويغنون فى لذة وبهجة

عهدنا بالريف فى أيام الخريف أن يكون بنجوة من الهم وسلامة من الكآبة ؛
فالأهراء طافحة بالحب ، والحازن مفعمة بالقطن ، والغيطان كاسية بالزرع ، والجيوب
غنية بالمال ، والنفوس رحية بالرجاء ؛ ولكن ما بال فتيان القرية وفتياتها على غير
ما نعهد : يمشون ساهمين ويقفون واجمين ، كأنما غاب عن كل عين حبيب ،
ومات فى كل نفس أمل ؟

ألا تراهم يا حسن يدافعون الأسى عن وجوههم ببسمات مكذوبة لا تخدع
النظر عن الكمد الباطن ؟

(١) القزعات : قطع من السحاب متفرقة صغار (٢) الأعذاق جمع عنق : وهو من
النخل كالعتقود من العنب (٣) الأمطار : جمع مطر بضم الميم وهو (كوز) الذرة

— ماذا يصنعون يا صديقي والدائن يقتضى (القسط) ، والصراف يطلب (المال) ، والمالك يريد (الإيجار) ، والأسرة تبتغى (الكسوة) ، والقطن وهو سداد هذا العوز كله يصبح عقدة المشكلة وغلّق الأزمة ؟ فتمنه البخس لا ينى بتكاليف زرعه ، بله ما يُحمل عليه من الأسباب ويُناط به من المنى

هاهم أولاء بنوهم وبناتهم كانت أحاديث أحلامهم أن يتزوجوا فى هذا العام الذى يتزوج فيه مليكهم المحبوب ، تفاؤلاً بطالعه وتيناً بجده ، فرد هذا الكساد المؤس أحلامهم أضغاثاً وأطماعهم وساوس . فكيف تطمع مع ذلك أن ترى البسمة التى تعهد ، وتسمع الأغنية التى تحب ؟

فقلت له والأسف يغلب على صوتى وكلامى : مهما يكن من الأمر فإن خريفكم أجمل من ربيع الشعراء ، وعبوسكم أنبل من بشر الكبراء ، وغيمكم أفضل من صفو القاهرة

[أول نوفمبر سنة ١٩٣٧]



محمد فريد



ما كان أحقنا ونحن نجني
ثمرات الجهاد ، ونعقد أقواس
النصر ، ونُحْيِي بطولة الزعماء ،
ونُحْيِي ذكرى الشهداء ، أن نضع
إكليلاً من الزهر النديّ على قبر
الشهيد الأول محمد فريد !

لقد استُشهِدَ في مثل هذا
الأسبوع الذي وقعت فيه موافقة
البرلمان على المعاهدة ، واحتفال
الشعب بذكرى الضحايا ، فكيف
غفل اللسان الذّاكر وذهل الفؤاد

العروف عن تحية المجاهد الصابر والمضطهد المهاجر والصريع المحتسب ؟ وما أقل
التحية للذين نفروا لخلاص الوطن لا يبتغون ثراء ولا دعة ، وهاجروا في سبيل
الحرية لا يجدون مراغماً ولا سعة ، ولفظوا أنفسهم في منازح الغربة ومضاجع
البؤس حسرة فحسرة !

هذه دورهم ، كان للعزة في أفيائها سرّاد ، وللنعمة في أفنائها ربيع ،

فتقوض فيها المجلس وانصرف عنها اللاحج وتعاقب عليها مالك بعد مالك ! ...
وهذه قبورهم ، تناوحت عليها سوا في الرياح فطمست الشاهد وأبهمت الأثر وتناهبها
هالك بعد هالك ! ... وهذه ذكرياتهم ، ملأت المسامع وعمرت القلوب حيناً
من الدهر ، ثم أوشكت اليوم لـسكنود الناس أن تغوص في لجج النسيان
والعدم ! ... وهذه أرواحهم ، كانت في الحن السود تبا كرنا بالعزاء وتراوحنا
بالأمل وتغاديننا بالمعونة ، ثم أقبلت ساعة النصر تخفق نخورة مع العلم ، وتصفق
مؤيدة مع البرلمان ، وتهتف مبتهجة مع الأمة ، ولكنها لم تسمع وأسفاه
من بادها تحية برحمة ، وجازاها وفاء بدعاء ! ...

إن الشريعة تنسخ الشريعة ، والفكرة تطرد الفكرة ، والجديد يخلف
القديم ، ولكن الجهاد في سبيل الوطن غاية لكل جيل في طريقها خطوة ،
وبناية لكل عامل في إقامتها حجر ؛ والخطوة اللاحقة لا ترد الخطوة السابقة ،
والحجر الأعلى لا ينقض الحجر الأسفل . والمثل العليا من الرجال قليلة في عهدنا
الحديث ؛ فما أولانا أن نضن بهم على الفناء ، فننصب تماثيلهم في كل ميدان ،
وندرس تاريخهم في كل معهد ، ونرفع ذكرهم في كل مناسبة .

وا حسرتاه على حظ فريد من أمته ! حبس عليها ثروته ورضى بالجوع ،
ورصد لها قوته وصبر على المرض ، وضحى لها أسرته وعاش على التشريد ،
ثم كان نصيبه منها برّاً لا يسعف ، وتقديراً لا يدوم ، وذكرّاً لا يتصل ، وقبراً
لا يُعرف !

كان فريد — برد الله ثراه وخلد ذكره — سليل مجد وريث نعمة

وحليف جاه ؛ وكان سبيله في الحياة سبيل كل أمير وكل كبير : يغتصب ثروته من عرق العامل ، وقوّته من دم الفقير ، ومسرته من دمع البأس ، وجبروته من ظلم الضعيف ؛ ولكنه تنكب طريق المترفين واتبع هادي الفطرة ، فدخل به في سواد الشعب وقوّته في أغلاله وشركه في ذله ، فدفعته الجبلة الحرة إلى أن يتطوع لأنهاضه بجهد ، ويتبرع لإنقاذه بماله . ثم اتصل برسول الوطنية يومئذ مصطفى كامل ، فكان منه مكان أبي بكر من محمد ، رفع معه ألوية الجهاد على سواعد الشباب الفتية ، ثم خلفه على تكاليف الدعوة من جهد وبذل وتضحية ، فاستمر ينفخ فيما يشبه الرماد ، ويصيح فيما يقارب الجماد ، حتى اشتد عليه أذى المحتلين وكيد المنافقين ، فهاجر ناجياً بحريته وفكرته ولاذ بالأستانة يبتغي بها متنفساً لآمال مصر ، ومضطرباً لعزائم الشباب ، فكان في هذه المدينة ذات الأستار والأسرار والحفر قبساً من الحق الساطع الصادع يبعث في قلوب المصريين المهاجرين والطلاب الضوء والحرارة .

كان يدعو شبابنا الوديع إلى الثقافة الحربية في المعاهد العسكرية التركية استعداداً لليوم الموعود والحدث المنتظر ؛ وكانت الحرب الكبرى قد انفجرت دواهيها على العالم يومئذ ، فحاول أن يكون لمصر من أعقابها الجهولة مغنم . وكأنا دس عليه أهل الأفك ، أو عارضت أطعمه أطماع الترك ، فاثمروا به ليحاكموه ، ففر خفية إلى برلين ؛ وهناك أراده الألمان على أن يكون وسيلة من وسائل الحرب السرية في الشرق ، فأبى عليه خلقه الصريح وجوهره الحر أن يكون أداة ليعيش . وتفرق عنه الرفاق إلى موارد الرزق الممكنة ، وانقطع عنه المدد من مصر ومن غير مصر ، فعمل عمل الأجير ، وعاش عيش الفقير ، يتبلغ بما يمسك الرمق ، ويكتسى

بما يستر الجسم ، ويأوى إلى غرفة في بعض السطوح يكابد فيها المرض والفقر
والوحدة والغربة ، حتى أدركه الموت البأس الخامل وهو في غيابة برلين المقهورة
الباكية ، ليس فيه إلاّ فم يهتف للحرية ، وقلب يخفق لمصر !
إن فريداً كان مثال الفكرة السليمة والوطنية القويمة والرجولة الكاملة
والتضحية المؤمنة . بذل في سبيل الوطن ما بذل عثمان بن عفان في سبيل الدين ،
ثم كانت عاقبة أمره أن مات كما مات عثمان شهيداً غير مفهوم ؛ ولكن الله جازى
فريداً بما جازى عثمان : جعل اسمه للخلود وروحه للخلد !

[٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣٦]



الصَّيْلُ بِنِزْهِ عَهْدِيْ

التَّجَدُّدُ أَوْ التَّطَوُّرُ يَصِيبُ كُلَّ شَيْءٍ فَيَجْعَلُهُ أَعْلَى أَوْ يَرُدُّهُ أَسْفَلَ سَافِلٍ !
كَانَ عَهْدُنَا بِالصَّوْمِ قَبْلَ الْيَوْمِ أَنْ يَكُونَ عَصِيَانًا لِلنَّفْسِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ،
وَحَرْمَانًا لِلْجِسْمِ فِي مَبَرَّةِ الرُّوحِ ، وَنَكْرَانًا لِلذَّاتِ فِي مَعْرِفَةِ النَّاسِ ؛ فَالْجَوَارِحُ
مَغْلُولَةٌ عَنِ الْأَذَى ، وَالْمَشَاعِرُ مَكْفُوفَةٌ عَنِ الشَّهْوَةِ ، وَالْخَوَاطِرُ مُسْتَغْرَقَةٌ فِي الدُّعَاءِ ،
بَيْنَ نَهَارٍ كُلِّهِ إِحْسَانٌ وَتَأْمَلُ وَتَصَدِّقُ ، وَلَيْلٍ كُلِّهِ قُرْآنٌ وَتَوَاصِلُ وَتَهْجُدُ ؛ فَلَا الْغَنَى
يَهِيْجُ بِهِ الْبَطَرُ ، وَلَا الْقُوَى تَقْرُطُ عَلَيْهِ الْقُدْرَةُ ، وَلَا الْفَقِيرُ يَتَجَهَّمُ لَهُ الْحَرَمَانُ ؛
وَكَأَنَّمَا زَالَتِ الْفُرُوقُ بَيْنَ النَّاسِ فَأَصْبَحُوا سَوَاسِيَةً فِي نِعْمَةِ الدِّينِ وَسَعَادَةِ الدُّنْيَا !
كَانَ الرَّجُلُ الدِّنيُّ الشَّهْوَانُ إِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ تَابَ وَتَطَهَّرَ ، فَلَا يَفْتَحُ
فِيهِ لُحْجَرًا ، وَلَا عَيْنَهُ لِفَحْشٍ ، وَلَا أُذُنَهُ لِلْغَوِّ ، وَلَا قَلْبَهُ لَخَطِيئَةٍ . يَقْضِيْ يَوْمَهُ
مُضْطَرِّبًا فِي الْمَعَاشِ عَلَى أَفْضَلِ مَا يَكُونُ الْخَلْقُ ؛ فَإِذَا كَانَ تَاجِرًا لَا يَدْلُسُ ،
أَوْ صَانِعًا لَا يَزُورُ ، أَوْ عَامِلًا لَا يَفْرِطُ ، أَوْ مُعَامِلًا لَا يَخُونُ . وَيَحْيِيْ لَيْلَهُ فِي اسْتِمَاعِ
الْقُرْآنِ وَمَوَاصِلَةِ الْإِخْوَانِ وَمُؤَادَّةِ ذَوِي الْقُرْبَى ؛ فَإِذَا مَا انْقَضَى بَعْضُ الشَّهْرِ بَدَأَ
عَلَيْهِ شَحُوبُ الصَّوْمِ وَذُبُولُ الصَّلَاةِ وَكَلَالُ السَّهْرِ وَخَشُوعُ الْوَرَعِ . فَلَوْ كُنْتُ
حَاضِرَ ذَلِكَ الْعَهْدِ لَرَأَيْتُ رَمَضَانَ عِيدًا قَوْمِيًّا وَدِينِيًّا يُوَكِّدُ أَسْبَابَ الْقُرْبِ بَيْنَ
اللَّهِ وَعِبَادِهِ ، وَيُوَثِّقُ عَرَى الْحُبِّ بَيْنَ الشَّعْبِ وَأَفْرَادِهِ

ذَلِكَ عَهْدُنَا بِرَمَضَانَ الْأَمْسِ ؛ أَمَّا رَمَضَانُ الْيَوْمِ فَبِحَسْبِكَ أَنْ أَصِفَ لَكَ

حياة من حيوات القاهرة فيه ؛ وتستطيع أنت أن تصور لنفسك الطور العجيب
الذى آل إليه شهر القرآن والعبادة

هى أسرة لا أقول إنها مثال لكل الأسر ؛ ولكنها استجابت لنوازع
التجديد الأبله استجابة الإمعة ، فأصبحت تمثل ما عسى أن يكون بين التقاليد
والتقليد من التناقض المضحك

ميم باشا يتبوا منصباً من مناصب الدولة الرفيعة ؛ بلغه بعد حياة طويلة
كادحة ، تبتدى من القرية الحفيرة والأسرة الفقيرة والوظيفة الخاملة ، وتنتهى
إلى هذا الجاه العريض والثراء الضخم والمنزل المرموق ؛ فهو وزوجه من عهد ،
وابناء وبناته الثلاث من عهد ؛ والتفاعل بين هذين العهدين هو الذى أحدث
هذه الظاهرة التى نجدها اليوم فى أكثر بيوت القاهرة . لا بد لهذه الأسرة
أن تصوم ؛ ذلك حكم النشأة وسُلطان العادة . ولا بد كذلك لهذا الصوم المتزمت
الجافى أن يتسع باله وترق حواشيه إذا ما نزل على هذه الأسرة . فهو يُسبل جناحيه
المرومين على أسيرتها الوردية الوثيرة من طلوع الفجر إلى متوع النهار ؛ ثم يمَس
بريشهما الناعم خدود الأوانس النواعس فينتبهن ؛ ويهبُّ الوالدان على زقزقتهم
فى غرف الزينة وطُنف القصر ؛ ثم يجتمع بعد قليل مجلس الأسرة لينظر
فى مقترحات البطون على إدارة المطبخ . فهذه تقترح ، وتلك تعترض ، وهذا
يطلب لوناً ، وذاك يطلب آخر ، والباشا يدير هذا الجدل الشهى إدارة موقفة ،
فيعدّل أو يكمل أو يؤجل ، حتى ينتهى النقاش بثبت حافل بالمشهيات والمقلبات
والمشويات والمحشوات والفطائر لا تجد بعضه فى مطعم كبير

يتغير هذا الثبت كل يوم فيطول أو يقصر ، ولكن لونين فيه لا ينالهما تغير

ولا يمسهما نقص : لوناً من الأرناب مطبوخة في النبيذ يحبه الباشا ، ولوناً من الشرائح الوردية مطعمة بفصوص من شحم الخنزير تحبه الأنسة الكبرى سين ! ها هو ذا الباشا البطين يتذبذب ويبدأ بين المطبخ والمائدة كأنه رقاد الساعة ؛ في يده مسبخته الكهرمان الصغيرة يهش بها على الطهارة والخدم ، وشفته تتهلجان من غير كلام ، وعينه تتحركان من غير نظر ، حتى إذا دنت المغرب خفت حركته واحتد نشاطه فأقبل على المائدة ينسق الآنية ، وينضد الأكواب ، ويسكب أمام كل آكل الشراب الذي تعود به ؛ فهنا قمر الدين ، وهنا منقوع التين ، وهنا الكينا ، وهناك الفرمود ، وهناك إيثان ، وأمامه هو شراب صحى فاخر من صيدلية (ينى) ؛ ثم يدبج الخوان الحُملى بنوافل المائدة من السلطات والكوامخ ، ويرتب الألوان مع النادل على أصول مقررة في الفن ؛ ثم يسرح بعد ذلك بصره في السماط المكتظ فيرتد إليه ملآن بالرضا والعجب ؛ فيخرج إلى الردهة ، ومن الردهة إلى الشرفة ، فيلقى النظرة الأخيرة على الشمس الغاربة ، ثم يعود فيرى الأسرة بجنسيها لم تفرغ بعد من إعداد الأتھب للسهرة الراقصة ؛ فالحلل تُنتقى ، والحلى تُختار ، والشعور تُرجل وتُموّج ، والأظفار تدرّم وتصبغ ، والحواجب تدقق وتخطط ، والخطوات والفتات والبسمات تتكرر أمام المرآيا لتراض وتُتقن . حتى إذا نطق مدفع الإفطار من المذيع أهرعوا إلى المائدة إهراع جنود الإطفاء إلى السيارة ؛ ثم يجلس الباشا بين بنيه ويضع المسبحة المعلومة مكان القدح المجهول ، ثم يرفعه إلى فيه وهو يقول : « اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت وبك آمنت وعليك توكلت » . ثم يقبلون على هذه الآكال وهذه الأشربة إقبال الشره الفاره ! فلو رأيتهم حسبته صاموا العام كله ليفطروا في رمضان !

أذنت العشاء فصلاها الباشا الصالح ، ولم يكد ينفلت منها حتى أخذ يُعد مقصف الليلة من النقول المختلفة ، والأشربة الهاضمة ، والأزهار الجنيّة ، وأخذت الأسرة زينتها النمامة الكاشفة ، واجتمعت في البهو الفسيح الفخم تستقبل أسراب السيدات والأوانس ومعهن أبنائهن وإخوتهن من الأيفاع والشباب ؛ فيعزف البيان ، ويخفق العود ، وتشدو الكواعب ، ويهزج الحاكى ، ويدور الرقص على نمطيّه الشرق والغربى ، فتلتف الأيدي على الخصور ، وتلتصق الصدور بالصدور ، وتمتزج أنفاس الكحول بأنفاس العطور ، ويقف رمضان المسكين من هذه المناظر المريبة وقفة شيخ من شيوخ الدين دفعت به الأقدار إلى ماخور ! هذه والله صورة ناطقة لأسرة أعرفها ويعرف أمثالها الناس ؛ فمن عرفها فسيقول قصّر ، ومن جهلها فسيقول بالغ ؛ والحق أنها صورة الواقع لا تنقصها إلا تسمية الأسماء وتعيين المنزل .

[١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٧]



ثورة على الأخلاق

— ما رأيتك يا خالد على هذه الحال منذ عرفتك ! أين الساحة التي تفتّر في ثغرك ، والغبطة التي تشرق في صدرك ، والرضا الذي كان يجعل من حياتك نموذجاً لعلماء الدين وجهابذة العلم وفلاسفة الخلق ؟

— ماذا أصنع يا صديقي والناس أصبحوا يشككونني في مزايا الأخلاق وقيم الفضائل ؟ كنت أضطرب في دائرة ضيقة من العيش فيها كل ما في الدنيا الواسعة من لذة الروح بالأهل ، وسرور القلب بالإخوان ، ومتاع العقل بالكتب ، ونشاط الجسم بالعمل ؛ وليس فيها البُحْران الذي يحدث من حمّى الهموم ، ولا الجحيم الذي يشبُّ من تحاسد الخصوم ، ولا اللجب الذي ينشأ من تنافس المجتمع . وكنت وأنا في هذا العالم الصغير المحدود أعتقد أن القواعد التي سنّها الأخلاقيون لتهديب الإنسان من الخلال المضادة لغريزته ، قد استطاعت على مر القرون أن تخفّت في دمه صوت الحيوان ، وأن تلتأم بين موهوب الطبع وبين مكسوب العادة من تناقض الرأي وتعارض الهوى ، وأن تجعل من سلطانها الغالب دستوراً لحياة الناس ، فيكون بها مقياس السؤدد وفيها سبب الرقي ومنها وسيلة النجاح . نعم يا صديقي ، كنت أعتقد ذلك وأستبعد أن يكون للمدنية معنى غير الثقافة ، ولثقافة مدلول غير الكفاية ، ولكفاية نتيجة غير الفوز ، حتى أجد أنني طبيعة عملي العام إلى توسيع هذه الدائرة ، فوسعتها بمقدار ما استلزمه

هذا العمل من ملابسة الشعب ومراجعة الحكومة ، فإذا كل ما قرأته زور ، وما تخيلته وهم ، وما اعتقدته باطل . ماشيت العامة على منهج الدين فلقيت الكفر ، وعاملت الخاصة على هوى الخلق فوجدت النفور ، وعالجت الأمور على مقتضى القانون فأدركت الخيبة ؛ فذهبت أفتش في الناس عن أسباب الفوز فلم أجد من بينها سبباً يمت إلى الفضيلة أو يتصل بالكفاية . هذا الباشا فلان يملك القرى بإنسانها وحيوانها وأطيانها ، وله المقعد المرفوع في البرلمان ، والصوت المسموع في الحكومة ، والأمر النافذ في البنوك ، وهو رجل لا يزال على الفطرة الأولى من الوحشية والعنجهية والجهالة . وهذا البك فلان تشغل عمائره الخلاء والهواء من المدينة ، وله على أغلب الأسر دين ، وعلى أكثر البيوت اختصاص ؛ ولو سألت جيرانه الأولين عن مصدر هذا الثراء الضخم لأجابوك بلهجة المحنق المتور بأن الربا الذي لا يحفل القانون ، والغش الذي لا يبالي الفضيحة ، والاختلاس الذي لا يخشى الله ، والبخل الذي لا يذكر الموت . وهذا الموظف فلان يملك القصر المنيف في أجمل بقعة ، والسيارة الفخمة من أعلى طراز ، والمرتب الضخم من أول درجة ، وله الوصل والقطع في أمور الناس ، والمنح والمنع في أموال الدولة ؛ فهل بلغ ما بلغ بعلمه ؟ إنه لا يحمل غير الشهادة الثانوية . هل نال ما نال بكفايته ؟ إنه لا يحسن غير الإمضاء في الموضع الذي يضع عليه الكاتب الصغير إصبعه من الورقة . إذن لم يدرك الرجل ما أدرك إلا بفضل المرونة التي تكون فيمن خلقوا من المطاط لا من الطين ، فرأسه ذو وجهين ، ولسانه ذو شقين ، وضميره ذو بالين ، وشرفه ذو رأيين ؛ يدارى ويجارى ، وينافق ويمالق ، ويهان فيغضى ، ويستباح فيبيح ؛ وهو متفرق الأحاسيس فلا تجتمع له

عاطفة ، متنافر المنازع فلا ينسجم له رأى ، معوج المسالك فلا يستقيم له مذهب !

وهذا الأستاذ فلان يأكل فى صحاف الذهب والفضة كالنابغة ، ويخطر فى مطارف النعيم والجاه كابن العميد ، ويملك للناس الضر والنفع كابن عبد الملك ! فلعله أصاب ما أصاب من وراء علمه وخلقه . ليت ذلك كان فتشذ القاعدة ويخطئ القياس ، ولكن الأستاذ نجح وأسفاه لأنه باع العلم بالسياسة ، واشترى الدنيا بالدين ، واضطرب فى مهب الأعاصير حتى رفعه أحدها على متنه ، ثم استقر على المنحدر الشاهق استقرار الريشة القلقة !

ثم رجعت أبحث عن أسباب الفشل فوجدتها لا تخرج عن حدود الفضائل التى تعشّقها ابن آدم منذ أدرك ! فالعلم والصدق والصراحة والشجاعة والقناعة والأمانة والنزاهة والأنفة والحلم والتواضع والجود ، كل أولئك عوائق عن درك الغنى ونيل الجاه وكسب الشهرة . وأقوى البراهين على إقناعك أن تستقرى أحوال المصايين بهذه الخلال فهل تجدهم إلا أواخر الموظفين فى الديوان ، وأخسر المتعاملين فى السوق ، وأضعف المتنافسين فى المجتمع ؟

لقد تدبرت الأمر فوجدت الفضائل لا تنتصر إلا فى الروايات والقصص ؛ أما التاريخ الذى يسجل الواقع ويروى الحق فهو دأى الصفحات بأخبار الأنبياء والعلماء والفضلاء والمصلحين الذين أودوا فى سبيل الدين ، وقتلوا فى خدمة العلم ، ونكبوا فى مرضاة الحق ، وشقوا فى حب الفضيلة . فهل تقول بعد ذلك إن الأخلاق الفاضلة لا تزال عدة النجاح وطريق السعادة ؟

فقلت له : أما أنها طريق السعادة فنعم ونعم . وأما أنها عدة النجاح فلا أجد في نفسي الآن قوة على تأييده ؛ لأن لي في بعض (المصالح) مسألة لم يفسدها إلا رعايتي للخلق ، وفي بعض الوزارات مسألة أخرى لم يعقدها إلا محافظتي على القانون . فليس لك على إلا أن أعرض رأيك على رجال الدين وحماة القانون ودعاة الأخلاق ، ليردوا عليك ما كذب من قولك ، أو يردوا إليك ما غرب من عقلك

[٢٢ نوفمبر سنة ١٩٣٧]



رَجُلٌ سَعِيدٌ

وعدتك يا خالد أن أقص عليك حديث الرجل السعيد بخلقه ودينه عسى أن تجد فيه ما يبرد غيظك ويرد حملك ويقر بالك . وهأنذا اليوم أسوق إليك هذا الحديث على سرّده :

دخل على هذا الرجل وأنا مكب على عمل دقيق حافز ، فلم يسعني حين رأيت ما عليه من سمّت الوقار وسيما الخير إلا أن أدع ما في يدي وأفرغ له .

— نعم يا سيدى !

— أنا رجل من أهل ... قرأت ما كتب في « الرسالة » عن الأخلاق ونكولها أمام الغرائز الوصلية في الإنسان ، فسأني وأيم الله أن تشبهه المعالم حتى يضل الهادى ، وتترك الظنون حتى يشك المؤمن . وليس لى قلم أضعه بين هذه الأقلام فيدها على موضع الحق أو يعينها على مقطع الحكم ، فأثرت أن أشخص إليك لأكون أمامك مقالاً حياً يقرر ، ودليلاً ناطقاً يؤيد .

وفى الحق أن الرجل كان فى بزّته العربية المهندمة ، ولهجته الطبيعية المترنة ، كأنما ينطق عن وحى الفضيلة العليا . فقلت له : أتظن أن الفاضل ينجح بمحض فضله فى هذا العصر الآلى الأصم ؟

فقال : لا أظن ، وإنما أعتقد . ولا أنكر مع هذا الاعتقاد أن الفضيلة وعرة الطريق ، وأن الخير صعب المرتقى . وفى قول الرسول الكريم : « حفت الجنة بالمكاره » و « القابض على دينه كالقابض على الجر » ما يصدق ذلك .

ولكن الفضائل تعليم وتعويد ورياضة ؛ فإذا أوف^(١) غرسها في النشء ، وضعف أثرها في المجتمع ، دل ذلك على فشل التربية لا على فشل الفضيلة .

أنا رجل واسع الثراء سابغ النعمة ؛ وقد جمعت مالى الوفير من ذلك الطريق السوى الذى أزمى إياه أبى منذ الصغر ؛ فليس فى نصابه قرش زائف ولا متر مغتصب . ورثت عن أبى الدين الصحيح على أنه دستور الدنيا ، والخلق الصريح على أنه جوهر الدين ؛ ثم زاولت التجارة بالصدق والصبر فاستغنيت ، واقتنيت العمار والضياح فأثريت ، وأديت الصلاة فوصلت ما بينى وبين الله ، وآتيت الزكاة فأصلحت ما بينى وبين الناس . ثم أحصنت نفسى بالزواج الباكر فوهبت البنين ، وعصمت شهوتى من المتع الحرام فرزقت العافية ، وطهرت قلبى من الطمع الحاسد والخصام الحاقد فأوتيت السكينة . ثم جهلت البنك فجهلت الربا والدّين ، وأنكرت المحكمة فأنكرت العداوة والظلم ، ووضعت فضل مالى فى أيدي ذوى الخلق من التجار يحفظونه لى ويستثمرونه لهم ، وجعلت أرضى فى ذوى الدين من الزراع يريعونها على^٢ ويستغلونها عليهم ، ومسست بالمواساة والرحمة قلوب البائسين حولى فسالت منها الضعينة ؛ ثم كان لى فى كل مبرة سهم ، وفى كل مستشفى سرير ، وفى كل مشروع وطنى يد . فأنا أمشى فى الناس ملحوظ الشهادة محفوظ الغيب ، لا تمتد يد إلى مالى لأنه مبذول للسائل والمحروم ، ولا ينبسط لسان فى عرضى لأن جاهى موقوف على المتعطل والمظلوم ، ولا يأتى أحد بحياتى لأن وجودى أمان للشقى من البؤس والجريمة .

أما سعادتى فى نفسى وولدى فهى أعظم وأتم من سعادتى فى عملى ومالى .

(١) أوف الزرع : أصابته آفة .

أجذنى كنف الرجاء لكثير من الأسر الفقيرة ، ومصدر العزاء لطائفة من القلوب الكسيرة ؛ وأرى فى كل نظرة وفى كل بسمه وفى كل كلمة معانى لا تتناهى من العرفان والحنان والشكر ، فتعظم سعادتى فى نفسى ، وتجمل دنياى فى عينى ، ويغمرنى شعور من عزة المؤمن وزهو الخاشع ، لأن حياتى لها هذا الخطر فى حياة بعض الناس . ثم أنظر إلى بَنِي الثمانية فأرى فى وجوههم صورتى ، وفى صدورهم محبتى ، وفى شعورهم عاطفتى ، وفى ميولهم رضائى ، وفى آمالهم منائى ، فأقبل يدي ظاهراً وباطناً وأقول لنفسى : احمدى الله واشكره فإن عِلْمًا لن يموت ، وإن ثراه لن يبيد ، وإن بناءه لن يتقوض !

ذلك كله يا سيدى بفضل الخلق . فإذا كان قد تهيأ لمثلنى على جهله بقواعد المدنية وضروريات العلوم أن يجمع بمعونة الله وحده هذه الثروة الضخمة وليس له رأس مال من إرث ولا فيض رزق من حكومة ، وأن ينال هذا الجاه العريض وليس له نسب عريق فى أسرة ولا سبب وثيق إلى سلطان ، وأن يخلق من حوله هذا النعيم المقيم فيغرق فيه أهله وعشيرته وبيئته ، وأن يرفع بناء الأخلاق الفاضلة فى بنيهِ بالتربية وفى أهله بالقدوة وفى مواطنيه بالتقليد ، فكيف لا يستطيع معلمو المدرسة ووعاظ المسجد ومشرعو البرلمان أن يخلقوا فى كل مكان هذه البيئة وتلك اللجنة فيصلح المجتمع ويسعد العالم ؟

فقلت له وقد أعجبنى عقله وأمتعنى حديثه : يا سيدى ، إن من سعادتك وسعادة الناس بك أنك صاحب عمل لا صاحب علم ، ورجل غزيمة لا رجل رأى . ولو كنت من كهنة العلم لصعدت إلى قدس الأقداس وظللت تقرأ الفلسفة والأخلاق لرياضة العقل أو للذة المعرفة أو لشهوة الجدل ، ثم رميت الناس

من عليا سمائك بالآراء المتعارضة والأحكام المتناقضة لتضطرع في المطابع حيناً
ثم تموت في الكتب

لا يزال المربون يا سيدى يجادلون في أغراض التربية ويجربون نظرياتها
المختلفة في حقوقهم الخاصة . فليت شعري وشعرك أيتاح لهؤلاء في دهر من الدهور
أن يقبضوا على أعنة الأمم ويتولوا القيادة في ركب الحياة ! ؟ ادع الله للناس
أن يلهمهم من الحق ما ألهمك ، وأن يعلمهم من قواعد الخير ما علمك !

قال صاحبي الثائر خالد وقد شبا وجهه بشيء من الإيمان والاطمئنان : وهل
تستطيع أن تعدّ كثيراً من الناس على غرار هذا الرجل ؟ فقلت له : يا صاحبي !
ليست المسألة مسألة إحصاء وعدّ ، إنما هي مسألة إمكان وواقع . ومتى ثبت أن
الأخلاق الفاضلة استطاعت أن تصنع من هذا الرجل هذا المثال ، فلم لا تستطيع
أن تصنع على غرار هؤلاء ملايين من الرجال ؟

[٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٧]



الفرح الملكى السعيد



فى صباح الخميس العشرين من
يناير كانت مصر كلها نطاقاً من الولاء
والدعاء والبشر حول قصر القبة
العامر !

فى هذا اليوم الموموق ، وفى
هذا القصر المرموق ، وضعت مصر
المجيدة تاجها الثانى على جبين
ملكها الطاهر !

فى الساعة الحادية عشرة من
ضحى هذا النهار الضاحك كان مولانا

الفاروق يتم نعمة الله عليه بالزواج الموفق الباكر !

هل رأيت قبل اليوم أمة بأسرها تحتشد هازجة فى مهرجان ؟
هل سمعت فى غير مصر ستة عشر مليوناً يهتفون بالحب لإنسان ؟
هل علمت قبل فاروق أن حباً كهذا الحب قد اتفق لسلطان ؟

المدافع المبشرة تقصف فى كل ثكنة ، والموسيقى المطربة تعزف فى كل ساحة ،



والنواقيس الجميلة تجلجل في كل
كنيسة ، والمذيع الجهير يرسل
الأناسيد في كل جو ، وهتاف
الشعب المبتهج يهزج في كل نسيم ،
وتصفيق الجماهير المحتشدة يُدوّى
في كل شارع ، وزغاريد العقائل
والأوانس تنطلق من كل شرفة ،
وأدعية الترفئة والتهنئة ترتفع من
كل قلب ، وصوت الإمام المراعى
ينبعث بالصيغة الشرعية من الحجرة
الملكية رهيباً كأمر الله ، جليلاً
كصوت الرسول ، فيربط بالدين

قلباً بقلب ، ويصل بالدعاء ملكاً برب ، ويقرن في الدنيا تاجاً بتاج
فهل رأيت بعين الحلم ما رأت عينك في هذا القران ؟
وهل سمعت بتاجين صاغهما الله من حب وإيمان ؟
وهل اجتمع الدين والدنيا لغير فاروق في هذا الزمان ؟

عهدنا بنشوة العرس تبسط قلبي العروسين ؛ فإن زادت أبهجت قلوب
أسرتين ؛ فإن زادت أنعشت نفوس قرية

ولكن عرس الفاروق بدع من الأعراس لم يسجل مثله التاريخ . وإلا فمتى
وأين كان العرس الذى يشعر كل مواطن أنه عرسه ، فى بيته فرحه وفى نفسه

مرحه وفى قلبه أنسه ؟ لقد تبدلت الحياة غير الحياة فى ثلاثة أيام على ضفاف النيل المقدس ، فالجهود المسخرة لتكاليف العيش تقف ، والعداوات المسعرة لمطامع النفس تبوخ ، والأقلام المتسافهة على وجوء الصحف تكف ، والقلوب المختلفة تأتلف على شعور واحد : هو أن وطنها مصر وملكها فاروق ! فلا وساطة بين الملك وشعبه ، ولا علاقة بين المرء وحزبه ؛ كأنما أصبح الناس من وحدة الهوى أسرة فى رُقعة أمة ، وغدا الفاروق من شدة العطف أباً فى عرش ملك ! قد يكون لعرس الفاروق أمثال تطاوله فى الفخامة وتفاضله فى السعة ؛ ولكن مزيتة الظاهرة أنه عرس قومى ساهم فيه كل امرئ بنبض من قلبه وفيض من جيبه . فلم يبق بلد فى القطر ولا أحد فى الناس لم يقدم إلى العريس الأعظم هدية فاخرة ، أو تهنئة خالصة ، أو دعوة مستجابة ! وتسأل الملايين الوافدة من كل قرية ، والأمواج الدافقة فى كل طريق : أمصدر هذا البشر الذى يتفرق فى جباهكم ويتألق على شفاهكم هو هذه الأضواء الساطعة والزينات الرائعة والمباهج الخلابة ؟ فيجيبونك إنما هو حب المليك الصالح وجد متنفسه فى هذا الظرف السعيد فانقلب نشوة من نشوات السعادة يضيع فى حمياها التدافع بالظهور ، والتصادم بالصدور ، والنوم على الأفاريز ، والضلال فى الشوارع . وهم فى هذا المزدحم الضاغط يتجهون إلى القصر ولا يذكرون غير الملك ، كما يتجه الحجاج الحاشد إلى البيت ولا يذكرون غير الله !

مولاي يا زين الشباب ! لنعم المثل العالى لناشئة الجيل أنت ! إن فى برك بشعبك ، وفى إيمانك بربك ، وفى إحسانك^(١) فى بكور السن ، وفى إقدامك

(١) أحسن الرجل : تزوج

على عزم الأمور ، وفي ثباتك على تقلب الحوادث ، لدستوراً من الخلق العظيم
تصح عليه القلوب المريضة ، وتنتعش به الآمال المهيضة ، وتشتد به العزائم الرخوة ،
ويزكو عليه ثرى الوادى الحبيب الخصب فيعود فينبت تلك الأدواح الشم التى
فاء إلى ظلها وأكلها العالم القديم فاغتنى واسترّفه

مولای یا امیر المؤمنین ! نعم الإمام العادل لدولة الإسلام أنت ؟ إن فى رفعت
منار العدل ، وفى إشارك جانب الحق ، وفى إعزازك كلمة الدين ، وفى تجديدك
ما رث من أسباب الخلق ، وفى إحيائك ما عفا من سنن السلف ، وفى أخذك
نفسك الملكية الشابة بسمت الرسالة وسيرة الإمامة ، لومضة من ومضات الروح
الإلهی تبعث الحياة فى هذا الهيكل العظيم الرميم فتعيده قوياً كما نشأ ،
عظيماً كما شب ، حرياً بأن يسط على الخاقين جناحه ، ويستأنف فى المشرقين
دعوته وإصلاحه

مولای یا وريث الفراعين ! نعم الملك الصالح لمصر العريقة أنت !
إن فى جمعك إلى مزاياك الخاصة رأى العبرى محمد على فى العدة والقوة ، وحب
العزيز إسماعيل للحضارة والفن ، وميل العظيم فؤاد إلى الثقافة والعلم ، لضمناً
لمصر الناهضة أن تساهم فى بناء المدنية من جديد ، وأن تصل حاضرها الطريف
بماضيها التليد !

نصر الله بالملكة السعيدة عهدك ، وثبت الله على المملكة الرشيدة مجدك ،
وأدام الله على الأمة المجيدة سعدك ، فإنك يا مولای لدولتك ورعيتك ومليكك
نعم المولى ونعم النصير

مرئى شاهد المهرجن

كنت أمشى فى شارع إبراهيم عصر يوم الأحد الرابع من أيام الزفاف الملكى السعيد ، ونظرى وفكرى يتبعان فلول الزوار وهم يسرون زُمرّاً فى باحة الطريق يلتقون أنظارهم الطائرة على بقايا الزينة من أقواس وأعلام ، وينفقون قروشهم الأخيرة فى مغريات النفس من شراب وطعام . وكان الملايين الثلاثة الذين ساهموا بآمالهم وأموالهم فى زفاف الفاروق قد انتشروا فى ميادين القاهرة وفنادقها وحدائقها ثم تركوها أشبه بمروج الربيع نفشت فيه قطعان الشاء فجعلتها كالصريم ؛ ولكن هذه الأفواه الفرحة التى لم تفتر عن الضحك والهتاف ، أو عن المضح والمزاح ، قد أفضت جيوب القاهرة مالاً وغمرت جنوبها بهجة ، فكان منظر هذه الشرازم المتخلفة وهم يودعون مجالى العرس والأنس يبعث فى النفوس شعور الأسف على انقضاء فترة من فترات الجنة اجتمعت فيها القلوب على السرور المصفى والوداد المحض

كنت أقول لنفسى وأنا أسير الهوينى فى غمر من الصفاء استفاض على أوجه الناس حتى شاع حولهم فى النسيم وشع فوقهم فى الأفق : متى يتاح لسلائل الطين أن ينزعوا من صدورهم الجشع والأثرة فيعيدشوا كما عاشوا فى هذه الأيام حُشداً على الخير عكفاً على الجمال خلصاً على المودة ، ولهم على الله هواء يفعم كل رثة ، وغذاء يتخم كل معدة ، ورخاء يعمر كل قلب ؟

ليت شعري أعجز ابن آدم ومعينه نور قلبه ووحي ربه وهدى عقله أن يجعل
دنياه الفانية كرياض الطير مسارح للشدو ومجالى للبهجة ومشارع للحب ،
فيعيش على فضل الله كما تعيش الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً وتغفو أوامن ؟
إن بقاء النفس أو القوت ، وبقاء الجنس أو الأثرى ، هما الأصلان لكل غاية ،
والمصدران لكل عمل ، فهل أعيأ على شريعة الخالق وفلسفة الخلق أن تهذبا
هاتين الغريزتين فتقطعاً أسباب الشر وتقلعا أصول الجريمة ؟

ألا... ولكننى شعرت فجأة بجسمى الطليق الهائم ينحصر فى زحمة ضاغطة
من السواعد والأكتاف ، فاطلمت فرأيتنى أضطرب فى سيل دافق من الأخطا
والطوائف يموج بعضهم فى بعض ، ويهدرون بذكر الله هديرأ طغى على كل
صوت وغطى على كل حركة . كان ذلك موكب الطرق الصوفية تجمعت أوفه من
جوانب القطر ليرفعوا إلى ملكهم الصالح فاروق تهنئات (الطريقة) . لم أستطع
الخلوص إلى طوار الشارع من شدة الزحام ، ولم أطق السير لا إلى الخلف
ولا إلى الأمام ، فتركت نفسى إلى تدافع الموكب أرسب فى لججه وأطفو على أمواجه
حتى انصبب فى ساحة عابدين . وهناك رأيت على حواشى الميدان صفوفأ متراصة
من الناس يحجزها عن الموكب الذاكر سلسلة من الجنود والشرط ؛ ووجدت نفسى
تحت البنود الخفاقة وبين الفرق الدفاقة أمام الشرفة الغربية من قصر المليك ،
وقد شرقت من حولى الساحة على رحبها بالطوائف المختلفة الإشارات والشارات
والأناشيد ، تملأ السماء بالأنغام ، وتجلل الأرض بالأعلام ، وتجعل من الميدان غابة
من شجر الزان تسقسق تحت أفيائها الوريقة أسراب من الطيور الغربية
أدركت القوم حال من حميا الوجد فترنحوا مهلين ومنشدين ، واختلطت على

غير نظام ولا انسجام هتفات الناس وتقرات الدفوف وصدحات الناي فما كنت تسمع إلا لجباً لا يتبين فيه نشيد ولا يتميز به نغم . ثم قرّرت فورة القوم حين تنقل على أفواه المريدين أن جلالة الفاروق سيدشرق عليهم ، نخشعت الأصوات وسكنت الحركات واتجهت النظرات إلى الشرفة الملكية يرقبون منها طلعة الحيا الأبلج الموموق ؛ ولكن الشرفة ظلت في سدّها^(١) القرمرى المتوّج كأنها شفق الفجر يبشر بالحياة والنور والبهجة قبل أن تهصر الطبيعة ستائرهما الوردية عن خدر الشمس . فلما طال الانتظار عاد النقباء والخلفاء يرتبون ما يقول الأتباع عند تجلى المليك : — لا ينبغي أن نصفق كما يصفق الأفندية — لا يجوز أن نهتف كما يهتف العامة . — قولوا فى صوت واحد : الله ! الله ! — بل قولوا : الله أكبر ! — ولم لا تقول عاش الملك الصالح ! عاش أمير المؤمنين ؟

— هذه الجهة تهتف بهذا ثلاثاً ، ثم تسكت فتهتف الجهة الأخرى : ليحيى حامى الإسلام

— أرى أن يهتف المرغنية : عاش ملك مصر والسودان ، ويهتف النقشبندية : عاش خليفة الرحمن ، ويقول الرفاعية ...

— لا لا . هذه كلها هتفات لا تزكو بأهل التصوف . اتفقوا على دعاء واحد

تجأرون به إلى الله أن يحفظ عبده الفاروق لإعلاء كلمته وإعزاز دينه وأخذت كل طائفة تروض ألسنتها على اللنداء والدعاء وأعينها شواخص إلى شرفات القصر ونوافذه

لعل الملك يخرج من هذا الباب يا فرحات ! أظنه يطل من هذا الشباك يا مسعود ؟ ربما يخرج إلى الميدان مع المشايخ فيعرض (الأشير)

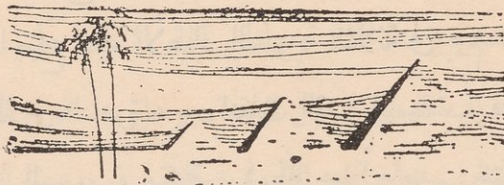
(١) السدل : الستر . والقرمرى ما كان بلون القرمر وهو صبغ أرمنى أحمر

ثم انعقدت الألسنة وعُلقت الأنفاس واتجهت الأنظار بجاذب خفي إلى الشرفة .
وهناك تجلى ملك الناس للناس ! فهل رأيت البحر إذا مار به الإعصار ، أو الغابة
إذا رجفت بها العاصفة ؟ لقد أصيب القوم بما أصيب به الكلیم يوم الجمل ،
فوقعوا في بُحْران من الحماسة السَّكرى لا يملكون غير حناجر تصيح ، وشفاه
تدمدم ، وأذرع تلوّح ، وأكفٍ تصفق !

تلك حال كانت أشبه بحال القروى الذى زعموا أنه بات ليلة القدر سهران
يقلب طرفه فى النجوم يرصد (الطاقة) أن تنفتح فيطلب إلى الله الغنى والعمر ؛
فلما جاءت الساعة المرقوبة وانشقت السماء عن كوة من النور تلتهب التهاب البوتقة ،
التمس لسانه فلم يجده ، فانطلق يعوى عواء الذئب حتى ثاب إلى نفسه ، فارتد
من العواء إلى البكاء

وجلال الفاروق قبس من جلاله السماء ، وفيض من قداسة الأنبياء ، فهل
تقوى على وجهه عين ، وهل يثبت على سحره فؤاد ؟

[٣١ يناير سنة ١٩٣٨]



مِنْ حَارِثِ الْعَيْدِ

أصبحت القرية الصغيرة غارقة في ضباب أمشير البارد الأهوج كأنها قطع السحاب المركوم جثمت من ثقلها على الأرض . فالجو على قول « هوجو » كستار الغيب المسدول ، والنسيم على قول « ابن المعتز » كذيل الغلالة المبلول ، ووجه السماء كوجه الصحراء في يوم الدجن لا ترى فيه إلا تلولا من الغمام الجون وسهولاً من السحاب الهف^(١) . وكانت جدران المسجد تعج بالتكبير والتهليل ، وأفنية الدور تنعم بالعناق والتقبيل ، والطرقات من البيوت إلى الزاوية ، ومن الزاوية إلى المقبرة ، تزدان بالشباب القروى القوى العامل ، وهو يظفر من مرح الصبي ، ويخطر في زينة العيد ، فيكسب الطبيعة العابسة المقرورة بشراً من طلاقة وجهه ، وقبساً من حرارة قلبه .

أخذت « المناظر » والمصاطب زخرفها بالقوم بعد أن أقاموا الصلاة لله ، وأدوا الزيارة للموتى ، وقدموا التهنية للأهل ، وانفضوا ثقلاً عن سماء العيد ، ودارت عليهم أكواب القرفة ولقائف الطباق ، وتشققت بينهم مقطعات الحديث فترامت إلى عيد الملة بحج البيت ، وعيد الأمة بمولد الفاروق ، وعيد الأسرة بيوم الأضحى . وكان اجتماع هذه الأعياد السنوية الثلاثة في يوم العيد الأسبوعي^(٢) من مصادفات الدهر النادرة ، وموافقات القدر البعيدة ، فتألفت في وجوههم أضواء مختلفة من السرور ، وتدفتت في قلوبهم أحاسيس شتى من اللذة ؛ منها المنبثق عن مشرق الإيمان بالله ، ومنها الصادر عن منبع الإخلاص للمليك ، ومنها

(١) الغمام الجون : الأسود . والسحاب الهف : الرقيق الأبيض (٢) يوم الجمعة

المنبعث عن فيض النفس الراضية تفتحت في حرارة الحب كما تنفتح الأكام
في دفء الربيع .

من الصعب أن تقيّد الأحاديث المرسلة إذا جرت بين قوم لا يؤمنون بقواعد
الجدل ، ولا يحفلون بأمانة التاريخ ، ولا يرون الحق للمتكلم أن يتم كلامه أو يشرح
رأيه . وحديث الناس في القرية كشقشقة العصافير في الشجرة ، تسمع كل عصفور
يفرد ، ولا ترى عصفوراً واحداً يسمع !

— كل عام وأنتم بخير . واللقاء في العام المقبل إن شاء الله على عرفات !
بهذه التحية وهذه الأمنية أبدأ الحديث ؛ وكأنما كان لفظ عرفات سبباً
من الجذب الروحي حوّل عواطف القوم وأمانهم إلى مكة ! فالذين حجوا أخذوا
يذكرون وهم في غمرة الشوق ونشوة الذكرى تجلى الألوهية في مهابط الوحي ،
وإشراق النبوة في مطالع الرسالة ، ويروون عن كل منسك حديثاً ، ويقصون
عن كل موقف حادثة . والذين لم يحجوا يصغون إلى صرف الحديث وهم من فعله
الساحر في هيام غالب وطرب نزوع . ثم رجع الحديث مشرق الحواشي معطر
الأطراف من الكعبة إلى عابدين ، فأفاضوا في صلاح الملك الشاب وبره إفاضة
الخيال الشاعر في عدل عمر وفضل الرشيد . فهذا يقول : إن جلالته يزور القرى
متنكراً ليرى بنفسه منابت الشر ومواطن الفقر ؛ فإذا كتب الله النعمة لبنت
من البيوت عطفه إليه فدخله دخول الرحمة ، وحل به حلول السعادة . ثم يروى
الأعاجيب في هذا الباب مما تناقلته الأفواه في الأسواق ورددته الألسنة في المجالس .
وهذا يذكر أن الشيخ فلاناً رأى جلالته في المنام والنبي يقبله قبلة الرضى ، ويقلده
سيف الخلافة ، ويعده نصر الله ما دام على النهج الواضح والعمل الصالح والوحدة

الجامعة . وذلك يقرر أن غضب الملك الصالح من غضب الله ، إذا صُب على الباغي لا تعصمه منه قوة ، ولا تدفعه عنه كثرة . لأن غضبه فوق الهوى والطمع ، فلا يكون إلا للعدل في جوههه ، وللشعب في صميم حقه .

ثم انتقل الحديث من غضب الملك إلى حل مجلس النواب ، فغاضت البشاشة من الوجوه ، وقالوا بلهجة الأسف الحزين :

عدنا إلى الحرب الضروس تفتك أسلحتها الأثيمة بالأموال والأنفس والأخلاق والقرابة . فالانتخاب بما آثمه ومغارمه هو المظهر الذى نحسه ونعرفه من مظاهر الدستور . وفترة الانتخاب هى الفرصة التى نرى فيها النائب طول الدورة البرلمانية ، ومعركة الانتخاب بين الحكومة والأحزاب ، وبين المرشحين والطلاب ، هى التى تحمل أولياء الحكومة وأغنياء الأمة على أن يذكروا القرية ، ويوزروا الفلاح ، ويعطفوا على بؤس الأجير ، ويمسحوا على رأس العامل ، ويعدونا المواعيد ويمنونوا المنى ، ويصوروا لنا البرلمان فى صورة المسيح المنتظر ؛ فلا ظلم وهو منعقد ، ولا بؤس وهو قائم ! فنقطع فى رضاهم القرابة ، وننقض فى سبيلهم الجوار ، ونتحمل فى نجاحهم العنت ؛ حتى إذا فاز النائب ، والتأم المجلس ، وحكم الدستور ، انصرف البرلمان إلى الأحزاب ، واشتغلت الحكومة بالموظفين ، واهتم النائب بنفسه ! أما القرية والفلاح ، وأما الدائرة والناخب ، فمرآهم مقتحم العين ، وشكواهم دبر الأذن .

ذلك بعض حديث القوم . وهو على سذاجته أو قل على تفاهته أخف على القلب وأندى على الكبد من حديث يزوره كاتب يتعاطى الأدب ، أو خطيب يحترف السياسة .

في حفلة أدبية

أدبت السيدة إ. خ. مادبة لرجال الأدب ونسائه ، كانت على رأى من
شهادوها مظهراً لذلك الأدب النَّغْلُ^(١) الذى يعيبك أن تعزوه إلى وطن وتنسبه
إلى أمة .

تفرنس فيها المدعوون حتى حماة اللغة والأدب ! بعضهم ملكته الخذقة
فاستكثر ظرفه وعلمه على اللغة العربية ، وبعضهم غلبته المجاملة فخاطب الأديبات
بلغتهن ، ولغتهن الفضلى هى الفرنسية . وكان الذين يتعصبون للعربية أو يتأدبون
بالإنجليزية قليلاً قد انتثروا فى غمار الحفل أول ما دخلوا ؛ فلما أنكروا اللسان
المتحدث بين القوم تراجعوا مترايلين مستوحشين إلى هامشه . ثم طفقوا ينظرون
بعين المتفرج المتعجب إلى جمعى المذكر والمؤنث وهما يضطربان فى الأبهاء والحجر
على غير قياس

هذا يمثل الباريسى اللبق فيسلك طريقته فى السلام ، ويتخذ لهجته
فى الكلام ، ويسمّت سمته فى التطرف ؛ وهذه تمثل إحدى (عالمات) مولير
فتصنع المعرفة ، وتتكلف الذكاء ، وتقدر نفسها بالقياس الطويل والوزن الثقيل ،
فيمالقى الذكى ويصدق الأبله ؛ وهذان يتضاحكان لحركة لاحظاها أو نكتة
قالاها ، ثم يكتسكتان فى الضحك ليلفتا إليهما السمع المشغول والنظر الغافل ؛

(١) النغل : ولد الزنا

وهاتان تتحدثان ووجهاهما متقابلان ، ونظراهما متدابران ، وكل منهما تبحث ذات اليمين وذات الشمال عن محدث أو معجب ؛ وهؤلاء يتناقشون في موضوع غريب بلسان غريب لم يوحه الوطن الذى نحيا به ، ولا المجتمع الذى نضطرب فيه ، ولا الأدب الذى نعيش له ، وإنما أوحاه رأى فى كتاب أو مقال فى صحيفة جاء به البريد الأخير من البلد الذى استوطنوه بالفكر واستقبلوه بالعبادة ! حدثنى أحد الذين دُعوا إلى هذه المأدبة وهو أديب ظريف لا يعرف لغة هذا الصالون قال : كنت جالسا وراء القوم كأنتى أحد (أولاد البلد) فى دار من دور السينما يشاهد فلما فرسيًا ، فهو يرى ولا يعلم ، ويسمع ولا يفهم ، ولكنه مأخوذ بالمناظر التمثيلية التى تتقلب على عينيه فيغيب وهو حاضر ، ويحلم وهو يقظ . فإذا خشيت أن يلحظ الناس انقباضى عنهم بطول القعود قت أُنقل بين المثنيات والجوع ، فأجدنى أشبه بالأطرش فى الزفة ، يرى الوجوه تنبلج ، والشفاه تنفرج ، والأيدى تتحرك ، وهو شاخص البصر ، مفعور الفم ، لا يدري ما الذى يشيع السرور ويبعث الضحك . ثم جلست على مقربة من الأستاذ المازنى فرأيت ربة الدار تقبل عليه وتقدم إليه سيدة يقولون إنها من الأدبيات النوابه . عرفت إليها الأستاذ ونوهت بأثره فى الأدب ومكانه من النهضة ، ثم تركتهما معاً وذهبت إلى غيرها . وانتظر الأستاذ أن تتحدث إليه السيدة الأدبية فى قصة من قصصه أو فى رأى من آرائه ، فيكون فى ذلك بعض الترضية للأدب العربى المهان فى بلده وبين قومه ؛ ولكن السيدة الأدبية بدأت الحديث بهذا السؤال :

حضرتك من مصر ولا من الشام ؟

ولا أدري أألت على المازنى كلاماً فيه معنى أم دلوأ فيه ماء ؟ !
فقد تخلص منها بلباقة وأقبل علينا يقول :

واضيعته ! أبعء ثلاثين عاماً قضيتها فى الأدب أكتب فى كل يوم مقالاً ،
وألقى فى كل أسبوع محاضرة ، وأخرج فى كل سنة كتاباً ، أجد فى المتعلمات
بالقاهرة من تسأل : أمن الشام أنا أم من مصر ؟ !

هذه حفلة أقامتها صاحبته الأدبية لصحابتها الأدباء ، وقد رأيت وسمعت
كيف كان حرص أدبائنا على اللغة ، وإلى أين بلغ علم أديباتنا بالأدب .
فهل تصدق أن يكون لهؤلاء أدب مستقل وهم ينكرون أن لهم لغة مستقلة ؟
لا جرم أن هذا النوع من الأدب الحرام يزيف الأديب على أمته كما يزيفه
على الأم الأخرى . وإذا جاز لأولئك السيدات الأدبيات أن يلغين بغير لغتهن
بحكم نشأتهن وطبيعة ثقافتهن ، فكيف يجوز لأساتذة اللغة وزعماء الأدب
أن يديروا فى أفواههم ذلك اللسان الأجنبى وما كانت قيمتهم فى الناس
ودعوتهم إلى هذا الحفل إلا لأنهم يحذقون اللغة العربية ، ويتزعمون
الثقافة العربية ؟ !

إن من هوان نفسك عليك وإهانة جنسك فى الناس أن تتكلم غير
لغتك فى بلدك وبين قومك من غير ضرورة ولا مناسبة ؛ فإن ذلك إن دل
على شىء فإنما يدل على عدم استقلالك فى خليقتك وعقيدتك ونمط تفكيرك
وأسلوب عملك

هل تستطيع أن تدلني على بقعة من بقاع الأرض غير مصر ولبنان يجتمع
في دور من دورها مجلس من مجالس الأدب يحضره لفيف من أساتذة الجامعة
وجهازة الأدب وأقطاب الصحافة ، ثم لا يكون حديثهم إلا بالفرنسية ،
ولا يدور نقاشهم إلا على موضوعات أجنبية ؟ !

يا قومنا إن لغة المرء تاريخه وذاته ، فالغض منها غرض منه ، والتفضيل عليها
تفضيل عليه ، ولا يرضى لنفسه الضعة والصغار إلا مهين أو عاجز !

[٧ مارس سنة ١٩٣٨]



سأرة للأسنان العقال

كنت أقول للذين يحلو لهم أن يصنفوا الكُتَّاب إلى كاتب مقالة وكاتب قصة وكاتب نقد وكاتب سياسة وكاتب تمثيل : إن الكاتب الخلق بهذا الاسم يجب أن يكون أولئك جميعاً . فإذا قصر جهده على بعضها ، فليس معنى ذلك قصوره عن بعضها الآخر ، بل معناه أن عمل الكاتب في التعليم أو في الصحافة، أو حظاً الأمة من الحضارة والثقافة ، أو حال المجتمع من الرخاء والاستقرار ، يساعد اتجاهها على اتجاه ، ويُغلب نوعاً على نوع . وما الكاتب إلا فنان موهوب ميزته تأليف الكلام الجميل تعبيراً عما يقع في حسه وعلمه ، وتصويراً لما يجري في خياله وذهنه ؛ فإذا استمد الإلهام والمعرفة أحاط إحاطة (الجاحظ) و (جيته) ، وإذا استملى الشعور والعاطفة ألم الملم (البديع) و (موسيه) . وانفساح ذرعه أو انحصار طبعه لا يدخل في حسابه بالزيادة ولا بالنقص ، لأن الأصل في فنه أن يحميد الكشف عما يحس والإبانة عما يعلم .

قالوا : إن العقاد باحث جرى الرأي ، وناقذ نافذ البصيرة ، وجدلى دامغ الحجة ، ولكنه لا يملك أن يكون قصصياً يكشف بالوحى حجب الغيب ، وينمق بالخيال صور الحقيقة ، ويحيى بالعاطفة خمود الفكرة ؛ وتلمسوا لذلك الأدلة والعلل من طبيعة مزاجه واتجاه تفكيره وروح أسلوبه ، حتى رووا عنه أنه عاب القصة ونفى أن تكون نوعاً جدياً من أنواع الأدب . وكان الذين يسمعون هذا الكلام

يقابلونه بالتصديق ويؤيدونه بالواقع ، فكنا نقول لهؤلاء : إن الذى يعرض هذا العرض ، ويصف هذا الوصف ، ويحلل هذا التحليل ، لا يُفضل عليه — إن أراد — أن ينقل المشهد الذى رآه ، ويقص الخبر الذى علمه . وليس القصص كله خيالاً حتى يسوغ فى العقل أن الكاتب الذى يضيق خياله ويضعف وهمه باتساع عقله وقوة فكره يقصر بابه عن القصة .

وجاءت (سارة) والرأى على ما خيل الرءاؤون فأقرت الأمر فى موضعه من صميم الحق ؛ وقدمت الدليل القاطع على أن هذه الشخصية الأدبية قد بلغت الغاية فى كل ناحية من نواحي الأدب ، حتى الناحية التى لم تتجه إليها إلا منذ أمس

وهل صحيح أن أمس كان أول عهد العقاد بالقصة ، وأن سارة كانت أول ما كتب العقاد من القصص ؟ الحق أن الكاتب المطبوع يولد وفى قريحته أصول الأنواع الأدبية ؛ تنمو بنموه ، وتطور بتطوره ، وترقى برقيه ؛ ولكن ذلك يحصل لبعضها بالفعل ، ويحصل لبعضها الآخر بالقوة . فلو أن العقاد كتب (سارة) أيام كتب (مجمع الأحياء) لكان من الزاجح أن يكتبها من نوع غير هذا النوع وبأسلوب غير هذا الأسلوب ؛ ولكنه كتبها حين كتب (سعد زغلول) فجاءت من النوع التحليلى البارع ، وبالأسلوب المنطقى المشرق . والقصة التحليلية هى آخر أطوار القصة ، كما أن الشعر الفلسفى هو آخر مراحل الشعر . ونتاج الذهن يتطور بين الطفولة والكهولة فى الفرد والأمة والخليقة ؛ فالأسطورة تنتهى إلى القصة ، والملمحة تصير إلى الرواية ، وشعر الغناء يؤول إلى شعر الفلسفة

(سارة) قصة فتاة مثقفة لعوب أرملة ، وصفها العقاد في فصلين لا نجد كثيراً من أمثالها في أدب العالم ، وهما (من هي) و (وجوه) . عرفها هام المهذب العقل الطيب القلب وهو في وسط عقده الرابع أغرب وحيد ، فشغفته حباً للأسباب التي حللها الكاتب في فصل من هذه الفصول ؛ ثم وصلت بينهما الطبيعة بالصلة التي لا حيلة فيها لانتظار ولا اختيار ولا خبرة ؛ وظلت هي على نخبزتها الأنثوية تعابث وتخابث ، وتلبس تارة لباس (مانون)^(١) ، وتارة أخرى لباس (مادلين ؛ وظل هو على شكيبكته العلمية يؤول ويعلل ، ويفرض الفروض ، ويشير الشكوك ، ويقوى حيناً فيكون (دُنْ جُوان)^(٢) ، ويضعف حيناً فيكون (دى جُريو) حتى ذوى الحب بين الشك منه والسأم منها ففترق العاشقان

ليس في القصة إذن حادثة تروعك ، ولا مفاجأة تدهشك ، ولا عقدة تشوقك ؛ ولكن هذا الحادث العادى المطروق أصاب ذهنًا شديد النفاذ وفكرًا دقيق الملاحظة وشعورًا صادق الحس ، فتجلى في (سارة) صوراً واضحة الخطوط ناطقة الملامح عبقرية الألوان تمثل هذه المرأة في جميع حالاتها وعلى كل وجوها تماثلاً عارياً لا ينفع فيه ثوب رياء ولا ورق تين^(٣) . ولعل الطريف في (سارة) أنها تحلل تركيب العشق في قلبي عاشقين من ذوى الثقافة والفكر ، فتنتهى

(١) مانون ودى جريو : بطلا قصة مانون لسكو ليريفوست ، ومادلين أو مجدولين ، أو مريم المجدلية امرأة خاطئة اهتمت بالمسيح ، وهى في الأدب مثل المرأة التي ترجع عن غيرها وتكفر عن خطاياها .

(٢) دن جوان : شخص خرافى يمثل الرجل الغنى المترف الصلف الداعر الذى يفتن فى إغواء النساء بالجمال والظرف ، وفى تعذيبهن بالدلال والهجر .

(٣) ورق التين : هو الذى استتر به آدم وحواء بعد الخطيئة فى الجنة .

إلى أن الفلسفة لا تجعل من العاشقة إلا امرأة ككل امرأة ، ولا من العاشق
إلا رجلاً كأى رجل

أما أسلوب (سارة) فهو أسلوب العقاد : صريح لا رغوة فيه ، جلى لا غبار
عليه ، مستقيم لا التواء به . يتصل فيه اللسان بالعقل فلا يلغو ، ويعتمد فيه القلم
على القريحة فلا يهن . على أن العقاد فى سارة قد احتفل لأسلوبه واحتشد لفنه
نجاء من النمط العالى ، لا تجد خللاً فى سبكه ، ولا قلقاً فى اطراده ، ولا وهناً
فى منطقته ، ولا سقطاً فى ألفاظه ، ولا شططاً فى معانيه ، وفى رأى أنك لا تعرف
العقاد على حقيقته إنساناً وفناناً إلا فى (سارة)

إن سارة تقدم مثلاً جديداً فى بلاغة الأسلوب ، وتفتح فصلاً جديداً فى أدب
القصة ، وتسجل اتجاهاً جديداً فى أدب العقاد

[١٤ مارس سنة ١٩٣٨]



العالمُ له جري

أهل هلال الحرم والعالم المسكين يكادُ يفلت من قيوده ويتحلل من نُظمه ؛
فكأنما ارتد إلى عهوده الأولى يترصد الفرائس في ألفاف الشجر وأجواف الحفر ،
ويتعقب الطرائد في بطون الأودية ومخارم الجبال ؛ ثم يشتد عليه سلطان الغرائز
المهلكة فيستنشى رُوح الحياة فلا يجده ، ويلتمس ظل الأمان فلا يدركه ،
ويبتغي عزاء النفس فلا يناله

هذه أوروبا العاملة العاملة القوية ، قد استحال بنو آدم فيها إلى هياكل
صناعية ، تتحرك بالبنزين ، وتسير بالقيادة ، وتعمل بالحيلة ، وتهتك في السبق ،
حتى أوشكت أن تصطدم فتتحطم

أين الروح الذي كان يحياها ؟ وأين النور الذي كان يهديها ؟ رجعا
إلى مصدرهما الإلهي في الشرق يوم تجهمت لحواري المسيح وتنكرت لخلائف
محمد ، وبنت الأخلاق على قواعد الاقتصاد ، والديمقراطية على استبداد الأحزاب ،
والسلام على طغيان القادة . فكان من ذلك فجيعتها الأليمة في سلامها ونظامها
وخلقها ، لأن مطامع الاقتصاد لا يقوم عليها خلق ، ونوازع الأفراد لا يثبت
بها نظام ، ونوازي القواد لا يدوم عليها عهد . حتى عصبة الأمم التي جمعت
فيها أوروبا ما بقي لديها من هدى الأنبياء وحكمة الفلاسفة ، دفن أشلاءها هتلا
في النمسا بعد ما قطع أوصالها موسوليني في الحبشة ! فحال أوروبا اليوم كحال الضواري
الأوابد ، تتباعد بالآثرة وتتداني بالخدعة وتتدافع بالقوة . ثم أعوزتها الأنبياء

والأظفار فجعلت مصانع التجار مسالح ، وصهرت أجور العمال أسلحة . وأخذ الساسة والطغاة يتجاوبون بالزئير فوق المنابر ، فملأوا الصدور بالرعب ، وزعزعوا البيوت بالقلق ، وسمموا الحياة بالهلم ، ونزعوا من قلوب الناس طمأنينة العيش وحرية التصرف ولذة التملك ، فانقلبوا عبيداً مسخرين لهذه النظم الطاغية ، لا يجدون سلاماً في الأرض ، ولا يعتقدون نعيماً في السماء !

أخطرُ ببالك أم التمدن الحديث ، فهل تجد غير صولة تناهض صولة ، ودولة تبلع دولة ، وأنظمة عراها تغير الإنسان فهي تُحتَضَر ، وأخرى هدى إليها الضلال فهي تُنتظر ؛ والشعوب بين أنصار هذه وأنصار تلك مواد تهلك في التجارب ، وأموال تنفق في الأهبة ، وأرواح تزهق في الصراع ، وآمال تذهب مع الريح ؟ دع هذا العالم المجهود البائس وجُلَّ جولة بالفكر في بلاد العالم الإسلامي ، فهل تجد إلا السلام في المجتمع ، والوئام في الأسرة ، والسكينة في النفس ، والرضا في العيش ، والثقة في الحاكم ، والأمل في الله ؟ ذلك هو الفرق بين نظام يضعه الخالق ونظام يضعه المخلوق ؛ وذلك هو الفرق بين مجتمع يعيش بالروح ، ومجتمع يعيش بالآلة . وذلك هو المفهوم من دين سماه الله الإسلام ^(١) وجعل تحية أهله (السلام) ، وقرن فيه الصلاة دائماً بالسلام ، وعرف أهله بأنهم (الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً) .

ذلك هو معنى الإسلام وذلك هو مبدأه . وتستطيع أنت بأيسر الفهم أن ترجع أصول الإسلام وفروعه إلى تحقيق هذا المعنى وتطبيق ذلك المبدأ ؛

(١) الاسلام معناه السلام ، ولذلك جعل مقابلاً للجهل وهو السفه . ويؤيد هذا المعنى تفسير الرسول (ص) للمسلم بأنه من سلم الناس من لسانه ويده

فالصوم والصلاة سلام الفرد ؛ والحج والزكاة سلام المجتمع ؛ والسنن والأنظمة والآداب التي انشعبت من هذه الأصول دستور ثابت خالد يحقق لهذا الإنسان طريقاً للعدوان وعبد الطغيان أحاديث أحلامه وهو اجس أمانيه ، من الأخوة التي يعم بها النعم ، والمساواة التي يقوم عليها العدل ، والحرية التي تخصب فيها المدارك ؛ لأنه دستور لم يوحه الجوع ولا الطمع ، وإنما أوحاه الذى خلق الموت والحياة ، وجعل الظلام والنور ، وأوجد الفساد والصالح ، ليدراً قوة بقوة ، ويصلح نظاماً بنظام ، وينقذ إنساناً بإنسان

إن الإسلام بشريعته السمحة وسياسته الحكيمة قد أزال الفروق وعدل المقاييس ، وألف القلوب بالبر وشفى الصدور بالتعاون ، فلا يمكن أن يعيش فى ظله نظام هادم ولا نحلة مفرقة . إفتحوا ثغوره للنظم الحراء التي تشيع الفرع هنا وتشير الحرب هناك ، فسترونها تفد جارفة وفود النصور الخاطفة ، ثم لا تلبث أن تقع من دون ذراه المنيعه مهيضة الأجنحة ناسلة الريش لا تقوى على زفيف ولا حفيف . وفى تركية وإيران الدليل الحاسم ، فإن بينهما وبين الشيوعية جواراً وصداقة وعلاقة ؛ ومع ذلك لم تستطع الشيوعية — على فجورها وجراتها — أن تقتحم على الإسلام هناك غيله

إن فى الإسلام من ديمقراطيته واشتراكيته وأخوته مناعة على كل شر ، ومثابة لكل جنس ومودة لكل دين . فانتصاره انتصار للعقل ، وانتشاره انتشار للعدل ، وسيادته سيادة للسلام !

كَلِمَاتٌ فِي أَوَانِهَا

ليس من دأبنا أن نعرض للسياسة إلا من حيث اتصالها بالخلق أو بالأدب .
والخلق والأدب موضوع السياسة العليا التي لا تتحزب ولا تتعصب ولا تعرف
تخوم المكان ولا حدود الزمن . ولكن بينهما وبين السياسة الدنيا تفاعلاً وتبادلاً
لا يفتران فهي تؤثر فيهما وهما يؤثران فيها ، وهي تغير منهما وهما يغيران منها ؛
والخلق بخاصة مساك الأمة وملاك الأمر ، ولم تُؤتِ النهضات القومية في الشرق
إلا من جهة فساده . ذلك لأن الحال في الأمة العائدة أو الناشئة التي يخرج أهلها
وُحداناً من ظلام الجهل والغفلة ، أن يسعى المرء فيها ليغنى ، ويغنى ليتزعم ، ويتزعم
ليحكم ، ويحكم ليستبد ، ويستبد ليظغى ، ويظغى ليتأله ! سلسلة من الغرائز الجافية
الرزيلة حلقاتها الشهوة والطمع والغلبة والأثرة والجحوح والبغى ، يصل بينها جميعاً
أنانية غالبية وفردية أصيلة . فالأهل والأصحاب والأحزاب إنما يتعاملون بغير الحق ،
ويتجادلون بغير المنطق ، ابتغاء الفوز من وراء الباطل ، والغلبة من طريق القوة .
لأن (الأنا) لا يعرف (الغير) ، والذات لا تدرك المعنى ، إلا إذا أضاء العلم
ما حولها فظهرت الأشخاص ، وبانت الفروق ، ووضحت الحقوق ، وتميزت المعالم .
وحينئذ يقول كل امرئ لنفسه أول مرة : إن في العالم ناساً غيري ، وإن لهم حقاً
كحقي . ومتى شعر المرء بالناس ، وفطن إلى وجود الحق ، تولدت فيه معاني
الإنسانية والديمقراطية والعدل ، فيصبح خالصاً للجماعة إذا سعى ، وللوطن إذا تزعم ،
وللدولة إذا حكم

نحن إلى اليوم لم نخرج عن ذواتنا في العمل والسياسة والحكومة . نقيس كل شيء بمقياس الفائدة الخاصة ، ونحمل كل أمر على محمل الهوى الفرد ، ونغلب إرادتنا على إرادة الأمة في الحق المشاع ، حتى اقتنع المستريب بأننا تعلمنا الكلام ولم نتعلم العمل ، وحذقنا فنون الدعاية ولم نحذق أصول الحكم ، وحفظنا مصطلحات الدستور ونسينا مبادئ الشورى

كان ذلك محمولاً والجهل غاش على العيون رائن على الأفئدة ؛ أما الآن فقد تنبه الغفلان وتذكر الناسى . تنبه الغفلان إلى أن من استطاع أن يرفع المظلوم يسهل عليه أن يخفض الظالم . وتذكر الناسى أن له دستوراً يجعل مصدر السلطات في فم المحكوم لا في يد الحاكم . فمن ذا الذى يوسوس إليه شيطانه أن يرفع في وجه الأسود وأشبال الأسود عصا القطيع ؟ ومن ذا الذى يسول له طغيانه أن يرتفع على كواهل الشعب ليقول : أنا سيد الجميع !

لقد كان لبعضكم يا زعماء الساعة أخطاء على الأمة في بعض الأمور ملكت عليها الصبر ولم تملك لها المغفرة . وقد أتاح لكم القدر هذه الفرصة لتصحيحوا بصواب اليوم خطأ الأمس ، وتبددوا بيقين الحاضر ظنون المستقبل . فهل تدعونها تمر كما يمر أريج الطيب بالرجل الأخشم^(١) ؟ إن بعضكم بلغ ساحل الحياة ، وبعضكم جاوز حد الثروة ، وكلكم تفرع ذروة الجاه^(٢) ، فماذا ينزلكم^(٣) عن ابتناء المجد المؤثل وابتغاء الذكر الخالد ؟

نريد أن يكون الزعيم لنفسه لا لنفسه ، ولشعبه دون حزبه ، ولغده قبل يومه ، حتى يتذوق هذا الشعب المجهود لذة الأخوة في ظل الوطن ، وغزة الحرية

(١) الأخشم الذى فقد حاسة الشم أو ضعفت به

(٢) تفرع الذرة : علاها . (٣) خزله عن الأمر : عوقه .

فى كنف الدستور ، وجمال المساواة فى حمى الحكم الصالح
نريد أن تلغوا سياسة الخطب ، وتقصروا السنة الوعود ، وتحفتوا خبيج
المظاهر ، وتكفوا عن كرامة الناس صلف المنصب وزهو السلطان وبطر الجاه ؛
فإن المصرى أكره الناس للزعيم المغرور والوزير المتغطرس والنائب الاثر
نريد أن تفتتحو مصر عهداً جديداً من الهدوء والاستقرار تدخلونه فى ثياب
الإحرام ، صدوركم نقية من أحقاد الحزبية ، ونفوسكم بريئة من شهوات العصبية ،
وميولكم نزيهة عن خسيس المطامع ، فتصرفون القوى إلى الإنتاج ، وتوجهون
الجهود إلى الهدف ، وترصدون ملكات الأمة وكفاياتها لطردها الجمل منها ودفع
الفقر عنها ، ومعالجة المرض فيها ، لتعيش كما تعيش الأمم الحية صحيحة الجسم
سليمة الروح متماسكة الوحدة

إن الوزارة متسقة الأعضاء متحدة الهوى ، وإن المعارضة نزيهة الأغراض
صريرة القوى ، وإن الأحزاب متقاربة الميول مستقلة الرأى ، وإن الأمة يقظة
القواد كلوة العين ، وإن العرش من وراء كل أولئك محيط ، يُقوم الصعر ويسدد
الخطى ويرقب الأمور ويجمع الهوى الشئيت . فهل آن لنا أن نحيا حياة العاملين
الأعزة فى وطن صريح الاستقلال قوى الشوكة ، لا سلطان لقوة خارجية عليه ،
ولا سيادة للغة أجنبية فيه ، ولا استبداد لشركة أوربية به ؟ وهل آن لنا أن
نتمتع بحرية مهذبة الأطراف مأمونة السفه ، ينعم الفرد فيها بنفسه ، ويأمن بها على
رأيه ، فى مجتمع راقى الطبقات مثقف النواحي ، يؤلف نافر الخلق ، ويرفه حياته
الحب ، ويؤويه إلى كنفه إله وعلم ومليك ؟

شم النسيم

اليوم يا صديقي يوم شم النسيم ! وشم النسيم في مصر هو عيد الطبيعة والناس . والناس الذين يعيدون هذا العيد هم سكان هذا البلد الأمين من كل جنس ونحلة . وهو بهذه الخصيصة يكاد لا يشبهه عيد من أعياد الأمم . فإن أعياد الأمم إما أن تقوم لذكرى دينية فتكون لأهل هذا الدين ، وإما أن تقوم لذكرى وطنية فتكون لأهل هذا الوطن . أما عيد شم النسيم فهو عيد إنساني اشتراكى سمح ، يفتح قلبه لكل دولة ، ويخلص حبه لكل ملة ، ويبدل أنسه لكل جنس . فالمصريون على اختلاف الأديان ، والأجانب على تباين الأوطان ، يتلاقون فيه على بساط الربيع إخواناً في المودة ، أخداناً في السرور ، يتساقون راح الأنفس ، ويتطارحون حديث القلوب ، ويتجردون من فوارق الدنيا ليقفوا أمام الطبيعة الصريحة أطهاراً من رجس الحياة ، أحراراً من إسار المادة ، يرتعون في الجنة التي خلق فيها أبوهم الأول ، وينعمون بالصفاء الذي نشأت فيه أسرته الأولى

هذه الخصيصة التي انفرد بها هذا العيد إنما اكتسبها من طبيعة هذا الوطن الأريحي الذي طبع بنيه وساكنيه على فيض نيله وخصب واديه ورحب صحرائه وصفو سمائه واعتدال جوه ووداعة طبيعته ، فجعل المصرى والرومى يعيشان في قرية ، والمسلم والمسيحي يصليان في كنيسة ، واليهودى والألماني يعملان

فى متبر؁ والتركى والأرمى يسكنان فى دار . ثم يلح على هؤلاء جمىعاً بالخلط والمزج والتوحدى حتى تتشابه الألوان؁ وتتعب الألسنة؁ وتتقارب الطباع؁ وتتحد العناصر؁ فىدخلوا صرحاء خلصاء فى هىكله النقى القوى المقدس

فى هذا اليوم وحده من دون أيام السنة تغلق القاهرة دواوینها ومدارسها ومتاحفها ومصارفها ومتاجرها ومصانعها وحوانىتها؁ ثم تخرج إلى الریاض والخلوات؁ خروج الحبجى إلى عرفات ؛ ولكنه حبجى وثنى لا یؤمن فى ذلك اليوم إلا بأفرودىت وباخوس^(١)؁ فیتغیاون ظلال الروض؁ ویتشربون أشعة الریبع؁ ویستروحون أرج النسىم؁ ویجتلون جمال الطبیعة المتبرجة فى الزهر والنهر؁ ویستوعبون أسرار الحیاة المبثوثة فى السماء والأرض؁ ویطلقون من عقال الهم والوقار والكلفة؁ فیطیشون كالفراش؁ ویهتفون كالطیر؁ ویطفرون كالأطفال؁ ثم تدركهم ضرورة الحیاة فیجلسون للموائد حلقاتاً وسلاسل یتهنأون^(٢) بضروب الآ كال وصنوف الأشربة؁ حتى إذا تضلعوا شعباً وتحببوا ریباً^(٣) قرت فیهم فورة المرح فأووا إلى أحضان الطبیعة الخادرة من حر الظهیرة . وحنیئذ ترى أشتاتاً من خلق الله قد ضرب على آذانهم الكرى أو الكیظة أو السكر أو الفتور؁ فأصبح الناس والطیر والشجر قطعاً من مادة الأرض لا ییمز بعضها من بعض رقى النوع ولا سمو الفكر ولا غرور الفلسفة

(١) أفرودىت إلهة الجمال؁ وباخوس إله الخمر (٢) تهنأ بالطعام : ساغ له ولذ .
(٣) تضلع من الطعام امتلاء حتى تمددت أضلاعه . وتحبب من الشراب صار بطنه كالحب وهو الخایة

لا أزال أشعر بحلاوة هذا الموسم في القرية . فقد كان الشباب والأيفاع يعتقدون أن في العشرة الأخيرة من رمضان تفتح في السماء (طاقة القدر) لمن كتب الله لهم السعادة ؛ وأن في العشرة الأولى من المحرم تطوف (بغلة العشر) في أعقاب الليل وهي موقرة بالذهب على من كتب الله لهم الغنى ، وأن في يوم شم النسيم تهب نفحة من الفردوس لا يتنسّمها إلا من كتب الله له القوة . فكانوا إذا تنفس صبح ذلك اليوم أفعموا خياشيمهم بريح البصل ليدرأوا عن أعصابهم خمود العام كله ؛ ثم يخرجون إلى القنوات والنهيرات يستحمون في مائها الجاري ، ويمشون هوناً على حفا في الحقول وضفاف الترع وحواشي البساتين يجمعون الفلّية والحبّ والورد وزهر النارج وورق الليمون ، ثم ينسقون منها باقات يشدون بها بأعواد السعد وسعف النخل ، ويدسون فيها أنوفهم من لحظة إلى لحظة ؛ ثم يقفون في مهب النسيم الفوّاح يعبّونه عبّاً بالخياشيم والخلق لهم يجدون فيه تلك النسمة الهاربة من ريح الجنة فيمسهم منها (عرق الصّبا) ؛ ثم يسرون صامتين مستغرقين نشاوى يتشممون ذلك السر الإلهي المكنون في أنفاس النهر ، وفي عبر الزروع ، وفي فوحة الرياحين ، كما يتلمس الكيميائي الخبير إكسير الحياة في عصير العقاقير وحلب الأنابيق ومزيج الأشربة

فإذا أحسوا نشوة في الروح وفتوة في الجسم وقوة في الأعصاب لطول ما استنشقوا الهواء الخالص ، واستيقنوا الأمل الخادع ، تسلقوا أشجار التوت فجنوا منه أطيبه ، وخضبوا أناملهم بجناه ، ونقشوا طواقيمهم بصبغه ؛ ثم يرجعون إلى القرية وهم يخطرون في مطارف الصبا الغريز ، وكأن في رؤسهم بالياً قد تجدد ، وفي نفوسهم ذاوياً قد انتعش ، فيأكلون البيض الملون والخس الطرى والسّمك

الملح ؛ ثم ينامون وهم معتقدون أنهم ادخروا لبقية العام من القوة والصحة
والفراهة ما لا يهن على طول العناء وسوء الغذاء ومس المرض

ذلك شم النسيم بخصيسته ودلالته ، تراه فى المدينة والقرية يوم الصفاء
المشترك والأنس المشاع . ولقد كانت لى فيه ذكرى أو ذكريات لا تزال مشرق
النور والسرور فى نفسى . وما كان أحب إليّ أن أقصها عليك ؛ ولكن الصفحة
قد نفذت ، وساعة الطبع قد أفدت ، ورئيس المطبعة يقول : هات !

[٢٥ ابريل سنة ١٩٣٨]



معالي مصطفى عبد الرازق بك



صديقنا صاحب المعالي الشيخ
مصطفى عبد الرازق بك وزير الأوقاف
إمام من أئمة الدين ، وعلم من أعلام
الأدب . وسرى من سرة الأمة . نشأ
بحكم ولادته على النبل كما ينشأ ابن الملك
على الملوك ؛ فهو في خلقه وسمته يجري
على سراح الطبع الجميل ، لا يتكلف
ولا يتطبع ولا يتصنع ولا يقلد . وقلما
تجد في مصر من ظفر بما ظفر به هو

من إطباق الناس على اعتقاد سماحته وسراوته وفضله . ولعلك تدرك السر فيما تعرف
من خلاله إذا علمت أن بيت عبد الرازق نمط لا واحد له في تقاليده وتربته
وبيئته . فهو وحده لا يزال يمثل نوعاً من الفتوة الإسلامية له خصائصه وله سننه :
يرى العزة في سمو الإنسانية فيه لا في إفراط العصبية عليه ؛ ويجد المزية في سؤد
الفكر المذهب والخلق السجيج لا في سطوة المال المكنوز والجاه المتسلط ؛ ويمثل
المدنية الحديثة تمثيل المودة الصحيحة للطعام الهنيء فلا تكون إلا مدنيته الخاصة
فيها سره وعليها طابعه ؛ ثم يسير في سبيل الحياة على سنن واضح من شهامة القلب

ونزاهة النفس وشرف اللسان وثبات العقيدة وكرم التضحية ، كأنما يستجيب إلى صوت في دمه ، ويمشي على دليل من طبعه

ساهم في جهاد الدستور والحرية بالنفس والمال ثم عف عن الغنيمة ، وشارك في ثقافة العقل والروح بالتشجيع والإنتاج ثم عزف عن الشهرة ، وتهافت من حوله ببيوت المجد على الأضواء الغربية الخادعة فأضل بعضُها العشا ، وأحرق بعضُها اللهب ، وبقي هو على شريقته ومصريته قوى الدعائم رفيع الذرى ، تَصُوع في أبهائه نفحة الإسلام ، وتهش على موائده أريحية العروبة ، وتحقق في جوانبه روح مصر

والشيخ مصطفى يلخص في شمائله أمجاد هذا البيت ، فهو سر وراثته وعطر أرومته وجملة ماضيه . فإذا جلست إليه في ألفة أو كلفة غمرك منه شعاع لطيف يملك نفسك من غير سطوة ، ويبسط شعورك من غير خفة ؛ ثم تحس في تواضعه سمو الكبرياء ، وفي وداعته أنفة العزة ، وفي بساطته جلالة النبل ؛ فلا تستطيع أن ترد هذه الخلال فيه إلى الحد الذي تواضع عليه الناس في تعريف الخلق ؛ إنما تنتهي إلى أن شخصيته الجذابة واحدة الطراز لما تهيأ لها من أثالة المنبت وزكاوة العرق وسعة الثقافة وسلامة الفطرة وجمال القدوة

رأيت الشيخ مصطفى طالباً في الأزهر ، وعرفته أستاذاً في الجامعة ، وزرته عضواً في الوزارة ، فلم أجده في كل حالة من هذه الحالات إلا على الوجه الذي لقي به الدنيا ، لم يتغير فيه لسان ولا عين ولا تخيلة . ومزية المعدن الكريم ثبات وجهه على لونه ، وبقاء جوهره على نقائه . ولو أن وجوه الناس تثبت على تقلب الحظوظ لما تنكر صديق لصداقة ولا تجهّم وطني لوطن

لله ما كان أنبل وأجل حين دخلت على الشيخ الوزير مكتبه في الوزارة من غير وقفة على حاجب الباب أو جلسة لدى مدير المكتب ! لقد كان في زيه الوطني الجميل ملء العين والنفس والشعور ، يوزع التحيات على عادته ببسماته الرقيقة ونظراته الوديدة وكلماته الحلوة ، فيجعلك تشعر أن الوزير منك ، وأن الوزارة لك ، وأن الأمر بينك وبين أولياء الحكم كما يكون بين الأب وأعضاء الأسرة كان سرورى وأنا أهني صاحب المعالي وزير الأوقاف أقرب إلى أن يكون سروراً بنفسى ؛ فقد وقع في وهمى أننى أساهم في هذه الوزارة بنصيب مبهم شائع لا أجهله ولا أدريه . ولعل مبعث هذا الوهم أن الوزير أزهرى وصديق وأديب ، وصلته بالناس من جهة الثقافة أو الصداقة أو الأدب يجعلها وفاؤه الطبيعي أدنى إلى النسب الشابك والقراة الواشجة

أما بعد فإن استيزار أميرين من أمراء الأدب هو فتح مبين لدولة القلم . فإن النهضة العلمية والأدبية في تاريخ الفكر لم تزدهر إلا في حمى ملك أو كف وزير . والوزراء الأدباء أمثال ابن العميد والصاحب بن عباد والمهلي وابن زيدون وابن الخطيب لا يزالون عناوين فاصلة في تاريخ الأدب . فإذا ناط رجال الثقافة والصحافة آمالهم بوزير الخير مصطفى ، وبوزير الجمال هيكمل . فإن دلالة الحال تعلن أن موادة هذه الفرصة في صباح عهد الفاروق حين صدقت النيات على الاستقرار ، وتهيات النفوس للعمل ، إيذان من الله بتيسير السبل لأمة العلم أن تنهض ولدولة الأدب أن تقوم

[٢ مايو سنة ١٩٣٨]

مصطفى صادق الرافعي

— ١ —



في مثل هذا اليوم من العام المنصرم
سكن لسان وجف قلم وانقطع وحي .
وقد البيان الملهم والفكر المنير خسارة
إنسانية لا يسهل العوض منها ولا العزاء
عنها . والرافعي وأمثاله من عباقرة العلم
والأدب والفن والمال ، ثروة من ثروات
الأم لا تُكتسب بالحيلة ولا بالإرث ،
وإنما هي نفثات من روح الله تنسم
على الأنفس المختارة فتجعل طبيعتها

بين النور والطين ومنزلتها بين السماء والأرض ، ورسالتها رفع الناس إلى الملائكة
بالمجد ، وتنزيل الملائكة على الناس بالخير . فإذا جاء أجلهم عاد ذلك النور الإلهي
إلى مصدره وهو أشد ما يكون نزوعاً إليه وعلوقاً به ؛ ثم لا ينبثق مرة أخرى
إلا حين يأذن الله لخليقته أن تهتدى ولأرضه أن تصلح !

لذلك كان أسى الأمم الذاكرة الشاعرة على نوابغها أسى خالداً يستمر
في ذاكراتها ، ويتجدد في ذكرياتها ، ثم يتردد على عواطفها كلما صبت إلى أمام
فلم تجد الهداة ، وهفت إلى فوق فلم تجد الأجندحة .

على أن النافع في أم الشرق يعيش وكأنه لم يولد ، ثم يموت وكأنه لم يعيش .
ذلك لأن الحياة فيها لا تزال نوعاً من السكر الغليظ يذهل الناس عن الوجود
أكثر العمر ، فإذا أفاقوا — وقليلاً ما يفيقون — عربد بعضهم على بعض !
كذلك عاش الرافعي ومات ! وكذلك يعيش أشباهه ويموتون ! وما حيلة
الزهرة الفواحة إذا أُنبتها القدر القاهر في قفار الأرض بين سَفَى الرمال ولفح السامم ؟

رحم الله الرافعي ، لقد كان في الكتابة طريقةً وحده ! وحسب الكاتب
مزية ألا يكون لأسلوبه ضريع في الأدب كله . فإذا قيل لك إن الرافعي قديم
الأسلوب في التفكير والتعبير ، فاحمل ذلك على الحسد الذي لا حيلة فيه ،
أو على الجهل الذي لا حكم معه . وتستطيع أن تتحدى من تشاء أن يدلك
على كاتب يترسم الرافعي مواقع قلمه أو قدمه . إنما هي شنشنة من ضعاف الملكة
وقاصري الأداة ، يرمون من يجيد لغته بالتخلف ، ومن يتعهد كلامه بالتكلف ،
ومن يؤثر أدبه وتاريخه بالمحافظة .

أسلوب الرافعي يمتاز بالسلامة والسلاسة والإيجاز والعمق . وهذه المزايا نتائج
حتمية لا كتمال عدته وغزارة مادته وصفاء ذوقه وذكاء فهمه . وأشد ما يروعك
منه قوة الفن وحركة الذهن . فأما قوة الفن فهي الأستاذية التي تخلق المادة ،
وتصنع القلب ، وتضع اللفظ ، وتحدد الرسوم ، وتوضح الفروق ، وتتصرف
بمفردات اللغة تصرف المصور البارِع بألوان الطيف ، وتخيّل إليك أن الصناعة
طبع والمعاناة سليقة . وأما حركة الذهن فهي حركة الغواص الدائب لا يقف عند
السطح ، ولا يستقر على القاع ، وإنما يضرب بيديه القويتين في أغوار البحر ،

وقد انقطع عن شواغل الناس بالعين والأذن . على أنها حركة الروية لا حركة العبرية ؛ فعانيه تقطر ولا تفيض ، ولكنها على طول الرشح واعتصار القريحة تصبح منها طامى الجوانب صافى المورد .

كان يحمل الفكرة فى ذهنه أياماً يعاودها فى خلالها الساعة بعد الساعة بالتقليب والتنقيب والملاحظة والتأمل ، حتى تتشعب فى خياله وتتكاثر فى خاطره ؛ ويكون هو لكثرة النظر والإجالة قد سما فى فهمها على الذكاء المألوف . فإذا أراد أن يعطيها الصورة ويكسوها اللفظ ، جلاها على الوضع المائل فى ذهنه ، وأداها بالإيجاز الغالب على فنه ؛ فتأتى فى بعض المواضع غامضة ملتوية وهو يحسبها واضحة فى نفسك وضوحها فى نفسه . وذلك عيب المروّين من صاغة الكلام وراضة الحكمة ، كابن المقفع والمتنبى ، وبسكال وبول فاليرى . ومنشأ ذلك العيب فيهم أنهم يطيلون النظر ويدعمون الفكر ويعمقون البحث حتى تنقطع الصلة بين عقولهم وعقل القارىء ، وتتسع المسافة بين معانيهم وألفاظ اللغة ، فيكتبون وأفهامهم سابقة سبوق الروح ، وأقلامهم متخلفة تخلف الجسم . ويزيد فى هذا الغموض أن سعة العقل فى النوابع تستلزم ضيق اللسان ؛ فلا ترى الفضول والثرثرة والرغوة والغثاء إلا حيث يضلّ ذهنه ويقصر النظر وتترز المادة . والرافعى كان يقتصد فى أسلوبه ، لأنه ينفق عليه من جهده ومن ذوقه ومن فنه ما يجعله أشبه بومضات الروح ونبضات القلب ونفحات العافية . فهو يفصل اللفظ على قدر المعنى تفصيل (المودة) الفاشية اليوم : يقصّر ولا يطول ، ويضيق ولا يتسع ؛ ولكنه على ضيقه وقصره يظهر الجسم الجميل على أتم ما يكون حسناً وأناقة . وهو بعد ذلك أسلوب جيد التقسيم سليم المنطق ، إلا أنه بعيد الإشارة ،

يستمر جماله على القارىء العجلان والفهم البطيء . فإذا روى فيه الناقد المتذوق انكشف له فى كل كلمة سر ، وطالعه فى كل فقرة آية . ولعل النفس الشاعرة لا تجد فيه من أنوثة العاطفة ما تجده النفس المنطقية من فحولة الفكرة . ومرجع ذلك فى الرافعى غلبة الفكر على الشعور ، وسطوة الفن على الطبيعة ...

— ٢ —

كان الرافعى رحمه الله حجة فى علوم اللسان ، ثقة فى فنون الأدب ، عليماً بأسرار اللغة ، بصيراً بمواقع اللفظ ، خبيراً بمواضع النقد ، محيطاً بمذاهب الكلام . وقبلما تنهياً هذه الصفات لغير المطبوعين من الأدباء الذين تعاطوا مهنة التعليم فاستنزفوا أيامهم فى درس القواعد وحفظ الشواهد وفقه النصوص بحكم الصنعة . فكنت إذا ذاكرته فى شيء من دقائق النحو وخواص التركيب وفروق اللغات وجدته على ظهر لسانه كأنما انصرف من مراجعته لوقته . ودراسة الكاتب أو الشاعر للغة وفنه هى فى رأيه ورأى الحق شرط لنبوغه ؛ فلا يكون النبوغ والأستاذية بدونه ، ولا تجزى الطبعية ولا المحاكاة عنه . وكان — شهد الله — فيما بينه وبين أخصائه يرفع أدب العقاد لوضوح هذه المزية فى كل ضرب من ضروبه

ولقد بلغ علم الرافعى بالعربية وآدابها حد الاجتهاد والرأى ، فكان يقف فى التعليل والاستنباط من ثقاتها ورواتها موقف الند ؛ وقد يتعظم أحياناً فيقف منهم موقف الأستاذ . فهو فى أدبه مطلق الحرية مستقل الإرادة فى حدود المأثور من بيان العرب ؛ ولكنه فى فلسفته مقيد النظر مسير الفكر لنزوله فى الرأى على حكم الدين

على أنك لا تعدو الصواب إذا قلت إن حرية أدبه أشبه بعبودية فكره ،
لأن مصدرهما وموردتهما واحد هو القرآن . والقرآن من جهة الأدب غاية الجمال ،
ومن جهة الفضيلة غاية الخير ، ومن جهة الفلسفة غاية الحق . لذلك كان قوله
في القديم والجديد قول العربى الذى يؤمن أن لغته التى تكلم بها الله نامية بذاتها
لأنها حية ، ومتطورة بطبعها لأنها قوية . وكان قوله فى المرأة والرجل قول المسلم
الذى يعتقد أن دين الله حق لا يُبطله قدم ، وشرعه قانون لا يعطله شهوة .
وما دام العرب أحياء فأدبهم متجدد ، وما دام القرآن خالداً فدينه قائم
على هذين القطبين كانت تدور فلسفة الرافعى الأدبية والاجتماعية . ولعلى
تساهلت إذ قلت فلسفة الرافعى ، فليس للرافعى فلسفة ، وإنما هى فلسفة القرآن
قام منها مقام ابن رشد من أرسطو : يقرر ويحرر ويدافع من غير أن يكون لمنطقه
حكم ولا رأيه اعتراض

كان الرافعى فى بعض حالاته يفتن فى الصورة التى يرسمها افتنان المصور
الخيالى : يضيف إليها من المشاهد ما لا تقره الحقيقة ، ويضع فيها من الألوان
ما لا تعرفه الطبيعة . وقصده القاصد من ذلك أن يريك قدرة ذوقه على الملاءمة ،
وقوة ذهنه على التوليد ؛ ويعطيك للشئ أول للشخص صورة إذا لم تكن كانت
فهى التى ينبغى أن تكون . فهو إذا كتب فى موضوع ما سمح لعاطفته أن تجر
ولهواه أن يدفع ولفنه أن يزخرف ، ثم يستخدم براعته فى التدليل على صحة
العاطفة ونزاهة الهوى وصدق الأداء ، فيكون من امتزاج الخيال بالواقع ، واشتباه
الغلو بالقصد ، والتباس البهرج بالصحيح ، صورة غامضة الدلالة خافتة الروح ،

ولكنها بديعة الإطار رائعة اللون منمنمة الخطوط ؛ وذلك أكثر ما تراه
يكون في حديث القمر ، والسحاب الأحمر ، والمساكين ، وأوراق الورد . أما إذا
اتصل فنه بشعوره ، وافتنانه بطبعه ، ورأيه باعتقاده ، فإنك ترى الإشراق
في اللفظ ، والجلال في المعنى ، والسمو في الروح ، والإعجاز في الصنعة . وهناك
تجد الرافعي في جلوة الإلهام التي تشدهه هو نفسه فيقول لى ولن يأنس إليه :
إن حالاً تشبه حالات الوحي تقوم به في بعض ساعات الليل حين يكتب في إعجاز
القرآن أو في الدفاع عن أدبه ، فلا يكون فيما ينشئ إلا وسيطاً ينقل عن قوة وراء
الغيب . وأكثر ما وقع له ذلك في كتابيه (تحت راية القرآن) و (وحي القلم) .
وكان من شذوذ النبوغ في الرافعي اعتداده بنفسه إلى حد الصلف ، واعتقاده
بالغيبيات إلى حد السذاجة . وله في ذلك حوادث وأحاديث ربما عرض لها
صديقنا العريان في ترجمته له

والرافعي بعد ذلك كله كاتب من الطراز الأول قلما يوجد مثله هذا العصر
المجنون الذي يتبجح بالسرعة ويأخذ حظه الضروري من المعرفة مختصراً في رسالة
أو معتصراً في مقالة

هذه كلمة مجملة كتبناها عفواً لخطر وفيض الذاكرة في ناحية من نواحي
أدب الرافعي ، اعتمدنا فيها على خلاطه وحديثه وقراءته ؛ أما دراسة الشرح
والتفصيل ، والنقد والتثليل ، والدعوى والدليل ، فتلك لها طريقة غير هذه
الطريقة ، ومناسبة غير هذه المناسبة .

لِيَا إِلَى الْحَصَادِ

يَا حَبَّةَ الْأَمْحِ زَيْدِي وَاْمَلِي الْخَازِنَ عَلَيْنَا
إِنْ تِ دَهَبٌ مَلَوْ إِيْدِي لَوْلَاكَ مَرُّحُنَا وَجِينَا
يَا شَمْعَةَ الْعَزِ إِيْدِي وَاجِلِي بَنُورِكَ عَيْنِنَا
دَاعِيْدُ حَبَائِي وَعِيْدِي يَا رَبِّ عُوْدُهُ عَلَيْنَا

بهذه الأغنية الرقيقة كان صوت أمينة الوترى الرخيم يمجج لذيذاً في مسمع الليل للمقمر الساجي ؛ وكان أترابها يُرَجِّعْنَ عليها اللحن ومناجلهن في أيديهن تجز سيقان القمح فتسمع لها في خلال النغم خشخشة آلة موسيقية غريبة !

كان ذلك في ليلة بين أواخر مايو وأوائل يونية ، والزرع قد استحصد وتهالك بعضه على بعض من الذبول واليبس فلم يعد يقوى على حمل سُنبُلِهِ .

وكان الحاصدون والحاصدات قد خرجوا عِشَاءً إلى الحقول الذهبية ، في أيديهم المناجل ، وعلى أكتافهم الأردية ، وهم يوقِّعون على طرق الربيع العشبية أهاليج الجذل والأمل . فباتت القرية هامدة كأنما ضرب على آذانها الموت فلا تسمع سامراً على مصطبة ولا نابعجاً على تل . فأخذني منها ما يأخذ السائر الوحْدَ من الغابة اللفة أو المقبرة الفسيحة . فخرجت أنشد الفرجة والأنس في حقل من حقولنا القريبة ، وكنت أعلم أن في حُصَّاده جوقة من الأوانس الحسان الوجه والصوت . فلما غمرني ليل الحقول ، وملكني سلطان الطبيعة ، أحسست في نفسي دنيا

جديدة لم أحسها من قبل في نهار الناس ولا في ليل القرية ! فقد كان القمر حينئذ في الفتح يرسل أضواءه اللينة الرخية هادئة كإشعاع الحلم ، شاحبة كإسفار الأمل ، فيلونّ الغيطان والغدران والطرق بلون الفضة السكاكية ؛ ونسيم آذار الندى العبهريّ ينفخ بطراءة الفردوس الإنسان والحيوان والشجر ، فينتعش الهامد ويتنفس المكروب وتتندى الحصائد ، فتسمع الجنادب تصر في هشيم البرسيم ، والضفادع تنق على حفاقي الترع ، والسواقي تنوح على رؤوس الزروع ، والحاصدات يغنين في مزارع القمح ، وطيور المساء تبغم على أعلى الدوح ، وكلاب الحراسة تنبح على أطراف البيادر ، فيكون من كل أولئك إيقاع موسيقى عجيب يبعث الروعة في النفس ، ويُلقِي الشعر على الخاطر !

على أن هذه الأصوات المتجاوبة على نشوزها لم تكن هي مبعث السحر الذي غلب على مشاعري ؛ إنما كان مبعثه ذلك السجوّ العميق السحيق الذي ضرب على حياة الليل فهيمن على كل حس وسيطر على كل حركة ، فما نسمع الأصدااء في جوف هذا السكون إلا كما نرى الأنداء في رمال المفازة

كنت أمشي بين هذه الظواهر الليلية وثيد الخطو رزين الخيال مرهف الحساسة ، لا أجد في طبعي ما كنت أجد في النهار من مرح الصبي وخفة الحداثة فكأنما يضع الليل من ثقله على الجسد والفكر والشعور فيتغلب على المرء الهدوء والبطء . ذلك إلى أن الجو الاجتماعي في القرى ليالى الحصاد يختلف عنه فيها أيام الجنى . ففي حصاد القمح يأخذ القرويين حالاً من التدين الذاكر الشاكر ، لأنهم يتقبلون فضل الله في هذه الحبة المقدسة ليحفظوا بها البدن ، ويمسكوا عليها الروح ؛ فهي عندهم مرادفة للحياة ، يسمون خبزها (العيش) و (النعمة) ، ويتحرون في كسبها الحل والحرمة ، ويذكرونها فيذكرون الرزق والصدقة والزكاة والبركة

أما في جنى القطن فيدركهم مس من الطمع والغرور فيحبون الدنيا ويعشقون
المال ويرغبون اللهو ويدكرونه فيذكرون الربا والثراء والرواج والزواج والهـم
كنت لدى ساقية الغيط الراقدة في كِلَّةٍ من أغصان الصفصاف المرسلة
حين ارتفع صوت أمينة الحنون بالأغنية التي ذكرت بعضها في مطلع هذا الفصل .
وكان الحصدة من رجال ونساء يزحفون إلى القمح بمنجلهم صفاً فيتركونه وراءهم
أضغاثاً من الحصيد منظومة الأسافل والسنابل ، ثم يعودون الحين بعد الحين
فيركونها حُزماً غليظة ويدعونها تنتظر النقل على الجمال إلى الجرن

وأجمل ما في ليالى الحصاد منظر الحقول المنبسطة على مدى الطرف وقد
ضربت في صفرتها أضواء القمر فايضت ابيضاض المصريات الحسان ؛ ومجالسُ
الشباب والشواب على حصائد القمح الوثيرة يديرون بينهم سقاط الحديث الفكه ،
ويتبادلون في احتشام كنايات الغزل الحي ؛ وغناء الفتيات وزمرُ الفتية يتواردان
على سمعك من قريب ومن بعيد ، فيفعلان في نفسك ما لا يفعله الموسيقار الحاذق ؛
ثم نوم هؤلاء وهؤلاء في الهزيع الأخير على فُرُش من الحصيد تكلاًهم عين
العفاف ، وتمثل في أحلامهم صور الفضيلة . فإذا ما تنفس الصبح على وجوههم
المطلولة هبوا إلى القناة يتوضأون ويصلون ، ثم يعودون إلى مناجلهم على أنشط
ما يكون الفتى ، وأرضى ما يكون المؤمن

أبدأ لا أنسى أنى قضيت معهم تلك الليلة ، ثم نمت هذه النومة ، وقت هذه
القومة ، وأسفر على ذلك الصباح الضاحك المنصور فأبصرت مسالك القرية تسيل
بحاملات الفطور للحصاد ، وسائقات الماشية للمرعى ، ولاقطات السنبل من بنات
الفقر ؛ فكان لى من جمال تلك العشية وضحاها ، لذة لا أزال أنعم بذكرها وأتمناها !

بين العرب والفرس

من دلائل التوفيق وبشائر النجاح في توثيق ما أوهن الدهر من أواصر الأخوة بين دول الشرق الإسلامي ، إصهارُ العرش الإيراني العريق إلى العرش المصري المؤنث . فإن الغفوة الثقيلة الطويلة التي غفاها الشرق في ظلال الضراعة والجهالة والخنول ، قطعت الأسباب بين حاضره وماضيه ، ومزقت الأوصال بين قاصيه ودانيه ، فأصبح فلولاً لجيش باد ، وطولولاً لجد تقوض . فلما أذن الله لليل الشرق أن يُصبح ، أيقظ العرب والترك والفرس ، وهم الأمم الثلاث اللاتي سطعت بهن شمسهن ، وازدهرن بمجدهن أمسهن ، وانتشر بفضلهن نوره ، فانتعش ما ذوى من رجائه ، وتجدد ما خوى من بنائه، وهبت العبقريات السامية والآرية والطورانية تفتتح مرة أخرى في ربيع الإسلام الدائم . وحضارة الإسلام ، وإن شئت فقل حضارة الدنيا ، كانت نتاجاً لازدواج الوحي العربي بالخيال الفارسي . نشأ منه هذا الأدب الإنساني الذي حلل نوازع النفس ، وهذا الفن العالمي الذي صور مدارك الحس ، وهذا التصوف الفلسفي الذي ترجم غوامض الروح ، وذلك النظام الاجتماعي الذي جعل الحياة فناً وتمدين الناس طريقة

نعم كان لا بد للفرس من العرب ليبصروا نور الحق، ويدركوا سمو النفس ، ويعرفوا كلمة الله ؛ وكان لا بد للعرب من الفرس ليعرفوا الدنيا ويذوقوا النعيم ويتعلموا الملك . فلما جمع الله الشعبين العظيمين بالإسلام وربط بينهما بالضرورة ،

نزت في رأسيهما عصبية الدم النبيل وعزة النفس الحرة ، فأدلَّ العرب بالدين والفتح والعروبة ، وتبجح الفرس بالسلطان التليد والتاريخ المجيد والحضارة الرفيعة ، فكان بين الأمتين ازورار طبيعي إذا اشتد كان عداوة وإذا خف كان مصانعة

والشخصية العربية الغالبة التي استطاعت أن تذيب في جنبها كل جنس ، وتبيد بلغتها كل لغة ، لم تستطع أن تعرب الفرس ولا أن تقهر الفارسية . فبقى استقلال إيران في القومية والطبيعة واللغة ، وزال أو كاد في السياسة والعقلية والأدب . ثم تتركت الخلافة فتترك هوى العرب ؛ وأرث العثمانيون النار الخابية بين الشيعين بالخلاف المذهبي ، فانفرجت الحال وتنكر الأمر حتى قامت القيامة الصغرى في الحرب العالمية الكبرى ، ووقف الشرق العزيز حيال الغرب المقتدر يحاوله في وجوده ويصاوله على استقلاله ، فتخفف الترك من تكاليف الماضي المشترك ، وفروا بأنفسهم آوين إلى الأجواء الغريبة ، تاركين للعرب والفرس إنهاض الشرق الإسلامي اليوم كما أنهضوه من دونهم بالأمس ، فلم يكن للشقيقتين العريقتين بد من التكاثر على حمل هذه الأمانة العظيمة

إن الروابط الدينية والثقافية والتاريخية والاجتماعية التي تربط الفرس بالعرب لا يقوي على فصلهما الدهر ، لأنها جزء من وجودهما العقلى والروحى لا سلطان لنعرة الجنس عليه ، ولا حيلة لأهواء السياسة فيه . وسيكون هم القيادة في الشيعين إحكام هذه الروابط بالتآلف والتحالف والمودة ، لأن وحدة الغرب تقتضى ضم الشتات بإزائها ، ونهضة الشرق تتطلب التكاثر على حمل أعبائها

إن مصاهرة إيران لمصر حادث جليل المغزى سيكون له في سياسة الشرق الأدنى عظيم الأثر . وبحسبك أن تعلم أن طهران كادت تهج سبيل أنقرة في مجافاة الإسلام ومجانبة العرب ، فاتصالها بالقاهرة المحافظة على عقيدتها وشرقيتها وتقاليدها يفصلها عن القافلة الشاردة ويمسكها على سَنَنِها الموروث ، فتتطور ولا تتغير ، وتتقدم ولا تزيع . فإذا نظرتَ إلى ما وراء ذلك رأيت هذه العلاقة الملكية الكريمة ستكون سفير وئام وسلام بين دولتين تجاورتا خمسة عشر قرناً ولا تزالان تطويان الصدور على حزازات الماضي ، أعنى إيران والعراق . وربما كانت فاتحة الخير أن ينعقد في حاضرة النيل مجلس إسلامي عام ينتظم أقطاب الدين والعلم في أقطار الإسلام ليديروا الرأي فيه على ما أصاب المسلمين من صدعات الشيع وضلالات البدع واختلافات المذاهب . ومن اليقين الجازم أن الدين — وهو دستور الأمة الإسلامية — إذا خلص من شوائب الجهل والغرض ضمن لأهله وحدة الرأي ووحدة الهوى ووحدة الغاية

ذلك إلهام الله في سياسة الفاروق المعظم . فهو يدبر الأمر ويمضيه على توجيه من فطرته ودليل من قلبه . وكأنما اصطفاه الله اصطفاً لهذه الساعة المشهودة من حياة الشرق ، فزوده بالقول الثابت والرأي الثاقب والسداد المرتجل والتوفيق الملهم . فهو يولى وجهه شطر النور الأزلى الأبدى الذى ينبثق في مثل هذه الفترات المريحة فيبديد ظلام الخيرة ويجمع شتات الوحدة ، ويسدد الخطى الضالة في الطريق الأمانة إن دلائل الحال تعلن أن عهد الفاروق الموموق سيكون عهد الوحدة العربية والجامعة الإسلامية والعصبة الشرقية ؛ فهل آن لنصف الكرة الأول أن يهب من سباته ، ويبرهن بيقظته على استمرار حياته ؟

مرآة الذكاء الجميلة



عرفت في باريس عام ١٩٢٥
الآنسة (فرناند) ابنة أحد القضاة
في محكمة (ديجون). كانت طالبة
بالسنة الأخيرة من كلية الحقوق ،
وكان لها بالمستشرق المرحوم
(ب . كازانوفا) أستاذ الأدب
العربي في الكوليج دي فرانس
صلة قرابة أو صداقة ، فعرفني إليها
لتكون لي في مدينة النور ما كانت
(بياتريكس) لدانتى في جنة الفردوس

وكانت هذه الفتاة آية في الجمال والذكاء والظرف . وكان أعجب ما فيها أنها
تؤلف في نفسها بين المتناقضات فلا يكاد النظر العادي يلحظ ما بينها من التناقض !
فهي منطقية الفكر حرة العقيدة ؛ وهي خيالية الذهن شاعرية العواطف ؛ تؤمن
بنيته كما تؤمن بالمسيح ، وتقدس جمهورية الثورة كما تقدس ملكية البربون ،
وتشيد بفتح العرب للأندلس كما تشيد بغزو الصليبيين لفلسطين ، وتعجب بروحية
الشرق كما تعجب بمادية الغرب ، وتحديثك في ذلك كله حديث المطلع المقتنع
الفاهم ؛ فإذا أخذت عليها شذوذاً في قياس القضية ، أو نشوزاً في سياق الحديث ،

عمدت إلى المزاج البارع أو التهمك اللاذع أو الأسلوب الخطابي فتميت على لسانك البيان ، وتطير من عقلك الدليل .

أدهشني منها إلمامها بأدب العرب وحكمة الإسلام وفلسفة الشرق . فلما عرفت اتصال سببها بالأستاذ كازانوف وهو الذي جعل فنه أساطير الشرق وأدب القرآن عزوت إليه هذا الميل وذلك العلم . وعرفت منها بعدئذ أنها كانت تستمع إلى محاضراته في التفسير ومسامراته في الآداب ، وأنه أهدى إليها (حديقة الزهور) لصاحب المعالي الأستاذ واصف غالى ، وأعارها ترجمة ألف ليلة وليلة لماردروس ، فكان أكثر حديثها يدور على بغداد ، دورها التي تفيض بالنعيم والسحروتنفح بالبخور والعطر ، وتمرح بالقيان والغزل ؛ وعلى دمشق باب الجزيرة إلى الفردوس ، وطريق البادية إلى الحضارة ، وملتقى القبائل والقوافل في الخانات المملوءة بالسמاسة والتجار ، والأسواق المحفوفة بالمغامرات والأسرار ، والغوطة الفياضة بالجمال والحب ؛ ثم على مصر التي خلقت المدنية ، وأنشأت الفن ، وشرعت الدين ، وولدت موسى ، وآوت عيسى ، وتوجت الملوك بالشمس ، وكفنتهم بالذهب ، ودفنتهم في الخلود . ثم كانت تتحرق شوقاً إلى النيل وأيامه المشمسة التي يضحك فيها القطن ، وليلاليه المقمرة التي يحلم بها النخيل . فكنت أقرب شوقها إلى مصر بالدعاء إلى الله أن يهيئ لهذا الحيا الفاتن أن يتفتح نضيراً في جوها الإضحيان الطليق

أدينا الامتحان معاً ؛ ثم أرسلت نفسى الحشيمة على هواها ومناها ، فزرنا معابد الطبيعة في قنسين وسان كلو وفنتينبلو ، وحججنا محاريب الفن في اللوفر

والأوبرا وفرساي . وكنت يومئذ أترجم « رفائيل » فكان ما أقرأ وما أكتب وما أسمع وما أرى نَسَقًا عجيبًا من الجمال والجلال والفن والشعر والحب والتأمل والاستغراق ، لا يدع للخيال الوثاب مَسْبَحًا ولا للنفس الطامحة رغبة . ثم أحمّ الفراق فرجعت إلى مصر ولحقت هي بأهلها في (رويان)

وكان بيني وبينها رسائل مسكية المداد وردية الورق ، تؤلف كتابًا من شعر القلب والعقل تناول فيما تناول الفروق الناشئة بين الشرق والغرب من اختلاف وجهة نظريهما إلى الحياة ، إذ الحياة في نظر الشرق دار ممر ، وفي نظر الغربي دار إقامة

وفي فبراير من عام ١٩٢٨ زارت مصر هي وزوجها ، وهو ضابط فرنسي كان في طريقه إلى عمله في جيش سورية ؛ فكنت لهما ترجمانًا ودليلاً مدى أسبوعين إلى مخلفات الفراعين وطلول الفسطاط وقطائع ابن طولون وقاهرة المعز . وسنحت الفرصة المرجوة فاجتمع القلبان والذوقان على فتون الشرق الحبيب . ورأيت من (مدام روجيه) غرورًا قويًا عن الشوارع الأوربية في مصر الحديثة ، وولوعًا شديدًا بالتجوال في الغورية والنحاسين والجمالية وخان الخليلي ، وشوقًا ملحًا إلى استطلاع المجهول واستكناه الغامض واستخبار الناس واستحضار الماضي . وكانت كلما أوغلت في هذه الأحياء ، واستبطنت دخائل هذه الأشياء ، شعرت بالحاجة إلى زيادة الإيغال وإطالة النظر وإدامة التقصى كأنما كانت تبحث عن شيء تعتقد وجوده ولا تراه . ثم قالت ذات مساء وهي على شرفة القلعة تشاهد مغرب الشمس من وراء الأهرام :

— رباہ !! إن من وراء هذه الآثار التي أجهدها الدهر ، وهذه المآثر التي

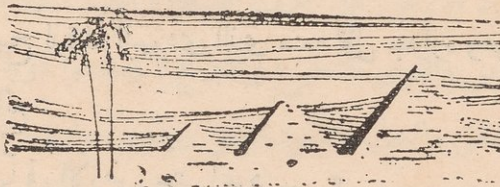
شوهها الجهل ، وهؤلاء الناس الذين مسخهم الفقر ، لروحاً خفية تبعث من خلال هذه الأغشية الكثيفة هذا الشعاع اللطيف الذى يشرق فى هذه الوجوه الشقية المحرومة فيبدد عنها كُرب العيش

هذه هى روح الشرق الإلهية المجهولة . فمن زعم أنه يحكم عليها من وراء هذه الأخلاق المنحلة والنظم المعتلة والمشاهد الزرية ، كان كالذى لم ير الشمس ثم يحكم عليها من وراء الغمام والقتام^(١) والبعد ! اجلوا عن هذا الروح العظيم هذه الغشاوة ، واكشفوا عن هذا الجوهر الكريم هذا الرّغام^(٢) ، ثم اجعلوه إلى جانب الغرب الخلاق بالعلم ، البراق بالصنعة ، واحكموا بينهما ، فلعلكم بذلك تكونون أدنى إلى السداد

(١) القتام : الغبار الأسود .

(٢) الرغام : التراب .

[١٨ يولية سنة ١٩٣٨]



يَا لَهِ لِفِلَسْطِينِ !

يا لله لفلسطين مشرق الهدى والسلام ، ومهبط الوحي والإلهام ، ومجتلَى عين موسى ، ومسرح قلب عيسى ، ومسرى روح محمد ، وقدس الأديان الثلاثة ، (وقبله الإسلام الأولى) ، ومهد الأنبياء ، ومقبرة الرسل ، ومعبد الشرق والغرب ، ومجرى العسل واللبن !

يا لله لفلسطين ! ماذا فعلت بها الأحداث وجرت عليها المطامع ؟ أبعد أن رفع الإسلام عنها آصار العبودية وأوزار اليهودية تعود بها المقادير السود إلى استعمار (طيطوس) القاهر ، واستثمار (يهوذا) الجشع ، فيعود إليها الفساد والفوضى والقهر والفقر والموت ؟ !

أبعد أن استخلصها للعروبة (عمرو الداهية) من (أرطبون) ، وسجل استقلالها العالمى (صلاح الدين) على ناصية (جودفروا) ، يستبيح ذمارها طرائد البشرية وفي صدورهم تراثُ الأمم وحزازات القرون ، فينزولونها نزول الوباء ، ويحلونها حلول الفتنة ، ويمتصونها امتصاص العلق ؟ !

لقد قال المسيح لذلك اليهودى الذى منعه ظل جداره وهو مجهود ، وحرمه قرى داره وهو جائع :

« ستظل تأنهاً فى الأرض حتى أعود ... »

فهل عاد المسيح فى ثوب (بلفور) أم كذبت نبوءة « السيد » ؟ إن لعنة الله ودعوة المسيح لا تزالان تحرقان قدمى إسرائيل ، فهو لا يثبت له قدم فى أرض ولا تطمئن له نفس فى وطن . وكان من أثر ضلاله البعيد فى الآفاق أن اكتسب

خلائق النور : فهو يلصُّ ليعيش ، ويخضع ليغلب ، ويستوحش ليأمن ، ويتعصب ليدافع ، حتى انقطعت بينه وبين الناس وشائج النوع ، فأصبح خلقاً آخر لا يآلف ولا يؤلف . فمحاولة إسكانه مع غير أهله وفي غير أرضه تكذيب لكلمة الله وتزوير على قانون الطبيعة !

ليس بصدى اليوم أن أفند هذه السياسة المريضة فحسبها منطق الحوادث وأدلة الواقع ؛ إنما أريد بهذه الكلمة أن أصور فلسطين العربية بين بحر برشها باليهود والحرب ، وقفر يحصبها بالمرض والجذب ، وأخواتها في العروبة (وفي الإسلام) مطمئنات على ضفاف الأنهر النضاحة بالنعيم ، وعلى رياض السهول الفواحة بالنعمة ، ينظرون إليها نظر الغرير الأبله وهي تمشي في النار ، وتخوض في الدم ، وتطلب القوت فلا تجده ، وتنشد الأمن فلا تناله . أريد أن أصور حال هؤلاء الكماة الأباة الذين يغاديهم الفزع ويرأوهم الموت ، وهم يدافعون عن حقهم في الحياة ، وينافحون عن مرقدهم من الأرض ، ويقولون للواغل الثقيل وللحامي الدخيل : إنها موتة لا مناص منها . ولأن تُنثر أشلاؤنا على أديم الوطن ، وتقبر أجسادنا في ثرى الأجداد ، أحب إلينا من أن نعيش عيش اليهود شرداء في كل طريق طرداء في كل بلد !

لقد شن يهود الأرض على عرب فلسطين الحرب في صراحة ووقاحة ، وأعلنوا الجهاد الديني والقومي بالتطوع والتبرع ، وسلحوا ذؤابانهم بالمنيا والمنى ، ودفعوهم في وجه الحق والعدل والشرف ومن ورائهم مصارف اليهود تمدهم بالذهب ومصانع الإنكليز تمدهم بالحديد ؛ فانطلقوا يخربون المدن ويحرقون الحقول ويقطعون السبل ، ويحصرون المؤمنين الآمنين في أجواف الدور وفي شعاف الجبال لا يجدون منصرفاً إلى الزرع ولا سبيلاً إلى القوت ، وقد شغلهم الدفاع المقدس عن الحمى والنفس عن وراءهم من الشيوخ والأطفال والنسوة ، فتركوهم

يتضاغون من الجوع ، و يرتعدون من الخوف ، و يكابدون بُرَحاء الهموم على وطن
يستبيحه الغريب ، و شعب يتخطفه الموت ، و حق يتحيفه الباطل ، و مستقبل يتكفنه
الظلام ، و حال من البؤس تقطع الرجاء و توهي الجلد لولا إيمان المسلم و بسالة العربي
و استماتة المظلوم .

فلسطين العربية كلها اليوم بين منفيٍّ يلوذ بكنف الأعداء ، و ضعيف يتلهى
بالدعاء و البكاء ، و مدافع يقتات بالعشب و يعتصم بالصحراء ؛ و ليس العنفي شفيع
إلا الأمل ، و لا للضعيف عائل إلا الصبر ، و لا للمدافع منجد إلا الإيمان
أما إخوان النسب و إخوان العقيدة فكأنهم لا يملكون لمأساة فلسطين
الدائمة إلا غناء الجمال ، و رثاء الشاعر ، و دعاء العاجز ، و بكاء المرأة

أيها المسلمون ^{العرب} ! إذا ذهبت عصبية الجنس فهل تذهب نخوة الرجولة ؟ و إذا
ضعفت حمية الدين فهل تضعف مروءة الإنسان ؟ إنا لا نقول لكم تطوعوا ،
ولكننا نقول تبرعوا . و ليس في التبرع للجريح بالدواء و للجائع بالغذاء ، نقض
لمعاهدة و لا غدر بصدقة . و أقل ما يجب لل قريب على القريب ، و لجار على الجار ، يد
تواسى في الشدة ، و قلب يخفق في المصيبة . و لسان يحتج في المظامة . فهل يزكو بعر بيتكم
و الجود غريزة في كيانها ، و باسلاميتكم و المواساة ركن من أركانكم ، أن تقفوا من
فلسطين موقف الخلى المتفرج يسمع الأنين فلا يعوج ، و يبصر الدمع فلا يكثر ؟
إن فلسطين تقاتل للحياة لا للمجد ، و تناضل عن القوت لا عن العزة ؛

و خليق بمن يدفع عن نفسه أن يُعان ، و بمن يزود عن رزقه أن يُعذر
إن فلسطين من البلاد العربية بمكان القلب ، و من الأمم الإسلامية بموضع
الإحساس . و سيعلم الغافلون أن محنتها سبيل المسلمين إلى التعاطف ، و صرختها نداء
العرب إلى الوحدة ...
^{المؤمنين}

أُسْبُوحُ مُحْكَمٌ

لم يُعَدِ الناس في هذه الأيام ناساً لهم دين ومدنية وفلسفة ، وإنما عادوا كما بدأهم الله أصحاب غلبة وأثرة وبغى . يتخاطبون بلغة القوة ، ويتجادلون بمنطق الذئب ^(١) ، ويتصاولون بعصبية الجاهلية ، ويسرف عليهم الطغيان فينزلون عن نفوسهم المريدة ليكونوا قطعاناً من البهم تسوقهم عصا واحدة إلى المزرعة أو إلى الجزرة !

ها هو ذا إنسان القرن العشرين ينسى أنه تقدم حتى جاوز حدود الغيب ، وارتقى حتى بلغ أسباب السماء ، وتعلم حتى هتك أسرار الكون ، وتهذب حتى تخلق أخلاق الملائكة ؛ ينسى ذلك ويعود فيقف على الصخرة الصماء التي هبط عليها أبواه من الجنة ، عارى الجسم من زينة المدنية ، فارغ النفس من كرم الدين ، مجرد العاطفة من جمال الأدب ؛ ينظر إلى فريسته الدامية وفوه يتحلب ريقاً ورحمه يقطر دماً ، وأشباهه من حوله بين مطعون يتوجع ، وموهون يتضرع ، وموتور يتوعد !

وقف الحاكم بأمره ^(٢) على منصة هائلة يحملها سبعون مليون رأس ، ونظر بعين النسر إلى فرائسه السمان وهن آمناً في حمى القوانين ، غافلات في ظلال المعاهدات ، فثارت الشهوة في نفسه ، وعصفت القوة في رأسه ، ورأر زئير الأسد المسعور ، وفغر فاه الجهنمي الأهرت ^(٣) عن وسائل المنايا الحمر والسود تضطرب في لعبه ، وتصطخب على أنيابه ، فجرعت البشرية ، وريعت الديمقراطية ، وخنست المدنية ، وخرست عصابة الأمم ، ووقفت حجب تشمبرلن أمام رغبات هتلم موقف

(١) هتلم وهو يخطب في مشكلة السوديت

(٢) تلميح لقصة الذئب مع الحمل .

(٣) الأهرت : الواسع . وتشيكوسلوفاكيا التي انتهت بمؤتمر مونيخ .

المضخة الصغيرة أمام الحريق المهول ، وأصبح العالم كله لأول مرة في تاريخ حياته يهذى في جهاته الأربع هذياناً واحداً من حمى واحدة هي : إعلان الحرب ، وويلات الحرب ، ونتائج الحرب !

إذن لم يبق لعلاج ابن آدم حيلة ! فشرائع الله ومذاهب الحكماء ومراشد العقول ومناهج التربية لا تجد سبيلها إلى قلبه إلا حين تسكن الطبيعة فيه . فإذا ثارت به لسبب من الأسباب كان حاله كحال العواصف والزلازل والفيضانات والبراكين لا تعرف الأرصاد ولا المقاييس ولا الحواجز . وحينئذ تمحى مظاهر الوجود الإنساني فلا ترى الشيطان الجميلة ولا الأودية المرعة ولا المدن الفخمة ولا الحضارة الرائعة ! منذ أسبوع تحركت طبيعة الإنسان الأصيلة في الدولتين الدكتاتوريتين^(١)

على حين غرة ، فوقع العالم كله في بحران من القلق على حضارته وسلامته . وحاول الكتاب بالبلاغة والحكمة ، والساسة بالمنطق والحيلة ، أن يدفعوا وقوع الكارثة أو يؤخروا يوم القيامة فما رجعوا بباطل . ولم يكن ذلك لأن الخلاف بين برلين وبراغ لا يدخل في نفوذ العقل ، وإنما كان لأن الذئب متى صمم على افتراس الحمل بطل كل دليل وأبدعت^(٢) كل حجة . وإذا انفجر البركان ودوت حممه وسال حميمه ، فمن ذا الذي يقول للطبيعة : رويدك يا أمة الله ! إن على السفوح وفوق السهول ملايين من عباد الله لهم حق الحياة وليس عليهم أن يموتوا ليتنفس قلكان من ضيقه في السماء ، ويشتفى من غليله على الأرض ؟

هذه أزهار الشباب الغضة في أوربا الجميلة تنظم عقوداً وأكاليل لتذويها سموم الحرب في غير زياد عن حرمة حق ولا جهاد في سبيل مبدأ . فهل درى هتلى وصاحبه أن كل زهرة من هذه الزهرات بهجة بيت وسعادة أسرة ؟

إن السلام العالمي يحتضر الآن بين قرع النواقيس وصلاة الرهبان ودعاء الآباء وبكاء الأمهات ، والفكر الإنساني ينظر خزيان إلى كبره وهو يتطامن ،

(١) ألمانيا وإيطاليا . (٢) أبدعت الحجة : ضعفت .

وإلى جهده وهو ينهار . فهل استطاع حماة السلم وأساته أن يحفظوه ومن ورائهم كل حى يطلب الحياة ، وكل ضعيف يهرب الموت ، وكل فتاة تنشد الحب ، وكل أم تلعن الحرب ، وكل رافه يريد الطمأنينة ؟ ماذا يصنع الطب إذا انتشر الوباء ، وماذا ينفع الكوخ إذا عصفت الأنواء ، وماذا تغنى المذاهب والقوانين والنظم إذا عارضت هوى الطبيعة ؟

لا جرم أن الحرب سلاح من أسلحة الطبيعة تدرأ به عن نفسها الفضول والخنود والوهن ؛ فهي نوع من التشذيب والتطهير والتنقية تصلح عليه الدنيا ويتجدد به الوجود . ولا ريب أن الديمقراطية نظام من نظم الناس أقاموه على الحرية والمساواة ، ودعموه بالفلسفة والقانون ، ونشروه بالأدب والفن ، وقرنوه بالسلم والأمن ؛ وفي كل أولئك كفكفة لسلطان الطبيعة . فهي لذلك تحارب بضده كما تحارب الحياة بالموت ، والخير بالشر ، والجدة بالبلى ، فتسلط عليه الطغيان المطلق فى بعض الأمم ، فيخضد من شوكرته ويقلل من هيئته حتى يشكك الناس فى أثره وغناه . فالدكتاتورية إذن هى نكسة الداء الحيوانى فى الإنسان المهذب . تعود به إلى حمى الشهوة وكلب الوحشية فلا يفهم غير لغة السباع ، ولا يخرج من النزاع إلا بالصراع فمن زعم أن السلم العالمى تحفظه عصبة الأمم أو تحالف الدول أو تقدم الحضارة فقد أحسن الظن بالإنسان إلى حد الغفلة ، وأساء الفهم للطبيعة إلى حد الجهالة . إنما يحفظ السلم السلاح الإيجابى وهو القوة . وهذا السلم لا يمكن أن يكون إلا نسبياً ووقتياً بالضرورة ؛ فإن القوى إذا تكافأت تساقطت ، وإذا تفاوتت كان هناك الآكل والمأكول والغانم والغارم . وهكذا قضى الله على الحياة أن تكون دولة بين الفساد والكون : تبنى جانباً بهدم جانب ، وتوجد حياً من عدم حى ، وترفع دولة على أنقاض دولة . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض

شِطَانٌ

كان الناس منذ عهد قريب يقرأون في القصص الغربية أفانين من فجور النفس وحقّة الهوى وبغى الفتنة ، فتفيض عيونهم من الدمع رحمة للزوجة التي أعمتها الغواية ، وللزوج الذي أشقته الخيانة ، وللطفل الذي أيتّمه الطلاق ؛ ثم يُسرّى عنهم أنها فجائع إن تكن في الغرب فنحن في الشرق ، وإن تكن من زور الخيال فنحن في حقيقة الواقع . حتى عشنا معيشة أوربا وفتحنا دورنا لكل طارق ، وصدورنا لكل متوّد ، فأصبح ما يجري هنا صورة لما يجري هناك ، وما كان معدوداً من خداع الفن صار جارياً على نظام الطبيعة !

عرفت زوجين شابين تعارفا بالجمال وتآلفا بالحب ، ثم عاشا على اختلاف الدار والجنس معيشة أهل الجنة : صفاء غير مشوب ، وولاء غير مكذوب ، ورخاء في ظلال النعيم والأمن يبسط المشاعر وينشر الأنس ويجمّل الحياة

كان الزوج مثلاً في الإخلاص والرعاية لزوجته ، فلا يفكر إلا فيها ، ولا يسعى إلا لها ، ولا يفهم وجوده إلا مضافاً إليها ومتصلاً بها . وكانت الزوجة آية في الوفاء والطاعة لزوجها ، تقاسمه همّ العمل ، وتساهمه دعة المنزل ، وتبادل له رجاء المستقبل ، وتتقلب معه في الشدة والخفّض غير معتبرمة ولا متبجّمة . وكانا معاً بهجة الأسرة وأنس الأصدقاء ، فلا يخلو بيتهما من سمر ، ولا ليلهما من زيارة ، حتى أصبحا في بيئتهما الخاصة مثلاً مضروباً في الزوجية الموفقة والحياة السعيدة

وكانت حياتهما الأوربية تقضى عليهما أن يكابدا التعرف العارض والخلاط المستمر . والعصمة من شرور الأخلاق في مثل هذه الحال لا تجد لها مناطاً إلا ثقة

الزوج في الزوج ، واطمئنان النفس إلى النفس . وثقة الرجل المثقف في المرأة المثقفة أصبحت في المجتمع الحديث من القضايا المسئلة والأمور المفروضة . فلا ينبغي أن تحوم حولها شبهة ، ولا يقوم عليها جدل

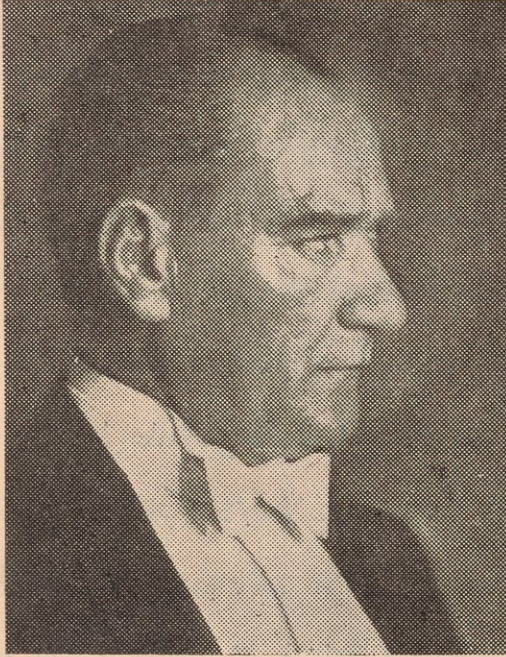
وكان فيمن يختلف إلى بهوها الأنيس الباش فتى من أهل الرواء ، خداع الملامح ، خلاب الأحاديث ، يعد نفسه في الطراز الأول من ثقافة الفكر والخلق . تقلب طويلاً بحكم منصبه في البيئات الدبلوماسية المختلفة ، فخذق الكلام والهندام ، ومهر الغناء والرقص ، وأحكم النظرة التي تنفذ ، والبسمة التي تقول ، واللفتة التي تعجب ، وامتلاً ذهنه من صور الدنيا وحوادث الناس فكان جميل المحاضرة عذب المفاكهة حتى ليستولى على المجلس فلا يترك فيه مسمعاً إلى أحد . وكان مذكراً عاياً يمتزى^(١) على زملائه ، ويتبجح بالخطوة عند رؤوسائه ، ويلقى في روع السامع أن له المكانة المرفوعة والكلمة المسموعة والغد المضمون . فاستطاع بكل أولئك أن يخدع الزوجين بمظهره عن جوهره ، فكبر في نفس السيد ، وحلا في عين السيدة ودخل هذا الفتى جنة الزوجين دخول إبليس فرك فيها السموم وسقى عليها الكدر ! فلا الزهر نقاح باسم ، ولا النسيم رخى أرج ، ولا الجو بهيج طلق ، ولا العش الصادح في أفياء الشجر ناعم آهل ! وسوس الشيطان لحواء قال لها : إن السعادة في بيت غير هذا البيت ، والثروة عند رجل غير هذا الرجل ، والجاه في منصب غير هذا المنصب ! وهذه المزايا التي لك على الأتراب في الجسم والفكر والطبع لم يملك بها الله لتجسبها في هذا القفص الشعري الذي تهدده الأحلام على نغمات الحب والأمل . ليست الحياة كلها شعراً يا حواء ! وإن بجانب النفس الشاعرة نفوساً أخرى هواها في المال واللهو والسلطان والعظمة . ومن زعم أن نعيم الدنيا في الغزل وزينتها في الرياض وبهجتها في المنى ، فقد أنكر المعروف

(١) المذاع : الكذاب ، ومن لا يحفظ أحداً بظهر الغيب . ويتمزى : يظهر المزية .

وتجاهل الواقع . وكان الشيطان المَغْوِي حَدَثَ نساء فعرف كيف يندس بالخدِعة إلى الزوجة الضعيفة ، فأصغت إلى نزعاته بأذنها ثم بقلبها . ثم أصبحت فإذا زوجها مسؤوم وبيتها موحش وعيشها تافه . وأحست برباط الزوجية يشتد على حناياها اشتداد الوثاق على ضلوع الأسير . لم تعد الجنة في عينها هي الجنة ، ولا آدم في قلبها هو آدم ! وأوهما الخيال أو الخبال أن النعيم القيم هو في أكناف إبليس على متون السحب وربى الجبال وشطآن الأبحر . ولكن عشر سنين قضتها مع الزوج الوفي في نشوة متصلة من الحب المواسي لا يمكن أن تخفت أصدائها العذبة في لحظة . فكانت كلما تخلصت من فعل الغواية صارت زوجها بأنها تحب هذا الفتى حباً غطى على بصرها وبصيرتها فهي لا ترى ولا تفهم . وسألته يوماً أن يحتال لبرئها من هذا الخبل ، فاتفقا على أن ترحل إلى أوربا تنشد في أجوائها المختلفة السكينة والسلو ، حتى إذا أقبل الصيف وتعتل العمل لحق بها زوجها ، فرمى انجاب الغشاء عن العين والقلب فأبصر الأعمى ورشد الغوى ! ولكن الفاجر علم بسفرها المفاجئ فطلب إجازة طويلة من الوزارة التي يعمل فيها وتبعها إلى مصيفها وهي وحدها توازن في هدوء العزلة بين ماضى الزوج الواضح ومستقبل الحبيب المبهم ، فأسقط من يدها الميزان ، وأيقظ في صدرها الحيوان ، وأفسدها على نفسها وعلى زوجها وعلى أهلها فساداً لا يرجي معه صلاح !

ثم امتدت يد القدر لتحل عقدة هذه الرواية ، فإذا الزوج وحيد يعاني غصص الألم ، والزوجة مطلقة تتجرّع مرارة الندم ، والشيطان الرجيم يقطع البحر عائداً إلى منصبه الكبير في وزارة . . . يشارك في أمور الدولة على هذا الخلق ، ويتصل بالأسر الخدوعة على هذا الوجه . . . !

الغاشي أنا تورك



ربما كان (كمال أتاتورك)
أضعف من (مصطفى كمال)
في الدلالة على نشور دولة في قائد،
ونبوغ أمة في رجل ، وبلوغ
حكومة في زعيم ، وتاريخ نهضة
في حياة فرد! فإن (مصطفى كمال)
اسم على كل أولئك جميعاً نقشته
في الآذان والأذهان الأقدارُ
المصرفة والعبقريّة الخلاقة في مدى
عشرين سنة! ولكن (أتاتورك)

لَقَبُ أَطْلَقُوهُ عَلَى النسر الحلق بعد ما قبض مخليه وطوى جناحه ، فلم يطر معه
في جو ، ولم يقع به على فريسة ، ولم يدل إلا دلالة الأبوة على الأسرة الطائفة
والألفة الجامعة والرعاية الحنون!

لم يكن مصطفى كمال — رحمه الله — رجلاً من رجال المصادفة والحظ ،
يرفعه إلى البطولة خلو الميدان ، ويدفعه إلى الزعامة غباء الأمة ؛ وإنما كان
من الصفوة المختارة الذين يضع الله فيهم الهداية للقطيع الذي يوشك أن يضل ،
والحيوية للشعب الذي يأبى أن يموت ... والغالب في هذا الصنف من الناس

أن يكون مستبداً برأيه، حاكماً بأمره، لأنه يظهر والقوم في ضلال أو انحلال، فيكون تفرده بالأمر تنبيهاً من الله وتوجيهاً من الطبيعة؛ ومن ثمَّ كان المضاء والفداء والإيثار والعدل من أخص صفاته...

جرت الطبيعة في تهيئة مصطفى كمال على منهاجها في تهيئة الأبطال، فولدته في مهد الفقر، وربته في مدارج القرية، وغسلته بأنداء الحقل، وسقته من عرق العمل، ففلح الأرض، ورعى الغنم، وتلقى من الطبيعة الصافية الحرة أخلاق البطل الذي رمى المنجل وأخذ السيف، وانصرف عن قيادة القطيع إلى قيادة الأمة تستطيع أن تقول: إن الوراثة المختلطة والنشأة القروية والبيئة المقدونية والأم الصالحة قد فعلت فعلها جميعاً في تكوين مصطفى كمال، ولكنك لا تستطيع أن ترد إلى عامل من هذه العوامل ذلك القلق الروحي الذي استولى عليه في جميع أطوار عمره فتركه ثائراً لا يهدأ وطامحاً لا يرضى ودائباً لا يستقر. إنما هو سر النبوغ يذيع، وقبس الإلهام يتقد، وفيض الحيوية يزخر؛ فهو راع قلق في المرعى، وطالب ثائر في المدرسة، وقائد متمرد في الجيش، وزعيم المسيطر في الحكومة.

رأى مصطفى طغيان عبد الحميد يخنق الحرية ويزهق النفوس ويرهق الضمائر. فقاومه وهو يافع في جماعة (الوطن)، وهاجمه وهو شاب في جمعية الاتحاد والترقي، وقضى على تراثه كله وهو كهل في المجلس الوطني الكبير، ثم كان في كل عمل تولاه يمضي مُضَيّ الأمر المقدور فلا يتقيد برؤسائه الألمان ولا بزملائه الأتراك إذا رأى الفوز في خطته أو الصواب في رأيه.

وعصفت الحرب الكبرى بغايوم وبوحيد الدين، ومزقت معاهدة (سِقر)

رقعة الأمبراطورية العثمانية بين الحلفاء ، فكان لكل حليف درة من تاج محمد الفاتح ، حتى لم يبق للخلافة إلا موضع العرش . ونزل الخليفة ووزرائه على حكم القادرين فاعترفوا بالضييم واستكانوا للمذلة . واعتقد الناس أن (الرجل المريض) قد لفظ نفسه فلا حس ولا حركة . ولكن الشعوب الحربية يتدخلها الانتخاب الطبيعي فلا تموت بالصيحة كما تموت الشعوب الوديعة ، فبقيت الروح التركية تضطرم وتغور في مصطفى كمال ورفاقه الميامين على شعاف الأناضول ، فجمعوا فلول الجيش المحطم وكروا به على اليونان فككبكبوهم في البحر ، وضعضوا غزائم الأحلاف فهادنوهم في (مودانيا) مهادنة النصر ، وعاهدوهم في (لوزان) معاهدة الاستقلال . وبُعثت تركيا من جديد على صرخة كمال وأنصاره كما يُبعث المقبور على نفخة الصور ، عارية من دنياها القديمة ، منقطعة عن ماضيها الغابر ، فاستبدلت الجمهورية بالخلافة والقبعة بالطربوش ، وفصلت بين الدنيا والدين ، وكتبت من الشمال إلى اليمين ، وأدارت ظهرها للشرق ، وسادت بين الرجل والمرأة في الحق ، وسجلت نفسها في عصبة الأمم من مواليد هذا القرن !

قالوا : إذا كان محمد من جهة البشرية معنى العرب ، فإن مصطفى كمال من هذه الجهة معنى الترك . ووجه الشبه في زعمهم أن أتاتورك أحيأ وجاهد وأصلح وشرع ، وأن مبادئه ستنطبع في العقلية التركية فلا تصدر إلا عنها ولا تسير إلا عليها . وقد فاتهم أن نهضة محمد يسدها قرآن ويسندها وحى ، وأن نوطتها في القلوب آتية من اقتناع العقل لا من شدة السلطان . وقد انتقل العرب على هدى قائدهم الأعلى من حال إلى حال لا يقاس ما بينهما من البعد والاختلاف بما بين حالى الترك ، ومع ذلك ظلوا في طريقهم الواضحة إلى الله

ثلاثة عشر قرناً ونصفاً لا ينكصون ولا يضلون . فليت شعري أيازل الترك
في طريقهم إلى الغرب بعد أن همد الصوت المهيّب وسقطت العصا المهددة ؟
إن الناس ليختلفون في الجواب عن هذا السؤال . ولعل كثرتهم يعتقدون
أن التغلب على العقائد المغروسة والتقاليد الموروثة والآثار الماثلة لا يتيسر في مثل
هذه المدة . ولكن المختلفين والمتفقين كلهم لسان واحد على أن كمال أتاتورك
أعظم من أنجبت تركيا شجاعة قلب وبراعة ذهن وأصاله رأى وطهارة يد
وسلامة ضمير .

تغمده الله برحمته ، وجعل ثوابه كفاءً لصدق جهاده وحسن نيته .

[١٤ نوفمبر سنة ١٩٣٨]



ليت للأوقاف عيناً !

ليت للأوقاف عيناً تخترق الجذَر وتشق الأستار فتري ماذا يصنع البؤس بأهله ! إنها وا أسفا تسمع ولا تبصر : تسمع ذلك البؤس الملحّ الوقح الذي يغضب ويصخب ويشور ، ثم يقتحم عليها الحجاب والأبواب ومعه فوق لسانه الملحف بطاقة من كبير أو وساطة من موظف . وهذا البؤس الذي يدع لأهله قوة السعى وبراعة الحيلة لا يكون في أكثر حالاته إلا طمعاً أو حرفة . أما ذلك البؤس الدفين الصامت الذي يستعين على ضحاياه بكبرياء نفوسهم فيسلبهم الحس والحركة ، ويمنعهم الأنين والشكوى ، فلا يراه إلا الله الذي فرض الزكاة وأوجب الرحمة ، وجعل على عباده خليفة منهم ينطق بلسانه ، ويرى بعينه ، ويحكم بأمره .

إن في بعض الدور ومن وراء الستور ظلالاً من الحياة الغاربة على أمثال الخيال من بنى آدم ؛ تنسم أنفاسهم الضعيفة بما بقي من أرواحهم الخافتة في إسلام مؤمن واستسلام صابر . فإذا كشفتهم الحاجة للعيون حسبهم الجاهل أقوياء من الصبر ، أغنياء من التجميل ، حتى يستوفوا أجلهم المكتوب فتذهب بهم المنون وهم في وحدة الفقر ، كما تذهب شمس الصحارى بأنداء الفجر

كان لنا جارٌّ مدرس في مدرسة شبرا الثانوية يجثم تحت جناحيه أربع بنات وثلاثة بنين وزوجة وأم ، يقلبهم على ما يشتهون من لذات العيش الغرير ، فيأكلون أكل السرف ، ويلبسون لباس الترف ، ويلهون لهو المجانة ، حتى كانت

عُرِفَ البيت من فيض النعيم ومرح العافية كأعشاش البلابل سالمتهما الأحداث
 في جنة من الحب والماء والشجر . ثم لحظتهم عين الدهر فأصيب الأب بمرض
 السكر ؛ وعقر إصبعه الحذاء ذات يوم فأصابته قرحة ساعية^(١) . نقلوه إلى المستشفى
 القبطى فبتر الجراح رجله . وسعت عليه زوجه بالمال والأمل فلم تستطع أن ترد
 قضاء الله ولا أن تدفع عادى الموت ... وانقلب المنزل الفرح المرح النشوان قبراً
 رهيباً يغشاه الحزن ويجلله السواد وتخيم عليه الوحشة . فلا زوار يقدّمون
 بالهدايا ، ولا سمار يفدون بالأنس ، ولا ولائم تشرق فيها النفوس والكؤوس
 كل جمعة

وبحثت الزوجة عما خلف الزوج الراحل فلم تجد غير ذلك المال الذى كان
 تحت يدها وقد أنفقته كله فى العلاج والجنائز . ونجمت حول بيتها الحزين
 رءوس الدائنين تندلع ألسنتها بالمطالبة الفاضحة . ففزعت إلى وزارة المعارف تسألها
 أن تسرع فى أداء ما لزوجها من الحق ، فأعطتها بعد لآى مكافأته على السنين
 السبع التى قضاه فى مدارسها . فقد كان من قبل مدرساً بأحد مجالس المديرىات ،
 فلم يجتمع له الزمن القانونى لاستحقاق ورثته جزءاً من المال على سبيل المعاش .
 وذهب الغرماء بالمكافأة ، وبقيت الزوجة وحماتها وبنوها السبعة فى غشية الهم
 وصدمة الواقع ، يتلمسون نفساً من الكرب أو شعاعاً من الرجاء يطالعهم من قريب
 أو صديق فلم ينالوا . وتذكرت الأيم المسكينه أن زوجها كان يعلم ابن وزير
 الزراعة فلاذت به تسأله أن يساعدوا بجأه على تربية أولادها فى مدارس
 الوزارة ، فتخلص منها بخمسة جنيهات ثم أغلق من دونها بابه

(١) القرحة الساعية : هى التى تمتد من موضع إلى موضع وهى خلاف الواقعة

كان بين الزوجين مائة قرابة . وكانت أسرتهما من الأسر الريفية التي ألوى بها الدهر المديد فلم يبق منها إلا عجائز وأيامي يعيشن على معونة الأستاذ الفقيد، وإلا موظف صعلوك في شركة سنجر لم تره الأرملة إلا يوم الجنازة . وقد حملها هذا الموظف بغروره على أن تنفق خمسين جنهماً على ليلة المأتم ، لأن أقطاب التعليم وأعيان الأدب الذين سيتفضلون بالتغزية لا ينبغي أن يمشوا إلا على الطنافس الفارسية ولا أن يجلسوا إلا على الكراسي الذهبية !

وكان للفتاة الكبرى خاطب غنى من أصحاب أبيها ، فلما وقف على حال الأسرة بعد كاسبها انقطع خبره فكأنما غاب معه في قبر واحد ! وعجزت الأم عن دفع المصروفات المدرسية لبنيتها وبناتها ، فظلوا حولها في البيت يندبون الميت ويبكون الحى ويسدلون على مأساتهم الفاجعة ستاراً من الصمت والعزلة حذر الشامت ، فما كان باهم ينفث إلا لتجار الأثاث القديم يخرجون منه بصفقة بعد صفقة من الفرش أو المتاع .

ولبثوا على هذه الحال ستة أشهر لم يدفعوا عنها شيئاً من كراء المسكن للحاج محمود ، حتى أدركته عليهم شفقة المؤمن ، فنزل لهم عن الدين ونقلهم إلى غرفتين على سطح من سطوح منازل الكثر يسكنونهما من غير أجر . وتركنا حى شبراً منذ خمس سنين فلم نعد نعلم من حال هذه الأسرة المنكوبة شيئاً .

وفي صباح أمس الأول كنت في ميدان باب الحديد ، فتقدم إليّ صبي من باعة الصحف يميني وهو يتسم . فتفرسته فإذا هو إبراهيم أوسط الإخوة الثلاثة ! فصحت به مستطار القلب من دهشة المفاجأة :

— ماذا فعل الله بكم يا مسكين ؟

— مرضت أمى بالروماتزم فلا تهض ، وعميت جدتى من الحزن فلا تسعى ،
وتزوجت أختى الكبرى من أحد السعاة فلم تصبر على عشرته غير ثمانية شهور
فهى تخطط بالأجرة ، وأختى الوسطى تدبر المنزل ، وأختاى فلانة وفلانة تخدمان ،
وأخواى فلان وفلان يعملان : أحدهما صبي كواء والآخر خادم بقال ، وأنا
كما ترى . وكل ما نكسبه جميعاً فى اليوم لا يتجاوز ثمن الخبز !

ألا ليت شعرى هل تقيم الحكومة فى عهد الفاروق الصالح المصلح الركن
الخامس من الدين وهو الزكاة ، فتتحقق به أخوة الإسلام ، وتنجلي عن الناس
هذه الآثام والآلام ؟

[٥ ديسمبر سنة ١٩٣٨]



بَلِّغْ لِلْأَوْقَافِ قَلْبًا !

ذلك ما ابتدرني به رجل يهدف للخمسين : أشمط الرأس أصهب الشارب
جر كسى البشرة ، يترجم كلامه عن العزة ، وينم هندامه على الفاقة ، ويشير سَمْتُهُ
إلى مسحة من الأرستقراطية تتراءى ضئيلة على معارف وجهه وحركات يده
دخل على المكتب أول أمس في أدب كأدب البيوتات الكريمة الدارسة :
سلام تحس فيه تواضع المملوك وكبرياء الملك ، وبسمة متملقة تجرى على شفتيه
الرقيقتين كأنها من طَبْعِيَّتِهَا خِلْقَةٌ ، وأسلوب هذبته (الإتيكيت) فهو مختار
اللهظ موزون الإشارة . ثم شكرلى المقال الذى افتتحت به عدد الرسالة الماضى وقال :
إذا كان طلاب الأوقاف الخيرية يتمنون أن تكون للوزارة عين ، فإن طلاب
الأوقاف الأهلية يتمنون أن يكون لها قلب . أولئك يشكون أنهم يبأسون
من وراء عينها فلا ترى ، وهؤلاء يشكون أنهم يشقون بين يديها ولا ترحم !
وما دام المستحقون لا ينالون نصيبهم من الحق ، فكيف ترجو أن ينال المعتفون
نصيبهم من الخير ؟

كان الرجل يتكلم كلام الشاكي الكظيم يهمله أن يقول ولا يهمله أن يسمع .
فتركته يستريح إلى بما فى نفسه ، لا أعترض عليه ولا أصحح له ، فإن على أن أبلغ
مسامع أولى الأمر زفرات الصدور المكروبة ، وعليهم هم أن ينظروا إن كان
مبعثها خطأ النفس على النفس ، أو خطأ الناس على الناس
قال محدثى وهو يضع سيكارته الملفوفة باليد فى مبسم طويل من الآبُنُوس :

— إذا عذرنا وزارة الأوقاف على أنها لا تسعف أولئك المنكوبين الذين انفرد بهم البؤس في ظلام الدور ، ومنعتهم الأنفة عن الخروج إلى النور ، فكيف نعذرنا على أنها تدخل البؤس بيدها على قوم جعلهم أهلهم في ذمتها وأمانها ، تحفظ لهم الملك وتثمره ، وتبسط عليهم الرزق وتوفره ؟ أنا ضحية من ضحايا الأوقاف الأهلية ، اعتمدتُ منها على جُرْف منهار فهويت إلى قرارة الفاقة . لم أتهيأ للعمل الحكومي بشهادة ، ولا للعمل الحر بصناعة ؛ وإنما نشأت في بيت جدى فلان باشا نشأة المترفين المدللين ، أجيد ركوب الخيل ، وأحذق أنواع الصيد ، وأساهم في تجميل حياة القاهرة بالسرف في الملاهي ، والقصف في البيوت ، والمقامرة في السباق ، والافتنان في المظهر . وكان أبى رحمه الله ناظراً على ما وقف جدى على أسرتنا الكبيرة المتشعبة من الضياع والرابع ، فكان يغرق رغباتى في فيض من المال لا يغيض ولا يُخلف . فلما توفاه الله آلت النظارة من بعده إلى أرشد أعمامى فانتقبض عني شيء من بسطة العيش . وكان لى بنون وبنات نشأوا في نعمة أبى كما ينشأ النبات الربيعي^(١) في خصب الأرض ، فلم أرد أن يمس نضرتهم ذلك الضيق الذى جره علينا طمع الناظر ؛ فبعت ما ورثت عن أبى وعشت سنين على الخفض والسعة . حتى إذا لم يبق إلا الوقف أخذت أرؤوس نفسى وأهلى على التدبير فاخترت المسكن واختزلت الأثاث وضيق المطبخ^(٢) ، ورضيت أن أركب (التكبسى) وأن أجلس في (النيوبار) وليت ذلك يا سيدى دام ! فإن كبار المستحقين شغبوا على الناظر فعزلوه ، وتألّبوا على خلفه فشلوه ، واستحكم بينهم الشقاق فلم يتفقوا على ناظر منهم . ثم لم تنقطع أسباب هذا الخلاف ، إلا « بتنظير » وزارة الأوقاف !

(١) الربيعى : ما ينتج من الحيوان أو ينبت من النبات في زمن الربيع .

(٢) كناية عن قلة البذل في الطعام

كان لجوء المستحقين إلى تنظير الوزارة كلجوء القطين المتنازعين على قطعة الجبن إلى تحكيم القرد ، فلم يبق لهم على الأعيان الموقوفة يد ولا عين . وأدارتها الوزارة على المنهج الحكومى فأرهقتها بالكتاب والنظار والمفتشين والمراقبين والخبراء ؛ ولكل واحد من هؤلاء طريقة فى العمل ورأى فى الإصلاح يتغيران بتغييره . فالبناء الذى أُقيم يُهدم ، والمصرف الذى حُفِر يُردم ؛ ثم يُستأنف البناء والحفر فى مكانين آخرين ! وهكذا دواليك : يتعاورُ البناء والتخريب ، ويتعاقب الاقتراح والتجريب ، حتى تذهب غلة الأرض بين نفقة الإدارة وحصة الوزارة ! تلك حال الأرض ؛ وأما الدور فهى قصور فسيحة ذات أسوار وحدائق رغب الناس عن سكناها لمخالفة طرازها لمقتضيات المدنية الحديثة . وأغفلتها الوزارة فلم تفكر فى تجديدِها واستغلالها ، ولا فى بيعها واستبدالها ، وإنما تركتها لمول الزمان فلا توجرها إلا مخازن للتجارة وزرائب للحيوان ومساكن للفعلة !

كان دخلى على عهد الناظر الطاع ستمائة جنيه فى العام ، فأصبح على عهد الوزارة شيئاً لا أسميه ! فهو سنة يكون ستين ، وسنة يكون ستة ، وسنة يكون مطالاً ، وسنة يكون ديناً ! وأنا وزوجتي وأولادى نكابد غصص الحرمان فى ركن رطيب من إحدى دورنا الخربة . فالبنون لا يجدون عملاً لمكانهم من الجهل ، والبنات لا يجدن أزواجاً لمكانى من الفقر ، ولا نقضى أيماننا السود إلا على اقتراض من القصاب والبذال والعياش والقماش ، حتى ضاق بنا العيش وعافنا الوجود وأصبحنا إذا دخلنا أقضنا الهم ، وإذا خرجنا أمضنا الحجل ...

ياسيدى ! إن الوقف الأهلئ إن حفظ العين فقد أضاع الزرع ؛ وليس لهذه الغاية الحقاء وقف الواقفون . فسبيل الإصلاح فى عهد الصلاح أن يُحَل ؛ فإن المرء أدرى بشأنه وأعلم بخيره ، وليس من يعمل لنفسه كمن يعمل لغيره ...

يا انسان . أين الاحسان ؟

ما أطول أحاديث البؤس وأكثر حوادث أهله !

كان للمقالين الذين كتبناهما في غفوة الإحسان عن مرثجيه ، وقسوة الوقف على مستحققيه ، رجّع شديد في أكثر النفوس . فقد غدا علينا البريد بعشرات من الرسائل الباكية كأنما كتبت بدموع العيون ودماء القلوب ، فلا تدرى أهى كلمات أم أناات ! ولو شئت أن أنقل إليك بعض ما فيها لدهشت أن يكون في مصر — وهى البلد الذى يجرى نيله بماء الحياة ، ويفيض ثراه بطيبات الرزق — خلّق من بنى آدم يدمنون الصيام من الجوع ، ويلبسون الظلام من العرى ، وتصبح أمانيتهم على الله أن ينقذهم من الحياة بالموت !

هاك حالة واحدة من ألوف : روى الشيخ عبد الغنى فى رسالته الضافية ما ألخصه لك فى هذه الأسطر :

طرايشى فى حى من أحياء القاهرة كان يعيش من فضل الله وربح الحرفة فى نعمة سابغة . كان رخب الدكان والصدر ، يجلس عنده سراة الحى فيتحدثون ويتنادرون ويفضى بعضهم إلى بعض بأسرار البيوت وأخبار الصحف ، والمكاوى لا تنقطع عن الكى ، والعمال لا يفترون عن البيع . وكان رخی البيت والأسرة ، يغشى فناء السهل ذوو القربى وأولو الحاجة : يتقبلون فى أعطافه ، وينالون من أطفاه ، ويستريحون إلى ظله . فلما تعود الناس قلة النفقات من كثرة الأزمات ، ووفدت على مصر من وراء البحر بدعة العرى ، فتعرت أرجل النساء من الجوارب ، ورؤوس الرجال من الطرايش ، أخذت نار الطرايش تنطفئ

وحرركته تسكن ومورده يفيض ؛ وأخذ الغرماء مجالس الحرفاء^(١) ، وزاد عدد المحصرين على عدد المشتريين ، فكان الرجل يفتح دكانه يوماً ويغلقه أسبوعاً ، حتى فدحه الدين وأعيته الحيلة فباع الملك ، وركبه الهم والمرض فلزم البيت . وتفجرت عليه المصائب من كل جانب فمات ولده الوحيد وكان في السنة الثالثة من كلية الطب ، وتوفي أخوه البار وكان موظفاً في إدارة القرعة ، وتأملت أخته الفقيرة الولود فلاذت بحماه . ووجد الداء في جسمه الواهن المنحل مجالاً فاستشري ، ورأف الله به أن يعاني الألم في نفسه وفي أهله طويلاً فتوفاه . وبقيت بعده زوجته المقطوعة وأخته الأرملة وابنتاه العانستان ، يعيشن على خمسين قرشاً في الشهر ! أتدري من أين تأتيهن هذه الخمسون قرشاً ؟ تأتي من أجرة الدكان ؛ فقد استأجر الصانع الذي كان يعمل فيه على عهد الرجل آلاته وأدواته وأثاثه بمائة قرش ، فكن يعطين وزارة الأوقاف منها ثمانين كراء الحل حتى سعى لمن أهل الخير لديها فجعلته خمسين .

ويتساءل الناس بعد ذلك : كيف يعيش هؤلاء النسوة الأربع على هذا النزر اليسير من الرزق فلا يستطيع أحد أن يجيب ، لأنهن أغلقن على أنفسهن وعلى نؤسهن غرفة من غرف الغسل في بيت متهدم من بيوت (زين العابدين) فلا يدخل عليهن إلا جارة برغيف أو خادمة بصحن ... !

فليت شعري أتنفع الفتاتان كما قنعت المرأتان بهذا العيش ، أم تحملان آخر الأمر على ركوب الغواية والطيش ؟

ذلك سؤال كان ينبغي أن يوجه إلى وزارة الأوقاف وأغنياء الأمة . ولكن وزارة الأوقاف ليست بيت المال الذي كان يقوم عليه عمر ، والأغنياء في مصر كلما أنعم الله جيوبهم بالمال أفرغ جنوبهم من الرحمة ؛ فأموالهم للأحزاب والانتخاب ، وعواطفهم للخيل والكلاب ، وديناهم للغرور والأبهة . فلم يبق

(١) حريف الرجل : معاملته في حرفته « الزبون » .

لطرأئء الشقاء وفرائس الفاقة غير الله ؛ والله فى أموال هؤلاء القساء حق معلوم هو الزكاة ؛ والزكاة ركن من أركان الإسلام كالشهادتين والصلاة ؛ والإسلام يعيد اليوم فى عهد الفاروق زمانه وسلطانه ، فالأمرء والوزراء يصلون ، والمترفون والمتقفون يحجون ، والدين والمدنية يتعاونان على تنزيه النفس وترفيه العيش وتأمين الحياة . فلماذا يظن هذا الركن مهدوماً وهو وحده العماد القوى لبناء الأمة ، والطبأب الناجع لأءواء المجتمع ؟ لقد فرضت الحكومة على الأموال الثابتة والمنقولة ضرائب العمارة والدفاع والأمن ، وجبأها على الطوع والكراه ؛ فما بالها وهى الحكومة الإسلامية القوية لا تجمع بوسائلها الإدارية ما جعل الله للفقرأء فى أموال الأغنياء ، ثم تقسمها على من سماهم الله فى كتابه ، فتأمن بذلك ثورة النفوس واضطراب الأمن وسخط العدالة ؟

إنها إن تفعل ذلك تُرض نفوس العامة ، وفى رضا هؤلاء تكثير النسل وتوفير الإنتاج وتيسير المعيشة . ولن تجد فى جباية الزكاة ما تجد فى جباية الخراج من امتعاض أو اعتراض أو مشقة ، فإن البذل فى سبيل الله ربا المؤمن . ومليوناً جنيه من الصدقات يدخلان بيت المال فى كل سنة مع الأمانة والعدل ، لا يتركان فى الأمة سائلاً فى شارع ولا جائعاً فى بيت ولا جاهلاً فى عمل . وكلما استبحر العمران واستذاب الناس واستشرت المطامع ، تبين أقطاب الرأى وأصحاب الأمر أن الله الذى جعل الفساد فى الدنيا جعل الصلاح فى الدين . فما من علة فى الفرد ولا آفة فى الجماعة ، إلا نبأ إليها بنوره ، وطبأ لها فى شرعه ، وخفف منها بلطفه . فهل تفكر حكومة الفاروق خليفة الله على وحيه ، فى إقامة الدين على وجهه فتهداً ضلوع وتجبف دموع ، ويتذوق الناس فى ظلال الأخاء ، سعادة الأرض ونعيم السماء ؟

نُظَيْمُ الْإِحْسَانِ

الإحسان في مصر — وإن شئت قلت في بلاد الإسلام — فوضى .
وإذا كان للفوضى نظام فهو في فوضى الإحسان أن ينال المستطيع ويدرك السريع
ويظفر المُلح . والبؤس يسلب المنّة ويعقل القدم فلا يغشى مساقط الندى ومهابط
الرحمة إلا من اتخذ الفقر تجارة والتكفف حرفة . أما الذين وارا هم التعفف وأقعدهم
العجز ، فهم يتضاغون من السغوب وراء الحجب ، فلا تبصرهم عين ولا تسمعهم
أذن . والناس من هؤلاء العاجزين المتعفين ، وأولئك القادرين المتكفين ،
في مأساة تبكي وملهاة تضحك !

دخل علينا القهوة ذات مساء فتى ريانُ الجسم بالشباب والصحة ؛ على رأسه
طربوش ، وحول عنقه كوفية ، وفي يده خيزرانة . خيا بأدب وضراعة ،
ثم أخذ يسترحم القلوب ويستندى الأكف بأسلوب يخبل العقل النير ويختل
الطبع الحريص . وكان خطابه التمثيلي المؤثر يدور على عزته التي لا تألف الهون ،
وأمرته التي لا تصيب الدُّون ، وكفايته التي لا تجد العمل . . . فأعطاه بعض
من في المجلس ، ثم استدناه صديق من أهل الثراء وأرباب الضياع وقال له :

— لم لا تطلب العيش من طريق أخلق بالرجولة وأليق بالكرامة ؟

— طلبتُ العمل يا سيدي في كل مكان فلم أجده

— أتعلم العمل عندى في المزرعة ؟

فبدا على الفتى شئ من التردد والحرص لأنه أحس الجد في لهجة الرجل ،
ولكنه سأل :

— وماذا يعطينى البك إذا قبلت ؟

— ثلاثة جنيهات بعد طعامك وكسوتك

فابتسم الفتى ابتسامة فيها معان شتى من الدهش والعجب والتهكم ، وقال
وهو يدينى فمه من أذنه كأنما يريد أن يسارّه :

يا سيدى ، إنى أسأل فى اليوم الواحد ألفاً على الأقل ممن أتوسم فيهم رقة
القلب وكرم المهزّة ؛ فإذا أعطانى مائة وردنى تسعة تجمّع لى من ذلك فى الشهر
خمسة عشر جنيهاً على التقدير الأقل ، أصيبها وأنا فى القاهرة أتقلب بين مطاعمها
ومقاهيها ، وأتمتع بمناعمها وملاهيها . فكيف تريدنى على أن أقبل ثلاثة جنيهات
فى الريف على عمل قدر متعب بين الأجلاف والبهائم ؟

أرأيت ؟ خمسة عشر جنيهاً يجيبها من الأغرار هذا المتبطل المتعطل وينفقها
فى الخمر والقمر والحشيش ، ومئات من الأسر الكريمة تكابد عبث الأقدار
أو خطأ الأغيار فلا تجد مواسيا فى معروف الأحياء ولا فى موقوف الموتى !
وخمسة عشر ألف فدان يقتنيها ذلك الغنى الشره ينفق ريعها الفياض على
وساوس غيه وهو اجس أحلامه ، ومن حوله ألوف وألوف لا يدرون من طول
الحرمان لماذا شق الله لهم هذه الأفواه وجوّف فيهم هذه الأبطن !

هذا البليد الملحف ، وذلك الجمّاع الطماع ، هما اللذان أكلتا نصيب العاجز
من رزق الله ! فلو أن السائل المحترف ترك نفحات الأيدى للفقير ، ولو أن الغنى المنهوم
عف عن فضول الرزق للعاجز ، لما رأيت عليها رجلاً يشرق بالدموع بجانب

آخر يشرق بالشمبانيا ! ولكن النفس البشرية تؤثر الجانب الأيسر من المعيش ، وتطلب النصيب الأوفر من المتاع ، فلا بد من سلطان يقيم المعدلة بين الساعى بقوته والقاعد لضعفه . ومن ثم جعل الإسلام تنظيم العلاقة بين الغنى والفقير ركناً من أركانه الخمسة ، يصلح به وبالحج أمر الجماعة ، كما يصلح بالصلاة والصيام أمر الفرد . وكان هذا الركن الإسلامى الركين عسيماً بعناية أولى الأمر يجعلون له (مصلحة) أو (وزارة) تأخذ من أموال الناس صدقة تزكى النفوس من حقد الفاقد على الواجد ، وتطهر المجتمع من بغى طبقة على طبقة . ولكن الأمم الإسلامية الحديثة توزعتها الجهالة والمذلة ، فحسبت أن دستور القرآن لا يأتلف مع المدنية الغالبة ؛ فتركت شريعة الله إلى شريعة نابليون ، وهجرت سياسة الرسول إلى سياسة كارل ماركس ، فلم يكن بد من قسوة الأكباد لجفاف القانون ، ومن ثورة الأطماع لشدة التنافس . وليست الرهبانية من نظم الإسلام حتى تقوم الراهبات بما لم تقم به الحكومات من جمع الزكوات وتوزيعها على صرعى الفاقة وأسرى المرض ، فكان ما لا حيلة فى اتقائه من فوضى الإحسان ، فخبس عن غير أهله ، وحل فى غير محله ، وذهب كله للمتشردين فى الطرق والمحতالين فى البيوت والمتبطلين فى المساجد !

إن فريضة الزكاة فى الإسلام هى الفرق بين الدين والقانون ، وبين الشرق والغرب ، وبين الإنسان الذى يعيش بالروح والإنسان الذى يعيش بالآلة . فمن المحتوم على دولة تطمح إلى الخلافة أن تلزم بالزكاة الناس لتكون حكومتها للشعب كله . وإلا فما جدای أن أقول إن لى دولة دستورها للمساواة وقانونها العدل ،

ووطناً ثراه الذهب وماؤه الكوثر ، وأنا محروم لا أنتفع بخير الحياة ، ومهضوم
لا أتمتع بحقوق الحى ؟

إما أن تقولوا إن من عجز عن واجب السعى نزل عن حق الوجود ،
وإما أن تنصفوا بعض الناس من بعض فيشعروا أنهم عباد لإله واحد ورعايا
ملك واحد . أمّا أن تتعدد الآلهة فيكون لكل أرض إله وهو المالك ، وتتنوع
الملوك فيكون لكل عمل ملك وهو الممول ، فذلك ما لا يطيب به عيش
ولا يصلح عليه أمر

إفرضوا الإحسان كما فرضه الله ، ونظموه كما نظمته الشريعة ، واجبوه
كما جباه الراشدون ، ووزعوه كما وزعه القرآن ، تضمنوا للفقير سكون الجوف ،
وللغنى زوال الخوف ، وللأمة بأسرها السلام والوثام والمحبة .

[٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٨]



فنون وجنون ...

[إلى الآنسة « أ . ش . ف »]

نعم يا آنستي العزيزة ! لشدّ ما لاع القلب وراع الضمير ما قصصتُ من مآسي الحياة ! ولا يزال في خبايا الغيوب وطوايا الحجب ما هو أَمْضُ لوعة وأشدّ روعة وعدتني أن تقصّي على أبناء من تعرفين من طرائد البؤس وأنضاء الهم ، وأنا أقص عليك هذه القصة ريثما تنجزين هذا الوعد :

في المنصورة بلد المال والجمال والشعر كانت تعيش أسرة من أسر الريف الغنية السريّة عيش اللهو والزهو والمرح . وكانت قبل ذلك تعيش في مزارعها الواسعة في قرى مركز « شرين » تستغل أراضيها الخصبّة استغلال الدّؤب اليقظ ؛ حتى أبطرها الغنى فرأت طرق الحقول التّربة لا تلائم المركبة الفخمة ، والبيت القروي العتيق لا يوائم الأثاث الأنيق ، والقرية كلها لا تصلح مجالاً للعظمة ولا مجتلى للشهرة . فتركت ضياعها وزروعها في ذمة النّظار والحوّل^(١) ، وأسامت قيادها للبدخ والسرف : ترتبع بالمنصورة ، وتصطف بالالإسكندرية ، وتشتى بالقاهرة . وتظاهر على رب هذه الأسرة الجهل والطيش والفراغ والغنى والعُجب ، فقلبته بين الحانات والمواخير قفّاً لوجه حتى ركبه الدين والمرض ؛ فباع الأرض لبنك « خوريمى » ، والصحة لبار « أنسطاسى » . وكبر عليه أن يعود إلى قريته ذليلاً بعد العز ، فقيراً بعد الغنى ، فظل في المدينة ولكن في بيت غير البيت ومظهر غير المظهر . . .

(١) الحول : جمع خولى بالفتح وهو الراعى الحسن القيام على المال

تتألف هذه الأسرة من الوالدين ومن ست بنات وابن واحد . وفي هذا الصبي الواحد انحصر مستقبلها وأملها ، فأرصدت ما بقى للأم من موروث الرزق على تربيته وتعليمه . فلعله يكون كابن فلان باشا : ينال (الليسانس) ، ويعين وكيلاً للنيابة فقاضياً فمستشاراً فوكيلاً للوزارة . ويومئذ يرجع المال الذاهب ، ويعود المجد المضاع ، وتندم الشماتة الحاقدة . وكان الفتى نحيل البدن كادى الشباب^(١) ولكنه في مدرسته كان ذكياً مجداً فلم يتخلف في سنة ولم يرسب في شهادة ، حتى نال إجازة الحقوق . وكان في مدة دراسته الطويلة شغل الأسرة الشاغل : فالوالدان همهما تدير المال له وتوفير الصحة عليه ، والبنات الست عملهن غسل ثيابه وكى بذله وتصفيف شعره وتهيئة أكله وتهذئة نومه . وإذا فاتهن اليوم أن يأكلن الهنىء ويلبسن الناعم ويجلون حسنهن للأتراب والخطاب في شارع البحر بالمنصورة ، فسيعوضهن الله غداً بفضل أخيهن الموظف خيراً من كل أولئك في القاهرة .

وكانت الأم تبيع في كل سنة من رِبي دراسة ولدها فداناً من أرضها ، تنفق نصفه على المدرسة ونصفه على البيت ؛ حتى خرج هو من كلية « حقوقه » ، وخرجت هي من كل حقوقها .

أصبحت الأسرة الفقيرة مُعذمة : فلا في الأرض ولا في البيت ولا في اليد . فهي تعيش على ما يبقى من مرتب أملها وكاسبها « فؤاد » ، فقد وظف في وزارة الداخلية بأحد مراكز طنطا وعاش وحده . وظل الأبوان الشيخان والبنات النواهد في المنصورة على ضيق وقلق ينتظرون اتساع الرزق وامتداد الجاه فيجتمع الشمل ويرفه العيش

(١) كادى الشباب : بطئته ، من قوله : كدا الزرع : ساءت نبتته .

أتدريين يا آنستى بماذا أجاب القدر دعاء هذه الأسرة ، وعمّ أسفر الأمل
فى هذا الولد ؟

كان فؤاد رقيق البدن والشعور والعقل ، فأغرم بالأدب وفنّ بالجمال
وكلف بالزّواء. وحياة الأقاليم لا تقضى حاجة النفس النزاعة الرغيبية من كل أولئك.
فكان فى مكان عمله بالنهار ، وفى مجالى القاهرة بالليل ، حتى افتتن بمطربة
معروفة ، فاضطرب أمره وانتكس حاله .

كان فؤاد عُدْرى الهوى ، لأنّ حياءه أقوى من طموحه ، وشاعريته أشد
من شهوته . وهو إلى ذلك فقير ، ومعبودته من ذوات الثراء والجد ، فلا يدخل
قصرها إلا غنى أو فنّان أو مهرّج . فكان يقنع بالجلوس أمام تحتها إذا غنت ،
وبالطواف حول بيتها إذا استراحت ، حتى خبله العشق وأضناه السهر . وبان أثر
ذلك فى عمله ، فغاب طويلاً عن مكتبه ، وأخطأ كثيراً فى تصرفه ، واختلف
دائماً مع رئيسه ؛ فانتهى الأمر بفصله وهو لا يزال فى عهد التجربة !

لم يشعر فؤاد بهذه الصدمة الصاعقة كما شعر بها أهله ؛ فإنّ حياته كانت
فى الحب ، وحياة أهله كانت فى الوظيفة . فلما انجلت غشاوة الهوى قليلاً عن عينيه
رأى نفسه خالياً من العمل والأمل ، يزجى فراغه الثقيل الذليل بالهيام فى الطرقات ،
والنظر فى (القترينات) ، والاختلاف إلى (الصالات) ، والوقوف بباب تلك
المطربة أكثر النهار والليل ، يحادث الخدم ويرقب الزوّار ويرصد السيارة
الحبيبة حين تذهب وحين تؤوب .

وأسرع إليه أبوه على كبره ووهنه يستكشف سر النكبة ويعالج مقطوع
الرجاء ، فوجده نفساً يتهاف فى جسد ضارع وهيئة زرية . فما زال يتلطف به

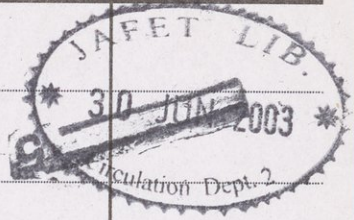
ويهاويه حتى كشفه عن أمره . وعاد به إلى الأسرة المفجوعة في ولدها الوحيد ،
وأملها الفرد ، وملجئها الأخير ، وشرفها الباقي ...

ليس في طاقتي يا آنستي أن أقص عليك خاتمة هذه المأساة . ولو كان
وصفها في إمكانى ، لما كان استماعه في إمكانك . فإني أعرف رقة قلبك ووهن
جلدك في مثل هذه الحال .. وليس من العسير على فطنتك استنتاج ما حدث .
فالتقي من تباريح الجوى أصيب بالسل فمزق رئتيه وشق جسمه ، فهو في السرير
عظم هامد ينتظر النهاية المحتومة . والأم من هول النكبة أخذها الفالج ، فهي
سطيحة على الفراش لا تَمُرُّ ولا تُحَلِي . والأب من فقد الرجاء اعتراه الخبال
فمات قتيلاً في حادث محزن . والبنات ؟ البنات بقين بعد الخبول والمسلول مع الأم
الكسيحة لا كاسب ولا خاطب . فتصوري يا آنستي كيف يعشن ! لو كان
للإسلام أديرة صوفية لدخلن في حِمى الدين ؛ ولو كان للحكومة مدارس خيرية
لاعتصمن بقوة العلم ؛ ولو كان للأوقاف ملاجئ نسوية لعشن في ظلال الخير .
ولكنهن يا آنستي يعشن العيش الكريه الضنك على فضلات الأقارب الأبعد .
ومثل هذا العيش لا يثبت عليه إيمان ولا أمان ! والبيت البائس إذا لم يدخله
المَلَك دخله الشيطان !

[٩ يناير سنة ١٩٣٩]



DATE DUE



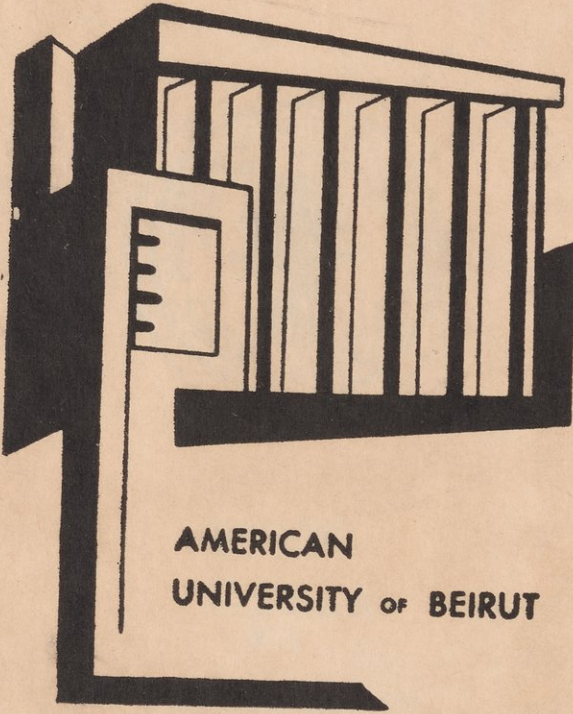
892.74:Z91A v. 1

الزيات، احمد حسن
وحي الرسالة: فصول في الادب والنقد

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01041445



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

